تفسير القرآن

للإمام العلامة شيخ الإسلام حجة أهل السنة والجماعة

أبي المظفر السمعاني

منصور بن محمد بن عبد الجبار التميمي المروزي الشافعي السلفي

(٤٢٦ - ٤٨٩)

المجلد الأول

من الفاتحة إلى النساء

تحقيق

أبي تميم ياسر بن إبراهيم

دار الوطن

الرياض - شارع المعذر - ص.ب: ٣٣١٠

☎ ٤٧٩٢٠٤٢ - فاكس: ٤٧٦٤٦٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

دار الوطن للنشر ـ الرياض

هاتف : ٤٧٩٢٠٤٢ ـ فاكس : ٤٧٦٤٦٥٩ ـ ص.ب : ٣٣١٠ الرمز البريدي : ١١٤٧١

قال ابن السمعاني :

هو إمام عصره بلا مدافعة ، وعديم النظير في فنه ، ولا أقدر على أن أصف بعض مناقبه ، وصنف التفسير الحسن المليح الذى استحسنه كل من طالعه .

وقال الذهبي:

الإمام العلامة مفتى خراسان شيخ الشافعية ، تعصب لأهل الحديث والسنة والجماعة ، وكان شوكًا فى أعين المخالفين ، وحجة لأهل السنة .

وقال السبكي:

الإمام الجليل ، العلم الزاهد الورع ، أحد أئمة الدنيا، الرفيع القدر، العظيم المحل، المشهور الذكر، أحدُ من طبق الأرض ذكرهُ، وعبق الكون نشرهُ .

وقال عبد الغافر:

هو وحيد عصرِهِ فى وقتِه فضلا ، وطريقةً ، وزهدًا ، وورعًا .

وقال ابن العماد:

وله تفسير جيد حسن

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد .....

فإن أعظم ما تصرف فيه الأوقات، وينشغل به أهل الهمم العاليات هو القرآن العظيم؛ لأنه كلام الله الدال عليه لمن أراد معرفته، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونوره المبين الذى أشرقت له الظلمات، ورحمته المهداة التى بها صلاح المخلوقات، وهو الصراط المستقيم الذى لا تميل به الأراء، والذكر الحكيم الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء.

وقد تجلى الله تعالى فيه لعباده بصفات الكمال، ونعوت الجلال، فعرفوا أنه منزه عن المثال، وبرىء من النقائص والعيوب، له كل اسم حسن وكل صفة كمال، وعرفوا أنه أرحم الراحمين، وأقدر القادرين، وأحكم الحاكمين، وأنه الرزاق ذو القوة المتين. وأن له العزة جميعًا والقوة جميعًا، والجود كله، والإحسان كله، والعلم كله، وأنه فعّال لما يريد وقد أنزل الله كتابه ليعرِّف عباده به، وبصراطه الموصل إليه، وبحال السالكين بعد الوصول إليه. وأنزله لنقرأه تدبراً، ونتأمله تبصراً، وليس ذلك إلا بالإقبال عليه وتفهمه، وتدبر آياته واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه.

ولما كان ذلك لا يتحصل إلا بفهم معنيه ومعرفة غوامض كلماته، وأسباب نزول آياته، والمحكم من الآيات والمتشابه، والإحاطة بالمشهور والشاذ من قراءاته. والسبيل إلى ذلك إنما يكون بالعناية بالكتب التى صنفت فى علم التفسير، ومطالعتها ودراستها.

فظهرت أهمية نشر المؤلفات التى عنيت بهذا الفن، وإخراج ما اندثر من كتب التراث التى صنفت فى هذا العلم.

وانطلاقاً من هذه المعانى، وتحملاً لجزء يسير من هذه الأمانة نقوم بنشر هذا السفر العظيم النفع، والنفيس فى هذا الفن، ألا وهو كتاب « تفسير القرآن » لأبى المظفر بن السمعانى، رحمه الله. والذى يتميز بسلاسته، وصفاء عقيدته، مما يجعله سهل التناول للطالب المبتدىء، والعالم المنتهى، فنسأل الله – تبارك وتعالى – أن يوفقنا فى إخراجه فى أحسن صورة فهو ولى ذلك والقادر عليه.

ترجمة المصنف[1]

نسبه ومولده:

هو الإمام الجليل العلامة، وحيد عصره، ومفتى خراسان، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد بن محمد بن جعفر بن أحمد بن عبد الجبار بن الفضل بن الربيع بن مسلم التميمى المروزى السمعانى.

ولد فى مدينة مرو الشاهجان، وأعظم مدن خراسان فى ذى الحجة سنة ست وعشرين وأربعمائة هجريًا.

شيوخه وتلامذته:

سمع أباه أبا منصور محمد بن عبد الجبار، وأبا غانم أحمد بن على الكراعى، وأبا بكر بن عبد الصمد الترابى، وعبد الصمد بن المأمون، وأبا صالح المؤذن، وأبا على الشافعى، وأبا القاسم الزنجانى، وغيرهم.

وروى عنه أبو بكر محمد، وأبو محمد الحسن، وأبو القاسم أحمد - أولاده، وعمر بن محمد السرخسى، وأبو نصر محمد بن محمد الفاشانى، ومحمد بن أبى بكير السنجى، وإسماعيل بن محمد التيمى، وأبو نصر الغازى، وخلق كثير.

مصنفاته:

له مصنفات كثيرة حسان منها:

١- الأحاديث الألف الحسان

قال عنه أبو سعد بن السمعانى: جمع «الأحاديث الألف الحسان» من مسموعاته عن مائة شيخ، عن كل شيخ عشرة أحاديث.

---

(١) انظر ترجمته فى:

الأنساب (٣/٢٩٩)، المنتظم (٩/١٠٢)، واللباب (٢/١٣٨ - ١٣٩)، ووفيات الأعيان (٣/٢١١)، وسير أعلام النبلاء (١٩/١١٤ - ١١٩)، والعبر (٣/٣٢٦)، وطبقات السبكى (٥/٣٣٥ - ٣٤٦)، والبداية (١٢/١٥٣)، وطبقات المفسرين (٢/٣٣٩ - ٣٤٠)، والرسالة المستطرفة (ص٤٣)، وشذرات الذهب (٣/٣٩٣ - ٣٩٤)، وهداية العارفين (٢/٤٧٣)، كشف الظنون (١/٤٤٩).

٢– الاصطلام

قال عنه أبو سعد بن السمعاني: المختصر الذى سار فى الأفاق والأقطار الملقب بـ «الإصطلام» ورد فيه على أبى زيد الدبوسى، وأجاب على الأسرار التى جمعها.

٣– الأمالى فى الحديث.

قال الذهبى: وله الأمالى فى الحديث.

قال أبو سعد السمعانى: وأملى المجالس فى الحديث، وتكلم على كل حديث بكلام مفيد.

٤– الإنتصار بالأثر.

٥– الأوسط فى الخلاف.

٦– البرهان:

قال أبو سعد بن السمعانى عنه: وهو قريب من ألف مسألة خلافية.

٧– كتاب التفسير؛ وهو كتابنا هذا:

قال عنه حفيده الحافظ أبو سعد بن السمعانى: صنف التفسير الحسن المليح الذى استحسنه كل من طالعه.

وقال ابن العماد؛ وله تفسير جيد حسن.

٨– الرد على القدرية.

٩– الطبقات.

قال ابن العماد: وله الطبقات أجاد فيه وأحسن.

١٠– القواطع فى أصول الفقه.

قال عنه أبو سعد بن السمعانى: وهو يغنى عما صنف فى ذلك الفن.

وقال السبكى: ولا أعرف فى أصول الفقه أحسن من كتاب «القواطع» ولا أجمع، كما لا أعرف فيه أجلّ ولا أفحل من «برهان» إمام الحرمين، فبينهما عموم، وخصوص.

١١– منهاج أهل السنة.

ثناء العلماء عليه:

قال حفيده أبو سعد بن السمعانى: «إمام عصره بلا مدافعه، وعديم النظير فى فنه، ولا أقدر على أن أصف بعض مناقبه، ومن طالع تصانيفه، وأنصف؛ عرف محله من العلم».

وقال عبد الغافر فى تاريخه: «هو وحيد عصره فى وقته، فضلاً وطريقةً، وزهداً وورعًا، من بيت العلم والزهد، تفقه بأبيه، وصار من فحول أهل النظر، وأخذ يطالع كتب الحديث، وحج ورجع وترك طريقته التى ناظر عليها ثلاثين سنة، وتحول شافعيًا».

وقال إمام الحرمين: «لو كان الفقه ثوبًا طاويًا؛ لكان أبو المظفر السمعانى طرَّازه».

وقال أبو على الصفار: «إذا ناظرت أبا المظفر، فكأنى أناظر رجلاً من أئمة التابعين؛ مما أرى عليه من آثار الصالحين».

وقال الذهبى فى السير: «الإمام العلامة، مفتى خراسان شيخ الشافعية، تعصب لأهل الحديث والسنة والجماعة، وكان شوكًا فى أعين المخالفين، وحجة لأهل السنة».

وقال السبكى: «هو الإمام الجليل، العلم الزاهد الورع، أحد ائمة الدنيا، أبو المظفر ابن الإمام أبى منصور بن السمعانى، الرفيع القدر، العظيم المحل، المشهور الذكر، أحد من طبق الأرض ذكره، وعبق الكون نشره».

وفاته

وكانت وفاته فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وعاش ثلاثاً وستين سنة؛ رحمه الله.

عقيدته:

وإذا تكلمنا عن عقيدة أبى المظفر السمعانى – رحمة الله – فيجب أن ننوه؛ إلى أن عقيدته، ومباحثه العقائدية؛ هى أهم ما تميز به هذا التفسير، وهو من التفاسير القليلة التى اهتمت ببيان عقيدة أهل السنة والجماعة، والرد على أهل البدع والأهواء، ودحض شبهاتهم، وأباطيلهم.

والمطلع فى هذا الكتاب يتجلى له هذا الأمر جيداً، فما من آية من القرآن اتخذها أهل البدع والأهواء دليلاً لنصرة مذهبهم، أو صرفوها عن ظاهرها وأولوها، إلا رأيته متصديًا لهم مبطلًا لبدعهم، ومنتصراً لمذهب أهل السنة والجماعة، ومبينًا الحق فى المسألة، وقد أكثر من ذلك على مدار تفسيره كله.

فنجده حين تكلم عن ماهية الإيمان وحقيقته قال:

والإيمان فى الشريعة يشمل على الإعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان - (١ / ٤٣).

وهذا هو تعريف الإيمان عند أهل السنة والجماعة.

ورد على من يخرج الإعتقاد من جملة الإيمان؛ حيث قالوا: أنه يكفى فى الحكم بالإيمان لمن نطق وأقر باللسان، كما فى (١ / ٤٧) فقال عند قول الله تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ - سورة البقرة - نفى الإيمان عنهم؛ حيث أظهروا الإسلام باللسان، ولم يعتقدوا بالجنان.

وهذا دليل على من يخرج الاعتقاد من جملة الإيمان.

ورد على المرجئة حيث أخرجوا العمل من مسمى الإيمان كما فى (١ / ١٥٠) حيث قال عند قول الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أى: صلاتكم، فجعل الصلاة إيمانًا، وهذا دليل على المرجئة، حيث لم يجعلوا الصلاة من الإيمان، وإنما سموا مرجئة لأنهم أخرجوا العمل عن الإيمان.

وكما أنه أحكم تعريف الإيمان، والكلام على أقسامه، ورد على المخالفين لمذهب أهل السنة؛ فقد تكلم عن الكفر، وتعريفه، وبيان أنواعه كما فى (١ / ٤٥ - ٤٦).

هذا فى بيان مجمل الإيمان، والكفر، ثم فصل ذلك على مدار كتابه وفصل الكلام عن أنواع التوحيد، وأقسامه، كما فى (١ / ٥٦ ، ٥٧) وبين أن الإتيان بتوحيد الربوبية وحده لا يكفى للحكم على الإيمان كما فى (٣ / ٧١) ، (٣ / ٨٦).

ولما كانت مسائل الأسماء والصفات هى أكثر مسائل الخلاف فى الاعتقاد بين أهل السنة، وأهل الفرق نجد أن المصنف قد عنى بتفصيل هذه المسائل جيداً.

فتراه حين يرد اسم لله - عز وجل - فى أول موضع يتكلم عن معنى هذا الاسم

كما فى (١ / ٣٣ - ٣٤) فتكلم عن اسم « الرحمن، والرحيم »، و (١ / ٢٥٧ ، ٢٩١) عن معنى الحى القيوم، و(١ / ٣٦ - ٣٧) حيث تكلم عن اسم « مالك، ملك »، و(١ / ١٦١) عن معنى « الواحد »، و(١ / ١٤١) عن معنى العزيز، و(٢ / ٤٥١) حيث تكلم عن معنى « الودود »، و(٣ / ٤٧) عن معنى « الوكيل »، و(٣ / ٦٨) عن معنى « اللطيف »، و(٣ / ٨٧) عن معنى « الواحد القهار »، وأفرد فى (١ / ١٦١) مسألة فيما جاء فى اسم الله الأعظم، وعندما يتكلم عن صفاته - سبحانه وتعالى - نجد أنه قد اهتم ببيان مذهب أهل السنة فى إثباتها، وإمرارها كما جاءت فى القرآن دون تأويل أو تشبيه أو تعطيل، ورد على من فعل ذلك، وخص من بين ذلك مسائل كثر الجدل فيها، وزلت فيها الأقدام مثل :

مسألة الاستواء: فقال فى (٢ / ٨٦) عند تفسيره لقول الله تعالى : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ : أوَّل المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، وأنشدوا فيه :

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

وأما أهل السنة فيتبرءون من هذا التأويل، ويقولون : إن الاستواء على العرش صفة لله - تعالى - بلا كيف، والإيمان به واجب، كذلك يحكى عن مالك بن أنس، وغيره من السلف أنهم قالوا فى هذه الآية :

الإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة .

ولما تكلم عن قوله تعالى : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ من سورة « يونس » (٢ / ٣٦٤) قال : قد بينا مذهب أهل السنة فى الاستواء، وهو أنه، نؤمن به، ونكل علمه إلى الله - تعالى - من غير تأويل ولا تفسير.

وأما المعتزلة فإنهم أولوا الاستواء بالاستيلاء، وهو باطل عند أهل العربية .

وكذا قال عند تفسيره لقول الله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ من سورة « طهَ » (٣ / ٣٢٠) : المذهب عند أهل السنة أنه يؤمن به، ولا يُكيِّف . . . الخ .

وقال عن إثبات صفة الاستعلاء : عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ من سورة النحل : قال بعضهم معناه : يخافون عذاب ربهم من فوقهم، والقول الثانى - وهو الأصح - أن هذه صفة العلو التى تفرد الله بها، وهو كما وصف به

نفسه من غير تكييف.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ من سورة الأنعام (٢ / ٩٣) قال: هو صفة الاستعلاء الذى لله - تعالى - الذى يعرفه أهل السنة.

وعن صفة العلم لله - تعالى - قال: عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه﴾ من سورة النساء (١ / ٥٤) أى: مع علمه، كما يقال: جاءنى فلان بسيفه، أى: مع سيفه، وفيه دليل على أن لله علمًا، وهو صفته، خلاف قول المعتزلة خذلهم الله.

وعن صفة الكلام: قال عند تفسيره لقوله - تعالى: ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾ من سورة النساء (١ / ٥٠٢ - ٥٠٣): إنما كلمه بنفسه، من غير واسطة، ولا وحى، وفيه دليل على من قال: إن الله خلق كلامًا فى الشجرة فسمعه.... إلى أن قال:

وهذا مذهب أهل السنة أنه سمع كلام الله حقيقة، بلا كيف.

وقال وائل بن داود: معنى قوله: ﴿وكلم الله موسى تكليمًا﴾ أى: مرارًا، وكلامًا بعد كلام.

وعن صفة الإتيان والمجىء لله - تعالى -: فعند تفسيره لقول الله - تعالى - ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة﴾ من سورة البقرة (١ / ٢١٠ - ٢١١) قال: والأولى فى هذه الآية، وما يشاكلها أن نؤمن بظاهره، ونكل علمه إلى الله - تعالى - وننزه الله سبحانه وتعالى - عن سمات الحدث والنقص.

وعن إثبات صفة اليد لله تعالى: قال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ من سورة المائدة (٢ / ٥١ - ٥٢) قال أهل العلم: ليس فى هذا رد على اليهود فى إثباتهم اليد لله - تعالى - وإنما الرد عليهم فى نسبته إلى البخل، وأما اليد فصفة لله - تعالى بلا كيف، وله يدان، وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: كلتا يديه يمين. والله أعلم بكيفية المراد.

وعن إثباته لصفة الوجه لله – تعالى –: قال عند تفسير قوله – تعالى – ﴿فثم وجه الله﴾ من سورة البقرة (١ / ١٢٩) : وقد ذكر الله – تعالى – الوجه فى كتابه فى أحد عشر موضعًا، وهو صفة لله – تعالى – وتفسيره قراءته والإيمان به.

وعند تفسيره لقوله – تعالى – :﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه﴾ من سورة الأنعام (٢ / ١٠٨) .

قال ابن عباس: أى يريدون إياه بالطاعة، ويريدون خالص وجهه، والوجه صفة لله – تعالى – بلا كيف؛ وجه لا كالوجوه.

وعند تفسيره لقوله – تعالى –: ﴿كل شىء هالك إلا وجهه﴾ من سورة القصص (٤ / ١٤٦) أى: إلا هو، وعن سفيان بن عيينه قال: كل ما وصف الله به نفسه فى الكتاب، فتفسيره قراءته، لا تفسير له غيره.

وقد ذكر الله – تعالى – الوجه فى أحد عشر موضعًا من القرآن، وقد بينا أنه صفه من صفات الله يؤمن به على ما ذكره الله – تعالى –.

وعن إثبات الرؤية لله تعالى فى الآخرة: قال عند تفسيره لقوله – تعالى –: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾. (٢ / ١٣٢ – ١٣٣) : استدل بهذه الآية من يعتقد نفى الرؤية، قالوا: لما مُدِحَ بأنه لا تدركه الأبصار فمدحه على الأبد فى الدنيا، والآخرة، واعلم أن الرؤية حق على مذهب أهل السنة وقد ورد به القرآن والسنة... الخ.

وعند تفسيره لقوله: ﴿كلا إنهم عن ربهم يؤمئذ لمحجوبون﴾ من سورة المطففين، قال: وفى الآية دليل على أن المؤمنين يرون الله تعالى، وقد نقل هذا الدليل عن مالك والشافعى، رحمة الله عليهما.

وهكذا لا يمر المصنف، رحمه الله – على آية أو قول لله تعالى يجد فيه مجالاً للرد على أهل البدع، وإبطال قول الملحدين فى أسماء الله، وصفاته إلا انتصر لمذهب أهل السنة من سلف هذه الأمة وبين زيغ المبطلين.

وكان كما قال الإمام الذهبى – رحمه الله –: متعصبًا لأهل الحديث والسنة والجماعة، وكان شوكًا فى أعين المخالفين، وحجة لأهل السنة. وانظر رده على الفرق

الضالة والمخالفة لأهل السنة فى هذا التفسير، وقد أكثر من الرد على القدرية كما فى (١/٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٤٢١ ، ٤٥١)، (٢/١٥٢ - ١٥٣، ١٩٦) و(٣/٨٣، ٩١، ٩٩ - ١٠٠، ١٣١، ١٧١، ٢٣١) وغير ذلك كثير، وقد صنف فى الرد على القدرية كتابًا منفصلاً يزيد على عشرين جزءاً.

وأكثر أيضًا من الرد على المعتزلة، والجهمية، والخوارج، والكرامية، والشيعة، والروافض، ومن قال بتناسخ الأرواح.

كما تجد هذا مبسوطًا فى تفسيره، والمقام لا يسمح بالتفصيل أكثر من هذا.

ونختم الكلام على عقيدته - رحمه الله - بذكر ما نقله عنه تلميذه النجيب النابغ، والإمام الحافظ أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهانى صاحب كتاب «الترغيب والترهيب»، وكتاب «سير السلف الصالح»، والذى جعل كلام المصنف أصلاً من أصوله فى إثبات عقيدة أهل السنة، والرد على المبتدعة، وذلك فى كتابه «الحجة فى بيان المحجة فى شرح عقيدة أهل السنة».

والذى أكثر فيه من النقل عن أبى المظفر السمعانى فى العقيدة، والحديث.

فقد نقل عنه فى كتابه (١/٣٢٠ - ٣٢٢) ما نصه:

«واعلم أن فصل ما بيننا وبين المبتدعة هو مسألة العقل، فإنهم أسسوا دينهم على المعقول، وجعلوا الاتباع، والمأثور تبعًا للمعقول، وأما أهل السنة قالوا: الأصل فى الدين الاتباع؛ والمعقول تبع، ولو كان أساس الدين على المعقول لاستغنى الخلق عن الوحى، وعن الأنبياء، ولبطل معنى الأمر والنهى، ولقال من شاء ما شاء، ولو كان الدين بنى على المعقول لجاز للمؤمنين ألا يقبلوا شيئًا حتى يعقلوا! ونحن إذا تدبرنا عامة ما جاء فى أمر الدين من ذكر صفات الله وما تعبد الناس به من اعتقاده، وكذلك ما ظهر بين المسلمين، وتداولوه بينهم، ونقلوه عن سلفهم، إلى أن أسندوه إلى رسول الله ﷺ من ذكر عذاب القبر، وسؤال منكر ونكير، والحوض، والميزان، والصراط، وصفات الجنة، وصفات النار، وتخليد الفريقين فيهما؛ أمور لا ندرك حقائقها بعقولنا، وإنما وَرَدَ الأمر بقبولها، والإيمان بها، فإذا سمعنا شيئًا من أمور الدين، وعقلناه، وفهمناه، فلله الحمد فى ذلك والشكر، ومنه التوفيق، ومالم يمكننا إدراكه

وفهمه، ولم تبلغه عقولنا؛ آمنا به، وصدقنا، واعتقدنا أن هذا من قبل ربوبيته، وقدرته، واكتفينا فى ذلك بعلمه ومشيئته، قال الله - تعالى -: ﴿ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ثم نقول لهذا القائل الذى يقول بُنَىِ ديننا على العقل وأمرنا باتباعه: أخبرنا إذا أتاك أمر من الله يخالف عقلك، فبأيهما تأخذ؟ بالذى تعقل أو بالذى تؤمر؟ فإن قال: بالذى أعقل؛ فقد أخطأ، وترك سبيل الإسلام، وإن قال: آخذ بالذى جاء من عند الله فقد ترك قوله.

وإنما علينا أن نقبل ما عقلناه إيمانًا وتصديقًا، ومالم نعقله، قبلناه استسلامًا وتسليمًا، وهذا معنى قول القائل من أهل السنة: إن الإسلام قنطرة لا تعبر إلا بالتسليم!

فنسأل الله التوفيق فيه، والثبات عليه، وأن يتوفانا على ملة رسول الله ﷺ، بمنه وفضله».

ونقل عنه أيضا فى الحجة (٢ / ٣٠ - ٣١) فى باب القدر:

قد ذكرنا أن سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من قبل الكتاب والسنة، دون محض القياس ومجرد المعقول فمن عدل عن التوقيف فى هذا الباب ضل وتاه فى بحار الحيرة ولم يبلغ شفاء النفس، ولا وصل إلى ما يطمئن به القلب، وذلك لأن القدر سر من سر الله وعلم من علمه، ضربت دونه الأستار وكفت عليه الأزرار، واختص الله به علام الغيوب، حجبه عن عقول البشر ومعارفهم لما علم من الحكمة، وسبيلنا أن ننتهى إلى ما حدّ لنا فيه، وألا نتجاوز إلى ما وراءه، فالبحث عنه تكلف، والاقتحام فيه تعمق وتهور.

قال: وجماع هذا الباب أن يعلم أن الله تعالى طوى عن العالم علم ما قضاه وقدره على عباده فلم يطلع عليه نبيا مرسلا، ولا ملكا مقربا؛ لأنه خلقهم ليتعبدهم ويمتحنهم قال الله - تعالى - ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾(١)، وقد نقلنا عن على رضى الله عنه: أنه خلقهم ليأمرهم بالعبادة.

(١) الذاريات: ٥٦.

فلو كشف لهم عن سر ما قضى وقدر لهم وعليهم فى عواقب أمورهم لا فتتنوا، وفتروا عن العمل، واتكلوا على مصير الأمر فى العاقبة فيكون قصاراهم عند ذلك أمن أو قنوط، وفى ذلك بطلان العبادة وسقوط الخوف والرجاء، فلطف الله سبحانه بعباده وحجب عنهم علم القضاء والقدر، وعلقهم بين الخوف، والرجاء، والطمع، والوجل، ليبلو سعيهم واجتهادهم، وليميز الله الخبيث من الطيب، ولله الحجة البالغة. اهـ.

ونقل الأصبهانى أيضا عنه فى الحجة (٢ / ٥١ - ٥٢).

فقد دعا الله الخلق إلى الوحدانية والأقدار معًا: فالتوحيد لوحدانيته، والتقدير لربوبيته، والإذن قدرته. فكما لا يجوز إبطال وحدانيته، كذلك إبطال ربوبيته وقدرته. وهو التقدير والإذن، وكذلك قالوا: كما لا يجوز الركون إلى الدنيا، كذلك لا يجوز ابطالها حتى يكتسب بها النظر إلى التقدير والإذن.

فالأبدان كلها مضطرة إلى الأسباب أبدًا، وذلك فى أهل السموات والأرض اضطرهم الله جميعًا إلى الأسباب وإن تفاوتت وجوهها فى قلتها وكثرتها، وزيادتها ونقصانها.

وأما القلوب فإنها مضطرة إلى مسبب الأسباب وحده، أما ترى أن أهل الدنيا اضطروا إلى الأسباب من الأمكنة، والأغذية، واللباس وسائر ما يرجع إلى معاشهم، فهذا لأبدانهم، واضطرت القلوب إلى أن الله تعالى وحده خالق الدنيا ومالكها، وإن الأسباب عاملة بإذن الله، فما أذن الله - تعالى - لشىء كان من غير سبب، وإذا لم يأذن للسبب لم يعمل.

فالنار بإذنه تُحرق، فإذا أذن لها أن تمتنع من الإحراق امتنعت، كما أذن لنار إبراهيم عليه السلام.

والماء بإذنه يُغرق، فإذا أذن له أن يمتنع من الإغراق امتنع، كما أذن له فى إغراق فرعون وقومه، ومنعه من إغراق موسى وقومه... الخ.

ونقل الأصبهانى عنه أيضا فى الحجة (٢ / ٢١٥ - ٢١٦) قوله فى أخبار الآحاد:

إن الخبر إذا صح عن رسول الله ﷺ ورواه الثقات والأئمة، وأسندوه: خلفهم عن

سلفهم إلى رسول الله ﷺ وتلقته الأمة بالقبول؛ فإنه يوجب العلم فيما سبيله العلم هذا قول عامة أهل الحديث والمتقنين من القائمين على السنة، وإنما هذا القول الذى يذكر أن خبر الواحد لا يفيد العلم بحال، ولابد من نقله بطريق التواتر لوقوع العلم به شيء اخترعته القدرية والمعتزلة، وكان قصدهم منه رد الأخبار، وتلقفها منهم بعض الفقهاء الذين لم يكن لهم علم فى العلم وقدم ثابت، ولم يقفوا على مقصودهم من هذا القول، ولو أنصفت الفرق من الأمة لأقروا بأنّ خبر الواحد يوجب العلم، فإنهم تراهم مع اختلافهم فى طرائقهم وعقائدهم يستدل كل فريق منهم على صحة ما يذهب إليه بالخبر الواحد . . . . الخ .

هذا كان مجمل اعتقاده – رحمه الله – وهو اعتقاد أهل السنة والجماعة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – «إن سلف الأمة، وأئمتها كانوا على الإيمان الذى بعث الله به نبيه ﷺ، يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، ويقولون: إن القرآن كلام الله تعالى، ويصفون الله بما وصف به نفسه من التكليم، والمناجاة، والمناداة، وما جاءت به السنن، والآثار موافقة لكتاب الله – تعالى –» انظر مجموع الفتاوى (٦ / ٥١٨) .

التوصيف العلمى للنسختين الخطيتين

اعتمدنا فى تحقيقنا لتفسير أبى المظفر السمعانى على نسختين خطيتين، وهما كالآتى:

أولا: النسخة الأزهرية، وهى نسخة مصورة عن النسخة المحفوظة بالمكتبة الأزهرية تحت رقم (٢٠٩٥) تفسير، وهى تقع فى مجلدين كبيرين.

فأما المجلد الأول فيقع فى (٢٢٨) ورقة، ويبدأ من تفسير سورة الفاتحة، وينتهى عند تفسير قوله تعالى من سورة الإسراء ﴿... وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[1].

والمجلد الثانى يقع فى (٣٢٩) ورقة، يبدأ من تفسير سورة مريم إلى آخر القرآن الكريم.

والنسخة كتبت بخط نسخ معتاد، ولا يعرف تاريخ نسخها، ولا اسم ناسخها.

والورقة من وجهين، وعدد أسطر الوجه (٢٥) سطراً، ومتوسط عدد الكلمات فى السطر الواحد (١٦) كلمة.

وقد سقط من النسخة أواخر تفسير سورة الإسراء من قوله: ﴿... وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ إلى آخر السورة، وتفسير سورة الكهف كاملة.

وقد ضبط ناسخها بعض الكلمات بالشكل، وكان إذا أخطأ أو سقط منه شىء يستدركه فى الهامش، ويضع فى آخر علامة «صح». ويضع خطًا فوق الآيات التى يفسرها المصنف، وذلك فى الأغلب من التفسير.

ولكن الناسخ - عفا الله عنه - لم يكن من الحاذقين فى هذا الفن؛ فلقد تحرفت وتصحفت عليه كثير من الكلمات، وقد نبهنا عليها فى الهامش.

كما توجد فى حواشى النسخة تعليقات لبعض المتأخرين، وهى بثلاثة خطوط مختلفة، ولم يذكروا أسماءهم، ولا تاريخ كتابتها.

(١) الاسراء: ٨٥.

ولقد اعتمدنا عليها فى عملنا كأصل، لقدم نسخها وقلة أخطائها بالمقارنة بالنسخة الأخرى.

ثانيا: نسخة دار الكتب، وهى نسخة مصورة عن النسخة المحفوظة بخزانة دار الكتب المصرية، تحت رقم ١٣٦ تفسير، وهى تقع فى ثلاثة مجلدات.

المجلد الأول ويبدأ من تفسير فاتحة الكتاب وينتهى بنهاية تفسير سورة التوبة، ويقع هذا المجلد فى (٢٥٩) ورقة.

والمجلد الثانى: يبدأ بتفسير سورة يونس وينتهى بنهاية تفسير سورة القصص ويقع فى (٢٦٢) ورقة.

والمجلد الثالث: يبدأ بتفسير سورة العنكبوت إلى نهاية التفسير ويقع فى (٣٣٠) ورقة.

ومقاس الورقة ٢٠ X ٣٠سم، والورقة من وجهين، وعدد الأسطر فى الوجه الواحد ٢٧ سطرا، ومتوسط عدد الكلمات فى السطر الواحد (١٢) كلمة.

وقد نسخت سنة (١٢٧١هـ)، ولم يذكر اسم الناسخ.

وكتبت الآيات بالمداد الأحمر؛ ليميزها عن كلام المصنف، ووضع فى بداية كل مجلد فهرس فى جدول وضع فيه أسماء السور وأرقامها وقد سقط من النسخة أيضا نفس السقط من النسخة الأولى.

ولم يكن ناسخ هذه النسخة من الحاذقين فى هذا الفن، فلقد تحرفت وتصحفت عليه الكثير من الكلمات وسقطت منه الأسطر والكلمات وكثر ذلك منه فى كتابته.

وقد نبهنا على بعض ذلك فى عملنا، وأعرضنا عن أكثره خشية الإطالة، ولعدم جدواها.

وهذه النسخة غير مأخوذة عن النسخة السالفة يقينا، فلقد جبرنا منها بعض السقط، منها ثلاث ورقات كاملة فى تفسير سورة آل عمران، وقد سقطن من النسخة السابقة، وغير ذلك من الأمثلة التى يحدها القارىء بطول الكتاب والله أعلم.

وقد رمزنا لها فى عملنا بالرمز «ك».

توثيق نسبة الكتاب لمصنفه

(١) ذكر العلماء أن للسمعانى كتاب التفسير منهم :

حفيده أبو سعد بن السمعانى فذكر أن جده : صنف التفسير .

الذهبى، وقد نقل ذلك عن حفيده أيضًا : وأن تفسيره ثلاث مجلدات .

ابن كثير قال : وصنف التفسير .

السبكى، نقل أيضًا عن حفيده : صنف التفسير .

الداودى قال : أن للسمعانى كتاب التفسير، نقلا عن حفيده .

ابن العماد قال عنه : وله تفسير جيد حسن .

وغيرهم، فلا يكاد يترجم أحد له إلا ويذكر أن له كتاب التفسير .

(٢) كتب على غلاف النسختين؛ تفسير الإمام العلامة السمعانى . وكتب فى أول الكتاب بعد الحمد لله . . . قال الشيخ الإمام الأجل الزاهد جمال الأئمة أبو المظفر منصور بن محمد السمعانى . . وكذلك كان كثيرا ما يذكر : قال أبو المظفر السمعانى فى طيات الكتاب .

كما أن الأسانيد التى يوردها فى الكتاب هى عن شيوخه وبعض الأحاديث التى يوردها فى التفسير هى بأسانيدها ومتونها فى كتاب الحجة فى بيان المحجة، كما سيأتى .

(٣) وقفنا على كثير من الأحاديث والآثار والآراء لأبى المظفر السمعانى فى كتاب الحجة فى بيان المحجة وهى لتلميذه أبى القاسم الأصبهانى - كما سبق بيان ذلك - يرويها عن شيخه أبى المظفر هى نفسها فى تفسيره وبأسانيده .

ومما سبق يتبين لنا يقينًا أن هذا الكتاب هو لأبى المظفر السمعانى، والله أعلم .

منهجنا فى التحقيق : -

١- اعتمدنا فى تحقيق الكتاب على نسختين: النسخة الأزهرية، ونسخة دار الكتب المصرية.

٢- اتخذنا من نسخة المكتبة الأزهرية أصلاً فى ضبط النص، فقمنا بقراءتها قراءة متفحصة، ثم قمنا بنسخها.

٣- قمنا بتنظيم النص بما هو متعارف عليه فى عصرنا، من صورة الإملاء، ورسم الكلمات، وغيرنا ما اصطلح عليه النساخ فى رسم بعض الكلمات، مثل تسهيل الهمزات، وكحذف الألف الوسطية فى كثير من الأسماء مثل « سفين = سفيان »، و« الحرث = الحارث »، وغير ذلك.

ومثل حذف الهمزة المتطرفة من بعض الكلمات، مثل « السما = السماء »، « وجا = جاء ».

٤- قمنا بضبط النص ضبطًا صحيحًا، وتقسيم الفقرات، ووضع علامات الترقيم، ولم نتوسع فى إيراد الشروح، والتعليقات، واكتفينا بشرح الكلمات الغريبة، وذلك فيما احتجنا إليه فى ضبط النص.

٥- ومما تجدر الإشارة إليه أن أسلوب المصنف كان يتسم ببعض العجمة، وعدم إحسان الربط بين الجمل، وذلك مثل تذكير المؤنث، أو تأنيث المذكر، أو إهمال الفاء السببية، ورواية الشعر بالمعنى أو ما شابه ذلك.

ولعل ذلك وقع من قِبَلْ النساخ، فإن هناك أخطاء؛ لا نظن أنها وقعت من قبل المصنف - رحمه الله -، بل يغلب على الظن أنها من تصرف النساخ، فقمنا بتغيير مالا تحتمله العربية، ونبهنا على ذلك فى الهامش، - هذا فى أول عملنا فى الكتاب - فلما رأينا أن ذلك كثر جداً؛ تركنا التنبيه عليه حتى لا نثقل الحواشى، ولا يُمِلَّ القارئَ، مكتفين بالتنبيه على ذلك فى المقدمة.

٦- قمنا بتخريج الأحاديث المرفوعة مع نقل أقوال أهل العلم فيها ممن أخرجها دون توسع؛ مثل نقل كلام الترمذى، والحاكم، وغيرهما إذا عزونا الحديث إليهم، وما كان من الحديث متفق عليه اكتفينا بالعزو إليهما دون غيرهما.

٧- لم نتعمد تخريج الموقوفات، والآثار، حيث إن هذا كثير جدا لأن جُلَّ التفسير

يعتمد على نقل أقوال الصحابة، والتابعين فى تفسير الآيات، أو ذكر أسباب النزول، أو ما شابه، ولكن ما احتجنا إلى تخريجه، أثناء ضبط المتن، ونحوه ذكرناه.

٨ قمنا بعمل فهارس للأحاديث، والأشعار، والمباحث الفقهية، والعقائدية، حتى يسهل الرجوع إلى موضعها من الكتاب، واستغنينا عن عمل فهارس للموضوعات، لأننا قمنا بوضع آيات المصحف بأرقامها، وأسماء السور فى أعلى الصفحات، مما يستغنى به عن وضع فهرس للموضوعات فى آخر كل مجلد.

٩- قمنا بعمل مقدمة للكتاب اشتملت على ترجمة للمصنف وبيان عقيدته واشتملت أيضًا على وصف المخطوطات، وصور بعض الورقات، منها، وتوثيق نسبة الكتاب للمصنف، وذكر منهجنا فى التحقيق.

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نشكر كل من أسهم فى إخراج هذا السفر العظيم من إخواننا الباحثين فى دارنا؛ دار المشكاة، ونخص بالذكر منهم الأخ الفاضل أبا عبد الله حسين بن عكاشة، والأخ الفاضل الدكتور أشرف بن سعيد، والأخ الفاضل الأستاذ عبد القوى زيد، ونسأل الله العظيم أن يجعل ذلك فى ميزان حسناتنا، وأن يجعله خالصًا لوجهه العظيم.

هذا، وما كان من عيب أو خلل فمن أنفسنا والشيطان، وما كان من توفيق فمن الله وحده فله الحمد والشكر.

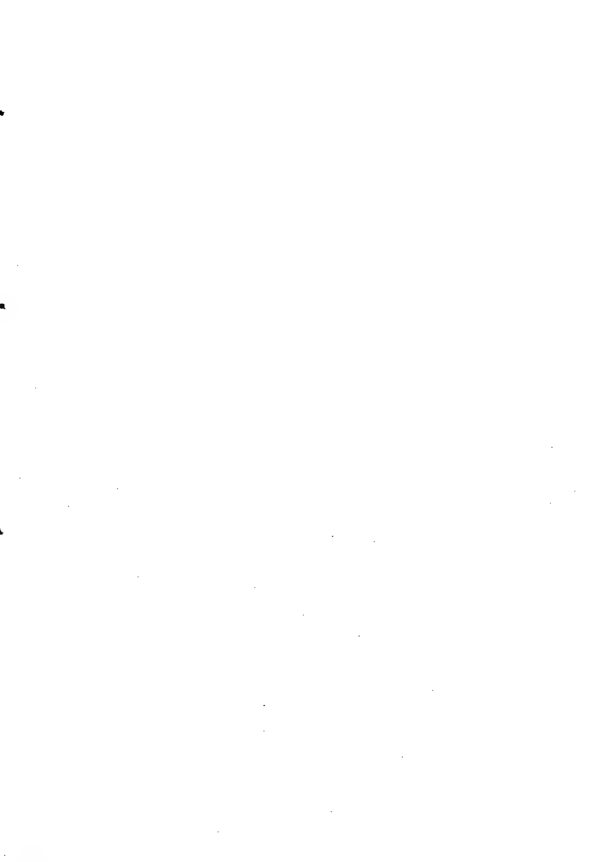
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

شوال ١٤١٧ من هجرة المصطفى ﷺ

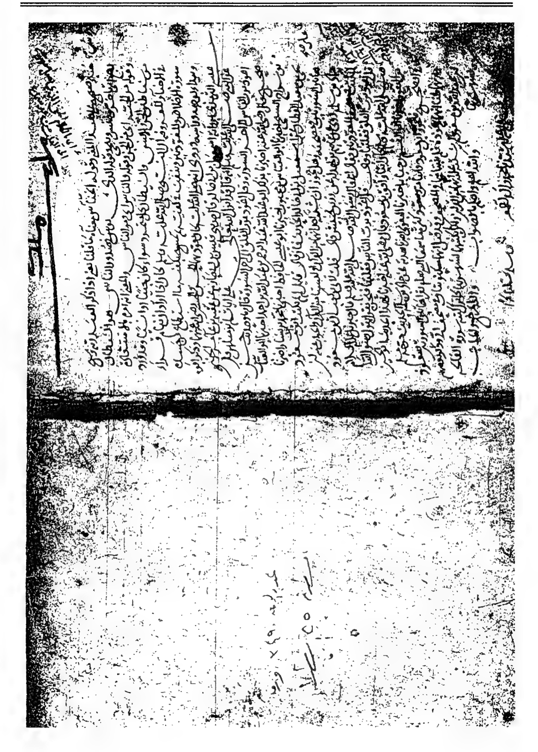
دار المشكاة

للبحث العلمى

صور للنسختين الخطيتين
اللتين اعتمدنا عليهما
فى
إخراج هذا السفر العظيم



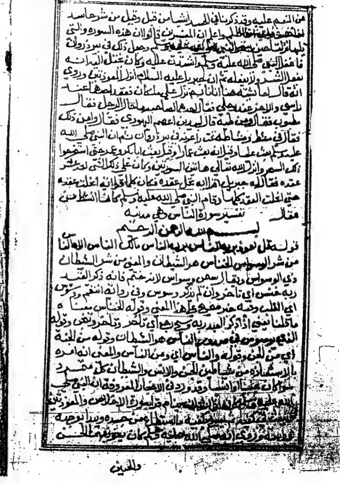
الورقة الأولى من النسخة الأزهرية



الورقة الأخيرة من النسخة الأزهرية



الورقة الأولى من نسخة دار الكتب المصرية

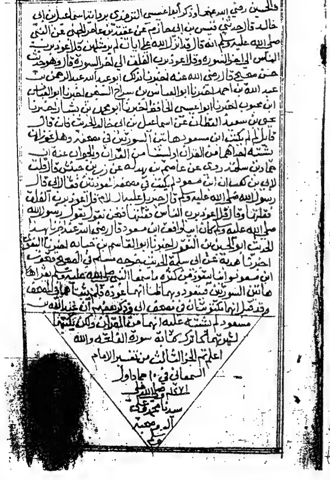


من النعيم عليه وقد ذكرنا في الحسد أشياء من قبل وقيل من شر حاسد
[illegible] واعلم أن المفسرين قالوا إن هذه السورة والتي
تليها أنزلتا [illegible] لم رجل ذلك في سورة
فاعمل النبي صلى الله عليه وسلم واشتدت عليه وكان يخيل إليه أنه
يفعل الشيء ولا يفعله ثم إن جبريل عليه السلام أنزل المعوذتين وروي
أنه قال لما [illegible] أتاني اثنان فنزل على [illegible]
رأسي والآخر عند رجلي فقال أحدهما للآخر [illegible] الرجل فقال
مطبوب فقال ومن طبه قال لبيد بن أعصم اليهودي فقال وأين ذلك
فقال في مشط ومشاطة تحت راعوفة في بئر ذروان ثم إن النبي صلى الله
عليه وسلم بعث عليا وقيل إنه بعث عمارا وقيل بعث أبا بكر وعمر حتى استخرجوا
ذلك السحر وأنزل الله تعالى هاتين السورتين وكان على ذلك الشيء إحدى عشر
عقدة فقال له جبريل اقرأ آية على عقدة فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة
حتى انحلت العقد كلها وقام النبي صلى الله عليه وسلم كأنما أنشط من
عقال

تفسير سورة الناس وهي مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

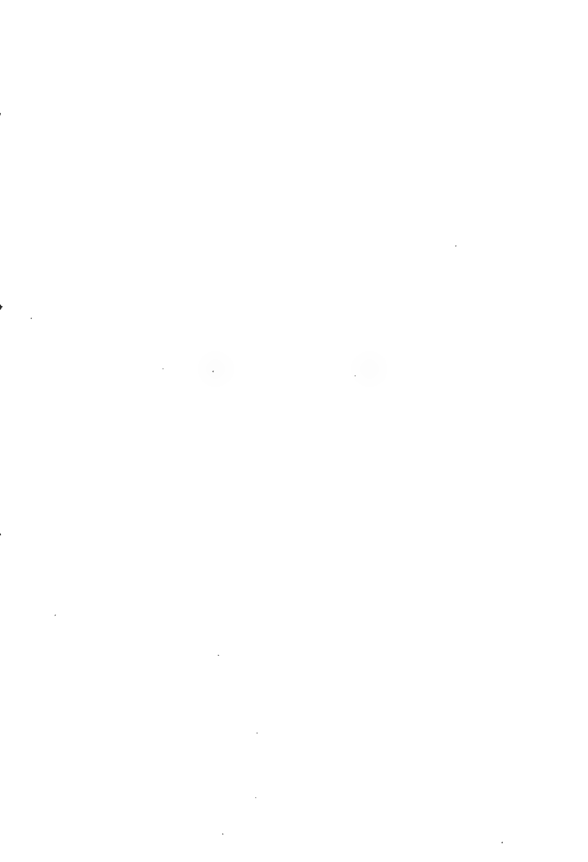
قوله تعالى قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس إلى آخرها
من شر الوسواس الخناس هو الشيطان والمعنى من شر الشيطان
ذي الوسواس ويقال الوسواس [illegible] فإنه ذكر الخناس
ربه خنس أي تأخر وإن لم يذكر وسوس وفي رواية انقمع ووسوس
أي القلب [illegible] الخناس
[illegible] إذا ذكر العبد ربه [illegible] تأخر [illegible] وقوله
الذي يوسوس في صدور الناس هو الشيطان وقوله من الجنة
أي من الجن وقوله والناس أي ومن الناس والمعنى أنه أمره
بالاستعاذة من شياطين الجن والإنس والشياطين كل متمرد
سواء كان جنيا أو إنسيا وقد وردت الأخبار المعروفة أن النبي صلى
الله عليه وسلم [illegible] بسورة الإخلاص والمعوذتين
[illegible] من حسد [illegible]
[illegible] وروي أنه صلى الله عليه وسلم كان يعوذ [illegible] الحسن
والحسين



فالحسين رضي الله عنهما وذكر أبو عيسى الترمذي برواية إسماعيل بن أبي
خالد قال حدثني قيس بن أبي حازم عن عقبة بن عامر الجهني عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال قد أنزل الله علي آيات لم ير مثلهن قل أعوذ برب
الناس إلى آخر السورة وقل أعوذ برب الفلق إلى آخر السورة قال وهو حديث
حسن صحيح قال رضي الله عنه أخبرنا بذلك أبو عبد الله عبد الرحمن بن
عبد الله بن أحمد أخبرنا أبو العباس بن سراج [illegible] أخبرنا أبو العباس
ابن محبوب أخبرنا أبو عيسى الحافظ أخبرنا أبو محمد بن بشار أخبرنا
يحيى بن سعيد القطان عن إسماعيل بن أبي خالد الحديث كما قال
[illegible] لم يكتب ابن مسعود هاتين السورتين في مصحفه وهل يجوز أن
[illegible] من القرآن أو ليستا من القرآن والجواب عنه أن
حماد بن سلمة روى عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش قال قلت
لأبي بن كعب إن ابن مسعود لم يكتب في مصحفه المعوذتين فقال أبي قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي جبريل عليه السلام قل أعوذ برب الفلق
فقلتها وقال قل أعوذ برب الناس فقلتها فنحن نقول كما يقول رسول الله
صلى الله عليه وسلم [illegible] ابن مسعود قال رضي الله عنه أخبرنا بهذا
الحديث أبو الحسين بن النقور أخبرنا أبو القاسم بن حبابة أخبرنا البغوي
أخبرنا هدبة عن حماد بن سلمة الحديث [illegible] مسلم في الصحيح وقيل
ابن مسعود [illegible] النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ
هاتين السورتين يعوذ بهما ظن أنهما عوذة فلم يثبتهما في المصحف
وقد قيل إنهما مكتوبتان في مصحف [illegible] وذكر بعضهم أن عبد الله بن
مسعود لم يشتبه عليه أنهما من القرآن ولكن لم يكتبهما
[illegible] كتابة سورة الفاتحة والله
أعلم تم الجزء الثالث من تفسير الإمام
السمعاني في ١٠ جمادى أول
[illegible] وصلى الله على
سيدنا محمد وعلى
آله وصحبه
وسلم

الورقة الأخيرة من نسخة دار الكتب المصرية

نص الكتاب



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة على رسوله محمد وآله أجمعين، ولا عدوان إلا على الظالمين، اللهم باركْ وَوَفِّقْ.

القول فى تفسير فاتحة الكتاب

قال الشيخ الإمام الأجل الزاهد جمال الأئمة، أبو المظفر منصور بن محمد السمعانى – رحمه الله تعالى –: اعلم أن لهذه السورة أربعة أسامى: فاتحة الكتاب، وأم القرآن ، والسبع المثانى، والسبع من المثانى، برواية عبد خير، عن على – رضى الله عنه –.

أما فاتحة الكتاب فلأن بها افتتح الكتاب وهو القرآن.

وأما أم القرآن لأنها أصل القرآن، منها بدئ القرآن. وأم الشىء: أصله، ومنه يقال لمكة: أم القرى؛ لأنها أصل البلاد.

وأما السبع المثانى لأنها سبع آيات باتفاق الأئمة؛ إلا فى رواية شاذة أنها ثمان آيات.

وسميت مثانى لأنها تُثنى فى الصلاة فتقرأ فى كل ركعة.

وقال مجاهد: إنما سميت مثانى؛ لأن الله – تعالى – استثناها لهذه الأمة، كأنه أوحى بها لهم، ولم يعطها أحداً من الأمم.

وأما السبع من المثانى ففيه قولان: **أحدهما**: أنها سبع آيات مخصوصة من المثانى وهو القرآن، قال الله – تعالى–: ﴿كتابا متشابها مثانى﴾[1].

وإنما سمى القرآن مثانى؛ لاشتماله على علوم مثناة من الوعد والوعيد، والأمر والنهى، ونحوها.

والثانى: أن السبع من المثانى هو السبع المثانى؛ و«منْ» فيه للصلة، وإنما نشأ هذا الخلاف من قوله – تعالى –: ﴿ولقد آتيناك سبعًا من المثانى﴾[2].

ثم اعلم أن هذه السورة مكية على قول ابن عباس، وقال مجاهد: هى مدنية.

وقيل: نزلت مرتين مرة بمكة، ومرة بالمدينة؛ ولذلك سميت مثانى؛ لأنها ثنيت فى التنزيل، وهذه رواية غريبة.

(١) الزمر: ٢٣.
(٢) الحجر ٨٧.

بِسْمِ اللَّهِ

قوله: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ آية من الفاتحة على قول بعض العلماء، وهو مروى عن ابن عباس وأم سلمة.

وليس بآية منها على قول البعض. وهذا مذكور بدليله فى الفقه. ثم اعلم أن الباء فى قوله: ﴿بسم الله﴾ أداة يخفض مابعدها من الكلام، مثل: من، وعن، وفى، وعلى، وأمثالها.

والمعنى المتعلق بالباء لدلالة الكلام عليه، وتقديره: «أبدأ بسم الله»، أو: «بدأت بسم الله».

وقوله: ﴿بسم الله﴾ أصله باسم الله، كقوله: ﴿اقرأ باسم ربك﴾[1]، وإنما حذف الألف فى الكتابة؛ لأنه (لا يظهر)[2] فى اللفظ.

وقيل: إنما حذفت لكثرة الاستعمال تخفيفًا؛ ولأنه كثر استعمالها؛ فاستخفوا حذفها، بخلاف قوله: ﴿اقرأ باسم ربك﴾[1]، ونظائره لأن هناك لم يكثر الاستعمال.

ثم اختلفوا فى اشتقاق الاسم. قال المبرد وجماعة البصريين: الاسم مشتق من السمو، وهو العلو والظهور، فكأنه ظهر على معناه وعلا عليه، وصار معناه تحته.

وقال ثعلب من الكوفيين: هو مشتق من الوسم والسمة، فكأنه علامة لمعناه. والأول أولى؛ لأن الاسم يصغر على المسمى. ولو كان مشتقًا من السمة، لكان يصغر على الوسم، كما يقال فى الوصل: وُصَيْل، وفى الوعد: وُعَيْد.

وأما قوله[3]: ﴿الله﴾ – تعالى- فقد اختلفوا فيه، فقال الخليل، وابن كيسان: هو اسم علم خاص لله – تعالى – لا اشتقاق له، وهو كأسماء الأعلام للعباد، مثل:

---

(١) العلق: ١.

(٢) فى النسخة «ك»: لا تظهر.

(٣) فى «ك»: قول.

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

زيد، وعمرو، ونحوه. وهو اختيار القفال الشاشى، وجماعة من أهل العلم.

وقال الباقون: هو اسم مشتق، [و](١) فى موضع الاشتقاق قولان: أحدهما: أنه مشتق من قولهم: أَلَهَ إِلاهَةً، أى: عَبَدَ عبادة. وقرأ ابن عباس: «ويذرك وإلاهتك»(٢) أى: عبادتك.

ويقال للناسك المتعبد مُتَأَلِّه، ومنه قول القائل:

سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأَلُّهِ (٣)

أى: تَعَبُّد، فيكون معناه أنه المستحق للعبادة، إليه توجه كل العبادات، وأنه المعبود فلا يعبد غيره.

وقيل: الإله من يكون خالقًا للخلق، رازقًا لهم، مدبرًا لأمورهم، مقتدرًا عليهم.

والثانى: أن «الله» أصله إله، وأصل الإله: وِلَاه؛ إلاَّ أن الواو أبدلت بالهمزة. كقولهم: وشاح وإشاح.

واشتقاقه من الوَلَه، وكأن العباد يولهون الله، ويفزعون إليه ويتضرعون ويلجأون إليه فى الشدائد.

وأما قوله: ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر.

وحكى عنه أيضاً أنه قال: «الرحمن»: الرفيق بالعباد، و«الرحيم» العاطف عليهم.

ثم اختلفوا فيه، فقال بعضهم: «الرحمن» غير «الرحيم» ولكل واحد منهما معنى

---

(١) ليست فى الأصل، وك.

(٢) الأعراف: ١٢٧.

(٣) كتب فى حاشية الأصل بخط مغاير لخط الناسخ: وأوله: لله دَرُّ الْغَانِيَاتِ الْمُدَّهِى.

غير معنى صاحبه . وقال بعضهم : هما واحد .

فأما من قال : « الرحمن » غير « الرحيم » ، قال : للرحمن معنى العموم ، وللرحيم معنى الخصوص ، فعلى هذا « الرحمن » بمعنى الرازق فى الدنيا ، والرزق على العموم للكافر والمؤمن ، و« الرحيم » بمعنى العافى فى الآخرة ، والعفو فى الآخرة على الخصوص للمؤمنين دون الكافرين . ولذلك قيل فى الدعاء : « يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة »(١) . « فالرحمن » من تصل رحمته(٢) إلى الخلق على العموم ، و« الرحيم » من تصل رحمته إلى الخلق على الخصوص ؛ ولذلك يُدْعَى غير الله رحيمًا ، ولا يدعى رحمانا ؛ لأن الله – تعالى – هو الذى تصل رحمته إلى الخلق ، كأنه كما قال تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كُلَّ شىء ﴾(٣) . وأما غير الله قد يخص شيئًا بالرحمة ؛ فيكون بذلك رحيمًا .

وأما من قال : إن معناهما واحد ؛ فقد قال قطرب : هما اسمان ، ذكر أحدهما

(١) روى عن ابن مسعود وأبى سعيد الخدرى مرفوعاً : « أن عيسى ابن مريم قال : الرحمن ، رحمن الآخرة والدنيا ، والرحيم رحيم الآخرة . رواه ابن جرير الطبرى فى تفسيره (١ / ٤٣) .

وروى أيضا من حديث عبد الرحمن بن سابط مرفوعًا ولكن لفظه : « ... ورحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما » . أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه (١٠ / ٤٤١) .

وأخرجه الحاكم فى المستدرك (١ / ٥١٥) ، والبيهقى فى الدلائل (٦ / ١٧١ – ١٧٢) عن أبى بكر الصديق مرفوعًا . وفيه « ... رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما » . .

وقال الحاكم : صحيح وتعقبه الذهبى بأن فى إسناده الحكم بن عبد الله الأيلى ليس بثقة .

وأورده السيوطى فى الدر المنثور (١ / ١٥) وعزاه للبزار والبيهقى فى الدلائل وقال : إسناده ضعيف .

وأورده الهيثمى فى المجمع (١٠ / ١٨٩) وقال : رواه البزار ، وفيه الحكم بن عبد الله الأيلى ، وهو متروك .

وفى الباب عن معاذ بن جبل ، وأنس بن مالك وغيرهم . انظر الدر المنثور (٣ / ١٦ – ١٧) .

(٢) زاد فى « الأصل » ، و « ك » : « إليه » قبل كلمة : « رحمته » . وهى زيادة مقحمة .

(٣) الأعراف : ١٥٦ .

تأكيداً للآخر، مثل: لهفان، ولهيف، وندمان، ونديم.

وقال المبرد: (هذا تمام بعد إتمام)(١)، وتفضل بعد تفضل، وتطميع لقلوب الراغبين، ووعد لا يخيب آمله، ومعناه: ذو الرحمة، والرحمة [هي](٢) الإنعام والتفضل.

قوله: ﴿الحمد لله﴾ اعلم أن الحمد يكون بمعنى الشكر على النعمة، ويكون بمعنى التحميد والثناء على الأوصاف المحمودة. يقال: حمدت فلانًا على ما أسدى إليَّ من النعمة. ويقال: حمدت فلانًا على شجاعته وعلمه. وأما الشكر لا يكون إلاَّ على النعمة؛ فللْحمدِ معنىً عامٌّ، وللشكر معنى خاصٌّ. فكل حامد شاكر، وليس كل شاكر حامداً.

يقال: حمدت فلانًا على شجاعته. ولا يقال: شكرت فلانًا على شجاعته.

ثم اعلم أن حمد الله - تعالى - لنفسه حسن لا كحمد المخلوقين لأنفسهم؛ لأن [[حمد](٣) المخلوقين لا يخلو عن نقص؛ فلا يخلو مدحه نفسه عن كذب؛ فيقبح منه أن يمدح نفسه. وأما الله - جل جلاله - بريء عن النقص والعيب؛ فكان مدحه نفسَه حسنًا.

وقوله: ﴿الحمد لله﴾ هاهنا يحتمل معنيين: الإخبار، والتعليم. أما الإخبار كأنه يخبر أن المستوجب للحمد هو الله، وأن المحامد كلها لله - تعالى -.

وأما التعليم كأنه حمد نفسه وعلَّم العباد حَمْدَه، وتقديره: «قولوا: الحمد لله».

وقوله: ﴿لله﴾ فاللام تكون للإضافة، وتكون للاستحقاق، يقال: أكل للدابة،

(١) كذا في «ك» ووقع في «الأصل»: هذا نعام بعد إنعام.

(٢) في «الأصل، و ك»: هو.

(٣) ليست في «الأصل»، والسياق يقتضيها.

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾

والدار لزيد، فاللام هاهنا بمعنى الاستحقاق، كأنه يقول: المستحق للحمد هو الله - تعالى -، وقد فرغنا عن تفسير قوله: ﴿لله﴾.

﴿رب العالمين﴾ وأما الرب يكون بمعنى التربية والإصلاح، ويكون بمعنى المالك. يقال: رب الضيعة يربيها، أى: أتمها وأصلحها. ويقال: رب الدار لمالك الدار. فالرب هاهنا يحمل كلا المعنيين؛ لأن الله - تعالى - مربى العالمين، ومالك العالمين.

وأما ﴿العالمون﴾ قال ابن عباس: هم الجن والإنس. وقال الحسن وقتادة، وأبو عبيدة: هم جميع المخلوقين. وقيل: الأول أولى؛ لأن الخطاب مع المكلفين الذين هم المقصودون بالخليقة وهم الجن والإنس. وقيل: الإنس عالم، والجن عالم. والله تعالى - وراءه أربع زوايا، فى كل زاوية ألف وخمسمائة عالم[1].

وقد فرغنا عن تفسير ﴿الرحمن الرحيم﴾ وإنما ذكره ثانياً لفائدة التوكيد.

قوله: ﴿مالك يوم الدين﴾ يقرأ بقراءتين: «مَالك، وملك». قال أبو حاتم السجستانى: «مالك» بالألف أولى؛ لأنه أوسع وأجمع، يقال: مالك الدار، ومالك الطير، ومالك العبد، ولا يستعمل منها اسم الملك.

وقال أبو عبيد، والمبرد: «ومَلك» أولى؛ لأنه أتم، فإن «الملك»[2] يجمع معنى «المالك»، والمالك لا يجمع معنى الملك، فإن كل ملك مالك، وليس كل مالك ملكًا، ولأنه أوفق لألفاظ القرآن، مثل قوله - تعالى -: ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾[3]، وقوله: ﴿لمن الملك اليوم﴾[4] ونحو ذلك فمالك: من المِلْك والملكة، ومَلك من المُلك

---

(١) هذا مروى عن أبى العالية من قوله، من طريق أبى جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس عنه كما فى تفسير الطبرى (١ / ٤٩). قال ابن حبان فى ترجمة الربيع بن أنس من الثقات (٤ / ٢٢٨): الناس يتقون من حديثه ما كان من رواية أبى جعفر عنه. قلت: ومثل هذا لايثبت إلا بما صح عن النبى ﷺ مرفوعًا.

(٢) تكررت من الناسخ فى «الأصل، و ك».

(٣) المؤمنون: ١١٦.

(٤) غافر: ١٦.

والملكة، والله – تعالى – مالك، وملك.

وأما ﴿ اليوم ﴾ اسم لزمان معلوم، والمراد بيوم الدين: يوم القيامة، ومعناه: يوم الحساب، ويوم الجزاء. وقد يكون الدين بمعنى الطاعة وبمعانٍشتى، ولكنه ها هنا على أحد المعنيين. فإن قال قائل: لمَ خص يوم الدين بالذكر، والله – تعالى – مالك الأيام كلها؟ يقال: إنما خصه لأن الأمر فى القيامة يخلص له، كما قال: ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾. وأما فى الدنيا للملوك أمر، وللمسلمين أمر، وللأنبياء أمر.

قوله: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعينُ ﴾، أما قوله: ﴿ إياك نعبد ﴾ بمعنى نحن نعبدك، والعبادة: هى الطاعة مع التذلل والخضوع، يقال: طريق مُعَبَّد: أى مذلَّل، ومعناه: نعبدك خاضعين.

﴿ وإياك نستعين ﴾ أى: نطلب منك المعونة، فإن قيل: لمَ قدم ذكر العبادة على الاستعانة؛ والاستعانة تكون قبل العبادة؟ ولمَ ذكر قوله: إياك مرتين، وكان يكفى أن يقول: إياك نعبد ونستعين؛ فإنه أوجز وألخص؟ يقال: أما الأول فإنما يلزم من يجعل الاستطاعة قبل الفعل، ونحن بحمد الله نجعل الاستعانة والتوفيق مع الفعل، سواء قرنه به أم أَخَّره جاز.

أو يقال: لأن الاستعانة نوع تَعَبُّدٍ، فكأنه ذكر جملة العبادة، ثم ذكر ماهو من تفاصيلها.

وأما قوله: ﴿ وإياك نستعين ﴾ إنما كرره لأنه لو اقتصر على قوله: إياك نعبد ونستعين؛ ليعلم أنه المعبود، وأنه المستعان، وعلى أن العرب قد تتكلم بمثل هذا، قد يدخل الكلام تجريداً أو تفخيماً وتعظيماً. ولا يعد ذلك عيباً، كما تقول العرب: «هذا المال بين زيد، وبين عمرو»، وإن كان يفيد قولهم: «المال بين زيد، وعمرو». مايفيد الأول، ولا يعد ذلك عيباً فى الكلام؛ بل عد تفخيماً وتجزيلا فى الكلام.

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

قوله: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ يعني: أَرْشِدْنا، وثَبِّتْنَا.

والهداية في القرآن على معان، فتكون الهداية بمعنى الإلهام، وتكون بمعنى الإرشاد، وتكون بمعنى البيان، وتكون بمعنى الدعاء.

أما الإلهام، قال الله - تعالى -: ﴿ ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾[1] أى: ألهم.

وأما الإرشاد، قوله - تعالى -: ﴿ واهدنا إلى سواء الصراط ﴾[2].

وأما البيان قوله: ﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾[3] أى: بينًّا لهم.

وأما الدعاء، مثل قوله - تعالى -: ﴿ ولكل قوم هاد ﴾[4] أى: داع، فهو بمعنى الاسترشاد ها هنا.

فإن قال قائل: أى معنى للاسترشاد، وكل مؤمن مهتد، فما معنى قوله: ﴿ اهدنا ﴾؟ قلنا: هذا سؤال من يقول بتناهي الألطاف من الله - تعالى -. ومذهب أهل السنة أن الألطاف والهدايات من الله - تعالى - لا تتناهى، فيكون ذلك بمعنى طلب مزيد الهداية، ويكون بمعنى سؤال للتثبيت، اهدنا بمعنى ثبتنا، كما يقال للقائم: « قم حتى أعود إليك ». أى: اثبت قائماً.

وأما ﴿ الصراط المستقيم ﴾ قال على، وابن مسعود: هو الإسلام. وقال جابر: هو القرآن.

وأصله في اللغة: هو الطريق الواضح، والإسلام طريق واضح، والقرآن طريق واضح.

---

(١) طه: ٥٠.

(٢) ص: ٢٢.

(٣) فصلت: ١٧.

(٤) الرعد: ٧.

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

وقد قال القائل:

أميرُ المؤمنينَ على صـــراطٍ   إذا اعْـــوَجَّ المـواردُ مستقيمُ

قوله: ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾، قد قرأ عمر – رضى االله عنه –: «صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين» ولكنه فى الشواذ، والمعروف هو القراءة المعهودة.

وقيل: «الذين أنعمت عليهم» هم الأنبياء. وقيل: كل من ثبته الله على الإيمان من النبيين والمؤمنين كافة.

وقال أبو العالية الرياحى: هم الرسول، وأبو بكر، وعمر.

وأما قوله: ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾. **آمين** .فالمغضوب عليهم هم اليهود، والضالون هم النصارى.

وروى عن عدى بن حاتم أنه جاء إلى النبى ﷺ ليسلم، وقال: «يارسول الله، من المغضوب عليهم؟ فقال: اليهود. وقال: فمن الضالون؟ فقال: النصارى. قال عدى: أشهد أنى حنيف مسلم. قال عدى: فرأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل، ويبتسم؛ فرحًا بإسلامى»[(١)].

وأما «آمين» فليس من القرآن. والسنة للقارئ أن يقف وقفة، ثم يقول: آمين.

وفيه لغتان: آمين بالمد، وأمين بالقصر. ومعناه: اللهم استجب. وقيل: إنه طابع الدعاء.

---

(١) أخرجه الترمذى فى السنن بنحوه مطولا (٥ / ١٨٦ – ١٨٧ / رقم ٢٩٥٣، ٢٩٥٤) وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث سماك بن حرب. وأحمد فى مسنده (٤ / ٣٧٨ – ٣٧٩) وسعيد بن منصور فى سننه (٢/ ٥٣٧ رقم ١٧٩) وابن جرير فى التفسير (١ / ٦١)، وابن أبى حاتم فى التفسير (١/ ٢٣ رقم ٤٠). والطبرانى فى الكبير (١٧/ ٩٩ – ١٠٠ رقم ٢٣٧). وابن حبان فى صحيحه – الإحسان – (١٤/ ١٣٩ – ١٤٠ رقم ٦٢٤٦)، (١٦/ ١٨٣ – ١٨٤ رقم ٧٠٢٦).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ١

القول فى تفسير سورة البقرة

اعلم أن سورة البقرة مدنية باتفاق الأئمة، وحكى عن بعض العلماء أنه قال: يكره تسميتها بسورة البقرة، والأولى أن يقال: السورة التى يذكر فيها البقرة، وكذا فى سائر السور من أمثالها. والأصح أنه يجوز؛ لما روى عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه رمى جمرة العقبة من بطن الوادى ثم قال: هذا والله مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة.

وروى عبد الله بن بريدة، عن أبيه، عن النبى ﷺ أنه قال: «تعلموا سورة البقرة؛ فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولايستطيعها البطلة»(١) أى: السحرة. وفى هذا دليل على فضيلة هذه السورة، وعلى جواز تسميتها سورة البقرة، وسمى بعض المتقدمين هذه السورة: فسطاط القرآن؛ لشرفها وفضلها.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٣٤٨، ٣٦١) والدارمى (٢/ ٥٤٣ رقم ٣٣٩١)، والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٦٠) وقال صحيح على شرط مسلم، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٦٢): رجاله رجال الصحيح. والحديث رواه الإمام مسلم فى صحيحه من حديث أبى أمامة (٦/ ١٣٠ رقم ٨٠٤) ولفظه: «اقرءوا ...».

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ﴾

قوله - تعالى -: ﴿ الٓمٓ ﴾ قال الشعبى وجماعة من المتقدمين، فى هذا وسائر حروف التهجى فى فواتح السور: والفائدة فى أوائل السور لا (يعلم)[1] معناها، وهى سر القرآن، ولكل كتاب سر، وسر القرآن حروف التهجى من فواتح السور، والفائدة من ذكرها طلب الإيمان بها، وأن يعلم أنها من عند الله - تعالى -.

وقال غيرهم: هى معلومة المعانى. وقال ابن عباس - رضى الله عنهما -: معنى قوله: ﴿آلم﴾ أنا الله أعلم، وكل حرف يدل على معنى، والألف دليل قوله: «أنا»، واللام دليل قوله: «الله»، والميم دليل قوله: «أعلم».

وكذا قال فى أمثاله، فقال فى ﴿آلمص﴾: معناه: أنا الله أعلم وأفصل. وفى ﴿آلمر﴾: أنا «الله» أعلم وأرى. وفى ﴿آلر﴾: أنا الله أرى.

قال الزجاج: هذا حسن، وبمثله قالت العرب فى قولها. فإن العرب قد تأتى فى كلامها بحرف وتريد به معنى، كما قال القائل:

قُلتُ لَها قِفِى فقالتْ قَافْ[2] لاتَحسَبِى أنَّا نَسينَا الإيجافْ

ومعنى قولها قاف، أى: وقفت. فدل الحرف على معنى، كذا هذا.

وقال قتادة فى حروف التهجى: إنها اسم للقرآن.

وقال مجاهد: إنها أسماء للسور وقال غيرهم: هو قسم، أقسم الله - تعالى - بهذه الحروف؛ لشرفها وفضلها؛ لأنها مبانى كُتُبِه المنزلة.

قوله - عز وجل -: ﴿ ذلك الكتاب لاريب فيه ﴾، أما قوله: ﴿ ذلك الكتاب ﴾ أى: هذا الكتاب، كما قال القائل:

---

(١) فى «ك»: يعرف.

(٢) البيت هكذا مكسور، وفى تفسير الطبرى (١ / ٧٠): قلنا لها قفى لنا قالت قاف... وجاء فى تفسير القرطبى (١ / ١٥١) كما فى الأصل.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾

أَقُولُ لَهُ والرّمْحُ يأْطِرُ مَتْنَهُ   تَأَمَّلْ خِفَافًا إنّنى أنا ذَلِكَا

[أى][(١)]: أننى أنا هذا. وقيل: هذا مضمر فيه، ومعناه: هذا ذلك الكتاب الذى وعدتك يامحمد أن أنزله عليك على لسان الذين قبلك، و« هذا » للتقريب و« ذلك » للتبعيد.

فأما ﴿الكتاب﴾ هو القرآن، والكتاب بمعنى المكتوب كما يقال: « ضَرْبُ الأمير » أى: مضروبه.

﴿لاريب فيه﴾ أى: لاشك فيه. فإن قال قائل: كيف أخبر قال: « لاريب فيه » وقد ارتاب فيه كثير من الناس، وخبر الله – تعالى – لايكون بخلاف مخبره؟ يقال: معناه أنه الحق والصدق لاشك فيه.

وقيل: هو خبر بمعنى النهى، أى: لاترتابوا فيه.

قوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾ والهدى بمعنى الرشد والبيان.

وأما المتقون مأخوذ من الاتقاء و التقوى. وأصله الحجز بين شيئين، ومنه يقال: اتقى بترسه، أى: جعله حاجزاً بين نفسه وبين ما قصد به من المكروه. وفى الخبر « كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله ﷺ »[(٢)]. أى: « اشتدت الحرب » جعلناه حاجزاً بيننا وبين العدو.

فكأن المتقى يجعل امتثال أمر الله والاجتناب عن نهيه حاجزاً بينه وبين العذاب فيتحرز بطاعة الله عن عقوبة الله.

فإن قال قائل: لِمَ خص المتقين بالذكر وهو هدى لجميع المؤمنين؟ قيل: إنما خصهم بالذكر تشريفاً، أو لأنهم هم المنتفعون بالهدى، حيث نزلوا منزل التقوى دون غيرهم،

---

(١) فى « الأصل »، و « ك »: إلى.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢ / ١٦٩ – ١٧٠ رقم ١٧٧٦) من حديث البراء بنحوه.

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾

فلهذا خصهم به.

قوله – تعالى – :﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ﴾

قوله: ﴿ الذين ﴾ نعت المتقين ﴿ يؤمنون ﴾ من الإيمان. وهو التصديق، قال الله تعالى: ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾(١) أي: بمصدق لنا.

والإيمان في الشريعة يشتمل على الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان. وقيل: الإيمان مأخوذ من الأمان، فسمى المؤمن مؤمناً؛ لأنه يؤمِّن نفسَه من عذاب الله. والله مؤمن؛ لأنه يؤمِّن العباد من عذابه.

﴿ بالغيب ﴾ قال ابن عباس: الغيب كل ما أمرت بالإيمان به مما غاب عن بصرك، وذلك مثل الملائكة، والجنة، والنار، والصراط، والميزان، ونحوها.

وقال غيره: الغيب ها هنا هو الله تعالى.

وقال ابن كيسان: أراد به القدر. ﴿ يؤمنون بالغيب ﴾،أي: بالقدر.

﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ أي: يديمون الصلاة. وحقيقة إقامة الصلاة المحافظة على أدائها بأركانها وسننها وهيئاتها.

فالصلاة في اللغة: الدعاء، وقد ورد في الخبر: «من دُعِيَ إلى الطعام فَلْيُجبْ، فإن كان مفطراً فليأكل، وإن كان صائماً فليُصَلِّ»(٢). أي: فليدع. وقد قال الشاعر:

تقولُ بِنْتِي وقد[قَرُبْتُ](٣) مُرْتَحِلاً ... يارب جَنِّبْ أَبي الأوصابَ والوَجَعا

(١) يوسف: ١٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٩ / ٣٣٤ رقم ١٤٣١) وأبو داود (٢ / ٣٣١ رقم ٢٤٦٠)، وأحمد (٢ / ٥٠٧)، والبيهقي في الكبرى (٧ / ٢٦٣) من حديث أبي هريرة مرفوعا بنحوه.

(٣) كذا في تفسير القرطبي (١ / ١٦٤)، ووقع في «الأصل»، و«ك»: عربت، أوله عين.

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

عَلَيكِ مثلُ الذى صَلَّيتُ فاغْتَمِضِى عَيْناً فإن بِجَنْبِ المرءِ مُضْطَجَعا(١)

معنى قوله: صليت أى: مثل الذى دعوت.

وقيل: الصلاة من الله الرحمةُ، ومن الملائكة الاستغفارُ، ومن الناس الدعاءُ، وهى فى الشريعة تشتمل على أفعال مخصوصة وعلى الثناء والدعاء.

قوله: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أما الرزق اسم لكل ما ينتفع به الخلق، فيدخل فيه الولد والعبد.

﴿ينفقون﴾ من الإنفاق، وأصله الإخراج، ومنه نفاق السوق؛ لأنه تخرج فيه السلعة ويقال: نفقت الدابة إذا خرجت روحها، فهذه الآية فى المؤمنين من مشركى العرب.

قوله – تعالى –: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾

وهذه الآية فى المؤمنين من أهل الكتاب؛ لأنهم هم الذين آمنوا بالقرآن وسائر الكتب قبله، وقد روى فى حديث صحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «من آمن بالكتب المتقدمة وآمن بالقرآن يؤتى أجره مرتين»(٢). وعليه دل نص القرآن ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾(٣).

وقوله: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ فالآخرة هى دار الآخرة. وسميت الدنيا دنيا؛ لدنوها من الخلق، وسميت الآخرة آخرة؛ لتأخرها عن الخلق.

---

(١) وقع هذا الشطر من البيت فى تفسير القرطبى كما يأتى: نوماً فإن لجنب المرء مضطجعًا

(٢) هكذا أورده المصنف بالمعنى كشأنه فى كثير من الأحاديث وأصل الحديث فى الصحيحين من حديث أبى موسى: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبى ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه، فله أجران....». رواه البخارى (١/ ٢٢٩ – رقم: ٩٧) وانظر أطرافه فى ٢٥٤٤، ٢٥٤٧، ٢٥٥١، ٣٠١١، ٣٤٤٦، ٥٠٨٣). ومسلم (٢/ ٢٤٥ – ٢٤٦/ رقم ١٥٤).

(٣) القصص: ٥٤.

أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

﴿هم يوقنون﴾ من الإيقان وهو العلم، وقيل: الإيقان واليقين: علم عن استدلال، ولذلك لايسمى الله تعالى موقناً إذ ليس علمه عن استدلال.

قوله – تعالى –: ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾

فقوله: ﴿أولئك﴾ يعنى الذين وصفهم ﴿على هدى﴾ أى: على رشد وبيان من ربهم. فإن قيل: لم ذكر الهدى ثانيا وقد وصفهم بالهدى مرةً؟ قيل: كرره لفائدة التأكيد. أو يقال: الهدى الأول من القرآن، والهدى الثانى من الله، وفيه بيان أن الهداية من الله – تعالى – ومن كلامه كما هو مذهب أهل السنة.

وأما ﴿المفلحون﴾ من الفلاح، والفلاح يكون بمعنى البقاء. يقال: افلح بما شئت. أى: ابق بما شئت. وقد يكون بمعنى الفوز والنجاة. وأصل الفلاح القطع والشق، ومنه سمى [الزارع][1] فلاحا؛ لأنه يشق الأرض. وفى المثل: «الحديد بالحديد يُفْلَح»، أى: يشق. قال الشاعر:

قدَ علِمتَ يَابْنَ أم صَحْصَحِ — أنَّ الحـديدَ بالحديدِ يُفْلَحُ

أى: يشق. فمعنى المفلحين أنهم الباقون فى نعيم الأبد، والفائزون به، والمقطوع لهم بالخير فى الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا﴾ فالكفر مأخوذ من الكَفْرِ وهو الستر والتغطية، ومنه يقال لليل: كافر؛ لأنه يستر الأشياء بظلمته، وسمى الزارع[1] كافرا؛ لأنه يستر الحب بالتراب، ويسمى الكافر كافراً؛ لأنه يستر نعم الله – تعالى – بكفره ويصير فى غطاء من دلائل الإسلام وبراهينه.

وقيل: الكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار، وكفر جحد، وكفر عناد، وكفر نفاق.

---

(١) فى «الأصل» و «ك»: الزراع.

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

فكفر الإنكار هو أن لايعرف الله أصلاً، أو لا يعترف به.

وكفر الجحد: هو أن يعرف الله - تعالى -، ولكن يجحده، ككفر إبليس.

وكفر العناد: هو أن يعرف الله - تعالى - بقلبه، ويعترف بلسانه، ولكن لايتدين به ولايتخذه دينا، ككفر أبى طالب؛ فإنه عرف الله ورسوله بقلبه وأقر بلسانه حتى قال:

ولقدْ علِمْتُ بأنَّ دين مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيرِ أَدْيَانِ البَرِيَّة دِينَا

لولا المَلامةُ أو حذارُ مَسَبَّةٍ ... لوجَدْتَنِي سَمْحًا بذاكَ مُبِينَا

وأما كفر النفاق: أن يعترف باللسان ولايعتقد بالقلب؛ فهذه أنواع الكفر ؛فمن لقى الله - تعالى - بنوع منها لم يعف[1].

قوله - تعالى -: ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ﴾

﴿ سواء عليهم ﴾ أى: مستو عليهم. ﴿ أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ أى: خَوَّفْتَهُمْ أم لم تخوفهم. والإنذار: تخويف مع الإعلام.

وقيل: هو أشد التخويف. يعنى: سواء خوفتهم أم لم تخوفهم لا يؤمنون. وردت هذه الآية فى قوم بأعيانهم علم الله - تعالى - أنهم لايؤمنون.

قوله - تعالى -: ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾

ذكر فى الآية الأولى أنهم لايؤمنون، وذكر فى هذه الآية عِلَّتَهُ، فقال: ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ والختم: هو الطبع، وحقيقته: الاستيثاق من الشىء؛ كيلا يدخله ما هو خارج منه، ولايخرج عنه ما هو داخل فيه، ومنه الختم على الباب.

فقوله: ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ ذكر ابن كيسان أقوالاً فى معناه: أحدها: أى: جازاهم على كفرهم بأن[2] ختم على قلوبهم.

---

(١) كذا بالأصل، و«ك»، ولعل الصواب: لم يعف عنه. والله أعلم

(٢) فى «الأصل»، و «ك»: ناراً.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

والثانى وهو قول أهل السنة أى: ختم على قلبهم بالكفر؛ لما سبق من علمه الأزلى فيهم.

وحُكِىَ قول ثالث: أن معناه: جعل على قلوبهم علامة تعرفهم الملائكة بها، وهذا تأويل أهل الاعتزال، نبرأ إلى الله منه.

وحكى أبو عمر غلام ثعلب، عن ثعلب، عن إبراهيم الأعرابى: أن الختم هو منع القلب من الإيمان، ذكره فى كتاب الياء.

قوله: ﴿ وعلى سمعهم ﴾ أى: أسماعهم، ذكر الجمع بلفظ (الواحد)[1]، ومثله كثير فى القرآن. معناه: على موضع سمعهم، فختم على قلوبهم؛ كيلا يقبلوا الحق، وعلى سمعهم؛ كيلا يسمعوا الحق.

قوله تعالى: ﴿ وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ هذا ابتداء الكلام ومعناه: على أبصارهم غطاء.

﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ أى: كبير، وصف عذاب الآخرة بالعظم ولاشك أنه عظيم.

قوله - تعالى -: ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ قال الكلبى: ورد هذا فى شأن اليهود. وأكثر المفسرين على أنه فى شأن المنافقين. ومعناه: ومن الناس ناس تقول آمنا بالله وباليوم الآخر يعنى: القيامة. ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾ نفى الإيمان عنهم؛ حيث أظهروا الإسلام باللسان ولم يعتقدوا بالجنان. وهذا دليل على من يخرج الاعتقاد من جملة الإيمان.

قوله - تعالى -: ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ الآية: المخادعة، والخدع بمعنى واحد وحقيقة المخادعة: أن يظهر شيئًا ويبطن خلافه.

---

(١) فى الأصل: الوحدان.

﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا

وقال ابن الأعرابى فى كتاب الياء: قوله: المخادعة مَنْعُ القلب من الحق، قاله فى حق المنافقين حيث أظهروا الإسلام باللسان وأبطنوا خلافه.

فإن قال قائل: ما معنى قوله: ﴿ يخادعون الله ﴾ وهذا يوهم الشركة فى المخادعة، وقد جل الله - تعالى - عن المشاركة فى المخادعة؟! الجواب: قال الحسن البصرى: معناه يخادعون نبى الله.

وقال غيره من المفسرين معناه: يعاملون الله معاملة المخادعين.

فأما قوله: ﴿ وما يخادعون إلا أنفسهم ﴾ يقرأ بقراءتين: «يخادعون، ويخدعون». فمن قرأ: «يخادعون»[١] فهو على المشاكلة؛ لأنه ذكر الأول بلفظ المخادعة، وهذا شكله فذكره بلفظه.

ومن قرأ: «يخدعون»[٢] فهو على الأصل، وعلى أن لفظ المخادعة لا يقتضى المشاركة، بين اثنين، ومثله: طرقت النعل، وطارقت النعل، ومثله كثير فى ألفاظ المفاعلة.

فمعنى قوله ﴿ وما يخادعون إلا أنفسهم ﴾ أى: وبال خديعتهم راجع إليهم ﴿ وما يشعرون ﴾ أى: لايعلمون ذلك. يقال: شعرت بمعنى علمت، ومنه قولهم: ليت شعرى؛ أى: ليت أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فى قلوبهم مرض ﴾ الآية، أراد بالمرض الشك والنفاق، بإجماع المفسرين.

ويوصف القلب والدين بالمرض والصحة كما يوصف البدن به.

﴿ فزادهم الله مرضا ﴾ أى: شكًّا ونفاقا؛ فإنه لما نزلت الآيات آية بعد آية فكلما كفروا بآية ازدادوا كفرا ونفاقاً، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وأما الذين فى قلوبهم

(١) هى قراءة نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، انظر النشر فى القراءات العشر (٢ / ٢٠٧).

(٢) هى قراءة حفص، وحمزة، والكسائى، وابن عامر، انظر المصدر السابق.

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ

مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم ﴾[١].

قوله تعالى: ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أى: مؤلم. فعيل: بمعنى: مُفْعِل؛ كما قال القائل:

أَمِن رَيحَانةِ الداعى السميعِ ... يُؤرِّقُنى وأصحابى هُجُوع خفية

وأراد بالسميع المسمع.

قوله - تعالى -: ﴿ بما كانوا يكذبون ﴾ قرئ بقراءتين: مخفف[٢] ومعناه: يكذبون بما أظهروا من الإسلام وأبطنوا خلافه، وهو مثل قوله: ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾[٣].

وقرئ: «يكذِّبون»[٤] مشدداً، ومعناه: يكذِّبون الرسول.

قوله - تعالى -: ﴿ وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض ﴾ معناه: لا تكفروا، والكفر أشد فساداً فى الأرض.

﴿ قالوا إنما نحن مصلحون ﴾ يعنى: أن الذى أظهرنا من الإسلام واستفدنا به من العز والأمان مصلحة لنا ونحن مصلحون به.

﴿ ألا إنهم هم المفسدون ﴾ هذا ابتدأ كلام من الله. وقوله: (ألا) للتنبيه؛ قال الشاعر:

أَلاَ إِنَّ هـذا الدَّهْرَ يَوْمٌ ولَيْلَةٌ ... ولَيْسَ عَلَى شَىءٍ قديم بِمُسْتَمِرٌ

يقول الله - تعالى -: ﴿ **ألا إنهم هم المفسدون** ﴾ يعنى: بما أظهروا من الإسلام وأبطنوا خلافه، فهو فساد؛ وإن ظنوه صلاحا، وأظهروا خلاف ما أبطنوا.

﴿ ولكن لايشعرون ﴾ أى: لا يعلمون.

---

(١) التوبة: ١٢٥.

(٢) هى قراءة الكوفيين حفص، وحمزة والكسائى، وخلف. انظر النشر (٢/٢٠٧).

(٣) المنافقون: ١.

(٤) هى قراءة الباقين. انظر النشر (٢/٢٠٨).

وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

فإن قيل: كيف يلزمهم الحجة إذا كانوا لا يعلمون؟

قيل: يلزمهم الحجة بما أوضح من السبيل، ونصب من الدلائل، وجهلهم لا يكون عذرا لهم.

قوله تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس... ﴾ الآية. كما آمن الناس يعنى: المهاجرين والأنصار.

﴿ قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾ سموهم سفهاء فأجابهم الله - تعالى - بقوله: ﴿ ألا إنهم هم السفهاء ﴾

والسفيه خفيف العقل رقيق الحلم؛ من قولهم: ثوب سفيه، أى: رقيق بالٍ

يقول: هم الذين خفت عقولهم، ورقت أحلامهم ﴿ ولكن لايعلمون ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا... ﴾ الآية، معناه: وإذا لقوا المهاجرين والأنصار قالوا: آمنا. أظهروا الإسلام باللسان.

﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ أى: بشياطينهم، يذكر «إلى» بمعنى «الباء» لأن الصلات يقوم بعضها مقام البعض. والشيطان: كلُّ عاتٍ متمرد من الجن والإنس، وأصله: البعد والامتداد. يقال: بئر شطون، أى: بعيد العمق والقعر. ويقال للحبل: شطن؛ لامتداده. وسمى الشيطان شيطانًا؛ لامتداده فى الشر وبعده عن الخير.

فأراد بالشياطين هاهنا عتاتهم ورؤساءهم فى الكفر. يقول: إذا خلوا برءوسهم، قالوا: إنا معكم فى دينكم ﴿ إنما نحن مستهزئون ﴾ بما أظهرنا من الإسلام مع المهاجرين والأنصار.

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ

وقوله – تعالى –: ﴿ الله يستهزئ بهم . . . ﴾ الآية. فإن قال قائل: ما معنى الاستهزاء من الله – تعالى –؟ قلنا فيه أقوال: قال بعضهم: معناه يجازيهم على صنيعهم، إلا أنه سماه الله استهزاء؛ لأنه جزاء الاستهزاء؛ كما قال: ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾[1] وإن لم يكن الجزاء سيئة حقيقة.

وقال بعضهم: يستهزئ بهم أى يعيبهم، ومنه قوله تعالى: ﴿ يكفر بها ويستهزأ بها ﴾[2] أى: يعاب كذلك هذا.

وقال أهل الرواية معناه: الله يستهزئ بهم فى الآخرة، والاستهزاء بهم فى الآخرة يحتمل وجهين؛ أحدهما: أن يضرب للمؤمنين على الصراط نوراً يمشون به، وإذا وصل المنافقون إليه حال بينهم وبين المؤمنين، فذلك الاستهزاء بهم؛ كما قال: ﴿ فضرب بينهم بسورٍ له باب ﴾[3].

والثانى: أنه يقربهم من الجنة، حتى إذا رأو زهرتها وحسنها وبهجتها، واستنشقوا رائحتها صرفهم عنها إلى النار، فذلك الاستهزاء بهم، وقد نطق عنه – عليه الصلاة والسلام بمعناه حديث فى الصحاح.

قوله: ﴿ ويمدهم ﴾ أى، يمهلهم حتى يستدرجهم. ﴿ فى طغيانهم ﴾ أى: ضلالتهم. ﴿ يعهمون ﴾ أى: يتحيرون، قال الشاعر:

ومهمه أطرافها فى مَهْمَهٍ[4]   أَعْمَى الهُدَى بالجاهلِينَ العُمَّهِ

قوله تعالى: ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ لأن معناه: اختاروا الكفر على الإيمان؛ لأنهم لما آثروا أشياء على شىء فكأنهم استبدلوا هذا بذلك ﴿ فما

---

(١) الشورى: ٤٠.

(٢) النساء: ١٤٠.

(٣) الحديد: ١٣.

(٤) والمَهْمَهُ: المفازة البعيدة، أو البلدة المقفرة. انظر لسان العرب مادة (مهه).

يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا

ربحت تجارتهم ﴾ أى: فما ربحوا فى تجارتهم. ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً ﴾ الآية. المثل: قول سائر فى عرف الناس، يعرف به معنى الشىء من الشىء. وهذا أحد أقسام القرآن؛ فإن القرآن على سبعة أقسام.

وقيل: مثلهم، أى: صفتهم. ﴿ كمثل الذى استوقد ناراً... ﴾ أوقد النار، واستوقد بمعنى واحد، كما يقال: أجاب، واستجاب.

وقيل: أوقد إذا فعل بنفسه، واستوقد إذا طلب الإيقاد من غيره. ﴿ فلما أضاءت ماحوله ﴾ يعنى: أضاءت النار الموقدة حول المستوقد. ضربه مثلا للمنافقين ومعنى هذا المثل– قوله تعالى: ﴿ كمثل الذى استوقد ناراً ﴾ – ضربه مثلا لما أظهروا باللسان من الإسلام.

﴿ فلما أضاءت ما حوله ﴾ يعنى: ما استفادوا بذلك الإسلام الظاهر من التجمل والعز والأمان فى الدنيا.

﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ قيل: فيه معانٍ: أحدها: ذهب الله بما أظهروا من الإسلام بإظهار عقيدتهم على لسان النبى ﷺ.

وقيل: معناه ذهب الله بنورهم، يعنى فى القبر. وقيل: فى القيامة؛ يعنى أن ما استفادوا به فى الدنيا لا ينفعهم فى الآخرة إذا كان مصيرهم إلى النار.

فإن قال قائل: كيف قال: ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ ولا نور لهم، وقال فى موضع آخر: ﴿ يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾(١) ولا نور لهم؟ قيل: أراد به نور ما أظهروا من الإسلام؛ وذلك نوع نور.

وقيل: قد يذكر مثله على معنى الحرمان كما يقال: أخرجتنى من صلتك، وإن لم

(١) البقرة: ٢٥٧.

حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ

يكن داخلاً فى صلته. بمعنى: أنك حرمتنى صلتك، كذلك قوله – تعالى –: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ أى: حرمهم ذلك النور. ﴿وتركهم فى ظلمات﴾ أى: شدائد ﴿لا يبصرون﴾ الحق.

قوله: ﴿صم بكم عمى فهم لايرجعون﴾ فالصُّمُّ: جمع الأَصَمِّ، وهو الذى لا يسمع، والبُكْمُ: جمع الأَبْكَم، وهو الذى لا ينطق، ووُلِدَ على الخرس.

والعُمْىُ: جمع الأَعْمَى، وهو الذى لا يبصر؛ فمعناه أنهم صم لا يبصرون الحق، ولا يعرفونه كأنهم لم يسمعوا؛ وهو مثل قول الشاعر:

* أَصَمُّ عمَّا ساءَهُ سَمِيعُ *

أى: لا يسمع ما ساءه مع كونه سميعا.

﴿بكم﴾ يعنى: أنهم لما أبطنوا خلاف ما أظهروا؛ فكأنهم لم ينطقوا بالحق.

﴿عمى﴾ أى: لا بصائر لهم، ومن لا بصيرة له كمن لا بصر له.

﴿فهم لا يرجعون﴾ عما هم عليه من الضلالة.

قوله تعالى: ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق...﴾ الآية. فالصَّيِّب: المطر، وكل مانزل من الأعلى إلى الأسفل فهو صيِّب، من قولهم: صَابَ يَصُوبُ، إذا نزل.

وقيل: الأَهْل مضمر فيه، أى: كأَهْل الصيب؛ كقوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾(١) أى: أهل القرية.

﴿من السماء﴾ كل ما علا فهو سماء. فالسقف سماء، والسحاب سماء، وما فوقه سماء، وأراد به السحاب ههنا.

﴿فيه ظلمات﴾ يعنى: فى السحاب؛ لأنه لا يخلو عن ظلمة، ألا تراه يغشى وجه

---

(١) يوسف: ٨٢.

وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾

الشمس ﴿ ورعد وبرق ﴾ قال على وابن عباس وأكثر المفسرين: إن الرعد صوت ملك يزجر السحاب، والبرق لمعان سوط فى يد ملك يضرب به السحاب يسوقه إلى حيث قدره الله تعالى .

وفى الخبر أن النبى ﷺ قال: «إذا سمعتم صوت الرعد فاذكروا الله فإنه لايصيب ذاكرا»[1] . وكان ﷺ إذا سمع صوت الرعد يقول: «اللهم لاتقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»[2].

وقيل: الرعد اسم الملك. وقيل: صوت [اختناق][3] الريح إلى السحاب. والأول أصح.

﴿ يجعلون أصابعهم فى أذانهم من الصواعق ﴾ يعنى: من صوت العذاب، حذر الموت. وقيل: الصاعقة قطعة من العذاب ينزلها الله - تعالى - على من يشاء وعليه دل قوله - تعالى -: ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾[4] ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أى جامعهم. قال مجاهد: يجمعهم فيعذبهم. والإحاطة بالشىء جمعه بحيث لا يشذ منه شىء، والإحاطة من الله - تعالى - تكون بالقهر والاقتدار والعلم.

ومعنى المثل فى هذا: أما قوله: ﴿ أو كصيب من السماء ﴾ يعنى: إن شئت مثلهم بالمستوقد وإن شئت مثلهم بالصيب، أى بأهل الصيب. ضرب الصيب مثلاً لما أظهروا

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١٦٤ رقم ١١٣٧١) وفى الدعاء (٢/ ١٢٦٠ رقم ٩٨٢)؛ وأبو الشيخ فى العظمة ص٢٦٨ رقم ٧٨٦ من حديث ابن عباس. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٩): فيه يحيى بن كثير أبو النضر، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد (ص٢١٢)، والترمذى (٥/ ٤٦٩ رقم ٣٤٥٠)، والنسائى فى الكبرى (٦/ ٢٣٠ رقم ١٠٧٦٣، ١٠٧٦٤)، وأحمد فى مسنده (٢/ ١٠٠ - ١٠١)، والحاكم (٤/ ٢٨٦) وصحح إسناده والبيهقى فى الكبرى (٣/ ٣٦٢) وابن السنى فى عمل اليوم والليلة (ص١١٠ رقم ٣٠٤) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما وقال الترمذى: غريب.

(٣) فى «الأصل»، و«ك»: الخناق، وهو تصحيف والصواب ما أثبتناه. انظر تفسير الطبرى (١/ ٣٤١).

(٤) الرعد: ١٣.

يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

باللسان من الإسلام.

﴿ فيه ظلمات ﴾ مثل لما فى الإسلام من البلايا والمحن والشدائد ﴿ ورعد ﴾ مثل لما فيه من المخاوف فى الآخرة.

﴿ وبرق ﴾ لما فيه من الوعد والوعيد.

وقيل: ضرب الصيب مثلا للقرآن الذى كانوا يقرءونه باللسان؛ لأن فى القرآن حياة الباطن كما فى الماء حياة الظاهر. ﴿ فيه ظلمات ﴾ مثل لما ذكرنا فى القرآن من أنواع الكفر والنفاق، ﴿ **ورعد** ﴾ مثل لما ذكرنا فيه من الوعيد ﴿ **وبرق** ﴾ مثل لما فيه من البيان.

﴿ يجعلون أصابعهم فى آذانهم ﴾ يعنى: أن المنافقين إذا رأوا فى الإسلام بلاء وشدة، هربوا وتأخروا؛ حذراً من الهلاك.

﴿ والله محيط بالكافرين ﴾ يعنى: لاينفعهم حذرهم؛ لأن الله - تعالى - من ورائهم يجمعهم فيعذبهم.

قوله تعالى: ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم... ﴾ الآية ﴿ يكاد ﴾ كلمة القرب، يكاد يفعل، أى: قرب يفعل ﴿ يخطف أبصارهم ﴾ والخطف: استلاب بسرعة. وهذا من تمام المثل، ومعناه على القول الأول: تكاد دلائل الإسلام تزعجهم إلى النظر لولا ما سبق لهم من الشقاوة.

ومعناه على القول الآخر: يكاد القرآن يبهر قلوبهم.

﴿ كلما أضاء لهم مشوا فيه ﴾ معناه: كلما نالوا غنيمة وراحةً ثبتوا على الإسلام. ﴿ وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ يعنى: كلما رأوا شدة وبلاء تأخروا. وقاموا، أى: وقفوا.

﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: لو شاء

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

الله لذهب بما استفادوا من العز والأمان الذى لهم بمنزلة السمع والبصر.

والثانى معناه: ولو شاء الله لذهب بأسماعهم وأبصارهم الظاهرة؛ كما ذهب بأسماعهم وأبصارهم الباطنة.

﴿إن الله على كل شىء قدير﴾ يعنى: قادر.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم...﴾ الآية، قال ابن عباس: كل ما ورد فى القرآن من قوله: ﴿يا أيها الناس﴾ فإنما نزل بمكة، وكل ما ورد من قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فإنما نزل بالمدينة.

وقوله: ﴿يا أيها الناس﴾ يعنى: يا هؤلاء الناس. وهذا وإن عمت صيغته ولكن دخله الخصوص؛ فإنه لايتناول الصغار والمجانين. ﴿اعبدوا﴾ أى: وحدوا.

قال ابن عباس: كل ما ورد فى القرآن من العبادة فهو بمعنى التوحيد، وكل ما ورد فى القرآن من التسبيح والسبحة فهو بمعنى الصلاة.

وقوله: ﴿اعبدوا ربكم الذى خلقكم﴾ أى: وحِّدوا الله الذى خلقكم. وإنما خاطبهم به؛ لأن الكفار مُقرُّونَ أن الله خالقهم، والخَلْقُ: هو اختراع الشىء على غير مثال سبق. ﴿والذين من قبلكم﴾ أى: وخلق الذين من قبلكم. فإن قيل: أى فائدة فى قوله: ﴿والذين من قبلكم﴾ فإن مَنْ عرف أن الله خالقه فقد عرف أنه خالق غيره من قبله؟ قيل: فائدته المبالغة فى البيان، أو يقال: فائدته المبالغة فى الدعوة، يعنى: إذا كان الله خالقكم وخالق من قبلكم فلا تعبدوا إلا إياه. وفيه إشارة لأنه خلق الأولين وأماتهم وابتلاهم فى الدنيا والآخرة؛ فأشار بهذا إلى أنى أفعل بكم ما فعلت بهم.

﴿لعلكم تتقون﴾ قيل معناه: لكى تتقوا، قاله أبو عبيدة، وقيل معناه: كونوا

الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

على رجاء التقوى. فإن قال قائل: التقوى [هى](١) العبادة، فأى شيء معنى قوله: اعبدوا لكى تعبدوا؟ قلنا معناه: اعبدوه وكونوا على حذر منه، وهذا دأب العابد أن يعبد الله ويكون على حذر منه. وقيل معناه: اعبدوه وكونوا على رجاء التقوى؛ بأن تصيروا فى ستر ووقاية من عذاب الله تعالى، وحكم الله من ورائكم يفعل بكم ما يشاء؛ وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾(٢) أى: ادعواه إلى الحق وكونا على رجاء التذكر والخشية منه. وحكم الله وراءه يفعل به ما يشاء.

قوله تعالى: ﴿الذى جعل لكم الأرض فراشا﴾ الآية. هذا راجع إلى ما تقدم يعنى: اعبدوا الذى جعل لكم الأرض فراشا، والجعل ها هنا بمعنى: الخلق ﴿فراشا﴾ أى: بساطا، وقيل: وطاء. وقيل: مقاما. يعنى لكم الأرض قرارا لتكونوا عليها ﴿والسماء بناء﴾ أى: سقفا ﴿وأنزل من السماء ماء﴾ إنما أضافه إلى السماء وإن كان ينزل من السحاب؛ لأنه ينزل من جهة السماء.

﴿فأخرج به من الثمرات رزقا لكم﴾ قيل: الرزق هو كل ما يؤكل. وقيل: كل ما ينتفع به. ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾ قال قتادة: الند: هو المثل. وقال أبو عبيدة: الند هو الضد. وهذا من الأضداد، والله - تعالى - برىء عن المثل والضد. قال حسان بن ثابت فى مدح رسول الله ﷺ:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِندٍّ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ

يعنى: ولست له بمثل؛ قال لبيد:

أَحْمَدُ اللهَ فَلاَ نِدَّ لَهُ ... بِيَدَيْهِ الخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلْ

(١) في «الأصل»: هو.

(٢) طه: ٤٤.

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾

أى: لا مثل له. ومعنى قوله: ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾ أى: لا تتخذوا من دونه أربابا تعبدونهم كعبادة الله، وتطيعونهم كطاعة الله لا أن له مثلا، أو لا مثل لله – تعالى –.

﴿وأنتم تعلمون﴾ أى: فلا تعبدوا غيره وأنتم تعلمون أنه خالقكم وخالق السموات و الأرض. قوله – تعالى –: ﴿وإن كنتم فى ريب﴾ أى: شك. فإن قيل: كيف ذكره على التشكيك وهم فى ريب على التحقيق؟ قيل: مثله جائز فى كلام العرب؛ كما يقول الرجل لغيره: إن كنت رجلا فافعل كذا؛ وإن عرف أنه رجل على التحقيق. قيل: أراد به «وإذ كنتم» فيكون على التحقيق، ﴿مما نزلنا﴾ من القرآن ﴿على عبدنا﴾ يعنى: على الرسول ﷺ.

﴿فأتوا بسورة﴾ السورة: اسم للمنزلة الرفيعة؛ ومنه سورة البناء؛ لارتفاعه. قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أنَّ اللّـهَ أعطـاكَ سُـورَةً ... تَرَى كُلَّ شيءٍ دونَها يَتَذَبْذَبُ

أى: أعطاك سورة منزلة، أى: منزلة رفيعة. وسميت سورة القرآن سورة؛ لأن القارئ ينال بقراءة كل سورة منزلة؛ حتى يستكمل جميع المنازل باستكمال القرآن، وقيل: السورة اسم لقطعة من القرآن معلوم الأول والآخر، ومنه سؤر الطعام لما بقى منه. وفى الخبر «إذا أكلتم فاسأروا»[١] أى: أبقوا بقية. وإنما نزل القرآن سورة سورة حتى [أن][٢] القارئ كلما قرأ سورة وافتتح أخرى ازداد نشاطا، فيكون أنشط فى القراءة، أو لأنه ربما لايمكنه حفظ جميع القرآن فيحفظ بعض السور.

﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ وقوله: ﴿من مثله﴾ فيه معنيان: أحدهما – قاله ابن

(١) ذكره السخاوى فى المقاصد الحسنة (ص٨١ رقم ٥٤) بلفظ: «إذا أكلتم فافضلوا» وبيض له، وقال العجلونى فى كشف الخفا (١/ ٨٦): قال النجم لم أجده حديثًا، بل فى الحديث ما يعارضه. وفى النهاية لابن الأثير (مادة سأر): «إذا شربتك فاسئروا» أى أبقوا منه بقية.

(٢) ليست فى «الأصل»، و لا «ك».

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

عباس وجماعة -: أراد به من مثل القرآن. فإن قيل: كيف قال: من مثل القرآن، ولا مثل له؟ قيل: أراد به من مثله على زعمهم.

وفيه قول آخر: أنه أراد به من مثل محمد؛ لأنهم كانوا يقولون: إنه مفترًى فقال: فاتوا بسورة من مفترًى مثله.

﴿ وادعوا شهداءكم من دون الله ﴾ أى: استعينوا بأعوانكم وأربابكم من دون الله ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تزعمون. وفائدته: أنهم إذا اجتمعوا وأحضروا أربابهم فعجزوا كان أبلغ فى إلزام الحجة. وقوله - تعالى -: ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا... ﴾ الآية يعنى: فإن لم تفعلوا ذلك، ولن تفعلوه أبدا على طريق الإخبار. «وتَمْ» للماضى، «ولن» للمستقبل. وإنما قال هذا لبيان المعجزة؛ لأن القرآن كان معجزة للنبى ﷺ حيث عجز الكل عن الإتيان بمثله.

﴿ فاتقوا النار ﴾ أى: فآمنوا؛ لكى تتقوا النار بالإيمان ﴿ التى وقودها الناس ﴾ الوقود يعنى: الإيقاد، والوَقود بفتح الواو الحطب. ﴿ والناس ﴾ أهل جهنم ﴿ والحجارة ﴾ قال على وابن مسعود: هى حجارة الكبريت؛ لأنها أكثر توقدا والتهابا، وقال الباقون: هى جميع الحجارة. وهذا دليل على عظم تلك النار، و﴿ أعدت للكافرين ﴾ أى: هيئت للكافرين، وهذا دليل على أن النار مخلوقة، لا كما قال أهل البدعة. ودليل على أنها مخلوقة للكافرين، وإن دخلها بعض المؤمنين تأديبا وتعريكًا[1].

قوله تعالى: ﴿ وبشر الذين آمنوا... ﴾ الآية، البشارة: اسم لكل خبر صدق تتغير به بشرة الوجه ويظهر عليها، وقد تكون فى الخبر السوء. كما قال: ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾[2] إلا أنه فى الخبر السار أغلب. ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾

(١) (تعريكا): عَرَكه: دلكه وحكه حتى عفاه (القاموس مادة: (ع ر ك) ٣/ ٢٠٧ ولعل المراد - والله أعلم -: تطهيراً وتنظيفاً.

(٢) آل عمران: ٢١، التوبة: ٣٤، الانشقاق: ٢٤.

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ

يعنى: المؤمنين من أهل الطاعة ﴿أن لهم جنات﴾ الجنات: جمع جنة وهو اسم للبستان الذى فيه أشجار مثمرة، فإذا لم تكن الأشجار مثمرة لا تكون جنة. وقيل: الجنة ما فيه النخيل. والفردوس ما فيه الكرم، وإنما سميت جنةً من الاجتنان؛ لأنها تستر الأرض بالتفافها وأوراقها. وقيل: الجنان سبع، وقيل: ثمان، والكل فى القرآن.

﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾ أى: من تحت أشجارها تجرى المياه من الأنهار، وفى الحديث: «إن أنهار الجنة تجرى فى غير أخدود»(١) أى: فى غير شق.

﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا﴾ أى: كلما رزقوا شيئا من ثمار الجنة قالوا هذا الذى رزقنا من قبل. وفيه قولان: أحدهما معناه: رزقنا من قبل فى الدنيا، والثانى: أن الثمار فى الجنة متشابهة فى اللون مختلفة فى الطعم، فإذا رزقوا منها ثمرة ثم رزقوا أخرى ظنوا أنها الأولى لاستوائهما فى اللون فـ ﴿قالوا هذا الذى رزقنا من قبل﴾.

﴿وأتوا به متشابها﴾ قال مجاهد: أى متشابها فى اللون. كما ذكرنا، وقال الحسن البصرى: معناه كلها خيار ليس فيها رذال. قال ابن عباس: ليس فى الدنيا من ثمار الجنة إلا الأسامى ﴿ولهم فيها أزواج﴾ قيل: من الحور العين، ويحتمل من أزواج الدنيا: ﴿مطهرة﴾ من الأدناس؛ لا يتمخطن، ولا يتغوطن، ولا يحضن. وقيل: مطهرة الأخلاق، فيكن مطهرات خَلْقًا وخُلُقًا. ﴿وهم فيها خالدون﴾ أى: مقيمون لايظعنون.

قوله تعالى: ﴿إن الله لايستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها﴾ وسبب نزول الآية: أن الله – تعالى – لما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت، قال المشركون: إنا

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٦ / ٢٠٥) وفى صفة الجنة له أيضا (٢ / ١٦٨ رقم ٣١٦)، وابن مردويه، والضياء المقدسى – كما فى الدر المنثور (١ / ٤٤) – من حديث أنس مرفوعاً، ولفظه: «لعلكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود فى الأرض، لا والله، إنها لسائحة على وجه الأرض». وأخرجه أبو نعيم فى صفة الجنة (٢ / ١٦٧ رقم ٣١٦) وابن أبى الدنيا فى صفة الجنة له (رقم ٦٨) عن أنس موقوفا من قوله. وقال المنذرى فى الترغيب (٤ / ٥٥): والموقوف أشبه بالصواب

مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ

لانعبد إلها يذكر الذباب والعنكبوت، فنزل قوله – تعالى –: ﴿إن الله لايستحيى﴾ أى: لايمتنع ولا يترك ﴿أن يضرب مثلا﴾ أى: يذكر مثلا ﴿ما بعوضة﴾ (ما) للصلة هاهنا، أى: مثلا بالبعوضة. قال الشاعر[1]:

قَالَتْ ألا لَيْتَمَا هذَا الحَمَامُ لَنَا ... إِلَى حَمَامَتِنَا أو نِصْفَه فَقَدِ

معناه أى: ليت هذا الحمام لنا. والبعوض: صغار البق، سميت بعوضة لأنها بعض البق. ﴿فما فوقها﴾ معناه: فما دونها؛ كما يقال: فلان جاهل، فيقال: وفوق ذلك. يعنى: أجهل من ذلك، فكذلك قوله تعالى: ﴿فما فوقها﴾ يعنى: فى الصغر، وأصغر من ذلك، وقيل: فما فوقها على الحقيقة؛ لأنه ضرب المثل بالذباب، والعنكبوت. قال الربيع بن أنس: مثل البعوضة مثل صاحب الدنيا؛ لأن دأب البعوضة أنها إذا شبعت هلكت، وإذا جاعت عاشت؛ كذلك صاحب الدنيا إذا استكثر من الدنيا هلك، وإذا استقل منها فاز ونجا. وقيل: إن حكم الله – تعالى – فى صغار خلقه أكثر من حكمه فى كبار خلقه. قوله تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾ يعنى: أنه الصدق من ربهم.

﴿وأماالذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾ أىُّ شىء أراد الله بهذا المثل؟ يقول الله تعالى: ﴿يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا﴾ أى: أراد هذا، والإضلال: هو الصرف عن الحق إلى الباطل. وقيل: الإضلال هو الإهلاك؛ يقال: ضل اللبن فى الماء أى: هلك.

﴿ويهدى به كثيراً﴾ أى: ويُرشد به كثيرا. ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾ يعنى: الكافرين. والفسق: هو الخروج عن طاعة الرب؛ يقال: فسقت (الرطبة)[2] إذا خرجت

(١) وهي زرقاء اليمامة وهو بيت من كلام النابغة الذبياني من قصيدة مطلعها:

يا دَارَ مية بالعلياءِ فالسَّنَدِ ... أَقْوَتْ وطَالَ عليها سَالفُ الأمدِ

(٢) في «ك»: الوطية وهو تحريف.

الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنقُضُونَ

عن قشرها، ومعنى إضلالهم بالمثل أنه لما ضرب المثل فكفروا به ازدادوا ضلالاً.

وقوله تعالى: ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ أى: يخالفون أمر الله. والميثاق: مفعال من التوثقة وهو العهد المؤكد. وفى معناه قولان: أحدهما: أنه أراد نقض الميثاق الأول الذى أخذه على آدم وذريته بقوله: ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾[1].

وقيل: أراد به نقض الميثاق الذى أخذه على النبيين وسائر الأمم أن [يؤمنوا][2] بمحمد ﷺ بقوله: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين... ﴾[3] الآية.

﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ فيه ثلاثة أقوال؛ أحدها: أنهم يقطعون ما أمروا بوصله من الإيمان بمحمد وبسائر الرسل. وقيل: أراد به قطع الرحم. والأول أولى؛ لأنه أعم، وقيل: أراد به قطع العمل عن القبول؛ فإنهم لم يعملوا بما قبلوا.

﴿ ويفسدون فى الأرض ﴾ بالمعاصى ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ المغبونون.

قوله تعالى: ﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ قاله تعجبا، كيف تكفرون بالله بعد نصب الدلائل ووضوح البراهين؟!! ثم ذكر الدليل فقال: ﴿ وكنتم أمواتا ﴾ هذا دليل، أى: كنتم نطفا فى أصلاب الآباء.

﴿ فأحياكم ﴾ أى: خلقكم ﴿ ثم يميتكم ﴾ عند انتهاء الأجل. ﴿ ثم يحييكم ﴾ للبعث ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ إلى الله مصيركم. وقيل: أراد بالموت الأول: الموت المعهود ﴿ وكنتم أمواتا ﴾ أى: تصيرون أمواتا. فأحياكم أى: يحييكم فى القبر للسؤال، ثم يميتكم بعده فى القبر ثم يحييكم للبعث. ثم إليه ترجعون.

قوله تعالى: ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعًا ﴾ لكى تعتبروا

---

(١) الأعراف: ١٧٢.

(٢) فى «الأصل»، و«ك»: يؤمنون. على جعل «أن» مصدرية غير عاملة.

(٣) آل عمران: ٨١.

عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ

وتستدلوا، وقيل: لكي تنتفعوا.

﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين من السلف: أى ارتفع وعلا إلى السماء.

وقال الفراء وابن كيسان وجماعة من النحويين معناه: أقبل على خلق السماء؛ لأنه خلق الأرض أولا، ثم أقبل على خلق السماء، كما ذكر فى «حم السجدة»[1].
﴿ فسواهن سبع سموات ﴾ أى: خلقهن مستويات؛ لافطر فيها، ولا صدع، ولا شق.

﴿ وهو بكل شىء عليم ﴾ أى: عالم بصغار خلقه وكبارهم.

قوله - تعالى -: ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ معناه: وقال ربك. «وإذ» زائدة فيه.

وقيل، معناه: واذكر إذ قال ربك. والملائكة: جمع الملك، وأصل الملك مالك، فقلبت الهمزة فصار مَالَك ثم أسقط الهمزة فصار ملك، واشتقاقه من الألوكة، وهى: الرسالة، ومثلها المالكة، والمألكة؛ قال الشاعر:

أَلِكْنِى إِلَيْهَا (وخيرُ)[2] الرسولِ   أَعْلَمُهُم بنواحِى الخَبَرْ

يعنى: أرسلنى إليها.

﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ اتفقوا على أن المراد بهذا الخليفة آدم - صلوات الله عليه - والخليفة، والخليف بمعنى واحد، وجمع الخليف خلفاء. وجمع الخليفة خلائف.

واختلفوا فى أنه لماَ سمى خليفة؟ منهم من قال: لأنه خليفة الجن؛ فإن الله - تعالى - لما خلق الأرض أسكنها الجن، ولما خلق السماء أسكنها الملائكة، ثم لما خلق

(١) سورة فصلت.

(٢) كذا فى «الأصل»، و «ك»، وفى لسان العرب، مادة (ألك): بخير.

لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ

آدم أزعج الجن إلى أطراف الأرض؛ فهو خليفة الجن فى الأرض.

وقيل: إنما سماه خليفة؛ لأنه يخلفه غيره. فيكون الخليفة بمعنى أنه يخلف غيره. ويكون الخليفة بمعنى أنه يخلفه غيره.

وقيل: إنما سمى خليفة لأنه خليفة الله فى الأرض؛ لإقامة أحكامه، وتنفيذ قضاياه، وهذا هو الأصح.

قوله تعالى: ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها... ﴾ الآية. قالت الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟! فإن قيل: من أين علموا ذلك؟ قيل: إن الله تعالى أعلمهم بذلك. وقيل: اطلعوا عليه فى اللوح المحفوظ.

﴿ ونحن نسبح بحمدك ﴾ هو التنزيه عن السوء. ومعناه: ونحن ننزهك عن الأنداد والشركاء.

وقال الحسن: معنى قوله: ﴿ ونحن نسبح بحمدك ﴾ هو قولهم: سبحان الله وبحمده.

﴿ ونقدس لك ﴾ يعنى: نثنى عليك بالقدس والطهارة.

وقيل: معناه نطهر أنفسنا بطاعتك والثناء عليك.

فإن قيل: قولهم ﴿ أتجعل فيها ﴾. يشبه الاعتراض عليه. وقولهم نحن ﴿ نسبح بحمدك ﴾ يشبه التفاخر بالعمل؛ وكلاهما لايجوز على الملائكة. فما معنى هذا الكلام؟

قلنا: أما قولهم: (أتجعل فيها) معناه: أنت جاعل فيها على سبيل التقدير، ومثله قول الشاعر:

أَلَسْتُمْ خيْرَ من ركِبَ الْمَطَايا وأَندَى العـالمينَ بطـونَ راحِ

يعنى أنهم بهذه الصفة.

وقالوا: إنما قالوه على سبيل التعجب طلبا لوجه الحكمة فيه.

خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ

وأما قوله: ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ ليس على سبيل التفاخر بل معناه: أنه إذا أفسدوا وسفكوا الدماء فنحن نبقى على هيئة التسبيح والتقديس أم لا؟ قال: ﴿إنى أعلم ما لاتعلمون﴾ له معنيان:

أحدهما: إنى أعلم فيهم من يعبدنى ويطيعنى من الأنبياء والأولياء والصلحاء.

والثانى معناه: إنى أعلم فيكم أيها الملائكة من يعصينى - يعنى إبليس -.

قوله - تعالى -: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ أما آدم إنما سمى آدم؛ لأنه خلق من أديم الأرض، ولماخلقه الله - تعالى - علمه أسماء الأشياء بأجمعها.

قال ابن عباس: علمه أسماء الأشياء حتى القصعة والقصيعة، والفسوة والفسية.

وإنما علمه ذلك تكريما وتشريفا له. وذلك دليل على أن الأنبياء أفضل من الملائكة وإن كانوا رسلا كما ذهب إليه أهل السنة.

﴿ثم عرضهم﴾ قرأ أُبى بن كعب: «ثم عرضها» [وهى][(١)] فى الشواذ. ورجع [الكناية][(٢)] إلى المسميات التى لاتعقل. والقراءة المعروفة: «ثم عرضهم» فإن المسميات لما جمعت من يعقل ومن لايعقل؛ كنى بلفظ من يعقل تغليبا له.

وإنما عرضهم على الملائكة لإظهار فضيلته عليهم، فإنهم كانوا قد قالوا: لن يخلق الله خلقا أكرم عليه منا، فقال: ﴿أنبئونى﴾ أخبرونى ﴿بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ فيما زعمتم.

قوله تعالى: ﴿قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا﴾ قد ذكرنا معنى التسبيح. ومعنى الآية: أنك أَجَلٌّ من أن نحيط بشىء من علمك؛ إلا الذى علمتنا منه.

﴿إنك أنت العليم﴾ أى: العالم ﴿الحكيم﴾ له معنيان أحدها: الحاكم، وهو

(١) فى «الأصل»، و «ك»: هو.

(٢) أى: الضمير.

لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا

القاضى بالعدل.

والثانى: معنى الحكيم: المحكم للأمر كيلا يتطرق إليه الفساد، ومنه: أحكمت الدابة لأنها (تمنعها)(١) من الفساد.

قوله تعالى: ﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ لما عرضهم على الملائكة فعجزوا؛ يقول الله تعالى لآدم: أخبرهم بأسمائهم ﴿فلما أنباهم بأسمائهم﴾ فأخبرهم آدم بأسماء تلك المسميات، والحكمة التى لأجلها خلقوا، فلما أخبرهم بها﴿ قال الله﴾ تعالى للملائكة: ﴿ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض﴾ فإنه قد قال لهم: ﴿إنى أعلم مالا تعلمون﴾ وغيب السموات والأرض كل ما غاب وخفى عن الأبصار.

﴿وأعلم ما تبدون﴾ أى قولكم: أتجعل فيها من يفسد فيها.

﴿وما كنتم تكتمون﴾ فيه قولان: أحدهما: ما كتموا من قولهم: لن يخلق الله خلقا أكرم عليه منا.

والثانى: معناه ما كتمه إبليس فيهم حين خلق آدم؛ فإنه قد قال: إن سلطت عليه لأهلكنه وإن سلط عَلَيَّ لا أطيعه.

قوله – تعالى –: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ اختلفوا فى أن هذا الخطاب مع أىّ الملائكة؟ فقال بعضهم: هو خطاب مع ملائكة الأرض خاصة.

وقيل: هو خطاب لجميع الملائكة. – هو الأصح – لقوله – تعالى – ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾(٢).

والسجود عبادة مع التواضع والخشوع والخضوع، ومنه شجرة ساجدة إذا ماتت من

(١) فى «ك»: تمنعه.

(٢) الحجر: ٣٠، وص: ٧٣.

سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ

كثرة حملها.

وفى قوله: ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ قولان أحدهما: أن معناه اسجدوا إلى آدم، فيكون آدم كالقبلة. والسجود لله – تعالى –.

والأصح: أن السجود كان لآدم على الحقيقة. وتضمن معنى الطاعة لله – تعالى – بامتثال أمره فيه. فعلى هذا يكون السجود لآدم على سبيل التحية له. وهو كسجود إخوة يوسف ليوسف بمعنى التحية له. ثم نقل ذلك إلى السلام بين المسلمين.

﴿ فسجدوا إلا إبليس ﴾ قال بعضهم: إبليس مشتق من الإبلاس. وهو اليأس من الخير، قال الشاعر:

يَاصاحِ هَلْ تعرفُ(رسما) [١] مكرسا قال: نَعــمْ أَعْــرِفُه وأَبْلَسَــا [٢]

وقيل: هو اسم أعجمى معرب لا اشتقاق له ولذلك لا ينصرف.

واختلفوا فى إبليس، والذى قاله ابن عباس وأكثر المفسرين: أنه كان من الملائكة.

وقال الحسن: كان من الجن لقوله تعالى: ﴿ كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾ [٣] ولأنه خلق من النار، والملائكة خلقوا من النور، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة.

والأصح أنه كان من الملائكة لأن خطاب السجود كان مع الملائكة.

وأما قوله: ﴿ كان من الجن ﴾ قيل: إن فرقة من الملائكة سموا جنًّا خلقهم الله – تعالى – من النار. وعليه دل قوله تعالى: ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ﴾ [٤].

حيث قالوا الملائكة بنات الله. فسماهم جنة. وإنما سموا جنا لاستتارهم عن الأعين.

وإبليس كان من ذلك القبيل. وإنما كان له ذرية؛ لأنه أخرجه من الملائكة ثم جعل

---

(١) فى «ك»: اسما.

(٢) انظر لسان العرب، مادة (بلس).

(٣) الكهف: ٥٠.

(٤) الصافات: ١٥٨.

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ

له ذرية.

وقيل: إن الله – تعالى – لما خلق إبليس أعطاه ملك الأرض، وملك السماء الدنيا، وجعله خازن الجنة.

قوله – تعالى –: ﴿أبى﴾ امتنع ﴿واستكبر﴾ أى: أنف؛ حيث ظن أنه خير من آدم ﴿وكان من الكافرين﴾ فيه قولان: أحدهما: معناه وصار من الكافرين فى علم الله – تعالى –.

قال مجاهد: علم الله فى أزله أنه تكون منه المعصية فخلقه للمعصية.

قوله تعالى: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ أراد بزوجه حواء، فإن قيل: [لِمَ](١) أمرهما بدخول الجنة، وقد وعد أن من دخلها يكون خالدا فيها فكيف أخرجهما من الجنة؟

قلنا: إنما ذلك الوعد فى حق من يدخلها للثواب والجزاء، وآدم إنما دخل الجنة بالكرامة دون الثواب.

﴿وكلا منها رغدا حيث شئتما﴾ الرغد: الواسع من العيش. وهو أن يأكل ما شاء إذا شاء كيف شاء. ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ يعنى: للأكل.

والشجرة: اسم لما يقوم على الساق، والنجم اسم لما (لا)(٢) يقوم على ساق.

قال الله تعالى: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾(٣) وفى تلك الشجرة ثلاثة أقوال: قال ابن مسعود: كانت شجرة العنب. وقال ابن عباس: كانت شجرة السنبلة. وقال ابن جريج: كانت شجرة التين. وقيل: إنها شجرة العليم.

﴿فتكونوا من الظالمين﴾ الظلم وضع الشىء فى غير موضعه وفيه يقال: «من أشبه

(١) فى «الأصل»، و«ك»: لما.
(٢) ليست فى «ك».
(٣) الرحمن: ٦.

أ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا

باه فما ظلم » أى: فما وضع الشبه فى غير موضعه.

قوله - تعالى -: ﴿ فأزلهما الشيطان عنها ﴾ قرأ حمزة[1]: « فأزالهما » ومعناه: نَحَّاهُمَا وبعدهما عن الجنة.

وقوله: ﴿ فأزلهما ﴾ إلى الزلة ﴿ فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ يعنى من نعيم الجنة. وإنما نسب الإخراج إليه؛ لأنه كان السبب فيه.

﴿ وقلنا اهبطوا ﴾ الهبوط هو النزول من الأعلى إلى الأسفل، والخطاب مع آدم، وإبليس، وحواء، والحية، وهى الحية [التى][2] كانت من خزَان الجنة فخدعها إبليس حتى أدخلته (الجنة)[3].

﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ العدو: اسم للواحد والجمع، معناه أعداء.

﴿ ولكم فى الأرض مستقر ﴾ أى: قرار ﴿ ومتاع ﴾ متعة تتغذون بها ﴿ إلى حين ﴾ إلى منتهى الآجال.

قوله تعالى: ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ التلقى: هو قبول عن فطنة وفهم دليل. فتلقى هو [أى: تعلم][4]: ﴿ ظلمنا أنفسنا ﴾[5] إلى آخره.

وقال عبيد بن عمير: هى كلمات قالها آدم حين ابتلاه الله بالمعصية.

﴿ من ربه كلمات ﴾ قال ابن عباس والأكثرون: الكلمات هى قوله: ربنا - أى: تعلم بالمعصية يارب - هذا شيء كتبته علىَّ [أم][6] ابتدعته من تلقاء نفسى ؟ فقال: بل شيء كتبته عليك. فقال آدم: (فكما)[7] كتبته على فاغفره.

(١) انظر النشر فى القراءات العشر (٢ / ٢١١). (٢) فى الأصل: « الذى ». (٣) فى « ك »: الحية.
(٤) فى « الأصل » و « ك »: التعلم. (٥) الأعراف: ٢٣. (٦) فى « الأصل »، و« ك »: ادم. وهو خطأ.
(٧) ليست فى « ك ».

الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا

﴿ فتاب عليه ﴾ فقبل توبته ﴿ إنه هو التواب الرحيم ﴾ هو القابل للتوبة من العباد؛ الرحيم بهم.

قوله تعالى: ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعا ﴾ الهبوط الأول كان من الجنة إلى السماء الدنيا، والهبوط الثانى كان من السماء الدنيا إلى الأرض.

﴿ فإما يأتينكم منى هدى ﴾ أى: رشد [و](1) بيان شريعة.

﴿ فمن تبع هداى ﴾ أى: ذلك الرشد والشريعة.

﴿ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ فى الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ أى: كفروا بالله وبالرسل وكذبوا بآياته ﴿ أولئك أصحاب النار ﴾ يعنى يوم القيامة ﴿ هم فيها خالدون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يا بنى إسرائيل ﴾ إسرائيل اسم يعقوب. وله فى القرآن اسمان: يعقوب وإسرائيل. ومعنى إسرائيل عبد الله، «إسر» مثل قولنا «عبد»، و«إيل» مثل قولنا «الله» ﴿ اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ﴾ الذكر يكون بالقلب، ويكون باللسان، وهو ضد النسيان. وقوله: ﴿ نعمتى ﴾ أى: نعمى، ذكر الجمع بلفظ الوحدان، ومثله كثير فى القرآن.

واختلفوا فى تلك النعم. قال قتادة: هى النعم التى خصت بها بنو إسرائيل من

---

(1) من «ك».

يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي

إنجائهم من فرعون بتغريقه، وإرسال موسى إليهم، وإنزال التوراة عليهم، ونحو ذلك.

وقال غيره: هى جميع النعم التى لله على عباده.

فإن قال قائل: لِمَ أمرهم بالذكر وهم كانوا ذاكرين لتلك النعم؟

قلنا: الذكر بمعنى الشكر، ومعناه: اشكروا نعمتى. وإنما ذكر بلفظ الذكر؛ لأن فى الشكر ذكرا، وفى الكفر نسيانا.

﴿ وأوفوا بعهدى ﴾ أوفى يوفى، ووفى يفى، بمعنىً واحد. وقد جمعها الشاعر فى بيت واحد فقال:

أمّا ابنُ عوفٍ فقدْ أَوفَى بذمَّتِـهِ كَمَا وَفَى بِقِلاَصِ النَّجْمِ حاويها

والعهد: هو الأمر المؤكد. ومعناه: «أوفوا بعهدى» بامتثال أمرى.

﴿ أوف بعهدكم ﴾ بالقبول والثواب. وقال مجاهد: أراد بهذا العهد ما ذكر فى سورة المائدة ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا ﴾[1] إلى آخر الآية. ﴿ وإياى فارهبون ﴾ فخافونى.

قوله – تعالى –: ﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ﴾ بما أنزلت فى القرآن مصدقا لما معكم من التوراة. يعنى أن القرآن مصدق لما فى التوراة من التوحيد ونعت محمد ﷺ.

(١) المائدة: ١٢.

أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا

﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ يعنى أول من كفر به. وقيل: أول فريق كافر به. وهما فى المعنى سواء. فإن قيل: قد كفر به مشركو العرب قبلهم، فكيف قال: ولا تكونوا أول كافر به؟ قلنا: أراد به من أهل الكتاب؛ لأن الخطاب مع أهل الكتاب.

﴿ ولاتشتروا بآياتى ثمنا قليلا ﴾ ولاتستبدلوا؛ ذلك أن علماءهم وأحبارهم كانت لهم مأكلة على أغنيائهم وجهّالهم؛ فخافوا أن تذهب مأكلتهم إن آمنوا بمحمد ﷺ فغيروا نعته، وكتموا اسمه، فهذا معنى بيع الآيات بالثمن القليل.

﴿ وإياى فاتقون ﴾ فاحذرون.

قوله – تعالى –: ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل ﴾ اللبس: هو الخلط والتعمية.

يقال: لَبِسَ يَلْبسُ لُبْسا، من اللباس. ولَبَس يَلْبِسُ لَبْسا، من التلبيس. قال الله – تعالى – ﴿ وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾[(١)] أى: خلطنا عليهم كما خلطوا. وقال على – رضى الله عنه – للحارث: لا يكن ملبوسا عليك، الحق لايعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله.

فمعنى قوله: ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل ﴾ أى: الإسلام باليهودية والنصرانية، كذا قال الأكثرون. وقيل: هو لبس التوراة بما غيروا من نعت محمد ﷺ.

﴿ وتكتموا الحق ﴾ يعنى نعت محمد. ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أنه حق. قال محمد ابن سيرين: هذا الخطاب مع قوم من اليهود كانوا بالشام رأوا فى كتبهم اسم محمد ونعته، وأنه يبعث من القرى العربية، فخرجوا فى طلبه ونزلوا بالمدينة فلما بعث محمد حسدوه، وغيروا اسمه ونعته؛ خوفا من ذهاب مأكلتهم.

قوله – تعالى –: ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ أما الصلاة فقد ذكرنا. وأما

(١) الأنعام: ٩.

تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ

الزكاة: فمأخوذ من زكا الزرع، إذا كثر ونما.

وقيل: هى مِنْ تَزَكَّى. أى: تطهر، وكلا المعنيين موجود فى الزكاة المفروضة؛ لأن فيها تنمية المال وتطهيره.

﴿ واركعوا مع الراكعين ﴾ أى: صلوا مع المصلين. وأصل الركوع: عبادة مع انحناء. يقال: ركعت النخلة إذا انحنت، ومنه قول الشاعر:

أخبر أخبار القرون التى مَضَتْ ... أَدِبُّ كأنى كُلَّما قُمْتُ راكعُ

وإنما ذكره بلفظ الركوع؛ لأن صلاة اليهود ما كان فيها ركوع؛ فكأنه قال: وصلوا صلاة ذات ركوع.

فإن قيل: قد أمرهم فى أول الآية بإقامة الصلاة، فأى شيء معنى هذا الأمر الثانى: قلنا: الأول مطلق فى حق الكل، وهذا الثانى خطاب لقوم مخصوصين، قال لهم: صلوا مع الذين [سبقوكم] [1] بالإيمان والصلاة.

قوله - تعالى -: ﴿ أتأمرون الناس بالبر ﴾ أى: بالطاعة ﴿ وتنسون أنفسكم ﴾ أى: تتركون أنفسكم ﴿ وأنتم تتلون الكتاب ﴾ التوراة.

﴿ أفلا تعقلون ﴾ العقل: مأخوذ من عقال البعير، وهو ما يشد به ركبة البعير، سمى به لأنه يمنعه من الشرود، كذلك العقل يمنع صاحبه من التمرد والخروج عن طاعته. وفى معنى الآية قولان، أحدهما: أنه خطاب لأحبارهم؛ حيث أمروا أتباعهم بالتمسك بالتوراة، ثم خالفوا وغيروا نعت محمد ﷺ.

والقول الثانى: أن أهل المدينة كانوا يشاورون علماءهم فى اتباع محمد فأشاروا عليهم باتباعه ثم خالفوه وكفروا به.

فى الحديث: (روى أنس) [2] عن النبى ﷺ أنه قال: «رأيت ليلة أسرى بى فى السماء أقواما تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فسألت من هؤلاء؟ فقالوا: هؤلاء

(١) فى «الأصل، وك»: سبقكم.

(٢) فى ك: روى عن أنس.

أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم

الخطباء من أمتك كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم»[1].

قوله - تعالى -: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ الاستعانة طلب المعونة. وأما الصبر فالأكثرون على أنه حبس النفس عن المعاصى.

ومنه الدابة المصبورة وهى أن تمسك لترمى كالهدف.

وفى الحديث: «أنه نهى عن الدابة المصبورة»[2]. وقال ﷺ فى الذى يمسك غيره حتى يقتل: «اصبروا الصابر واقتلوا القاتل»[3] أى: أحبسوا الممسك واقتلوا المباشر.

وقال الحسن البصرى: هو الصوم. ومنه سمى شهر رمضان شهر الصبر. فإن قيل: ما معنى الاستعانة بالصوم والصلاة؟ قيل: لأن الصوم يزهده فى الدنيا. (وكذلك)[4] فى الصلاة يقرأ ما يحثه على الزهد فى الدنيا. فكأنه قال: استعينوا بهذين على الدين؛ لتقووا على الإقبال على الآخرة والإعراض عن الدنيا.

﴿وإنها لكبيرة﴾ لثقيلة. وفى قوله: ﴿وإنها﴾ قولان: أحدهما: أن (الكناية)[5]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٢٠، ٢٣١، ٢٣٩، ٢٤٠)، وابن أبى شيبة فى المصنف (١٤/ ٣٠٨)، وابن حبان فى صحيحه (١/ ٢٤٩ رقم ٥٣)، وأبو نعيم فى الحلية (٨/ ١٧٢)، وغيرهم. وانظر الدر المنثور (١/ ٧٠)، وابن كثير (١/ ٨٦).

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر. البخارى (٩/ ٥٥٨ رقم ٥٥١٤. ٥٥١٤)، ومسلم (١٣/ ١٥٩ - ١٦٠ رقم ١٩٥٨)

(٣) أخرجه الدارقطنى فى سننه (٣/ ١٤٠)، وابن عدى - كما فى الكنز ٣٩٨٣٨ - ومن طريق ابن عدى رواه البيهقى فى السنن الكبرى (٨/ ٥٠) من حديث ابن عمر مرفوعًا بنحوه، قال البيهقى: هذا غير محفوظ، وقد قيل عن إسماعيل بن أمية عن سعيد بن المسيب عن النبى ﷺ، وهو الصواب، ثم ساق الحديث بإسناده عن إسماعيل بن أمية مرسلاً ولفظه: قضى رسول الله ﷺ فى رجل أمسك رجلاً وقتل الآخر .. الحديث. وقد أخرجه الدارقطنى أيضا فى الموضع السابق،و البيهقى (٨/ ٥١) من حديث معمر عن إسماعيل بن أمية يرفعه: «اقتلوا القاتل واصبروا الصابر». قال أبو عبيدة: قوله: «اصبروا الصابر» يعنى احبسوا الذى حبسه.

(٤) فى «ك»: وكذا.

(٥) فى «ك»: الكتابة، وهو تصحيف، ويقصد بالكناية الضمير.

مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ

راجعة إلى الصوم والصلاة جميعا. إلا أنه اكتفى بأحد المذكورين والكناية عنه. وهو كما قال القائل:

وَمَنْ يكُ أمْسَى بالْمدينةِ رحلهُ　　　فإني وقَيَّارٌ بهـا لغريبُ

أى: لغريبان إلا أنه اكتفى بأحدهما. وأورد الأزهرى فى كتاب التقريب قولا حسنا، فقال: تقديره: واستعينوا بالصبر وإنه لكبير، وبالصلاة وإنها لكبيرة، إلا أنه حذف أحدهما واختصر المعنى اختصارا.

﴿ إلا على الخاشعين ﴾ الخاشع: هو المطيع المتواضع.

﴿ الذين يظنون ﴾ يستيقنون. والظن يكون بمعنى الشك، ويكون بمعنى اليقين، قال الله – تعالى –: ﴿ إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ﴾[1] أى: استيقنت، وقال الشاعر:

فقلتُ لهم ظُنُّوا بألْفَىْ مُقَنَّعٍ　　　سَرَاتُهمُ فى الفارسىِّ المسردِ

وقوله – تعالى –: ﴿ أنهم ملاقوا ربهم ﴾ أى صائرون إلى ربهم. وكل ما ورد فى القرآن من اللقاء فهو بمعنى الصيرورة إليه، كذا قال المفسرون.

وقيل: هو اللقاء الموعود، وهو رؤية الله – تعالى –.

وقوله – تعالى –: ﴿ وأنهم إليه راجعون ﴾ أى: صائرون.

وقوله تعالى: ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ﴾ معناه ما سبق.

﴿ وأنى فضلتكم على العالمين ﴾ التفضيل نقيض التسوية. وأراد به التفضيل بتلك النعم التى سبق ذكرها. وذلك التفضيل وإن كان فى حق الآباء ولكن يحصل به الشرف للأبناء، فصح الخطاب معهم.

﴿ على العالمين ﴾ على عَالَمى زمانهم.

قوله – تعالى– ﴿ واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئًا ﴾ معناه: واحذروا

(١) الحاقة: ٢٠.

عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ

عذاب يوم القيامة. ﴿لا تجزى نفس عن نفس شيئا﴾ قال الأخفش: معناه لاتقوم نفس مقام نفس. وقال غيره: معناه لاتقضى نفس عن نفس حقا لزمها.

﴿ولايقبل منها شفاعة﴾ يقرأ بقراءتين بالتاء(١) والياء(٢) والكل جائز لأن الشفع والشفاعة بمعنى واحد كالوعظ والموعظة والصوت والصيحة بمعنى واحد. ثم يذكر تارة بالتذكير على المعنى. وتارة بالتأنيث على اللفظ. قال الله تعالى: ﴿قد جاءتكم موعظة من ربكم﴾(٣) وقال فى موضع آخر ﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾(٤) قال ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة﴾(٥) وقال فى موضع آخر: ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾(٦) كذا هذا.

﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ العَدْلُ والعِدْلُ هو المثل، قال الله - تعالى - ﴿أو عدل ذلك صياما﴾(٧) أى: مثله.

والمراد بالعدل ها هنا الفدية، وسميت عدلا، لأنها مثل المفدي به. وأما قولهم: لايقبل منه صرف ولاعدل قيل: الصرف النافلة، والعدل الفريضة. وقيل: الصرف الحيلة، والعدل الفدية.

﴿ولا هم ينصرون﴾ يمنعون العذاب.

قوله - تعالى -: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾ الإنجاء والتنجية واحد. هو الإنقاذ من المكروه. وآل فرعون: أتباعه الذين اقتدوا به وبفعله. وكذلك آل النبى ﷺ أتباعه.

---

(١) وهى قراءة ابن كثير، ويعقوب، وأبى عمرو كما فى النشر (٢/٢١٢).

(٢) وهى قراءة الباقين. انظر المصدر السابق.

(٣) يونس: ٥٧.

(٤) البقرة: ٢٧٥.

(٥) هود: ٩٤.

(٦) هود: ٦٧.

(٧) المائدة: ٩٥.

يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا

وروى أنس عن النبى ﷺ أنه قال: «آلى كُلُّ مؤمنٍ تقى»(١)، فأما آل القرابة فهم قوم مخصوصون [لا](٢) تجرى عليهم الصدقة. وقد ذكروا فى الفقه.

﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ أى: يجشمونكم ويولونكم. وقيل: يصرفونكم فى العذاب مرة هكذا ومرة هكذا، كالإبل السائمة فى البرية.

﴿سوء العذاب﴾ أشد العذاب ﴿يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ مذكور على وجه البدل عن قوله ﴿يسومونكم﴾ ومثله قول الشاعر:

مَتى تَأْتِنَا تُلْمِمْ بِنَا فِى دِيَارِنا ... تجدْ حَطَبا جَزْلا ونارًا تأجَّجَا

وقوله: «تلمم بنا فى ديارنا» بدل عن قوله: «متى تأتنا».

ومعنى قوله: ﴿يذبحون أبناءكم﴾ أى: يقتلون. الذبح والذبيح بمعنى واحد.

وسبب ذلك أن فرعون رأى فى المنام نارا جاءت من نحو بيت المقدس، وأحاطت بمصر، وأحرقت كل قبطى هنالك، ولم تتعرض لبنى إسرائيل، فعلم بذلك أن نبيا يخرج من بنى إسرائيل؛ يكون هلاكهم على يديه، فأمر بقتل الأبناء، وترك البنات، حتى قيل: إنه قتل فى طلب موسى اثنى عشر ألف صبيا.

﴿ويستحيون نساءكم﴾ أى: يتركون ويستبقون، وهو استفعال من الحياة، ومنه

(١) أخرجه العقيلى فى الضعفاء (٤/٢٨٧) والبيهقى فى سننه (٢/١٥٢) وابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/٢٦٦ رقم ٤٢٩) – من طريق العقيلى – جميعهم من طريق نافع عن أنس مرفوعًا. ونافع هو ابن هرمز. قال البيهقى. وهذا لايحل الاحتجاج بمثله. وقال ابن الجوزى: هذا حديث لايصح عن رسول الله ﷺ.

وأخرجه الطبرانى فى الصغير (١/١٩٩ – ٢٠٠ رقم ٣١٨). وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/١٦٩): فيه نوح بن أبى مريم، وهو ضعيف.

(٢) ليست فى «الأصل» ولا «ك».

آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ

قول النبى ﷺ: «اقتلوا شيوخ المشركين واستحيوا شرخهم»[١] أى: شبابهم، وأراد به الذرية والنساء.

﴿وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ البلاء: يكون بمعنى النعمة ويكون بالشدة، لأنه من الابتلاء. والله - تعالى - قد يختبر على النعمة بالشكر وقد يختبر على الشدة بالصبر. قال الله - تعالى -: ﴿[ونبلوكم][٢] بالشر والخير فتنة﴾[٣] قال الشاعر:

جزى الله إحسانًا بما فعلا به وأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

وقوله - تعالى -: ﴿وفى ذلكم بلاء﴾ يحتمل هذا المعنيين، أحدهما: فيما لحقكم من فرعون من الأذى والشدة بلاء عظيم.

ويحتمل أنه أراد: فيما حصل لكم من النجاة بغرق فرعون بلاء عظيم، أى: نعمة عظيمة.

قوله - تعالى -: ﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ قيل: فرقنا لكم البحر. وقيل: الباء فى موضعها، ومعناه: فرقنا البحر بدخولكم إياه فرقا فرقا فوق الرأس وفرقا من تحت القدم أو فرقا من ذلك الجانب، وفرقا من ذلك الجانب، والبحر سمى بحرا، لاتساعه. ومنه يقال للفرس: بحر إذا اتسع فى جريه، وللجواد: بحر إذا اتسع كفه للجود.

وقوله - تعالى -: ﴿فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون﴾ قيل فى القصص: إن عدد المُنْجَيْنَ منهم كانوا ستمائة ألفٍ [وعشرين][٤] ألفًا، لايعد فيهم ابن عشرين لصغره،

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٣/٥٤ رقم ٢٦٧٠) ،الترمذى (٣/١٢٣ رقم ١٥٨٣) والإمام أحمد في مسنده (٥/١٢، ٢٠)، والطبرانى فى الكبير (٧/٢١٦ - ٢١٧، ٢٢٤ ، رقم ٦٩٠٠، ٦٩٠١، ٦٩٠٢ ، ٦٩٣٢)، والبيهقى (٩/٩٢). وقال الترمذى: حسن صحيح غريب. وأعله ابن التركمانى بضعف الحجاج، وأن أكثر الحفاظ لايثبتون سماع الحسن من سمرة؛ سوى حديث العقيقة. ونقل الزيلعى فى نصب الراية (٣/٣٨٦) هذا الإعلال عن البيهقى نفسه. وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع وأبى داود والترمذى.

(٢) فى «الأصل وك»: ولنبلونكم، وهو خطأ.

(٣) الأنبياء: ٣٥.

(٤) فى «الأصل وك»: عشرون، وهو خطأ.

الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ

ولا ابن ستين لكبره. وأما عدد المغرَقين فالله بهم عليم.

وقيل: كان على مقدمته هامان مع ألف ألف وسبعمائة ألف نفر حين غرقوا، والله أعلم بمن كان على المؤخرة.

﴿ وأنتم تنظرون ﴾ إلى غرقهم وهلاكهم. وقيل: تعلمون.

قوله - تعالى -: ﴿ وإذا واعدنا ﴾ وقرأ: «وإذ وعدنا»[1] معناهما واحد، فإن قال قائل: المواعدة على وزن المفاعلة، فتقتضى اثنين يتواعدان، فكيف تكون المواعدة من الله مع موسى؟

قلنا: المواعدة من الله - تعالى - بالأمر، ومن موسى - صلوات الله عليه - بالقبول وكذلك الوعد.

وأما موسى، اسم عبرى، و«مو» بلغة العبرية هو الماء و «شى» هو الشجر، فسمى «موشى» لأنه أخذ من الماء والشجر ثم قلب الشين سينا فى العربية فصار موسى.

وقوله: ﴿ أربعين ليلة ﴾ أى: انقضاء أربعين ليلة. أمره الله - تعالى - أن يصوم أربعين يوما لإعطائه التوراة، وكان قد وعده ثلاثين؛ إلا أن الله - تعالى - كان قد نهاه أن يتناول شيئا فى هذه الثلاثين، فلما أتم الثلاثين مر بشجرة، فتناول من ورقها، أمره الله - تعالى - أن يصوم عشرة أيام بسبب ذلك. وعليه دل قوله - تعالى - فى سورة الأعراف ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر... ﴾[2] الآية.

وقوله - تعالى -: ﴿ ثم اتخذتم العجل من بعده ﴾ يعنى: إلها، وله قصة معروفة ستأتى فى سورة طه.

(١) وهى قراءة أبى جعفر ويعقوب، وأبى عمرو، انظر النشر (٢ / ٢١٢).

(٢) الأعراف: ١٤٢.

تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ

﴿ وأنتم ظالمون ﴾ باتخاذ العجل إلها.

قوله تعالى: ﴿ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك ﴾. العفو: محو الآثار. ويقال: عفت الرياح كذا، إذا محت الآثار. يقول: عفونا عنكم من بعد اتخاذكم العجل إلها. ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ وإذ آتينا موسى الكتاب ﴾ يعنى: التوراة. ﴿ والفرقان ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه أراد به التوراة أيضا. إلا أنه ذكرها باسمين، ومثله قول الشاعر:

ألا حبذا هند وأرض بها هند ... وهند أتى من دونها النأى والبعد

والنأى والبعد اسمان بمعنى واحد.

والقول الثانى: أراد به الفرقان بين الحق والباطل. وقد أعطى الله موسى ذلك. ومنه سمي يوم بدر: يوم الفرقان؛ لأنه فرق فيه بين الحق والباطل.

والقول الثالث: أراد به انفراق البحر كما سبق. ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ بالتوراة.

قوله - تعالى -: ﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ معناه: اذكره إذ قال موسى لقومه ﴿ يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ﴾ إلهًا. ﴿ فتوبوا إلى بارئكم ﴾ خالقكم. ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ ليقتل بعضكم بعضا. وقيل معناه: استسلموا للقتل.

﴿ ذلكم خير لكم عند بارئكم ﴾ خالقكم ﴿ فتاب عليكم ﴾ بالقبول ﴿ إنه هو التواب الرحيم ﴾ القابل للتوبة.

وروى عن على - رضى الله عنه - أنه قال: كان عدد القتلى منهم [سبعين][1] ألفا فلما بلغوا ذلك، أوحى الله - تعالى - إلى موسى: إنى رفعت القتل عنهم،

(١) فى «الأصل وك»: سبعون وهو خطأ.

عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ

ورحمت من مضى منهم، وعفوت عمن بقى، وتبت عليهم .وحكى أن يوشع بن نون خرج عليهم حين تأهبوا للقتل واحتبوا له، فقال: إن الله رحم من حل حبوته. ثم إن الذين لم يعبدوا العجل سلوا سيوفهم، وأقبلوا على قتل الذين عبدوا العجل، حتى كان الابن يقتل أباه والأب يقتل ابنه، حتى أتوا على سبعين ألفا؛ ثم نزل الوحى كما وصفنا.

قوله تعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ هو خطاب للسبعين الذين حملهم موسى إلى الطور ليسمعوا كلام الله؛ فإنهم لما سمعوا كلام الله قالوا لموسى: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. أى: عيانا.

وقيل: فيه تقديم وتأخير يعنى قلتم: يا موسى جهرة لن (نؤمن)[1] (لك)[2] حتى نرى الله (جهرة)[3].

﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ قرأ[4] عمرو: «فأخذتكم الصعقة» وهو فى الشواذ: وقد سبق تفسير الصاعقة. والمراد بها الموت هاهنا، أى: أخذكم الموت ﴿وأنتم تنظرون﴾.

فإن قيل: إذا ماتوا كيف نظروا؟ قيل: معناه: ينظر بعضكم إلى بعض حين أخذكم الموت. قيل: معناه: تعلمون ويكون النظر بمعنى العلم.

قوله – تعالى –: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ يعنى أحييناكم بعد تلك الموتة بالطور.

قال قتادة: أحياهم ليستوفوا آجالهم ﴿لعلكم تشكرون﴾.

---

(١) سقط من «ك».

(٢) فى «ك»: بك.

(٣) كذا فى «الأصل»، و «ك»، وهى زيادة تفسد المعنى.

(٤) فى تفسير القرطبى (١ / ٤٠٤) وقرأ عمر وعثمان وعلى: «الصعقة» وهى قراءة ابن محيصن فى جميع القرآن

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

قوله – تعالى –: ﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ الغمام: من الغم. وأصله: التغطية والستر ومنه يقال للقلب الحزين: مغموم. لأن الحزن غطَّى قلبه. وللسحاب: غمام لأنه يغطى وجه الشمس. ومنه قوله تعالى: ﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غمة﴾[1] أى: ملبوسا عليكم.

ومعنى الآية: قال مجاهد: أراد بتظليل الغمام عليهم ما ذكر فى قوله ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام﴾[2] وسيأتى شرحه.

وقال قتادة: إن قوما من بنى إسرائيل بقوا فى التيه فعطشوا، وتأذَّوا بحرِّ الشمس، وظلل الله عليهم غماما، كيلا يتأذَّوا.

﴿وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾ الأكثرون: على أن المن هو الترّنجبين[3]. وقال قتادة: هو صمغة تقع على الشجر. وقال وهب: هو الخبز الرقاق.

وأما السلوى: قيل: إنه طائر يشبه السمانى بعينه. وفيه قول غريب: أنه العسل.

وفى القصص: أن اللهَ – تعالى – كان ينزل عليهم ذلك كل صباح من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس قدر ما يكفى ليومهم؛ إلا يوم الجمعة فإنه كان ينزل صباح الجمعة والسبت جميعا، وماكان للجمعة ينزل عليهم يوم السبت.

وأما قوله – عليه السلام –: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين»[4] فليس ذلك من هذا المن وإنما معناه: أنها من عطاء الله من غير كلفة ولا مشقة.

---

(١) يونس: ٧١. (٢) البقرة: ٢١٠.

(٣) هو طلٌّ من السماء، يشبه العسل، ويقال له كذلك: الطرنجبين، بالطاء. انظر غريب القرآن لابن قتيبة (ص٤٩).

(٤) متفق عليه من حديث سعيد بن زيد. أخرجه البخارى – مع الفتح – (١٠/ ١٧٢ رقم: ٤٤٧٨) وطرفاه فى (٤٦٣٩، ٥٧٠٨)، ومسلم – بشرح النووى – (١٤/ ٥ رقم ٢٠٤٩).

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا

﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أى: من حلال ما رزقناكم.

﴿ وما ظلمونا ﴾ وما بخسوا بحقنا ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾.

فالظلم: بمعنى البخس والنقص، وأصله ما بينا.

قوله تعالى: ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية ﴾ سميت القرية قرية؛ لأنها تجمع أهلها. ومنه المقرآة للحوض؛ لأنه مجمع الماء. ومنه قرية النمل؛ لأنها تجمع النمل ،والمراد بالقرية ها هنا البيت المقدس. وقيل: هى أريحا موضع هنالك.

﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغدا ﴾ ومعنى الرغد ما سبق ،وقيل: هو الرزق الواسع الذى لايضيق (ولايُعَنى)(١) طالبَه.

﴿ وادخلوا الباب سجدا ﴾ أراد بالباب: باب القرية. وقيل: هو باب حطة، وهو باب إيلياء.

﴿ سجداً ﴾ أى: ركعا خضعا. وأصل السجود الخضوع وفى الركوع خضوع، وقال الشاعر

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البلْقُ فى حُجُرَاتِه ترى الأُكْمَ فيه سجداً للحوافرِ

أى: ركعا خضعا.

﴿ وقولوا حطة ﴾ قال ابن عباس – رضى الله عنهما –: معناه قولوا: حط ذنوبنا، وقال الزجاج: تقديره: قولوا: مسألتنا حطة. وقال عكرمة: هو قول: لا إله إلا الله.

﴿ نغفر لكم ﴾ تقرأ بقراءتين: «نغفر لكم» بالنون، و«يغفر لكم» بالياء(٢) وهما

(١) فى «ك»: ولا يغنى.

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (١ /٣٨٨): قراءة نافع بالياء مع ضمها، وابن عامر بالتاء مع ضمها، وهى قراءة مجاهد. وقرأها الباقون بالنون مع نصبها؛ وهى أبينها. وانظر النشر (٢ /٢١٥).

قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ

واحد. وهو من الغفر، وهو الستر. ومنه المغفر؛ لأنه يستر الرأس. كذلك المغفرة تستر الذنوب.

﴿ خطاياكم ﴾ جمع الخطيئة وتجمع على الخطيئات أيضا، وهى الذنوب. يقال: خَطِئَ يُخْطِئُ خِطْأً وخطيئة، إذا أذنب متعمدا.

وأَخْطَأَ يُخْطِئُ إخطاءً إذا أذنب خاطئا(١).

﴿ وسنزيد المحسنين ﴾ من فضلنا.

قوله تعالى: ﴿ فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم ﴾ أجمعوا على أنهم بدلوا قول الحطة بالحنطة، وقالوا بلسانهم: هطا سمقاثا. أى: حنطة حمراء. وقيل: إنهم دخلوا الباب يزحفون على استاههم، وكان قد طوطئ لهم الباب، فما استطاعوا أن يدخلوا قياما، وأبوا أن يدخلوا سجدا، فدخلوا يزحفون على استاههم مخالفة فى الفعل كما بدلوا القول.

قوله تعالى: ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ﴾.

الرجز. العذاب. والرجس: النتن. والرُّجْز (بضم الراء) صنم على قول من قرأ ﴿ والرجز فاهجر ﴾(٢) وقيل: أنزل الله عليهم - إذ فعلوا ذاك - طاعونا أهلك منهم أربعة وعشرين ألفا فى ساعة واحدة.

﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ من المخالفة فعلا وقولا.

قوله تعالى: ﴿ وإذا استسقى موسى لقومه ﴾ الاستسقاء طلب السقيا. والسبب فى ذلك: أن بنى إسرائيل بقوا فى التيه فعطشوا، فسألوا موسى أن يستسقى لهم، ففعل.

(١) انظر لسان العرب (مادة: خطأ).

(٢) المدثر: ٥.

فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ

قوله - تعالى -: ﴿ فقلنا اضرب بعصاك الحجر ﴾ اختلفوا فى ذلك الحجر، منهم من قال: كان حجرا معينا على قدر رأس الرجل.

وقيل: كان ذراعا فى ذراع. وقيل: كان حجرا من الأحجار لا يعينه، أيَّ حجر كان.

﴿ فانفجرت منه ﴾ يعنى: فضرب (وتفجرت)[1]. هكذا تقديره: منه ﴿ اثنتا عشرة عينا ﴾ على عدد الأسباط. ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ عرف كل سبط منهم مشربهم.

وقيل: كان يظهر فيه بضرب موسى [اثنتى عشرة][2] حفرة، يعرف كل سبط منهم حفرته.

وقيل: كان يحمل الحجر مع نفسه فى وعاء؛ فكلما احتاجوا إلى الماء ضرب موسى على الحجر. ﴿ كلوا ﴾ مما أنزلنا عليكم من المن والسلوى ﴿ واشربوا ﴾ من هذه المشارب.

[﴿ من رزق الله ﴾][3].

﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ العيث: أشد الفساد. وقيل: معناه: ولاتسعوا فى الأرض مفسدين.

قوله - تعالى -: ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ﴾ كأنهم أجمعوا وسئموا من أكل المن والسلوى، فسألوا موسى أن يسأل لهم غيره من الطعام.

فإن قيل: كان لهم المن والسلوى، فَلِم سماهما واحدا؟! قيل: كانوا يأكلون أحدهما بالآخر (فكان)[4] كطعام واحد.

(١) فى «ك»: وانفجرت.

(٢) فى «الأصل وك»: اثنى عشر.

(٣) من «ك».

(٤) فى «ك»: وكان.

طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا

وقيل: إنه كان أبدا على نسق واحد، وكان من حيث اتساقه كطعام واحد.

﴿ فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها ﴾ سألوا هذه الأطعمة.

وقوله – تعالى –: ﴿ وفومها ﴾ اختلفوا فيه. قال ابن عباس، والأكثرون: إنه الحنطة. وقيل: الخبز. وحكى أن بعض الأعراب قال لامرأته: «فومى لنا» أى: اخبزى لنا.

وقال الضحاك بن مزاحم: أراد به الثوم. فأبدل الثاء بالفاء. ومنه قول الشاعر:

كَانتْ ديارُهم – إذ ذاك – بارزةً فيها الفراديسُ والفومانُ والبصَلُ

وقد قرأ أبى بن كعب وابن مسعود: «وثومها» بالثاء ﴿ وعدسها وبصلها ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ﴾ يعنى: أتختارون الأدنى على ما هو خير. فإن قيل: أليس فيما سألوا الحنطة والخبز، وهى خير من المن والسلوى فلم سماه أدنى؟ قيل: أراد به أدنى فى القيمة، أو أراد به أسهل وُجُوداً على العادة.

﴿ اهبطوا مصرا ﴾ أى: انزلوا واذهبوا إلى مصر. واختلفوا فيه، فالأكثرون على أنه المصر المعروف. وقد قرأ ابن مسعود: «اهبطوا مصر» غير منصرف[1]. ومن صرفه كان لقلة الحروف.

وقال الأعمش: أراد به مصر الذى عليه صالح بن على، وهو المصر المعروف. وقيل: كان مصرا من الأمصار لابعينه يقول: انزلوا مصرا ﴿ فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة ﴾ قيل: أراد به الجزية، وقال عطاء بن السائب: هو الكستيج والزنار[2].

وقال ابن عباس: أصحاب القبالات ممن ضربت عليهم الذلة.

(١) قال القرطبى (١ / ٤٠١): وقرأ الحسن بن تغلب، وطلحة «مِصْرَ». بترك الصرف وكذلك هى فى مصحف أبى بن كعب، وقراءة ابن مسعود.

(٢) هو ما يلبسه الذِّمّى يشده على وسطه. انظر لسان العرب (مادة: زنر).

فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ

﴿ والمسكنة ﴾ والفقر، يقال: تمسكن الرجل أى صار فقيرا، وسمى الفقير مسكينا لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة.

﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾ أى: رجعوا واحتملوا غضب الله.

﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾ والآية: العلامة. والآية: الجماعة. يقال: خرج القوم بآيهم أى: بجماعتهم. والآية من القرآن مجمع كلمات معلوم الأول والآخر.

قوله – تعالى –: ﴿ ويقتلون النبيين ﴾. قرأ نافع بالهمز والمد. والباقون بالتليين، وأصله الإنباء، فمن همزه كان على الأصل. ومن لينه فلكثرة الاستعمال.

وقيل: هو مأخوذ من النَّبْوَةِ وهى المكان المرتفع، فعلى هذا يكون التليين على الأصل.

وفى الحديث: «أن رجلا قال: يانبىء الله – بالهمز والمد – فقال ﷺ: لست بنبىء الله إنما أنا نبى الله»[1].

قوله – تعالى –: ﴿ ويقتلون النبيين بغير الحق ﴾ فإن قال قائل: لم قال: «بغير الحق» وقتل النبيين لايكون إلا بغير الحق؟! قلنا: ذكره وصفا للقتل، والقتل يوصف تارة بالحق، وتارة بغير الحق وهو مثل قوله – تعالى – ﴿ قال رب احكم بالحق ﴾[2]. ذكر الحق وصفا للحكم لا أن حكمه ينقسم إلى الجور والحق.

(١) أخرجه العقيلى فى الضعفاء (٣/ ٨١،٨٢) من حديث ابن عباس به مرفوعًا. وقد أورده فى منكرات عبد الرحيم بن حماد الثقفى، ثم قال: وقد روى بإسناد لين.

قلت: ولعله أراد رواية أبى ذر التى أخرجها الحاكم فى مستدركه (٢/ ٢٣١) وقال: هذا حديث صحيح. وتعقبه الذهبى بقوله: بل منكر لم يصح، قال النسائى: حمران ليس بثقة، وقال أبو داود: رافضى، روى عن موسى بن عبيدة وهو واه. اهـ.

(٢) الأنبياء: ١١٢.

وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ

﴿ ذلك بما عصوا ﴾ من المعاصى ﴿ وكانوا يعتدون ﴾ يتجاوزون الحد.

قوله - تعالى -: ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا ﴾ أراد بالذين هادوا اليهود، وإنما سموا يهودا؛ لأنهم قالوا ﴿ إنا هدنا إليك ﴾[١] أى: ملنا إليك.

وقيل: لأنهم من أولاد يهودا بن يعقوب. والنصارى قوم يعرفون. وإنما سموا نصارى؛ لأنهم نزلوا قرية تسمى ناصرة. وقيل: لقول عيسى: من أنصارى إلى الله قالوا :نحن أنصار الله.

﴿ والصابئين ﴾ قرأ نافع باللين وقرأ الباقون بالهمز. وأصله الصبو وهو الميل والخروج.

يقال: صبأ ناب البعير إذا خرج. وصبا قلبه إلى فلان أى: مال. قال الشاعر:

صبا قلبى إلى هند وهند مثلها (يصبى)[٢]

أى: مال قلبى إليها ومثلها تميل القلب.

واختلفوا فى معناه؛ قال ابن عباس: هم قوم من اليهود والنصارى.

وقال قتادة: هم قوم يقرءون الزبور، ويعبدون الملائكة، ويصلُّون إلى الكعبة ﴿ من آمن بالله ﴾. فإن قيل: قد ذكر فى الجملة ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ فكيف يستقيم قوله ﴿ من آمن بالله ﴾؟.

قيل: هذا فى سلمان وأتباعه الذين آمنوا بمحمد ﷺ قبل البعث. ثم أقروا به بعد البعث.

وقيل: أراد به: من ثبت على الإيمان. وقيل: أراد بالذين آمنوا: المنافقين الذين آمنوا باللسان.

---

(١) الأعراف: ١٥٦.

(٢) فى «ك»: يضنى.

خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ

وقوله تعالى: ﴿من آمن بالله﴾ يعنى بالقلب مع اللسان ﴿بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ فى الآخرة.

قوله تعالى: ﴿[وإذ][1] أخذنا ميثاقكم﴾ أى: عهدكم ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ قيل: أراد به طور سيناء.

وقيل: كل جبل طور. وفى القصص: أن الله تعالى قلع جبل طور ورفع فوق رأسهم وقال لهم: إن لم تقبلوا التوراة أرسلت هذا الجبل عليكم، فقبلوا التوراة. وعليه دل قوله تعالى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم﴾[2] الآية.

﴿خذوا ما آتيناكم﴾ من التوراة ﴿بقوة﴾ بجد واجتهاد ﴿واذكروا ما فيه﴾ وادرسوا ما فيه. ﴿لعلكم تتقون﴾ النار فى الآخرة.

قوله - تعالى -: ﴿ثم توليتم من بعد ذلك﴾ أعرضتم من بعد ما قبلتم التوراة ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ يعنى: بالإمهال والإدراج ﴿لكنتم من الخاسرين﴾ لَمِنَ المعذبين فى الحال؛ كأنه رحمهم بالإمهال.

قوله - تعالى -: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا﴾ أى: جاوزوا الحد، ويقال: تعدى طوره. أى: جاوز حده.

﴿منكم فى السبت﴾ وأصل السبت: القطع، وسمى يوم السبت بذلك؛ لأن اليهود أمروا فيه بقطع الأعمال - أراد به قوم أيله، وهى قرية على شط البحر - وترك الاصطياد فى يوم السبت؛ فخالفوا واصطادوا. وقصتهم تأتى مشروحة فى سورة

(١) فى «الأصل»: إذا.

(٢) الأعراف: ١٧١.

الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

الأعراف.

﴿ فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ وهذا أمر تكوين ليس للعبد فيه صنع ولا اختيار.

﴿ خاسئين ﴾ مبعدين. ومنه يقال: [أخسأ][1] أى: أبعد. فإن قيل: لم قال: «قردة خاسئين» وإنما تنعت القردة بالخاسئات؟ قيل: فيه تقديم وتأخير. وتقديره: خاسئين قردة.

قوله - تعالى -: ﴿ فجعلناها نكالا لما بين يديها ﴾ أى: فجعلنا عقوبتهم بالمسخ نكالا. والنكال: اسم لكل عقوبة تُنَكِّل الناظر من فِعْلِ ما جعلت العقوبة جزاء عليه. ومنه النكول من اليمين، وهو منع اليمين.

﴿ لما بين يديها ﴾ فإن قيل: كيف يكون نكالا لما بين يديها وهم قد مضوا؟ قيل: أراد به الذين حضروا فى ذلك الزمان.

﴿ وما خلفها ﴾ الذين يأتون من بعد «وما» ها هنا: بمعنى «من» وفيه قول آخر: أراد «لما بين يديها»: ما سبقت من الذنوب ﴿ وما خلفها ﴾ ما حضرت من الذنوب التى أخذوا بها.

وفيه قول ثالث: أراد «بما بين يديها» القرى التى كانت مبنية فى الحال. وما خلفها :بالحدث من القرى من بعد.

﴿ وموعظة للمتقين ﴾ من أمة محمد ﷺ.

---

(١) فى «الأصل»: إخساء.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ

قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ واذكر إذ قال موسى لقومه: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ البقرة: الأنثى من البقر. وهى مأخوذة من البقر، وهو الشق. سميت بذلك لأنها تشق الأرض بالحراثة.

وفى الخبر: «أن النبى ﷺ نهى عن التبقر فى الأهل والمال»[1] أى: التوسع. والقصة فى ذلك: أنه كان فى بنى إسرائيل رجل غنى، وله ابن عم فقير، فاستطال حياته فقتله، وحمله إلى حى آخر، وطرحه بفنائهم، ثم أصبح يطلب دمه. فسألوا موسى أن يسأل ربه من القاتل؟ فسأل فأوحى الله - تعالى - [إليه][2] أن يأمرهم بذبح البقرة.

فقال: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴿قالوا أتتخذنا هزوا﴾ لأنهم لما سألوه أن يسأل ربه من القاتل؟ فقال: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، فلبعد ما بين السؤال والجواب، قالوا: أتتخذنا هزوا. وذلك من شدة جهلهم، وتبسطهم فى الكلام نسبوا نبيهم إلى الاستهزاء.

﴿قال أعوذ بالله﴾ أعتصم وأمتنع بالله. ﴿أن أكون من الجاهلين﴾ بالجواب، لا على وفق السؤال. لأن كل من سئل عن شيء فأجاب لا على وفق السؤال يكون جاهلا.

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١/ ٤٣٩) والطيالسى فى مسنده ص٥٠ رقم ٣٨٠، والشاشى فى مسنده (٢/ ٢٤٢ ٢٤٤رقم ٨١٤، ٨١٥) عن ابن مسعود وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٥٤): رواه أحمد بأسانيد وفيها رجل لم يسم. وقال الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله -: فى إسناديه نظر، وأحدهما ضعيف لجهالة الرجل من طيئ، والآخر صحيح على بحث فيه. انظر المسند بتحقيق شاكر (٦/ ١٠٤). وانظر تعليق الحافظ ابن حجر فى تعجيل المنفعة (٤٧٨ - ٤٧٩)، وتعليق الشيخ ناصر - حفظه الله - فى الصحيحة رقم ١٢.

(٢) زيادة من «ك».

إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا

قوله – تعالى –: ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى﴾ هذا استيصاف السن ﴿قال إنه يقول﴾ يعنى: فسأل[1] فقال: إنه يقول: ﴿إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك﴾ قيل: الفارض الكبيرة المسنة، والبكر: الفتى، والعوان ما بين ذلك.

ومنه يقال: عَوَنَت المرأة، إذا زادت على الثلاثين. ويقال: فى الْمَثَل «العَوَانُ لاتُعَلَّمُ الْخِمْرَةَ» أى: الاختمار.

وقيل: الفارض التى ولدت بطونا، والبكر: التى لم تلد أصلا، والعوان: التى ولدت بطنا أو بطنين. ﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾ من الذبح.

قوله تعالى: ﴿ادع لنا ربك﴾ سل لنا ربك. ﴿يبين لنا ما لونها﴾ هذا استيصاف اللون. ﴿قال إنه يقول إنها بقرة صفراء﴾ قال الحسن: الصفراء: السوداء.

ومنه قول الشاعر:

تِلْكَ خَيْلِى مِنْه وتِلْكَ رِكَابِى ... هُـنَّ صُفْرٌ أَلْوانُهــا كالزَّبِيب

يعنى سود، والصحيح: أنه أراد به الصفراء المعهودة بدليل قوله: ﴿فاقع لونها﴾ وإنما يقال: أصفر فاقع، وأسود حالك، وأحمر قانٍ، وأبيض يقق. ويقال: ذلك للمبالغة.

وقال سعيد بن جبير: كانت صفراء القرون والظلف. والصحيح: أنه كانت صفراء بجميعها.

﴿تسر الناظرين﴾ أى تعجبهم وتدخل السرور فى قلبهم من حسنها وهذا دأب كل حسن قد يرى. وقد قال النبى ﷺ «من لبس نعلا صفراء لم يزل فى سرور حتى ينزعها»[2].

---

(١) في «ك»: أنه سال.

(٢) أخرجه العقيلى فى الضعفاء (٣ / ٤٤٦)، والطبرانى فى الكبير (١٠/٢٦٣ رقم ١٠٦١٢)، وابن أبى حاتم فى تفسيره (١/٢١٩ رقم ٧١٠ – تفسير سورة البقرة) جميعهم عن ابن عباس موقوفا. قال أبو حاتم فى العلل (٢/ ٣١٩): هذا حديث كذب موضوع.

تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ

قوله تعالى: ﴿قالوا ادع لنا ربك﴾ سل لنا ربك. ﴿يبين لنا ماهى﴾ وهذا استيصاف العمل أنها من العوامل أم لا؟ ﴿إن البقر تشابه علينا﴾ أى: اشتبه. ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ وفى الخبر: «أنهم لو لم يقولوا: إن شاء الله ما اهتدوا أبدا»[1].

قوله – تعالى –: ﴿قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تثير الأرض﴾ الذلول: بَيِّن الذِّلَّة، والذليل بَيِّن الذُّل، والبقرة الذلول التى أذلها العمل بإثارة الأرض.

﴿ولاتسقى الحرث﴾ ليست بساقية ﴿مسلمة﴾ عن العيوب. ﴿لاشية فيها﴾ قال الزجاج: ليس فيها لون يخالف معظم لونها.

﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾ فإن قيل: قد كان جاء بالحق فى كل مرة. فما معنى قوله ﴿الآن جئت بالحق﴾؟! قيل: معناه: الآن أتيت بالبيان التام الشافى الذى لم يبق معه لبس ولا إشكال.

﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ يعنى: من غلاء ثمنها، لأنه روى أنهم اشتروها بملء مسكها[2] ذهبا.

وحكى عن عكرمة أنه قال: ما اشتروها بذلك، إنما اشتروها بثلاثة دنانير.

وقيل: معناه وما كادوا يفعلون من شدة اضطرابهم واختلافهم فيها، والأول أصح.

وفى الحديث أن النبى ﷺ قال: «شددوا على أنفسهم؛ فشدد الله عليهم. ولو

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١/ ٢٢٣ رقم ٧٢٧)، وابن مردويه فى تفسيره – كما فى تفسير ابن كثير (١/ ١١١) من أبى هريرة مرفوعا. وذكره الأخير مطولا. وقال ابن كثير: هذا حديث غريب من هذا الوجه وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبى هريرة كما تقدم مثله عن السدى. وعزاه الهيثمى إلى البزار وقال: وفيه عباد بن منصور وهو ضعيف، وبقية رجاله ثقات المجمع (٦/ ٣١٧). ورواه سعيد بن منصور (٢/ ١٩٣)، والفريابى، وابن المنذر – كما فى الدر (١/ ٨٣) – عن عكرمة مرسلا.

(٢) المَسْكُ: الجلد، وخص بعضهم به: جلد السخلة. لسان العرب (مادة: مسك).

وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ

اعترضوا بقرة فذبحوها؛ حصل مرادهم»[1].

قوله تعالى: ﴿وإذ قتلتم نفسا﴾ هذا فى التلاوة مؤخر، وفى المعنى مقدم؛ لأنه أول القصة. ﴿فادَّارأتم فيها﴾ أى: اعوججتم[2] ومنه قول الشاعر:

فَنَكَّب عَنْهُمُ دَرْءَ الأَعَادِى　　　وداوَوْا بالجنـون مِنَ الجنُونِ

أى: اعوجاجهم.

وقيل: معناه: تدافعتم إذا كان يحيل بعضهم على بعض وأصل [الدرء][3] الدفع.

قوله تعالى: ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ أى: مظهر ما كنتم تكتمون؛ فإن القاتل كان يكتم القتل.

قوله تعالى: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ أمر الله تعالى أن يضرب المقتول ببعض البقرة. واختلفوا فى ذلك البعض؛ قال ابن عباس وأكثر المفسرين: كان ذلك من الغضروف إلى الكتف. قال مجاهد: وهو عجب الذنب. وقال غيره: هو الفخذ. وقال بعضهم: اللسان.

وقيل: بعض منها لابعينه؛ أىٍّ بعض كان.

﴿كذلك يحيى الله الموتى﴾ لأنه أراهم إحياء المقتول حين ضرب ببعض البقرة.

وفى القصة: أنه لما ضرب ببعضها قام حيا وقال: «قاتلى فلان»، ثم سقط ميتا؛ فحرم قاتله الميراث.

وفى الخبر: أن النبى ﷺ قال: «ما ورث قاتل بعد صاحب البقرة»[4].

---

(١) وهو جزء من الحديث المتقدم. وهو جزء من حديث رواه أيضا ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ رقم ٦٩٥)، والبيهقي في سننه (٦ / ٢٢٠ - ٢٢١) عن عبيدة السلماني قوله.

(٢) في الأصل، «ك»: اعوجتم.　　　(٣) فى «الأصل»، و «ك»: الدواء. وهو تحريف.

(٤) لم أقف عليه مرفوعاً، وإنما وجدته من قول أبي عبيدة السلماني، رواه أبو حاتم فى تفسيره (١/ ٢١٤-٢١٥ رقم ٦٩٥).

تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ

﴿ ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ تمنعون أنفسكم من المعاصى.

وقيل: إنما خص البقرة بذلك الذبح؛ لأنهم كانوا قد عبدوا العجل، فأراد أن يريهم هوانها، وأنها تعجز عن دفع القتل عن نفسها.

أو ابتلاهم بالأمر بذبحها حتى [يراهم][(١)] هل يقتلون أم لا.

قوله تعالى: ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ﴾ يعنى يبست وجفت، وجفاف القلب بخروج الرحمة والرقة عنه. ﴿ من بعد ذلك ﴾ من بعد ما ظهر لكم من تلك الآيات. ﴿ فهى كالحجارة ﴾ يعنى فى الصلابة ﴿ أو أشد قسوة ﴾.

فإن قيل: لم قال: أو أشد قسوة و« أو » كلمة التشكيك؟ ولم شبَّه بالحجارة والحديد أصلب من الحجارة؟.

قلنا: أما الأول معناه وأشد قسوة. وقيل: بل أشد قسوة، وهو مثل قوله تعالى: ﴿ إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾[(٢)] أو بل يزيدون.

وقال جماعة النحويين: معناه إن شئت مثلهم بالحجارة؛ وإن شئت مثلهم بما هو أشد من الحجارة، فأنت مصيب فى الكل. وهذا قول حسن.

وإنما لم يشبِّه بالحديد؛ لأنه قابل للين، فإنه يلين بالنار، وقد لان لداود - عليه السلام -، والحجارة لاتلين قط.

قوله تعالى: ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ﴾ قيل: أراد به جميع الحجارة. وقيل: أراد به الحجر الذى كان يضرب عليه موسى للأسباط.

﴿ وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ﴾ أراد به عيونا دون الأنهار، وتكون فى بعض

---

(١) فى « الأصل » و« ك »: أنهم.

(٢) الصافات: ١٤٧.

قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

الأحجار ﴿ وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ أى ينزل من مخافة الله.

فإن قيل: الحجر جماد لايفهم؛ فكيف يخشى؟! قلنا: قد قال أهل السنة: إن لله - تعالى - علما فى الموات لايعلمه غيره.

وقيل: إن الله تعالى يفهمهم ويلهمهم ذلك فيخشون بإلهامه، وبمثل هذا وردت الأخبار.

فإنه روى: «أن النبى ﷺ كان على «ثبير» والكفار يطلبونه، فقال الجبل: انزل عنى فإنى أخاف أن توخذ علىّ فيعاقبنى الله بذلك. فقال له جبل حراء: إلىّ إلىّ يارسول الله».

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «كان حجر يسلم علىّ بمكة قبل أن أبعث، وأنا أعرفه الآن»[1] الخبر صحيح.

وفى الباب حديث أنس وسهل بن سعد، «أن رسول الله ﷺ كان يخطب إلى جذع فى المسجد قائما، فلما اتخذ له المنبر تحول إليه فلما رقاه حن الجذع»[2].

ويروى: «أنه خار كما يخور الثور، حتى ارتج المسجد؛ فنزل رسول الله ﷺ من المنبر وكان الجذع يخور حتى التزمه فسكن. فخيره النبى ﷺ بين أن يكون شجرة فى الدنيا أو شجرة فى الجنة، فاختارالجنة، فأمر به فدفن»[3].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٥/ ٥٣ رقم ٢٢٧٧)، والترمذي (٥/٥٥٣ رقم ٣٦٢٤)، وأحمد في مسنده (٥/٨٩، ٩٥/١٠٥) جميعهم من حديث جابر بن سمرة.

(٢) متفق عليه من حديث سهل بن سعد. البخاري (٢/٤٦١ رقم: ٩١٧) ومسلم (٥/٤٦ - ٤٩ رقم ٥٤٤). وحديث أنس أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٤٩)، والترمذي (٥/٥٥٤ رقم ٣٦٢٧) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (١/٤٥٤ رقم ٤١٥) وابن خزيمة في صحيحه (٣/١٤٠ رقم ١٧٧٧).

(٣) هذه الزيادة جاءت فى حديث طويل لعائشة، أخرجه أبو يعلى، وقال الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٦/١٣١): هذا حديث غريب إسنادا ومتنا.

وجاءت أيضا فى حديث طويل لأبى بن كعب عند أحمد (٥/١٣٨,١٣٩)، وبريدة عند الدارمى (١/٢٩- ٣٠) وغيرهم.

أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا

وقد قال مجاهد: لاينزل حجر من [الأعلى][1] إلى الأسفل إلا من خشية الله.

ويشهد لكل ما قلنا. قوله - تعالى -: ﴿لوأنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله﴾[2].

﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ أى: يشاهد ما تصنعون.

قوله تعالى: ﴿أفتطمعون﴾ أى: ترجون ﴿أن يؤمنوا لكم﴾ أى: يصدقونكم بما تخبرونهم به. ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنهم سمعوا التوراة ثم حرفوا ما فيها من الأحكام ونعت محمد.

القول الثانى: أنه أراد به السبعين الذين حملهم موسى إلى الطور حين قالوا: إن كنت ترى الله فينبغى أن نرى الله، وإن كنت تسمع كلام الله؛ فينبغى أن نسمع كلام الله. فقال موسى: أما أنا فلا أرى الله، ولكنى أسمع كلامه، ثم سأل موسى ربه تعالى أن يسمعهم كلامه فقال الله تعالى: مرهم فليصوموا كذا وليغسلوا أو ليلبسوا ثيابا جددا نظيفة، ثم ليحضروا ففعلوا ذلك. وسمعوا كلام الله.

وفى التفسير: أنه قال لهم: أنا الله لا إله إلا أنا، أخرجتكم من مصر بيد شديدة فاعبدونى ولا تشركوا بى شيئا، وافعلوا كذا، وكذا فلما سمعوا كلامه، خرجت أرواحهم وماتوا فأحياهم الله تعالى فقالوا لموسى: إنا لانطيق أن نسمع كلامه، فاسمع أنت، وبلغنا إياه. ثم رجعوا إلى قومهم قالوا: قد سمعنا كلام الله، وقد أمرنا أن نفعل كذا وكذا، لكنه قال: افعلوا إن شئتم أو إن استطعتم.

وفى رواية قال: لاترتكبوا كذا وكذا إلا أن يكون لكم بد؛ فارتكبوا، فهذا معنى

(١) فى «الأصل»: أعلى، والمثبت من «ك».

(٢) الحشر: ٢١.

بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ

قوله ﴿ يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ﴾ أى: فهموه ﴿ وهم يعلمون ﴾ أنه الحق.

قوله تعالى: ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ أنزل فى قوم من اليهود آمنوا فنافقوا. ﴿ وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ﴾ والفتح بمعنى القضاء. قال الله تعالى: ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾[1] أى: قضينا لك قضاء بينا.

وقال الأصمعى: سمعت أعرابيا يقول: تعالَ إلى الفتاح. وفى معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم قالوا لأهل المدينة حين شاوروهم فى اتباع محمد ﷺ: آمنوا به فإنه حق. ثم قال بعضهم لبعض: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليكون لهم الحجة عليكم عند ربكم أى: يأخذونكم.

والقول الثانى: أنهم أخبروهم بما عذبهم الله به على الجنايات؛ فقال بعضهم لبعض: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب ﴿ ليحاجوكم به عند ربكم ﴾ ليروا الكرامة لأنفسهم عليكم عند الله.

والقول الثالث: أن النبى ﷺ لما فتح خيبر حاصر بنى قريظة قال لهم: «يا إخوة القردة والخنازير. فقال بعضهم لبعض: هذه الكلمة ما خرجت إلا منكم، يعنى: أنتم حدثتموه بذلك»[2] ﴿ أفلا تعقلون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ يعنى: أنه عالم بما أسروا (وأعلنوا)[3].

---

(١) الفتح: ١.

(٢) هذا الحديث أخرجه الطبرى فى تفسيره (١ / ٢٩٤) وابن أبى حاتم فى تفسيره (١ / ٢٣٨ رقم ٧٨٧) من حديث مجاهد مرسلاً. وعزاه فى الدر لعبد بن حميد وابن المنذر (الدر المنثور ١ / ٨٧).

(٣) فى «ك»: وما أعلنوا.

﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿ومنهم أميون﴾ الأمي: الذى لايقرأ ولا يكتب. وفى اشتقاقه قولان:

أحدهما: أنه من الأم، فالأمى باق على ما انفصل من الأم.

والثانى: من الأمة وهى الخلقة، ومنه قول الشاعر:

وإن معـــاوية الأكــرمين حسان الوجوه طوال الأمم

يعنى بنى معاوية. وطوال الأمم أى الخلق. فالأمى: باق على ما كان عليه من أصل الخلقة.

﴿لايعلمون الكتاب إلا أمانىّ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: قال مجاهد: الأمانى الأكاذيب.

ومنه قول عثمان – رضى الله عنه –: منذ أسلمت ما تمنيت ولا تغنيت أى: ما كذبت. وقال ابن دأب لرجل ذكر شيئا: هذا شيء رويته أم شيء تمنيته. أى: اختلقته واخترعته من تلقائك.

والقول الثانى: أنه التلاوة، أى: لايعلمون الكتاب إلا التلاوة ومثله قوله: ﴿إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته﴾(١) أى: تلاوته. وقيل فى عثمان – رضى الله عنه –:

تَمنَّى كتـــــابَ اللهِ أولَ لَيْلهِ [فياليْتَهُ] (٢) ما لاقَى حِمامَ المَقادِرِ

أى: تلا كتاب الله

والقول الثالث: قال الفراء والكسائى: هو من التمنى، وذلك هى أمانيهم الباطلة من قولهم ﴿لن تمسنا النار إلا أياما معدودة﴾(٣) ومن قولهم: ﴿لن يدخل الجنة إلا

---

(١) الحج: ٥٢

(٢) فى «ك»: فياليت، وفى لسان العرب (مادة: منى)، وتفسير القرطبى (٢/٨): وآخره. (٣) البقرة: ٨٠.

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا

من كان هودا أو نصارى ﴾[١] ومن قولهم: ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾[٢] فعلى قوله هذا «إلا» بمعنى «لكن» يعنى: لايعلمون الكتاب لكن يتمنون أشياء لاتحصل لهم.

﴿ وإن هم إلا يظنون ﴾ قال مجاهد: يكذبون. ولم يعرف أهل البصرة الظن بمعنى الكذب؛ فقالوا: معناه: إلا يخرصون.

قوله تعالى: ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنهم كانوا يكتبون من عندهم أشياء، ثم يقولون للأعراب: هذا من عند الله، يبتغونها منهم. وقيل: أراد به ما غيروا بأيديهم من نعت محمد ﷺ في التوراة؛ فإنه كان فيها أنه أكحل أعْيَنْ، ربعة، سبط الشعر، فكتبوا فيها أنه أشقر، أزرق طويل القامة، جعد الشعر.

﴿ ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم ﴾ اختلفوا فى الويل؛ قال أبو سعيد الخدرى - ويروى ذلك مرفوعا عن النبى ﷺ أيضا - «إن الويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر سبعين خريفا»[٣].

وقال عثمان: هو جبل من نار. وأصل الويل: الهلاك ودعاء العذاب، فإن قيل: ما

(١) البقرة: ١١١.

(٢) المائدة: ١٨

(٣) أخرجه الترمذى (٥/ ٣٠٠ رقم ٣١٦٤)، وقال: غريب. وأحمد فى مسنده (٣/ ٧٥)، وابن حبان فى صحيحه (١٦/ ٥٠٨رقم ٧٤٦٧)، والحاكم فى مستدركه (٢/ ٥٠٧، ٥٣٤، ٤/ ٥٩٦) وقال: صحيح الإسناد جميعهم من طريق دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد مرفوعاً، وعندهم جميعاً: «أربعين خريفا». وقال الحافظ ابن كثير فى البداية (١/ ١٠٧): وهذا الحديث بهذا الإسناد مرفوعا منكر، والله أعلم.

لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ

معنى قوله: ﴿ مما كتبت أيديهم ﴾ و[1] الكَتْبُ لا يكون إلا باليد؟ قيل: ذكره مبالغة في التحقيق. وقيل: معناه أنهم كتبوا بأنفسهم اختراعا.

﴿ وويل لهم مما يكسبون ﴾ من المعاصي.

قوله تعالى: ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾ اختلفوا فيه، منهم من قال: أرادوا به أربعين يوما عدد ما عبدنا العجل.

ومنهم من قال: سبعة أيام. لأن مقدار زمان العالم سبعة آلاف سنة فقالوا: نعذب بكل ألف سنة يوما.

وقيل: إنهم قالوا: سمعنا أنبياءنا أنهم قالوا: ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة فنحن نقطع في كل يوم مسيرة سنة فتبقى مسيرة جهنم في أربعين يوما وننجو منها.

﴿ قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده ﴾ معناه: أنى لكم بهذا؛ قول من الله؟ فلا يخالف قوله. قوله: ﴿ أم تقولون على الله ما لاتعلمون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ بلى من كسب سيئة ﴾ «بلى» تذكر في جواب النفي. «ونعم» تذكر في جواب الإيجاب. قال الله – تعالى –: ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾[2].

وقال: ﴿ ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ﴾[3]. وقال: ﴿ فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم ﴾[4]. ﴿ بلى من كسب سيئة ﴾ السيئة: الشرك. ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ أي: مات على الشرك.

وقيل: أراد بالسيئة: الكبيرة. ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ أي: أصر عليها، ومات

(١) ليست في «الأصل»، ولا «ك».

(٢) الأعراف: ١٧٢.

(٣) الزمر: ٧١.

(٤) الأعراف: ٤٤.

بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ

غير تائب. وقال ابن السراج النحوى: معناه: انسدت عليه مسالك النجاة. ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ إلى آخر الآية، ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لاتعبدون إلا الله﴾ قرأ أبى بن كعب وابن مسعود: «لاتعبدوا إلا الله» على الأمر، والقراءة المعهودة «لاتعبدون».

وتقرأ بالياء[1] والتاء[2] ومعناهما واحد؛ فإن العرب قد تذكر المخاطبة فى (موضع)[3] المغايبة، والمغايبة فى موضع المخاطبة. وفى هذا الميثاق عهد وقسم، وتقديره: والله لاتعبدون إلا الله.

﴿وبالوالدين إحسانا﴾ أى: وأحسنوا بالوالدين إحسانا. والإحسان بهما البر والعطف والتحنن، والنزول عند أمرهما فيما لايخالف أمر الله - تعالى -. ﴿وذى القربى﴾ أى: أهل القرابات. ﴿واليتامى﴾ اليتيم: اسم لمن لا أب له من الآدميين. ولمن لا أم له من البهائم، وهو اسم للفقير منهم.

وقال على - رضى الله عنه -: «حفظت لكم عن رسول الله ﷺ ستا: لا طلاق قبل النكاح، ولا عتاق فى غير الملك، ولا نذر فى معصية الله، ولا يُتْم بعد الحُلُم، ولا صمت يوم إلى الليل. ولا صوم وصال»[4]. ﴿والمساكين﴾ هم الفقراء كما سبق.

(١) هى قراءة ابن كثير، وحمزة، والكسائى. انظر النشر (٢/ ٢١٨).

(٢) وهى قراءة الباقين. انظر المصدر السابق.

(٣) فى «ك»: معنى.

(٤) أخرج أبو داود بعضه فى سننه (٣/ ١١٥ رقم ٢٨٧٣)، وهو بطوله عند عبد الرزاق فى المصنف (٦/ ٤١٦ رقم ١١٤٥٠) وابن عدى فى الكامل (٢ / ١٢٢) باختصار والطبرانى فى الصغير (١/ ١٦٩ رقم ٢٦٦) والدارقطنى فى العلل (٤/ ١٤٢)، والبيهقى فى السنن (٧/ ٤٦١)، وصوب الدارقطنى وقفه، وقال الهيثمى فى المجمع (٤/ ٣٣٧): ورجاله ثقات. وانظر تخريجه فى الإرواء للشيخ الألبانى حفظه الله (٥ / ٨٠ - ٨٣/رقم ١٢٤٤).

بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا

﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ تقرأ بقراءتين حَسَناً[١] وحُسْناً[٢].

وتقديره: وقولوا للناس قولا حسنا، أو وقولوا للناس قولا ذا حسن. وفى معناه ثلاثة أقوال، أحدها: قال سفيان الثورى: القول الحسن هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. والقول الثانى: أنه اللين فى القول، والمعاشرة بحسن الخلق.

والقول الثالث: أنه خطاب لأهل التوراة يعنى: وقولوا للناس صدقا فى نعت محمد ﷺ فى التوراة.

﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ سبق تفسيره.

﴿ ثم توليتم ﴾ أعرضتم ﴿ إلا قليلا منكم ﴾ وذلك أن فريقا منهم قد آمنوا ﴿ وأنتم معرضون ﴾ كإعراض آبائكم.

قوله تعالى: ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ﴾ أى: لا يسفك بعضكم دماء بعض.

وقيل: لا تسفكوا دماء غيركم فتسفك دماؤكم؛ فكأنكم سفكتم دماء أنفسكم.

﴿ و لا تخرجون أنفسكم من دياركم ﴾ أى: لايخرج بعضكم بعضا.

وقيل: معناه: لاتسيئوا جوار من جاوركم؛ فتلجئوهم إلى الخروج؛ بسوء الجوار.

﴿ ثم أقررتم ﴾ أى: قبلتم ﴿ وأنتم تشهدون ﴾ تعترفون بالقبول.

قوله تعالى: ﴿ ثم أنتم هؤلاء ﴾ يعنى: ياهؤلاء ﴿ تقتلون أنفسكم ﴾ (بقتل)[٣] بعضكم بعضا.

---

(١) هى قراءة: حمزة، والكسائى، ويعقوب، وخلف، بفتح الحاء والسين. انظر النشر (٢/٢١٨).

(٢) هى قراءة الباقين، بضم الحاء، وإسكان السين. انظرالمصدر السابق.

(٣) فى «ك»: يقتل.

تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ

﴿ وتخرجون فريقا منكم من دياركم تظاهرون ﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف[1] وأصله: تتظاهرون. فأدغمت التاء فى الظاء. فصار مشددا ومعناه: تعاونون.

﴿ عليهم بالإثم والعدوان ﴾ فالإثم والعدوان: المبالغة فى الظلم. وقد روى: «أن النواس بن سمعان سأل رسول الله ﷺ ما البر؟ فقال: ما اطمأنت إليه نفسك، قال: ما الإثم؟ فقال ﷺ: ما حاك فى صدرك»[2].

قوله تعالى: ﴿ وإن يأتوكم أسارى ﴾ يقرأ بقراءتين «أَسْرى، وأُسَارى»[3] وفرق أبو عمرو بينهما فى المعنى، فقال: الأسارى لمن كان فى اليد مع الوثاق. والأسرى: لمن كان فى اليد من غير وثاق، ولم يرضوا منه بهذا الفرق، والصحيح: أنهما واحد.

﴿ تفدوهم ﴾ و﴿ تفادوهم ﴾ قراءتان[4]. قيل: هما فى المعنى واحد، وقيل: (تفادوهم)[5] تقال فى فداء الأسرى بالأسرى. وتفدوهم فى الفداء بالمال.

﴿ وهو محرم عليكم إخراجهم ﴾ فيه تقدير وتأخير. وتقديره: وتخرجون فريقا منكم من ديارهم؛ وهو محرم عليكم إخراجهم؛ تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان.

﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾ لأنهم خالفوا فى البعض وامتثلوا فى البعض.

---

(١) قرأ الكوفيون: حمزة، وعاصم، الكسائى، وخلف بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد. انظر النشر (٢/٢١٨)، وتفسير القرطبى (٢/٢١).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦/١٦٧ – ١٦٨ رقم ٢٥٥٣)، والترمذى (٤/٥١٥ رقم ٢٣٨٩)، وقال: حسن صحيح وأحمد فى مسنده (٤/١٨٢)، وابن حبان فى صحيحه (٢/١٢٣ رقم ٣٩٧).

(٣) قرأ حمزة «أَسْرَى»، بفتح الهمزة، وسكون السين، من غير ألف، وقرأ الباقون «أُسَارى» بضم الهمزة وألف بعد السين، انظر النشر (٢/٢١٨)، وتفسير القرطبى (٢/٢١).

(٤) قرأ نافع وحمزة، والكسائى ويعقوب: «تفادوهم» وقرأ الباقون: «تفدوهم» انظر المصادر السابقة.

(٥) فى «ك»: تفادونهم.

وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

قال السدى – فى كشف معنى الآية –: إنهم أمروا بأربعة أشياء: أن لايقتل بعضهم بعضا. وأن لايخرج بعضهم بعضا. وأن لايتعاونوا على الإثم والعدوان. وأن يفادوا الأسارى. فخالفوا فى الثلاث وامتثلوا فى المفاداة.

والقصة فيه: أن بنى قريظة كانو ا حلفاء الأوس، وبنو النضير كانوا حلفاء الخزرج وكانت بين القبيلتين مقاتلة، فوقعت المقاتلة بين حلفاء القبيلتين، ثم إذا وقع أسير من حلفاء إحدى القبيلتين فى يد أخرى القبيلتين فأداه حلفاء القبيلة الأخرى، مع كون الأسير من عدوهم، فإذا قيل لهم: لم تفادون؟ قالوا: أمرنا بالمفاداة. فإذا قيل لهم: لم تقاتلون؟ قالوا: نحن حلفاؤهم فلابد لنا من القتال معهم فهذا معنى الآية.

وقوله تعالى: ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا﴾ يقال: خَزِىَ يُخْزَى خِزْيًا، من الذل والهوان. وخَزِىَ يَخْزَى خِزَاية. من الخجل والاستحياء والافتضاح. ومنه قول الشاعر:

و الموت خزيان ينظر خزيان

أى: مستحى.

﴿ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعلمون﴾.

﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة﴾ اختاروا الدنيا على الآخرة.

﴿فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾ يمنعون العذاب.

قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا﴾ أعطينا ﴿موسى الكتاب﴾ التوراة ﴿وقفينا من بعده بالرسل﴾ أتبعنا. أى: يقفو رسولٌ رسولاً.

﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ فيه قولان؛ أحدهما: أنها المعجزات التى أوتى

﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا

عيسى من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك.

والقول الثانى: أنها الإنجيل. ﴿وأيدناه﴾ قويناه من الأيد. وهو القوة.

﴿بروح القدس﴾ اختلفوا فى الروح، قال الحسن وقتادة – وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس – أنه أراد به جبريل. وقيل: إنه أمر أن يسير معه حيث سار حتى صعد به إلى السماء. وقيل: إن الروح هو الاسم الأعظم الذى كان يحيى به الموتى. وقيل هو الإنجيل.

وإنما سمى روحا؛ لأنه كان سببا لحياة القلوب؛ ولذلك سمى القرآن روحا.

وسمى عيسى روحا؛ لأنه حصل بتكوين الله من غير توليد والد.

وأما جبريل: فإنما سمى روحا؛ للطافته، أو لمكانه من الوحى الذى هو سبب لحياة القلوب.

وأما القدس: قيل: إنه نعت جبريل. وأصل القدس: الطهارة. ومنه القدُّوس: وهو الطهارة. والأرض المقدسة: المطهرة؛ وإنما وصف جبريل بالقدس لأنه لم يقترف ذنبا قط. وكان طاهرا من الذنوب.

وقيل: القدس هو الله – تعالى –.

قوله تعالى: ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم﴾ لا تريد قلوبكم ﴿استكبرتم﴾ أنفتُمْ وتعظمتم ﴿ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون﴾.

فالمُكَذَّبون: مثل عيسى ومحمد. والمقتولون: مثل زكريا ويحيى – صلوات الله عليهم أجمعين –.

قوله تعالى: ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ قرأ ابن عباس: غُلُف بضم اللام، وهو قراءة الأعرج وابن محيصن؛ وهو من الشواذ.

لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ

والقراءة المعهودة بجزم اللام، وهم جمع الأغلف، ومعناه: قلوبنا فى أوعية مما تقول لانفهم شيئا من ذلك وهذا مثل قوله - تعالى -: ﴿وقالوا قلوبنا فى أكنة﴾[1].

وأما الغُلُف: بضم اللام: جمع الغلاف. ومعناه: قلوبنا أوعية العلم، وليس فيها مما تقول شىء. أى: ما تقوله فليس بشىء.

﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ طردهم الله عن الفهم والرحمة. وأصل اللعن: الطرد والإبعاد وقال الشاعر:

ذغرق[2] به القطا ونَفَيْتُ عنه مقامَ الذئبِ كالرجـلِ اللعينِ

أى: مقام الذئب اللعين، يعنى: المطرود.

﴿فقليلا ماتؤمنون﴾ قيل: أراد به المشركين ومعناه: قليل إيمانهم والمراد [به][3] إيمانهم بأن الله خالقهم وخالق السموات و الأرض.

وقيل: أراد به أهل الكتاب؛ لأن الذين آمنوا منهم أقل من الذين آمنوا من المشركين.

وقيل: معناه: فلا يؤمنون أصلا.

وحكى الكسائى عن العرب: قلَّ ما تنبت هذه الأرض إلا الكراث والبصل. أى: لاتنبت إلا الكراث والبصل.

قوله تعالى: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله﴾ يعنى القرآن. ﴿مصدق لما معهم﴾ من التوراة والإنجيل.

﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ يستنصرون؛ ومنه قول الشاعر:

---

(١) فصلت: ٥.

(٢) كذا فى «الأصل»، و«ك»، وفى لسان العرب (مادة: لعن)، وتفسير القرطبى (٢ / ٢٦): ذَعَرْتُ.

(٣) فى «الأصل»، و«ك»: بهم.

مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ

ألا أبلغ بنى عصم رسولا فإنى عـن قبــاحتكم غنى[1]

أى: عن نصرتكم.

وفى الخبر: «أن النبى ﷺ كان يستفتح بصعاليك المهاجرين»[2]. أى يستنصر بهم فى الدعاء للغزوات.

ومعنى الآية: أن المشركين من قبل كانوا يؤذون اليهود فربما تكون الغلبة لهم على اليهود فى القتال؛ فقالت اليهود: اللهم انصرنا بالنبى الأمى الذى تبعثه فى آخر الزمان، فكانوا ينصرون به، فلما بعث كفروا به. فهذا معنى قوله: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾.

قوله تعالى: ﴿بئسما اشتروا﴾ بِئْسَ: اسم مستوف لكل ذم. ونِعْمَ: اسم مستوف لكل حمد. ﴿اشتروا به أنفسهم﴾ اختاروا لأنفسهم ﴿أن يكفروا بما أنزل الله﴾ من القرآن ﴿بغيا﴾ حسدا. والبغى: الظلم. وأصله الطلب؛ فالباغى طالب للظلم. والحاسد: ظالم لأنه يريد زوال النعمة عن المحسود من غير جناية منه. ﴿أن ينزل الله من فضله﴾ من النبوة: ﴿على من يشاء من عباده﴾ من الأنبياء.

﴿فباءوا﴾ أى: رجعوا ﴿بغضب على غضب﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الغضب الأول عبادة العجل. والغضب الثانى الكفر بمحمد.

والقول الثانى :أن الغضب الأول تكذيب عيسى. والغضب الثانى تكذيب محمد ﷺ.

والقول الثالث: أن الغضب الأول الكفر بالإنجيل. والغضب الثانى الكفر بالقرآن.

﴿وللكافرين عذاب مهين﴾ أى: مخزٍ.

---

(١) كذا فى «الأصل»، و«ك»، وفى لسان العرب (مادة: فتح)

أَلا مَنْ مُبْلِغٌ عمراً رسولاً فإنى عن فُتَاحَتِكم غَنِىٌّ

(٢) أخرجه أبو عبيد فى غريب الحديث (١/٣٠٩ رقم ٩٤) والطبرانى فى الكبير (١/٢٩٢ رقم ٨٥٧، ٨٥٨، ٨٥٩) من حديث أمية بن خالد بن أسيد. وقال المنذرى فى الترغيب: رواته رواة الصحيح، وهو مرسل (٤/٩٠). قلت: وأمية ذكر الحافظ ابن حجر أنه لا صحبة له. وانظر الإصابة (١/١٢٧ - ١٢٨).

أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ

قوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله﴾ من القرآن. ﴿قالوا نؤمن بما أنزل علينا﴾ يكفينا ما أنزل علينا من التوراة.

﴿ويكفرون بما وراءه﴾ قال أبو عبيدة: بما بعده. قال الفراء: بما سواه من الكتب. وهو الأصح. ﴿وهو الحق﴾ يعني: القرآن ﴿مصدقا لما معهم﴾ من التوراة. ﴿قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ فإن قال قائل: القتل كان من آبائهم فكيف خاطب الأبناء به؟

الجواب قلنا: قتل الأنبياء وإن وجد من الآباء لكن الأبناء رضوا به، ووالوهم عليه؛ فلهذا خاطب الأبناء به. وأيضا فإنه قال: ﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل﴾ على صيغة الاستقبال، فكان اللائق بالحال أن يقول فلم قتلتم؟

وأما قوله: ﴿فلم تقتلون﴾ معناه: فلم قتلتم، لكن العرب قد تضع الماضي في موضع المستقبل، والمستقبل في موضع الماضي، والدليل عليه قوله: ﴿من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ يعني في زعمكم.

وقيل: معناه: ما كنتم مؤمنين على النفي. كقوله تعالى: ﴿قل إن كان للرحمن ولد﴾[1] أي: ما كان للرحمن ولد. وفيه قول آخر سيأتي.

قوله تعالى: ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ بالمعجزات. ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده﴾ في الهاء قولان: أحدهما: أنه عائد إلى موسى والثاني: عائد إلى المجيء. ﴿وأنتم ظالمون﴾ بذلك.

قوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ قد ذكرناه. ﴿واسمعوا﴾ واقبلوا ﴿قالوا سمعنا وعصينا﴾ يعني: سمعنا بالآذان

(١) الزخرف: ٨١.

مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا

وعصينا بالقلوب.

وقيل: إنهم لما سمعوا وخالفوا بالعمل؛ فكأنهم قالوا: سمعنا وعصينا. وإن لم يقولوا ذلك ومثله قول الشاعر:

امتلأ الحوض وقال قطنى　　　مهلا رويدا قد ملأت بطنى

فقدر القول من الحوض وإن لم يقل شيئا.

﴿وأشربوا﴾ أى: خُلطوا، ومنه فلان مشرب اللون إذا اختلط بياضه بالحمرة. ﴿فى قلوبهم العجل﴾ أى: حب العجل. فحذف المضاف، واكتفى بالمضاف إليه، ومثله قول الشاعر:

وكيف تواصل من أصبحت　　　خلالته كأبى مرحب

أى كخلالة أبى مرحب.

وفى القصص: أن موسى - صلوات الله عليه - أمر أن يبرد العجل بالمبرد، ثم أمر أن يذر فى النهر، وأمرهم بالشرب منه، فكل من بقى فى قلبه شىء من حب العجل ظهرت سحالة الذهب على شاربه. ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم﴾ أى: بئس إيمان يأمر بهذا. ﴿إن كنتم مؤمنين﴾.

قوله تعالى: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس﴾ لأنهم قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى؛ فعيرهم بذلك.

﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ لأن من علم بدخول الجنة إذا مات يتمنى الموت ولايشق عليه أن يموت.

قوله تعالى: ﴿ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم﴾ أخبر أنهم لن يتمنوا ذلك،

سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا

كأن الله صرفهم عن تمنى الموت؛ تصديقا للرسول، وتحقيقا لمعجزته، إذ كان يمكن أن يتمنى بعضهم ذلك تكذيبا للرسول ﷺ.

وفى الخبر قال ﷺ: «لو تمنوا ذلك لأخذهم الموت فى الحال»(١).

﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ منهم. قوله: ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ﴾ يعنى اليهود. ﴿ ومن الذين أشركوا ﴾ أى: وأحرص من الذين أشركوا. وهو مثل قولهم: «فلان أسخى الناس ومن هرم» أى: وأسخى من هرم.

يريدون به هرم بن سنان. كان رجلا معروفا بالسخاوة، وله شاعر يقال له: «زهير بن أبى سلمى».

والمراد بالذين أشركوا ها هنا: المجوس وذلك أنهم يقول بعضهم لبعض: عش ألف سنة «بزء هزا رسال» فأخبر الله - تعالى - أن اليهود أحرص الناس على حب الحياة ومن المجوس الذين يقولون ذلك.

﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ كما وصفنا ﴿ وما هو بمزحزحه ﴾ بمبعده ﴿ من العذاب أن يعمر ﴾ يعنى لايبعدهم طول العمر من العذاب.

﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ ظاهر المعنى.

قوله - تعالى -: ﴿ قل من كان عدوا لجبريل ﴾ فى سبب نزول الآية قولان:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١/٢٤٨)، والنسائى فى التفسير من الكبرى (٦/٣٠٨ رقم ١١٠٦١)، وابن جرير الطبرى فى تفسيره (١/٣٣٦)، وأبو يعلى فى مسنده (٤/ ٤٧١ - ٤٧٢رقم ٢٦٠٤) جميعهم من حديث ابن عباس بنحو هذا، وفى بعض سياقه زيادة. وعزاه الهيثمى فى المجمع (٦/٣١٧) للبزار وقال: رجاله رجال الصحيح. وفى موضع آخر (٨/ ٢٣١) قال: ورجال أبى يعلى رجال الصحيح.

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ

أحدهما: أن عمر - رضى الله عنه - قال لليهود: أنشدكم بالرحمن الذى أنزل التوراة على موسى هل تجدون محمدا فى كتابكم؟ فسكتوا. ثم عاودهم ثانيا، فقالوا: نعم. قال عمر: فلم لم تؤمنوا به؟ قالوا: لأنه ينزل عليه جبريل؛ وهو عدونا؛ وهو الذى يأتى بالعذاب، ولو نزل عليه ميكائيل لآمنا به. فقال عمر: أشهد أن من كان عدوا لجبريل فهو عدو لميكائيل، ومن كان عدوا لهما فالله عدو له، فنزلت الآية على وفق قول عمر(١).

وقد روى عن عمر - رضى الله عنه - أنه قال: «وافقت ربى فى ثلاث».

ويروى «وافقنى ربى فى ثلاث». أحدها: هذا والثانى: آية الحجاب؛ وذلك قوله - تعالى -: ﴿وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب﴾(٢).

والثالثة(٣): الصلاة خلف مقام إبراهيم، وذلك قوله تعالى: ﴿واتخذوا من مقام إبرهيم مصلى﴾(٤).

والقول الثانى: فى سبب نزول الآية: «أن ابن صوريا الأعور - وكان أعلم اليهود - أتى النبى ﷺ وقال: إنى سائلك مسائل لايعرفها إلا نبى، فإن أجبتنى عرفتك صادقا. فقال: سل. قال ابن صوريا: ما علامة النبى؟ قال: أن تنام عيناه ولا ينام قلبه. قال: صدقت. ثم قال: كيف خَلْقُ الولد من الماءين؟ قال: إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكر بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنث بإذن الله.

وقال: ومن ينزل عليك من الملائكة؟ قال جبريل فقال: لو نزل عليك ميكائيل لآمنا

(١) فى «ك»: هاهنا.
(٢) الأحزاب: ٥٣.
(٣) فى «ك» الثالث.
(٤) البقرة: ١٢٥

نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ

بك؛ فإنه عدونا فنزل قوله - تعالى -: ﴿قل من كان عدوا لجبريل﴾»(١).

وفيه أربع قراءات: «جبريل» على الكسر واللين، «وجَبريل» على الفتح واللين، «وجَبْرَئيل» على الفتح والهمزة والإشباع «وجَبرئيل» على الفتح والهمز من غير إشباع(٢).

و«جبر» بمعنى العبد، و«ئيل» اسم الله، وكذلك ميكائيل، ومعناه: «عبد الله»، أو «عبد الرحمن». كذا قال ابن عباس، والحسن بن على.

فجبريل على وزن قنديل وبرطيل وزنبيل، وجبرئيل على وزن عندليب، وجبريل لامثال له.

﴿فإنه نزله على قلبك﴾(٣) يعنى: قلب محمد ﴿بإذن الله مصدقا لما بين يديه﴾ من التوراة والإنجيل ﴿وهدى وبشرى للمؤمنين﴾.

قوله - تعالى -: ﴿من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل. [وميكال](٤) فإن الله عدو للكافرين﴾. هذا الذى نزل على وفق قول عمر - رضى الله عنه - وقوله: ﴿وجبريل (وميكال)(٤)﴾ وإن دخل فى جملة الملائكة الرسل؛ لكن خصهما بالذكر تشريفا.

قوله تعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات﴾ يعنى القرآن وآياته. ﴿وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ أى: الكافرون.

قوله تعالى: ﴿أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم﴾ قيل: أراد به العهد الذى

(١) قد روى نحو هذا من غير ذكر ابن صوريا، وفى سياقه زيادة عما هاهنا من حديث ابن عباس أخرجه النسائى فى الكبرى (٥/٣٣٦ - ٣٣٧ رقم ٩٠٧٢)، وأحمد فى مسنده (١/٢٧٤)، والطبرى فى تفسيره (١/٣٤٢)، وابن أبى حاتم مختصراً (١/ ٢٨٨ - ٢٨٩ رقم ٩٥٨) وأبو نعيم فى الحلية (٤/٣٠٥) وغيرهم.

(٢) انظر النشر (٢/٢١٩)، وتفسير القرطبى (٢/٣٧).

(٣) أثبت فى الأصل، و«ك»: مصدقا، وهى مقحمة هنا، وستاتى فى سياق الآية.

(٤) فى الأصل: ميكائيل.

﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ

أخذه الله على اليهود أن يؤمنوا بمحمد؛ فخالفوا ونبذوا.

وقيل: هو العهد الذى أخذه رسول الله ﷺ على بنى قريظة والنضير أن لايعاونوا المشركين على قتاله. فخالفوا ونبذوا. والنبذ. الطرح، ومنه قول الشاعر:

نظرت إلى عنوانه فنبذته كنبذك نعلا أخلقت من نعالكا

﴿بل أكثرهم لايؤمنون﴾ وقد آمن قليل منهم.

قوله تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله﴾ يعنى: محمدا.

﴿مصدق لما معهم﴾ من الكتب ﴿نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم﴾ أراد به التوراة.

قال الشعبى: كانوا يقرءون التوراة ولايعملون بها. فكذلك نبذهم.

وقال سفيان الثورى: أدرجوها فى الحرير والديباج ،وحلوها بالذهب والفضة، ثم لم يعملوا بها، فهم نابذون.

وقيل: أراد بالكتاب القرآن ﴿كأنهم لايعلمون﴾ أى: لما خالفوا ما علموا كأنهم لايعلمون.

قوله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين﴾ يعنى: اليهود ﴿ما تتلوا الشياطين﴾ أى: ما تلت، مستقبل بمعنى الماضى. قال الحطيئة:

شهد الحطيئة حين يلقى ربه أن الوليد أحق بالغدر

يعنى: يشهد.

ومعنى قوله: ﴿تتلوا﴾ أى: تحكى وتقص ﴿على ملك سليمان﴾ على عهد

اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا

ملك سليمان. وقيل: فى ملك سليمان. والقصة فى ذلك: ما روى أن فى زمن سليمان صلوات الله عليه – كانت سحرة، ولهم فى ذلك كتب، فانتزع سلمان كتب السحر[1] من أيديهم ودفنها فى صندوق تحت كرسيه، فلما توفى قالت الشياطين للإنس: ألا ندلكم على كنز كان سليمان يفعل به ما كان: فاستخرجوا تلك الكتب. وقال الجهال منهم: به كان يفعل سليمان ما يفعل.

وقيل: لما لم نزع الله الملك من سليمان، كتب الشياطين كتب السحر، ودفنوها تحت الكرسى، فلما رد الله الملك إليه. بقى ذلك السحر مدفونا كما كان، فلما توفى سليمان استخرجوا تلك الكتب وقالوا إن سليمان كان يفعل به ما يفعل. وقيل: إن الشيطان تمثل فى صورة النبى وقال لهم ذلك. وقيل: إنه وسوس إليهم ذلك، فهذا الذى تلت الشياطين على ملك سليمان. ﴿ **وما كفر سليمان** ﴾ أى: وما سحر سليمان. وقيل: أراد به الكفر المعهود.

﴿ ولكن الشياطين كفروا ﴾ يقرأ مخففا ومشددا فإذا شدد عملَ فى نصب الشياطين[2]. وإذا خفف بقى على الرفع ﴿ كفروا ﴾ سحروا. ويحتمل الكفر المعهود ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ والسحر فى اللغة عبارة عن تمويهات وتخييلات وخدع، قال امرؤ القيس:

أرانا موضعين (لحتم)[3] غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

أى: نخدع.

وقال الفراء: السحر: قول يقوله إنسان يأخذ به الرجل عن امرأته.

---

(١) فى «ك» السحرة.

(٢) قرأ ابن عامر، وحمزة والكسائى، وخلف بتخفيف النون من «ولكن»، ورفع الاسم بعدها. وقرأ الباقون بالتشديد، والنصب.

(٣) فى «ك»: لحتم.

وحكى عن الشافعى أنه قال: السحر يحيل ويمرض وقد يقتل. والسحر يتحقق وجوده على مذهب أهل السنة ويؤثر، ولكن العمل به كفر، وتأثيره ماذكرنا، وقيل: إنه يؤثر فى قلب(١) الأعيان؛ فيجعل الآدمى على صورة الحمار، والحمار على صورة الكلب. والأصح أنه يُخَيَّل ذلك كما بينا.

وقد سحر رسول الله ﷺ فأثر فيه؛ روى: «أن لبيد بن أعصم اليهودى سحر النبى ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله، فأطلعه الله عليه، فأمر به فاستخرج من بئر ذى [أروان](٢) وكان عليه إحدى عشرة عقدة؛ فأنزل الله - تعالى - عليه المعوذتين؛ إحدى عشرة آية، فكلما قرأ آية انحلت عقدة، حتى إذا انحلت العقد فكأنما أُنْشِطَ من عقال»(٣).

قوله تعالى: ﴿وما أنزل على الملكين﴾ قرئ على النفى(٤) وهو محكى عن عطية بن عوف، فعلى هذا فى الآية تقديم وتأخير، تقديره: وما كفر سليمان، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ولكن الشياطين كفروا، يعلمون الناس السحر، وما يعلمان من أحد وهذا قول غريب.

والصحيح: أن «ما» بمعنى «الذى»، يعنى: والذى أنزل على الملكين.

وقرأ ابن عباس على «الملكين» بكسر اللام وهو فى الشواذ. قال الحسن البصرى: هما كانا علجين من علوج بابل، ولم يكونا ملكين.

والصحيح أنهما كانا ملكين وهو القراءة المعهودة.

والقصة فى ذلك ما حكى ابن عمر عن كعب الأحبار؛ وهو قول عطاء بن أبى رباح، وجماعة من المفسرين قالوا: إن الملائكة تعجبوا من كثرة معاصى بنى آدم، فقال

---

(١) من «ك»، وفى الأصل»: أروان.

(٢) فى «ك»: ذروان.

(٣) متفق عليه من حديث عائشة. أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠/ ٢٤٣ رقم ٥٧٦٥)، ومسلم (١٤/ ٢٥٠ رقم ٢١٨٩).

(٤) انظر تفسير القرطبى (٢/ ٥١).

نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم

لهم الله - تعالى -: لو أنزلتكم إلى الأرض. وركَّبت فيكم ما ركَّبت فيهم؛ لفعلتم مثل ما فعلوا. فاختاروا من خيارهم ملكين؛ هاروت وماروت؛ فأنزلهما الله - تعالى - إلى الأرض، وأخذ عليهما أن ألاّ يشركا ولايقتلا، ولايزنيا. قال كعب: فما مضى عليهما اليوم إلا (وفعلا)[1] الكل.

وفى القصة: أن المَزْنِىَّ بها كانت زهرة؛ فمسخت شهابا، ورفعت إلى السماء، فكان ابن عمر كلما رآها لعنها.

وفى القصة: أنهما لما ارتكبا ذلك خيرهما الله - تعالى - بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة؛ فاختارا عذاب الدنيا؛ فعلقا بأرجلهما.

قال عطاء بن أبى رباح رؤوسهما [مطوية][2] تحت أجنحتهما.

وأما بابل: قال ابن مسعود: هى أرض الكوفة. وقيل: هو جبل دماوند. وقيل: هو من نصيبين إلى رأس العين. وإنما سمى بابل لأنه تبلبلت فيه الألسن. أى: تفرقت وانتشرت فى البلاد.

﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ والفتنة: الابتلاء. ومنه يقال: فتنت الذهب فى النار. أى: اختبرته، ليتبين الجيد من الردىء.

فإن قيل: ما معنى إنزال السحر على الملكين، وما معنى تعليم السحر من الملكين، وكلاهما مستبعد؟!.

قيل: أما إنزال السحر: بمعنى التعليم والإلهام يعنى عُلِّمَا وأُلْهِمَا السحر.

وقيل: هو حقيقة الإنزال، وهو إنزال هيئة السحر وكيفيته؛ لينتهوا عنه، وأما تعليم السحر من الملكين: بمعنى الإعلام. ومثله قول الشاعر:

(١) فى «ك»: وقعا.

(٢) فى «الأصل»: مصوبة.

بضَارِّين به من أَحَد إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّه وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا

تَعَلَّمْ أن بعدَ [الْغَيِّ رشدا][١] وأن لهـــذه الغِبَرُ انقشـــاعًا

يعني: اعلم.

وقيل: هو على حقيقة التعليم، ثم فيه قولان: أحدهما: أنهما يعلمان كيفية السحر لينتهوا) عنه[٢] كان الرجل يأتيهما فيقول: ما الذى نهى الله عنه؟ فيقولان: الشرك. فيقول: وما الشرك؟ فيقولان: كذا وكذا.

ويأتيهما آخر فيقول: ما الذى نهى الله عنه؟ فيقولان: السحر. فيقول: وما السحر؟ [فيعلمانه][٣] كيفية السحر لينتهى عنه، وكذا فى كل المعاصى.

والقول الثانى: أنه تعليم ابتلاء، سلطهما الله على تعليم السحر ابتلاء للناس حتى أن كل مَنْ تعلم واعتقد وعمل به كفر.

ومن لم يتعلم ولم يعمل به؛ لم يكفر. والدليل عليه قوله – تعالى –: ﴿إنما نحن فتنة﴾ أى: بلية ﴿فلا تكفر﴾ أى: لاتتعلم السحر. فتعمل به؛ فتكفر.

وقوله – تعالى –: ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ يعنى السحر الذى يؤخذ به الرجل عن امرأته كما وصفنا.

﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ معناه: إلا بتكوين الله، فالساحر يسحر، والله يُكَوِّن.

قال سفيان الثورى: معناه: إلا بقضاء الله وقدره.

﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ يعنى: السحر يضرهم ولا ينفعهم.

﴿ولقد علموا لمن اشتراه﴾ اختاره ﴿ماله فى الآخرة من خلاق﴾ من نصيب.

---

(١) فى الأصل: الرشد غيا.

(٢) ما بين القوسين سقط من «ك».

(٣) فى الأصل: فيعلمان.

يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ

﴿ ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ بئس اختيارا اختاروه لأنفسهم.

فإن قيل: أليس قد قال: ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ﴾ فما معنى قوله: ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ وقد أخبر أنهم قد علموا؟

قيل: أراد بقوله: ﴿ ولقد علموا ﴾ الشياطين. وبقوله: ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ اليهود.

وقيل: كلاهما فى اليهود؛ لكنهم لما لم يعملوا بما علموا؛ فكأنهم لم يعلموا.

قوله - تعالى -: ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا ﴾ آمنوا بك يا محمد ﴿ واتقوا ﴾ الكفر والسحر ﴿ لمثوبة ﴾ لثواب ﴿ من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا ﴾ معناه: أرعنا سمعك واسمع منا وحقيقته (فرغ)[1] سمعك لكلامنا.

﴿ وقولوا انظرنا ﴾ أى: انتظرنا، وقيل: انظر إلينا.

وقرأ الأعمش: «أَنْظِرْنَا» أى: أمهلنا. وقال الشاعر:

أَبَا هِنْدٍ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْنَا ... وَأَنْظِـرْنَا نُخَــبِّرْكَ الْيَقِينَـا

أى: أمهلنا.

﴿ واسمعوا ﴾ أى: أطيعوا. ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ أى: عذاب مؤلم. وفى سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: أن الصحابة كانوا يقولون للنبى ﷺ: «راعنا» ويريدون به ما ذكرنا، فسمعه اليهود. وكان ذلك عندهم سَبًّا وهو بمعنى يا أحمق.

وقد قرأ الأعمش: «راعِنًا» منونا، وقرأ الحسن: «راعونا» وهما لغتان من الرعونة،

(١) فى «ك»: فزع.

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ

فلما سمعه اليهود فرحوا به؛ حيث رأوهم يسبونه ولايعلمون، وكانوا يقولون ذلك للنبى ﷺ موافقة للمسلمين فى الظاهر، ويضحكون فيما بينهم، إنا نسبه وهم لايعلمون؛ فنزل قوله – تعالى –: ﴿لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا﴾.

والقول الثانى: أن قولهم «راعنا» كان فيه جفوة وخشونة؛ لأن حقيقته فَرِّغْ سمعك لكلامنا حتى تفهم، وفى هذا نوع جفاء؛ فنزل قوله: ﴿لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا﴾ حتى يقولوا ما يقولوا على طريق التبجيل والمسألة. ويختاروا من الألفاظ أحسنها ومن المعانى أحكمها.

قوله – تعالى –: ﴿ما يود الذين كفروا﴾ أى: ما يحب، والود: الحب.

ومعنى الآية: أن الأنبياء قبله بعثوا من ولد إسحاق، فلما بعث النبى ﷺ من ولد إسماعيل؛ لم يقع ذلك بُودِّ اليهود ومحبتهم. وأما المشركون فإنما لم تقع نبوته بودهم، لأنه جاء بتضليلهم، وعيب آلهتهم، فهذا معنى قوله – تعالى –: ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم﴾ يعنى عليك يامحمد. ذكر الواحد بخطاب الجمع على ماهو عادة العرب ﴿من خير من ربكم﴾ يعنى النبوة. ﴿والله يختص برحمته من يشاء﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين: الرحمة بمعنى النبوة ها هنا. وقيل: بمعنى الإسلام. والهداية إليه. ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ الفضل [ابتداء][1] إحسان بلا علة.

قوله – تعالى –: ﴿ما ننسخ من آية﴾ قرأ ابن عامر «ما نُنْسِخْ» بضم النون وكسر السين[2] ومعناه ما تجده منسوخا وهو مثل قولهم: أحمدت فلانا. أى: وجدته محمودا، وأبخلت فلانا. أى: وجدته بخيلا.

والقراءة المعروفة ﴿ما ننسخ﴾ على الفتح.

(١) فى «الأصل»، و«ك»: ابتلاء. وهو تحريف.

(٢) انظر النشر (٢/٢١٩).

الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾

والنسخ فى اللغة: رفع الشىء وإقامة غيره مقامه. يقال: نسخت الشمس الظل. أى رفعته وأقامت الضياء مقامه.

وقد يكون بمعنى رفع الشىء من غير إقامة غيره مقامه.

يقال: نسخت الرياح الآثار إذا رفعتها من أصلها من غير شىء يقوم مقامها. والنسخ جائز فى الجملة باتفاق الأمة. ونسخ القرآن على وجوه:

منها نسخ يوجب رفع التلاوة والحكم جميعا. وذلك مثل ما روى عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف «أن قوما من الصحابة قاموا ليلة ليقرءوا سورة فلم يذكروا منها إلا قوله: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فغدوا على النبى ﷺ وأخبروه بذلك فقال - عليه السلام -: «تلك سورة رفعت بتلاوتها وأحكامها»(١).

وقيل: إن سورة الأحزاب كانت مثل سورة البقرة؛ فرفع أكثرها تلاوة وحكما.

ومن النسخ ما يوجب رفع التلاوة دون الحكم وذلك مثل آية «الرجم» رفعت تلاوتها وبقى حكمها.

ومنه ما يوجب رفع الحكم دون التلاوة. مثل آية «الوصية للوالدين والأقربين» وآية «عدة الوفاة بالحول» ومثله آية «التخفيف فى القتال» وآية «الممتحنة» ونحو ذلك.

ومن وجوه النسخ ما يوجب رفع الحكم وإقامة غيره مقامه، وذلك مثل القبلة نسخت إلى الكعبة، والوصية نسخت إلى الميراث، وعدة الوفاة نسخت من الحول إلى أربعة أشهر وعشرا، ومقاومة الواحد العشرة فى القتال نسخت إلى مقاومة الواحد الاثنين. ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل (٧/ ١٥٧) وفيه زيادة، وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (١/ ١١٠) لأبى داود فى ناسخه، وابن المنذر، وابن الأنبارى فى المصاحف، وأبى ذر الهروى فى فضائله.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا

ومنها: رفع الحكم من غير إقامة شيء مقامه؛ وذلك مثل امتحان النساء، نسخ من غير خلف. وكذلك أمثال هذا.

رجعنا إلى تفسير الآية فقوله: ﴿ما ننسخ من آية﴾ أى: نرفع من آية. فأما قوله: ﴿أو ننسها﴾ اختلفوا فى معناه. وقال ابن عباس معناه: أو نتركها فلا ننسخ. وهو مثل قوله: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾[1] أى: تركوا الله فتركهم. ومنه قول الشاعر:

إِنَّ عَلَيَّ عقَبَةً أَقْضِيهَا لَسْتُ بِنَاسِيهَا وَلاَ مُنْسِيهَا

أى: لست بناسيها ولا تاركها. فعلى هذا يرجع قوله: ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ إلى قوله: ﴿ما ننسخ من آية﴾.

وقيل: معنى قوله: ﴿أو ننسها﴾ يعنى ننسيها على قلبك يامحمد. وذلك مثل ما روينا فى حديث أبى أمامة.

وروت عائشة «أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يقرأ سورة، فقال: إن هذا الرجل ذَكَّرَنِيَ آية كنت نسيتها»[2]. وهو نظير قوله - تعالى - ﴿سنقرئك فلا تنسى إلا ماشاء الله﴾[3] وقرأ ابن مسعود: «ما نُنْسِكَ من آية أو ننسخها» وهذا يؤيد هذا القول؛ فعلى هذا يكون الإنساء على القلب فى معنى النسخ.

وفيه قول ثالث: معنى قوله أو «ننسها» أى: نأمر بتركها، ونبيح تركها، وذلك مثل نسخ آية الممتحنة ونحوها.

فإن قال قائل: إذا كان الإنساء بمعنى إباحة الترك. فأى فرق بينه وبين النسخ؟

قلنا: هما وجهان من النسخ إلا أنه أراد بالنسخ الأول: رفع الحكم وإقامة غيره مقامه، وأراد بالثاني: نسخ الحكم، من غير إقامة غيره مقامه. كما ذكرنا.

---

(١) التوبة: ٦٧.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٨/٧٠٣ رقم ٥٠٣٧، ٥٠٣٨)، ومسلم (٦/١٠٧ رقم ٧٨٨).

(٣) الأعلى: ٦ - ٧.

وقرأ أبو عمرو. و ابن كثير «أو نَنْسَأْها» على الفتح والهمز(١) وحكى أبو عبيد القاسم بن سلام، عن أبى نعيم القارئ. أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ فى المنام، فقرأت عليه بحرف أبى عمرو فغير عليَّ شيئين: فقوله: «وأَرْنَا» فقال: «قل وأَرِنَا» بكسر الراء قال أبو عبيدة: وأحسبه قال الحرف الثانى: قوله: أو «نَنْسَأها» فقال: قل: «أو نُنُسِهَا» النساء والإنساء: بمعنى التأخير، تقول العرب: أنسأ الله أجلك ونسأ الله فى أجلك. فى معناه قولان:

أحدهما: أن معنى قوله: «أو ننسأها» أى: نرفع تلاوتها، ونؤخر حكمها، كما فعل فى آية «الرجم». ويكون النسخ الأول بمعنى رفع التلاوة والحكم جميعا.

والقول الثانى: أن معنى قوله: «أو نَنْسَأَهَا» أى: نؤخر إنزالها، ونتركها فى اللوح المحفوظ، فلا تنزل.

وقوله: «ما ننسخ من آية» يعنى: ما ينزل، أو «ننسأها» فلا ينزل، نأتى بخير منها أو مثلها.

فإن قيل :أيش معنى قوله: ﴿نات بخير [منها](٢)﴾ وآيات القرآن سواء، لافضل لبعضها على بعض. وإن أراد به الخير فى السهولة، فقد نسخ الأسهل بالأشق، مثل الصوم كان على التخيير بينه وبين الفدية، فنسخه بصوم رمضان على الحتم. فما معنى الخيرية؟

قلنا: قد قيل، تقديره: نأت منها بخير، أى: نرفع آية ونأت بآية.

والصحيح: أنه أراد بالخير الأفضل، يعنى فى النفع والسهولة. ومعناه: نأت بخير منها، أى: أنفع وأسهل.

(١) انظر النشر (٢/ ٢٢٠).

(٢) من «ك».

يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

﴿ أو مثلها ﴾ فى النفع والسهولة. وإن[1] نسخ الأسهل بالأشق فمعنى الخير فيه بالثواب. فإن ثواب الأشق أكثر. فإن قيل: هما سواء فى (امتثال)[2] الأمر فكيف يختلفان فى الثواب؟ والجواب: أن الله - تعالى - يجوز أن يثيب على الأشق أكثر مما يثيب على الأسهل، وقد وعد الثواب على صوم رمضان ما لم يعد على الصوم المخير فيه أولا.

وفيه قول آخر: أنه أرادبقوله: ﴿ نأت بخير منها ﴾ فى نسخ القبلة خاصة.

وبقوله: ﴿ أو مثلها ﴾ على العموم، وذلك أن التوجه إلى الكعبة كان خيرا للعرب وأدعى لهم إلى الإسلام؛ إذ كانت فى قلوبهم نفرة عن التوجه إلى البيت المقدس؛ لأنه قبلة اليهود.

وفيه قول ثالث: أن المراد بقوله: ﴿ نأت بخير منها ﴾ يعنى: فى حال نسخ الأول فإن الثانى - الذى نزل جديدا ويعمل به - خير من الأول المنسوخ الذى لايعمل به، وهذا قول بعيد.

قوله - تعالى -: ﴿ ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير ﴾ فقوله: ﴿ ألم تعلم ﴾ وإن كان على صيغة الاستفهام، لكن المراد به التقرير. ومعناه: أنك تعلم أن الله على كل شىء قدير. وكذلك قوله: ﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ﴾ وأما الملك: هو القدرة التامة. ومنه الملك. وهو السلطان التام القدرة.

﴿ وما لكم من دون الله ﴾ قال أبو عبيدة: من بعد الله. وقال غيره: بما سوى الله.

﴿ من ولى ﴾ أى: وال وهو القيم بالأمور ﴿ ولا نصير ﴾ ولا مانع من العذاب.

قوله: ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم ﴾ «أم» تَرِد فى اللغة على وجوه.

---

(١) فى «الأصل»، و «ك»: وإنما.

(٢) فى «ك»: إمساك.

فتكون بمعنى التقرير وهو المراد ها هنا. ومعناه: أنتم تريدون.

وقد ترد بمعنى التشكيك، يقال: رأيت زيدا أم عمرا؟

وقد ترد «أم» بمعنى بل، قال الشاعر:

بدت مثل قرن الشمس فى رونق الضحى

وصورتها أم أنت فى العين أملح

أى: بل أنت فى العين أملح.

﴿أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل﴾ وفى معناه قولان: أحدهما: أنهم سألوا الرسول فقالوا: لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلا كما قال قوم موسى لموسى: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾[1].

والثانى: أنهم سألوا الرسول أن يجعل الصفا ذهبا؛ كما سأل قوم عيسى من عيسى المائدة. والأول أظهر. والمراد بالآية: منعهم عن السؤالات المفتوحة بعد ظهور البراهين.

﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان﴾ أى: يستبدل الكفر بالإيمان. وذلك أن مثل ذلك السؤال بعد ظهور البرهان كفر.

﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ أى: وسط السبيل.

وقيل: قصد السبيل. وهما سواء، وحكى عن عيسى بن عمر النحوى أنه قال: مازلت أكتب حتى انقطع سوائى أى: وسطى.

قوله – تعالى –: ﴿ود كثير من أهل الكتاب﴾ يعنى: أحب وتمنى كثير من أهل

(١) البقرة: ٥٥.

الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾

الكتاب ﴿ لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا ﴾ قيل: نزل ذلك فى عمار وحذيفة؛ فإن اليهود دعوهم إلى دينهم فقال عمار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد. قال عمار: فقد عاهدت الله ألا أكفر بمحمد. فقالوا لحذيفة: ما تقول أنت؟ قال: الله ربى ومحمد نبيى، والقرآن إمامى. فأنزل الله – تعالى – هذه الآية.

وقيل: هو فى حق الكفار والمسلمين على العموم؛ لأنهم مازالوا يودون عود المسلمين إلى الكفر.

﴿ حسدا ﴾ وذلك أنهم عرفوا أن محمدا نبى حق، وأنهم باتباعه نالوا من الإسلام ما لم ينالوه؛ فحسدوهم على دينهم.

فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿ حسدا من عند أنفسهم ﴾ ولايكون الحسد من عند الغير؟ قيل: معناه: من تلقائهم لم ينزل به كتاب ولا ورد به أمر.

وقيل: فى الآية تقديم وتأخير، وتقديرها: ود كثير من أهل الكتاب من عند أنفسهم لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا.

﴿ من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ من بعد ما ظهر أنه حق.

قوله – تعالى –: ﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ العفو: المحو، والصفح: الإعراض، وإنما نزل هذا قبل آية القتال، ثم نسخ بآية القتال.

﴿ حتى يأتى الله بأمره ﴾ يعنى: بشرع القتال. وقال ابن عباس معناه: حتى يأتى الله بأمره: من فتح قسطنطينية، ورومية، وعمورية.

وقيل: حتى يأتى الله بأمره: من فتح قرى اليهود، مثل خيبر، وفدك، وإجلاء بنى النضير، ومثل بنى قريظة.

﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ أى قادر.

وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ

قوله – تعالى –: ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ معلوم.

﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير ﴾ من طاعة ﴿ تجدوه عند الله ﴾ ذخيرة لاتضيع ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ﴾ تقديره: قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا. وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا؛ فاختصر اختصارا.

نزلت الآية فى وفد نجران، وكانوا نصارى، اجتمعوا فى مجلس رسول الله ﷺ مع اليهود، فتنازعوا وكفَّر بعضهم بعضا، وكذَّب بعضهم بعضا؛ فأنزل الله – تعالى – هذه الآيات».

﴿ تلك أمانيهم ﴾ يعنى: تمنيهم الباطل ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ ائتوا بالحجة على ما زعمتم ﴿ إن كنتم صادقين بلى من أسلم ﴾ يعنى: ليس الأمر على ما تمنوا بل الحكم للإسلام ﴿ من أسلم وجهه ﴾ أخلص عبادته لله ﴿ وهو محسن ﴾ مؤمن ﴿ فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء ﴾ هو ما جرى فى مجلس رسول الله ﷺ من منازعة اليهود مع النصارى. فأما قوله: ﴿ وهم يتلون الكتاب ﴾ يعنى: أنه يكذب بعضهم بعضا ويضلل بعضهم بعضا وهم يتلون الكتاب، وليس فى كتابهم هذا الاختلاف، فدلت تلاوتهم الكتاب ومخالفتهم ما فى الكتاب على كونهم على الباطل.

﴿ كذلك قال الذين لايعلمون مثل قولهم ﴾ قيل: أراد به المشركين. قاله ابن عباس وقال مجاهد: أراد به عوام النصارى.

﴿ فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ يريهم دخول المسلمين

مُحسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا

الجنة ودخولهم النار.

قوله – تعالى –: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها﴾ قال ابن عباس، وقتادة، وجماعة من المفسرين: أراد بالآية النصارى الذى عاونوا بختنصر المجوسى على تخريب بيت المقدس.

﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ وذلك أن بيت المقدس موضع حج النصارى، وموضع زيارتهم، فلا يدخله نصرانى إلا خائفا، من ذلك الوقت إلى يوم القيامة ﴿لهم فى الدنيا خزى﴾ أى: جزية لذِمِّيِّهِمْ وقتل لحَرْبِيِّهِمْ ﴿ولهم فى الآخرة عذاب عظيم﴾ أى: عذاب النار.

وفيه قول آخر: أن الآية نزلت فى المشركين الذين منعوا رسول الله ﷺ من دخول مكة عام الحديبية.

وقوله – تعالى –: ﴿وسعى فى خرابها﴾ لأنهم منعوا المسلمين من دخول المسجد. ولم يسلموا حتى دخلوا؛ فكأنهم سعوا فى خرابها.

﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ وهذا شرعنا ألا يمكن مشرك من دخول الحرم. ولا يدخله أحد منهم إلا خائفا.

﴿لهم فى الدنيا خزى﴾ هوان ﴿ولهم فى الآخرة عذاب عظيم﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ فيه أربعة أقوال:

أحدها: أنها نزلت فى نسخ القبلة أى: الكعبة؛ فإنها لما حولت إلى الكعبة عيّر اليهود المسلمين، وقالوا: ليست لهم قبلة معلومة، فتارة يستقبلون هكذا، وتارة هكذا، فنزلت الآية ردا لقولهم.

كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ

والقول الثاني: ماروى عمر(١) «أن رسول الله ﷺ كان يصلى على راحلته أينما توجهت به راحلته؛ فنزلت الآية فى إباحة النافلة على الراحلة أينما توجهت به الراحلة»(٢).

والقول الثالث: روى جابر أنه قال: «كنا فى سفر، فاشتبهت علينا القبلة، فصلى كل واحد منا إلى جهة، وخط بين يديه خطا، فلما أصبحنا فإذا الخطوط إلى غير القبلة، فسألنا عن ذلك رسول الله ﷺ، فلم يأمرنا بالإعادة، ونزلت الآية فى معناه»(٣).

والقول الرابع: أنه نزلت فى ابتداء الإسلام، حين لم تكن القبلة معلومة، وجازت الصلاة إلى أى جهة شاءوا. فعلى هذا تكون الآية منسوخة بآية القبلة، وهذا قول غريب.

وأما قوله: ﴿فثم وجه الله﴾ قال مجاهد: قبلة الله. الوجه: بمعنى القبلة، وكذلك الوجهة والجهة: هى القبلة. وقيل: معناه رضا الله، وقيل: معناه قصد الله، ومنه قول الشاعر:

أستغفر الله ذنبا لست أحصيه … رب العباد إليه الوجه والعمل

يعنى: إليه القصد والعمل.

وقد ذكر الله – تعالى – الوجه فى كتابه فى أحد عشر موضعا، وهو صفة لله – تعالى – وتفسيره: قراءته والإيمان به. وسيأتى(٤).

(١) كذا فى «الأصل وك»، والصواب: عن ابن عمر، كما سيأتى فى تخريج الحديث.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٥/٢٩٣ رقم ٧٠٠)، والترمذى (٥/١٨٩ رقم ٢٩٥٨) وقال: حسن صحيح، والنسائى (١/٢٤٤ رقم ٤٩١، ٤٩٢،و (٢/٦١ رقم ٧٤٣، ٧٤٤)، وأحمد فى مسنده (٢/٢٠).

(٣) رواه الدارقطنى (١/٢٧١)، والحاكم (١/٢٠٦)، والبيهقى (٢/١٠-١٢) وقال الحاكم: محتج برواته كلهم غير محمد بن سالم فإنى لا أعرفه بعدالة وا جرح. وتعقبه الذهبى بقوله: أبو سهل واه. وقال البيهقى: ولا نعلم لهذا الحديث إسنادا قويا.

(٤) قال المصنف فى تفسير سورة الأنعام (الآية رقم: ٥٢): والوجه صفة الله – تعالى – بلا كيف، وجه لا كالوجوه. نقل تفسير سورة القصص (آية رقم: ٨٨) عن سفيان بن عيينة أنه قال: «كل ما وصف الله به نفسه فى الكتاب؛ فتفسيره قراءته، لاتفسير له غيره». وهذا يوضح مراد المصنف فى هذا الموضع.

وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا

﴿إن الله واسع﴾ أى: غنى يعطى من السعة ﴿عليم﴾ أى: عالم بالأمور.

قوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الله ولدا﴾ يعنى: النصارى ﴿سبحانه﴾ تنزيه ﴿بل له ما فى السموات والأرض﴾ مِلْكًا ومُلْكًا ﴿كل له قانتون﴾ القانت: المطيع، وأصل القنوت: القيام. وفى الخبر: «أن النبى ﷺ سئل عن أفضل الصلاة، فقال: طول القنوت»(١) أى: طول القيام.

وقوله: ﴿كل له قانتون﴾ أى: قائمون بالعبودية. وفى معناه أقوال:

أحدها: قال ابن عباس: هو عام بمعنى الخصوص. والمراد به المسلمون، وبه قال الفراء. ولم يرضه من الفراء نحاة البصرة، وقالوا: الكل يقتضى الإحاطة بالشىء، بحيث لايشذ منه شىء ومعناه: كل العباد قانتون. فالمسلم يسجد طوعا. والكافر يسجد ظله كرها، كما قال الله - تعالى -: ﴿ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال﴾(٢).

والقول الثانى: معناه: ﴿كل له قانتون﴾ مذللون مسخرون لما خلقوا له.

والقول الثالث: ﴿كل له قانتون﴾ يعنى: فى القيامة.

قوله - تعالى -: ﴿بديع السموات والأرض﴾ أى: مبدعها، قال ابن عباس: هو الخالق لا على مثال سبق. ومنه المبتدع؛ لأنه أحدث ما لم يسبق إليه.

﴿وإذا قضى أمرًا﴾ أى: أحكم وأتقن. وأصل القضاء: الفراغ ومنه يقال لمن مات قضى نحبه لفراغه من الدنيا ومنه قضاء القاضى. لأنه فرغ عن فصل الحكومة. ومنه قضاء الله وقدره. لأنه فرغ عنه تقديرا وتدبيرا. وقال الشاعر:

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٦/٥٢ رقم ٧٥٦)، والترمذى (٢/٢٢٩ رقم ٣٨٧)، وابن ماجة (١/٤٥٦ رقم ١٤٢١) وأحمد فى مسنده (٣/٣٠٢)، جميعهم من حديث جابر بن عبد الله.

(٢) الرعد: ١٥.

فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ

وعليهما (مَسْرُودَتان)[1] قضاهما داودُ وصنع السوابغ تُبَّعُ

أى: صناع السوابغ، وقوله: قضاهما داود، أى: أحكمهما، فكذلك قوله: ﴿ وإذا قضى أمراً ﴾ أى: أحكم وأتقن ﴿ فإنما يقول له كن فيكون ﴾ فإن قال قائل: كيف قال: فإنما يقول له، والمعدوم لا يخاطب؟ قيل: قد قال ابن الأنبارى: معناه: فإنما يقول له أى: لأجل تكوينه، فعلى هذا ذهب معنى الخطاب.

وقيل: هو وإن كان معدوما، لكنه لما قدر وجوده، وهو كائن لامحالة، كان كالموجود: فصح الخطاب.

وفيه قول ثالث: أنه خرج على ما يفهمه الناس فى العادة؛ فإن كل من يريد فعلا فإما أن يقول قولا، أو يفعل فعلا. ومعناه: التكوين فحسب، إلا أنه قال: ﴿ فإنما يقول له ﴾ لأنه كذا يفهمه الناس.

فأما قوله – تعالى –: ﴿ **فيكون** ﴾ قرأ ابن عامر. «فيكونَ» بنصب النون، وهو أظهر على النحو؛ لأنه جواب الأمر بالفاء. فيكون على النصب.

والقراءة المعروفة: «فيكونُ» بالرفع[2]. ومعناه: فهو يكون.

قوله – تعالى –: ﴿ وقال الذين لايعلمون ﴾ قال ابن عباس: أراد به اليهود.

وقال مجاهد: أراد به النصارى.

﴿ لولا يكلمنا الله ﴾ أى: هلاً يكلمنا الله، «ولولا» فى كل القرآن بمعنى «هلاً» إلا فى موضع واحد؛ وذلك فى قوله – تعالى –: ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾[3] معناه: فلو لم يكن من المسبحين.

(١) المسرودة: الدرع المثقوبة، والسرد: الثقب. انظر لسان العرب (مادة: سرد). وذكر البيت فى (مادة: قضى).
(٢) انظر النشر (٢ / ٢٢٠).
(٣) الصافات: ١٤٣.

يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ

﴿ أو تأتينا آية ﴾ أى: آية نقترحها، كما اقترحوا من الآيات. ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم ﴾ من الكفار فى القرون الماضية. ﴿ مثل قولهم تشابهت قلوبهم ﴾ أى: أشبه بعضها بعضا فى القسوة وطلب المحال. ﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ إنا أرسلناك بالحق ﴾ أى: مع الحق، والصلات تتعاقب، ومثله قوله - تعالى -: ﴿ فادخلى فى عبادى ﴾(١) أى: مع عبادى.

والمراد بالحق: القرآن. وقيل: شريعة الإسلام.

﴿ بشيرا ونذيرا ﴾ أى: مبشرا ومنذرا ﴿ ولاتسئل عن أصحاب الجحيم ﴾ قرئ بقراءتين. «ولا تُسأل». «ولا تَسأل»(٢). فأما قوله ﴿ ولا تُسأل ﴾: يعنى: أرسلناك غير مسئول عن حال الكفار. وذلك مثل قوله: ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾(٣).

وقرأ ابن مسعود «وما تُسْأَل» وقرأ أبى بن كعب. «ولن تُسْأَل» ومعنى الكل واحد، وأما قوله: «ولا تَسْأَل» له معنيان: أحدهما: أنه على معنى قولهم: لا تسأل عن شر فلان؛ فإنه فوق ما تحسب.

وقيل: هو على النهى، وسببه ما روى محمد بن كعب القرظى: «أن رسول الله ﷺ قال: ليت شعرى ما فعل أبواى. فنزل قوله - تعالى -: ﴿ ولاتسئل عن أصحاب الجحيم ﴾»(٤) والجحيم: اسم للنار الشديدة الالتهاب.

---

(١) الفجر: ٢٩.

(٢) قرأ نافع ويعقوب، بفتح التاء وجزم اللام، على النهى وقرأ الباقون بضم التاء، ورفع اللام على الخبر. انظر النشر (٢/٢٢١).

(٣) الرعد: ٤٠.

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١/٤٠٩)، وابن أبى حاتم (١/٣٥٥ رقم ١١٥٨) وقال السيوطى فى الدر المنثور (١/١١٧): هذا مرسل ضعيف الإسناد. ورواه الطبرى (١/٤٠٩) عن داود بن أبى عاصم بنحوه. وقال السيوطى: معضل الإسناد ضعيف، لا يقوم به ولا بالذى قبله حجة.

الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ

قوله - تعالى -: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ معناه: ولن ترضى عنك اليهود إلا باليهودية، ولا النصارى إلا بالنصرانية.

﴿حتى تتبع ملتهم﴾ والملة: الطريقة، ومنه خبز الْمَلَّة. سمى الرماد الذى جعل فيه الخبز: مَلَّة؛ لأنه يظهر فيه آثار وخطوط.

﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ يعنى: دين الله، هو الدين الذى أنت عليه.

﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ قيل: إنه خطاب للنبى، والمراد به الأمة لأنه كان معصوما من اتباع الأهواء، ومثله قوله تعالى: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾[1] ﴿بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير﴾ معلوم.

وقيل معنى الآية: أن اليهود طلبوا من النبى ﷺ المهادنة وقالوا: لاتحاربنا ولاتقتلنا، وأمهلنا؛ فربما نسلم. فنزل قوله - تعالى -: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ يعنى: إنك إن هادنتهم فلا يرضون بها. وإنما يطلبون ذلك تعللا وافتعالا، ولا يرضون عنك إلا باتباع ملتهم.

قوله تعالى -: ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ قيل: أراد به قوما من اليهود أسلموا.

وقيل: أراد به قوما من النصارى جاءوا مع جعفر بن أبى طالب حين قدم من الحبشة فأسلموا.

﴿يتلونه حق تلاوته﴾ قال ابن عباس، وابن مسعود: يحللون حلاله، ويحرمون حرامه ولايحرفون الكلم عن مواضعه.

وقال الحسن: يعملون بأوامره، ويؤمنون بمحكمه، ويكلون المتشابه إلى الله - تعالى -. وقال عكرمة: يتبعونه حق اتباعه من قولهم: تلا أى تبع ومنه قوله - تعالى: ﴿والقمر إذا تلاها﴾[2].

(١) الزمر: ٦٥.
(٢) الشمس: ٢.

بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا

﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ يعنى: ما ذكرنا ﴿ ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾ أى: الغابنون أنفسهم.

قوله – تعالى –: ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين ﴾ أعاده تأكيدا لما سبق.

قوله – تعالى –: ﴿ واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ﴾ قد ذكرنا معناه.

﴿ ولايقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون ﴾ إن قيل: أليس قد جعل الشفاعة للأنبياء وغيرهم، حيث قال: ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾[1] وقال النبى ﷺ: « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى »[2]؟ قيل: أراد بقوله: ﴿ ولاتنفعها شفاعة ﴾ فى قوم مخصوصين، وهم اليهود و الكفار.

قوله – تعالى –: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه ﴾ أى: اختبر، ومعنى ابتلاء العباد، ليس ليعلم أحوالهم بالابتلاء – لأنه عالم بهم وبما يكون منهم – ولكن ليُعْلم العباد أحوالهم، حتى يعرف بعضهم بعضا. ﴿ بكلمات ﴾ وأما الكلمات: قيل: هى التى وردت فى الخبر فى قوله ﷺ: « عشر من الفطرة: خمس فى الرأس، وخمس فى الجسد. والخمس التى فى الرأس المضمضة والاستنشاق، وقص الشارب، والسواك، وفرق الرأس. وأما اللواتى فى الجسد مثل قلم الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة، والختان، والاستنجاء – فى رواية وغسل البراجم – »[3].

(١) الأنبياء: ٢٨.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٢١٣)، وأبو داود (٤/٢٣٦ رقم) ٤٧٣٩، والترمذى (٤/٥٣٩ رقم ٢٤٣٥) جميعهم من حديث أنس بن مالك. وقال الترمذى: حسن صحيح غريب. وقد ورد هذا الحديث وما فى معناه عن كثير من الصحابة وقال الحافظ ابن كثير فى النهاية (٢/٢٠٩): وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث. ثم أفاض فى ذكرها رحمه الله – تعالى –.

(٣) رواه ابن جرير (١/٤١٤ – ٤١٥)، والحاكم فى المستدرك (٢/٢٦٦) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وابن أبى حاتم (١/٣٥٩ رقم ١١٧٢)، والبيهقى فى سننه (١/١٤٩) كلهم من حديث ابن عباس موقوفا: « ابتلاه الله بالطهارة، فى خمس فى الرأس وخمس فى الجسد... وذكر الحديث ». وقد جاء مرفوعًا من حديث عائشة، ولفظه « عشر من الفطرة » وفى ذكر بعضه اختلاف عما هنا. أخرجه مسلم فى صحيحه (٣/١٨٨ رقم ٢٦١)، وأبو داود (١/١٤ رقم ٥٢)، والترمذى (٥/٨٥ رقم ٢٧٥٧)، والنسائى (١/١٢٦ رقم ٥٠٤٠)، وابن ماجه (١/١٠٧ رقم ١٢٩٣) وأحمد في مسنده (٦/١٣٧).

يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي

وفى الخبر أن الله – تعالى – بعث جبريل إلى إبراهيم أن تطهر لى، فتمضمض، ثم بعث إليه أن تطهر لى، فاستنشق هكذا إلى العشر، فلما أمره فى المرة العاشرة: أن تطهر لى. فنظر إلى بدنه، فلم يجد شيئا ينظفه فتنبه على الختان فاختتن.

وفى الخبر: «أنه ﷺ اختتن بعد ثمانين سنة بالقدوم»[(١)]. وهو اسم موضع، وعاش بعده ثمانين.

وفى الأخبار: «أن إبراهيم – صلوات الله عليه –. أول من قص الشارب، وأول من اختتن وأول من قلم الأظفار، وأول من رأى الشيب، فلما رآه قال يارب ما هذا؟ فقال: الوقار فقال يارب زدنى وقارا»[(٢)].

﴿فأتمهن﴾ أى فأداهن به تامة، قال ابن عباس: ما أتى أحد بسهام الإسلام كما أتى بها الخليل إبراهيم – صلوات الله عليه –.

وفيه قولان آخران: أن معنى الكلمات: هو أن الله – تعالى – ابتلاه بالكوكب فرضى عنه، وابتلاه بالقمر فرضى عنه، وابتلاه بالشمس فرضى عنه. وابتلاه بنار نمروذ فرضى عنه. وابتلاه بذبح الولد فرضى عنه. وابتلاه بالختان فرضى عنه.

وقوله – تعالى –: ﴿قال إنى جاعلك للناس إماما﴾ يعنى فى الخير، وقد يكون الإمام فى الشر؛ على طريق المجاز. كما قال – تعالى –: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾[(٣)] وحقيقة الإمام: أن يقصد، من فعله ما يقصد وهو من الأَمّ: وهو القصد.

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة. أخرجه البخارى (٦/٤٤٧ رقم ٣٣٥٦) ومسلم (١٥/١٧٨ رقم ٢٣٧٠).

(٢) أخرجه ابن عدى فى الكامل (٤/١٩٤)، وعزاه السيوطى فى الدر (١/١٢١) إلى البيهقى، من حديث عبد الله بن واقد، عن حماد عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة مرفوعاً بنحوه.

ورواه الإمام مالك فى الموطأ (٢/٩٢٢) عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قوله قلت: وهو الأشبه، والله أعلم وفى كنز العمال (٦/١٧٢٤٩) بالشطر الأول فقط للديلمى من حديث ابن عمر، وهو فى مسند الفردوس، وفى إسناده محمد بن القاسم الطالقانى، وهو متهم بالكذب كما فى ترجمته من الميزان واللسان.

(٣) القصص: ٤١

الظَّالمينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ

﴿ قال ومن ذريتى ﴾ أى: اجعل من ذريتى أئمة.

﴿ قال لاينال عهدى الظالمين ﴾ أى: لاينالـه من كان منهم ظالما. واختلفوا فى هذا العهد، قال ابن عباس: هو النبوة. وقال مجاهد: أراد به الإمامة. وهو الأليق بظاهر النسق، وفيه قول آخر: أنه الأمان من النار.

والظالم: الفاسق، وقيل: أراد به المشرك ها هنا. وهو مثل قوله - تعالى -: ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾[1] أى: بشرك ﴿ أولئك لهم الأمن ﴾[1] فجعل الأمن لمن لايشرك به، فكذلك قوله: ﴿ لاينال عهدى الظالمين ﴾ أى: أن أمانى لايناله المشركون منهم.

قوله - تعالى -: ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ﴾ قال عطاء: مثابة أى: مجمعا.

وقال غيره: مثابة أى: مرجعا، وهو مأخوذ من ثاب، أى: رجع، والبيت مثابة؛ لأنهم يعودون إليه مرة بعد أخرى.

قال الضحاك: لايقضون منه وطرا، أى: لايملون منه. والمثاب والمثابة بمعنى واحد، قال الشاعر:

مثاب لأفناء القبـائل كلهـا ... تَخُبُّ إليه اليعملات الذَّواملُ

وأما قوله: ﴿ وأمنا ﴾ أى: ذا أمن. قال ابن عباس: أمنه أن يدخله الجانى فيأمن ولايستوفى منه حتى يخرج، وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه - رضى الله عنهم -.

وقال غيره: معناه: أنه مأمن من أيدى المشركين؛ فإنهم ما كانوا يتعرضون لأهل مكة ويقولون: إنهم أهل الله وخاصته. وإنما كانوا يتعرضون لمن حوله. كما قال الله - تعالى -: ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ﴾[2] فأما قول

(١) الأنعام: ٨٢.
(٢) العنكبوت: ٦٧.

ابن عباس فمحمول على الاستحباب. وذلك الأولى عندنا؛ أن لايتعرض له حتى يخرج، لكن مع هذا أجاز الاستيفاء؛ لأن الحرم لايمنع استيفاء الحقوق.

قوله تعالى: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ قرئ بقراءتين: «واتخذوا» على الخبر، «واتخذوا» على الأمر[1]. وأما المقام بالفتح: موضع الإقامة. والمُقام بالضم: فعل الإقامة. ومعناه على القول الصحيح: أن مقام إبراهيم هو الحجر الذى فى المسجد، يصلى إليه الأئمة وذلك الحجر الذى قام عليه إبراهيم عند بناء البيت، وبذلك سمى مقام إبراهيم.

وقيل: كان أثر أصابع رجله بينة فيه، واندرس من كثرة مسح الأيدى.

وفى الخبر: «أن الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة. ولولا ما مسته أيدى المشركين. لأضاءا ما بين المشرق والمغرب»[2].

وقد روى عن عمر - رضى الله عنه - أنه قال: وافقنى ربى فى ثلاث:

قلت لرسول الله ﷺ: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزل قوله - تعالى -: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾.

وفيه قول آخر: أنه أراد بمقام إبراهيم: جميع مشاهد الحج، مثل عرفة والمزدلفة، وسائر المشاهد.

---

(١) قرأ نافع، وابن عامر، بفتح الخاء، على الخبر، وقرأ الباقون بكسر الخاء، على الأمر، انظر النشر (٢/٢٢٢).

(٢) أخرجه، والترمذى (٤/٢٢٦رقم٨٧٨) الإمام أحمد فى مسنده (٢/٢١٣-٢١٤) وابن خزيمة فى صحيحه (٤/٢١٩ رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢)، والحاكم فى مستدركه (١/٤٥٦) وابن حبان فى صحيحه (٩/ ٢٤رقم ٣٧١٠) عن حديث عبد الله بن عمرو مرفوعا.

وقال الترمذى: هو حديث غريب هذا يروى عن عبد الله بن عمرو موقوفا قوله، وفيه عن أنس أيضا.

قلت: قال أبو حاتم فى العلل (١/٢٩٩-٣٠٠): رواه الزهرى وشعبة كلاهما عن مسافع بن شيبة عن عبد الله ابن عمرو موقوفا وهو أشبه، ورجاء شيخ ليس بقوى.

مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا

وقوله: ﴿ مصلى ﴾ أى: مُدَّعًا؛ أمرهم أن يتخذوها مواضع للدعاء.

وقوله – تعالى –: ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴾ أى: أمرنا، والعهد ها هنا بمعنى الأمر.

وأما إسماعيل: أصله: اسمع إيل، وذلك أن إبراهيم – صلوات الله عليه – كان يدعو الله أن يرزقه ولداً، ويقول: اسمع إيل. فلما رزقه [الله](1) الولد سماه إسماعيل.

وقوله – تعالى –: ﴿ أن طهرا بيتى ﴾ يعنى من الشرك والأوثان ﴿ للطائفين ﴾ الدائرين حول الكعبة. ﴿ والعاكفين ﴾ المقيمين المجاورين ﴿ والركع السجود ﴾ المصلين. رُكَّع: جمع راكع، والسُّجُود جمع ساجد. قال الكلبى ومقاتل: الطائفين: هم الغرباء. والعاكفين: أهل مكة.

قال عطاء ومجاهد: الطواف للغرباء أفضل؛ لأنه يفوتهم، والصلاة لأهل مكة أفضل؛ لأنه لايفوتهم.

قوله – تعالى –: ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا ﴾ أى: اجعل الحرم ذا أمن ﴿ وارزق أهله من الثمرات ﴾ وإنما دعا بذلك لأنه كان بواد غير ذى زرع.

وفى القصص: أن الطائف كانت مدينة من مدائن الشام بأردن، فلما دعا إبراهيم هذا الدعاء، أمر الله – تعالى – جبريل حتى قلعها من أصلها، وأدارها حول البيت سبعا، ثم وضعها موضعها الذى هى الآن فيه، فمن تلك ثمرات أهل مكة.

﴿ من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾ دعا إبراهيم أن يرزق من الثمرات المؤمنين خاصة.

﴿ قال ومن كفر ﴾ يقول الله – تعالى –: والكافرين أيضا؛ وذلك أن الله – سبحانه وتعالى – وعد الرزق للخلق كافة، مؤمنهم وكافرهم.

(1) من «ك».

تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ

﴿ فأمتعه قليلا ﴾ يقرأ مخففا ومشددا[١] ومعناهما واحد يعنى: أبقيه فى النعمة قليلا.

وإنما ذكر القليل؛ لأن الإمتاع أصله الطول والكثرة. يقال: متع النهار. أى: طال وارتفع. ونخلة ماتعة. أى: طويلة. وإنما أراد به الإمتاع فى الدنيا وهو قليل؛ لانقطاعه.

﴿ ثم أضطره ﴾ ألجئه ﴿ إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ أى: المرجع.

قوله - تعالى -: ﴿ وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت ﴾ قال الفراء: القواعد: أسس البيت.

وقال الكسائى: هى جدر البيت، وحكى أن ابن الزبير لما هدم البيت ليبنيه؛ ظهرت أحجار بيض كبار فقال: هذه هى القواعد التى بنى عليها إبراهيم البيت.

وقال ابن عباس: إنما بنى البيت من خمسة أجبل: طور سيناء، وطور زيتا، ولبنان وهو جبل بالشام - والجودى، وهو جبل بالجزيرة، وحراء وهو جبل بمكة.

وفى الأخبار: أن الله - تعالى - بنى فى السماء بيتا - وهو البيت المعمور، ويسمى صراح - وأمر الملائكة أن يبنوا الكعبة فى الأرض بحذائه، على قدره ومثاله.

وقيل: أول من بنى الكعبة آدم - صلوات الله عليه - فاندرس ذلك زمان الطوفان، ثم أظهره الله - تعالى - لإبراهيم حتى بناه.

قال: ﴿ وإسماعيل ربنا تقبل منا ﴾ قرأ أبى بن كعب «يقولان ربنا تقبل منا» وهو فى الشواذ، وهذا هو المعنى. ﴿ إنك أنت السميع العليم ﴾

قوله - تعالى -: ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ يقول: مستسلمين، خاضعين، منقادين.

---

(١) قرأ ابن عامر بتخفيف التاء، وقرأ الباقون بتشديدها. انظر النشر (٢ / ٢٢٢).

فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ

﴿ومن ذريتنا أمة﴾ والأمة: أتباع الأنبياء ﴿مسلمة لك﴾ خاضعة لك ﴿وأرنا﴾ قرأ أبو عمرو «مختلسا»، وقرأ غيره بكسر الراء[1] ﴿مناسكنا﴾ أي: متعبداتنا.

والنسك: العبادة، ومنه يقال للعابد: ناسك، معناه: مواضع حجنا ﴿وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾.

قوله تعالى: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم﴾ يعنى محمدا ﷺ، وفى الخبر، أن النبى ﷺ قال: «أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى»[2] وأراد بدعوة إبراهيم هذا؛ فإنه دعا أن يبعث فى بنى إسماعيل رسولا منهم.

قال ابن عباس: كل الأنبياء من بنى إسرائيل إلا عشرة: نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب ومحمد- صلوات الله عليهم أجمعين -.

وفى القصص: أن لكل نبى ممن مضى [اسمًا واحدًا][3] فى القرآن إلا نبيين[4] يعقوب وعيسى. أما يعقوب له اسمان: يعقوب، وإسرائيل، وأما عيسى له اسمان:

(١) قرأ ابن كثير، ويعقوب بإسكان الراء. وقرأ أبو عمرو بالاختلاس، وقرأ الباقون بكسر الراء، انظر النشر (٢/ ٢٢٢).

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٢٧، ١٢٨)، والحاكم (٢/ ٤١٨، ٦٠٠)، وابن جرير فى تفسيره (١/ ٤٣٥)، وابن أبى حاتم فى التفسير (١/ ٣٨٨ رقم ٢٤٦٤) عن حديث العرباض بن سارية مرفوعاً. قال الحاكم: صحيح الإسناد. وتعقبه الذهبى بأن فى إسناده أبا بكر ضعيف.

وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢٢٦): وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن سويد، وقد وثقه ابن حبان.

وللحديث طرق أخرى عن عدد من الصحابة فانظر المجمع (٨/ ٢٢٥-٢٢٧)، وتخريج أحاديث الكشاف للزيلعى (١/ ٨٢-٨٣).

(٣) فى «الأصل»، و«ك»: اسم واحد.

(٤) فى «الأصل»، و «ك»: نبيان.

اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ

عيسى، والمسيح.

﴿ يتلو عليهم آياتك ﴾ يعنى من القرآن ﴿ ويعلمهم الكتاب ﴾ القرآن ﴿ والحكمة ﴾ فيها أقوال:

قيل: الحكمة فهم القرآن، وقال أبو بكر بن دريد صاحب الجمهرة: الحكمة كل كلمة زجرتك ووعظتك ونهتك عن قبيح، ودعتك إلى حسن، وقيل: الحكمة الفقه. وهذا قول حسن.

﴿ ويزكيهم ﴾ أى: يطهرهم، ويجعهلم أزكياء طهرة. وفيه قول آخر: أنه بمعنى التزكية. يشهد الرسل بالنبوة من سائر الأمم وذلك أن مؤمنى سائر الأمم شهدوا للرسل بالنبوة وتبليغ الرسالة فهذه[1] الأمة تزكى أولئك الشهود.

﴿ إنك أنت العزيز ﴾ قيل: هو الممتنع، والله ممتنع لاتناله الأيدى، ولايصل إليه شيء.

وقيل: هو القوى الغالب. ومنه قوله - تعالى -: ﴿ وعزنى فى الخطاب ﴾[2] أى: غلبنى.

ويقال فى المثل: «مَنْ عَزَّ بَزَّ» أى: من غلب سلب ﴿ الحكيم ﴾ معلوم.

قوله - تعالى -: ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم ﴾ أى: طريقة إبراهيم ﴿ إلا من سفه نفسه ﴾ حكى أبو عبيد عن أبى عبيدة: معناه: أهلك نفسه.

وقال الزجاج: معناه جهل نفسه، وكل سفيه جاهل، وذلك أن من جهل نفسه لم يعرف الله.

وفى الأخبار: أن الله - تعالى - أوحى إلى داود: اعرف نفسك واعرفنى. فقال

---

(١) فى «ك» فتلك.

(٢) ص: ٢٣.

اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ

يارب كيف أعرف نفسى، وكيف أعرفك؟ فأوحى الله إليه: اعرف نفسك بالضعف والعجز والفناء، واعرفنى بالقوة والقدرة والبقاء.

وقيل: معناه سَفه نفسه وجعله سفيها، وفيه قول رابع: معناه سفه فى نفسه، فحذف كلمة «فى» فصار: سفه نفسه.

﴿ولقد اصطفيناه﴾ اخترناه ﴿فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين﴾ من الأنبياء.

قوله - تعالى -: ﴿إذ قال له ربه أسلم﴾ يعنى أى: استسلم وأخلص عبادتك لله.

﴿قال أسلمت لرب العالمين﴾ أخلصت وفوضت إليه.

قال ابن عباس: وقد حقق التفويض إليه، ولم يستعن بأحد من الملائكة حين ألقى فى النار.

قوله - تعالى -: ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب﴾ قرئ «وأوصى» من الإيصاء. «ووصى» من التوصية[1] وهى للمبالغة والتكثير، يعنى أوصى إبراهيم بنيه. وأوصى يعقوب بنيه. ﴿يابنى إن الله اصطفى لكم الدين﴾ اختار لكم دين الإسلام ﴿فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ فإن قيل: كيف قال: فلاتموتن إلا وأنتم مسلمون وليس بيدهم أن لايموتوا إلا مسلمين؟

قيل معناه: داوموا على الإسلام حتى لايصادفكم الموت. إلا وأنتم مسلمون، وهذا كقول القائل: لا أريتك تفعل كذا معناه: لا تفعل كذا، حتى لا أراك وأنت فاعل له.

(١) قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، ونافع: «وأوصى» بهمزة مفتوحة بين الواوين مع تخفيف الصاد، وقرأ الباقون بتشديد الصاد من غير همزة بين الواوين. انظر النشر (٢ / ٢٢٢ - ٢٢٣).

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا

قوله - تعالى -: ﴿أم كنتم شهداء﴾ بمعنى: أكنتم شهداء والمراد به ما كنتم شهداء.

﴿إذا حضر يعقوب الموت﴾ أى: ما كنتم حضورا حين قرب يعقوب من الموت.

﴿إذ قال لبنيه﴾ وهم اثنا عشر سبطا. على ما سيأتى ﴿ما تعبدون من بعدى﴾ أى: أيش تعبدون من بعدى ﴿قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب إلها واحدا ونحن له مسلمون﴾ وقرأ الحسن البصرى وعاصم الجحدرى. «وإله أبيك» كأنه على هذه القراءة لم يجعل العم ولا الجد أبا.

والقراءة المعروفة «وإله آبائك» فجعل الجد والعم أباء.

وإبراهيم هو الجد وإسماعيل هو العم. وقد سمى رسول الله ﷺ عمه العباس أبا حيث قال: «إنه من بقية آبائى».[1] وقال: «رُدُّوا علىَّ أبى كيلا تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود»[2] وذلك أنهم قتلوه.

قوله - تعالى -: ﴿تلك أمة قد خلت﴾ أى: مضت ﴿لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعلمون﴾ معناه: يُجازى كل بكسبه، ويُسْأَلُ كلٌّ عن عمله. والله أعلم.

قوله - تعالى -: ﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى﴾ هود جمع هائد، وهو مثل حائل وحُول. وقيل: كان أصله كونوا يهودا فحذفت الياء فصار: هودا.

وقيل: هود مصدرها يهود هودا، فهو مصدر بمعنى الجمع كما يقال: قوم صُوم

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الصغير (١/٣٤٤رقم ٥٧٢) من حديث الحسن بن على بن أبى طالب مرفوعاً.

قال الهيثمى فى المجمع (٩/٢٧٢): وفيه جماعة لم أعرفهم.

ورواه الطبرانى فى الكبير (١١/٨٠ رقم ١١١٠٧) من حديث ابن عباس.

وقال الهيثمى (٩/٢٧٢): وفيه عبد الله بن خراش وهو ضعيف، وثقه ابن حبان وقال: ربما أخطأ. وبقية رجاله وثقوا.

(٢) رواه ابن أبى شيبة فى المصنف فى خبر طويل (١٤/٤٨٤ رقم ١٨٧٤٨) عن عكرمة مرسلاً.

كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

وقوم فُطر.

ومعناه: قالت اليهود: كونوا يهودا وقالت النصارى كونوا نصارى فهذا معنى قوله - تعالى - ﴿ كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ﴾.

﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفا ﴾ قرأ الأعرج «بل ملةُ» بالرفع. ومعناه بل ملتنا ملة إبراهيم.

والقراءة المعروفة: ﴿ بل ملةَ إبراهيم ﴾ أى: بل نتبع ملة إبراهيم.

وقيل: معناه: بل نكون على ملة إبراهيم، فحذف «على» فصار منصوبا.

قال الكسائى: هو نصب على الإغراء كأنه يقول: اتبعوا ملة إبراهيم حنيفا، وأما الحنيف: هو المسلم، وأصله الميل، ومنه الأحنف وهو: المائل القدم، والمسلم مائل من سائر الأديان إلى ملة الإسلام.

وقيل: معناه المستقيم، فسماه حنيفا على الضد كما يقال للمهلكة: مفازة وللديغ سليم.

وقيل: الحنيف هو الحاج المختتن؛ وذلك أنه لم يبق مع العرب من ملة إبراهيم إلا الحج والختان، وكانوا يعرفون كل من حج واختتن على ملة إبراهيم، وعرَّفوا الرجل بذلك حنيفا. فقال: بل ملة إبراهيم حنيفا على وفق ما عرفوا ﴿ وما كان من المشركين ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ﴾.

قال الضحاك: علموا أولادكم أسماء الأنبياء المذكورين فى القرآن كى يؤمنوا بهم، ولا تظنوا أن الإيمان بمحمد يكفى عن الإيمان بسائر الأنبياء.

وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن

وفى الخبر: «أن النبى ﷺ قرأ فى الركعة الأولى من ركعتى الفجر هذه الآية قوله – تعالى –: ﴿آمنا بالله﴾ إلى آخرها. وقرأ فى الركعة الثانية ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا...﴾ إلى آخرها»[1]. أخرجه مسلم فى الصحيح[2].

حكى عن السلف أنهم كانوا إذا قيل للرجل منهم: [أمؤمن أنت]؟[3] قرأ ﴿آمنا بالله وما أنزل إلينا...﴾ الآية.

وأما الأسباط: هم اثنا عشر سبطا وهم أولاد يعقوب والأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى [العرب][4].

وقيل: السبط: الشجر، سمى بذلك لكثرة فروعه.

﴿لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ أى: نؤمن بالكل، ولانفضل البعض عن البعض.

قوله – تعالى –: ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به﴾ قرأ ابن عباس «بالذى آمنتم به» وهو المعنى. فقيل معناه: بما أمنتم به.

والمثل: ضد كما فى قوله: ﴿ليس كمثله شىء﴾[5] ومعناه: ليس كهو شىء.

قال الشاعر:

ياعاذلى دعنى عن عذلكا   مثلى لايقبل من مثلكا[6]

(١) آل عمران: ٨٤.

(٢) الحديث فى صحيح مسلم (٦/٨–٩ رقم ٧٢٧) من حديث ابن عباس مرفوعا إلا أنه قال فى الآخرة: ﴿آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾.

وفى الرواية الثانية قرأ فى الآخرة: ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾

(٣) فى «الأصل، ك»: امنوا أمؤمن أنت.

(٤) فى «الأصل، ك» بنى إسرائيل وهو سبق قلم.

(٥) الشورى: ١١.

(٦) فى «الأصل، وك»: مثلها. والصواب ما أثبتناه.

تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾

أى: لايقبل منك.

وقال الزجاج: معناه فإن أتوا بإيمان كإيمانكم، وتصديق كتصديقكم، وتوحيد كتوحيدكم، وقال أبو معاذ النحوى: معناه فإن آمنوا بكتابكم كما آمنتم بكتابهم.

﴿ فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق ﴾ أى: منازعة؛ لأن كل منازع يكون فى شق آخر عند المنازعة.

﴿ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ وعده أن يكفيه شرهم، وقد كفى بإجلاء بنى النضير، وقتل[1] بنى قريظة، وضرب الجزية على اليهود والنصارى، وقتل المشركين.

﴿ وهو السميع العليم ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ صبغة الله ﴾ قال ابن عباس - فى رواية الكلبى - وقتادة، والحسن، وعكرمة، والسدى: معناه: دين الله. وإنما سماه صبغة؛ لأنه يظهر أثر الدين على المتدين كما يظهر أثر الصبغ على الثوب.

وقال مجاهد: معناه: فطرة الله. وهذا يقرب من الأول.

وقيل: أراد به الختان. وقوله ﴿ صبغة الله ﴾ أى: تطهير الله بالختان، وإنما سماه صبغة؛ لأنه أقامه مقام فعل النصارى، وذلك أنهم كانوا يصبغون الولد فى ماء أصفر بدل الختان فى زى اليهود. ويعدونه تطهيرا للولد فالله - تعالى - أقام التطهير بالختان فى حق المسلمين مقام ما صبغوا.

قال الكسائى: هو نصب على الإغراء وتقديره: الزموا دين الله. ومن أحسن من الله دينا، أو الزموا تطهير الله ﴿ ومن أحسن من الله صبغة ﴾ أى: تطهيرا ﴿ ونحن له عابدون ﴾.

(١) فى ك: وقبل.

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ

قوله تعالى: ﴿قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم﴾ والمحاجة: المجادلة بالحجة لإظهار الحق.

نزلت فى اليهود ونصارى نجران حيث حاجوا رسول الله ﷺ وقالوا: ديننا أقدم من دينكم وكتابنا أقدم من كتابكم، فنحن أولى بالله منكم، فنزل قوله: قل يا محمد ﴿أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم﴾ أى: نحن وأنتم سواء فى الله فإنه ربنا وربكم.

﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ أى: نجازى بأعمالنا وتجازون بأعمالكم ﴿ونحن له مخلصون﴾ يعنى: كيف تَدَّعُون أنكم أولى بالله ونحن له مخلصون وأنتم به مشركون؟

قوله - تعالى -: ﴿أم تقولون﴾ يعنى: أتقولون؟ والصيغة صيغة الاستفهام، ومعناه التوبيخ يعنى أتقولون ﴿إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى﴾. وذلك أنهم ادعوا أن هؤلاء الأنبياء كانوا يهودا أو نصارى.

﴿قل أأنتم أعلم أم الله﴾ وذلك أن الله - تعالى - قد أعلم المسلمين أنهم كانوا على الدين الحنيفية وما كانوا يهودا ولا نصارى، كما قال - تعالى -: ﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما﴾[1].

﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه أراد به أن الله - تعالى - قد أشهدهم فى كتبهم علي أن إبراهيم كان على الدين الحنيفية، ولم يكن يهوديا ولا نصرانيا؛ فكتموا تلك الشهادة.

وقيل أراد بالشهادة على نعت محمد ﷺ.

﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ أى: لايخفى عليه شيء مما تعملون.

قوله - تعالى -: ﴿تلك أمة قد خلت﴾ أى: مضت ﴿لها ما كسبت ولكم ما

(١) آل عمران: ٦٧.

كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ

كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ يعنى: أنكم غير مسؤولين عن أعمالهم بل هم المسئولون.

فإن قيل: هذا تكرار؛ فإنه قد ذكره مرة.

قلنا: أما الأول: كان فى الأنبياء الذين سبق ذكرهم. وهذا الثانى: فى اليهود والنصارى الذين سبق ذكرهم فى هذه الآيات. أو كرره تأكيدا.

وحكى عن بعض العلماء أنه سئل عما وقع من الفتن بين على ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة – رضوان الله عليهم – فقرأ ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم... ﴾ الآية وهذا جواب حسن فى مثل هذا السؤال.

قوله – تعالى –: ﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾ أى: يقول السفهاء الجهال، والسفيه: خفيف الحلم والعقل. ومنه الثوب – يعنى – السفيه ويقال: رمح سفيه، أى: سريع النفوذ.

﴿ ما ولاهم ﴾ ما عدلهم وحرفهم ﴿ عن قبلتهم التى كانوا عليها ﴾ يعنى: بيت المقدس ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾ يوجه العباد إلى أيهما شاء ﴿ يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ أى: طريق مستقيم. والطريق المستقيم: هو الموصل إلى المقصود.

ونزلت الآية فى اليهود؛ حيث عيروا المسلمين على تحويلهم من بيت المقدس إلى الكعبة.

قوله – تعالى –: ﴿ وكذلك جعلناكم ﴾ يعنى: كما اخترنا الأنبياء واخترنا بنى إسرائيل من الخلق فكذلك اخترناكم من الأمم. ﴿ أمة وسطا ﴾ أى: عدلاً خياراً. قال الشاعر:

عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ

هُمُ وسط يرضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالى بمعظم

وفى الخبر أن النبى ﷺ قال: «إنكم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأعدلها»[1].

وقد ورد فى الخبر عنه ﷺ أنه قال: «خير الدين النمط الأوسط»[2] يعنى الذى ليس فيه غلو ولا تقصير. وذلك دين الإسلام؛ لأن النصارى غلوا فى دينهم، واليهود قصروا. وأما المسلمون أخذوا بالنمط الأوسط.

﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ وذلك يوم القيامة، حين يسأل الأمم عن إبلاغ الرسل، فينكرون تبليغهم الرسالة. فيسأل الرسل فيقولون: بلغنا، فيقال لهم: ومن يشهد لكم؟ فيأتون بهذه الأمة فيشهدون لهم بالبلاغ. فتقول الأمم: إنهم أتوا بعدنا فكيف يشهدون بذلك؟ فيسأل هذه الأمة. فيقولون: أرسلت إلينا رسولا، وأنزلت علينا كتابا، وأخبرتنا فيه ببلاغ الرسل، وأنت صادق فيما أخبرت، فبذلك نشهد لهم بالبلاغ.

﴿ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ على أعمالكم.

وقيل: معناه مزكيا مصدقا علي شهادتكم.

قوله - تعالى -: ﴿وما جعلنا القبلة التى كنت عليها﴾ أى: ما حولنا القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ﴿إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾ فإن قال قائل: مامعنى قوله: ﴿إلا لنعلم﴾ وهو عالم بالأشياء قبل كونها؟

(١) أخرجة الترمذى (٥ / ٢١١ رقم ٣٠٠١) وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٢ / ١٤٣٣رقم ٤٢٨٧،٤٢٨٨)، والإمام أحمد فى مسنده (٤ /٤٤٧، ٥ /٣،٥) والحاكم فى مستدركه (٤ / ٨٤) وقال: صحيح. جميعهم من حديث بهز بن حكيم عن أبيه، عن جده مرفوعا.

(٢) عزاه العراقى فى تخريجه على الإحياء (١ / ٧٢) لأبى عبيد فى الغريب من حديث على موقوفاً ولفظه «عليكم بالنمط الأوسط». وقال: ولم أجده مرفوعاً.

الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ

قلنا بلى كان عالما به علم الغيب، وإنما أراد بهذا: العلم الذى يتعلق به الثواب والعقاب، وهو العلم بوجود الأتباع؛ فإن كونه موجودا إنما يعلم بعد الوجود.

وقيل: معناه إلا لنرى، وهو قريب من الأول.

وقيل: الابتلاء مضمر فيه، وتقديره: إلا لنبتلى فيظهر المتبع من المنقلب، وفى الخبر: «أن القبلة لما حولت إلى الكعبة، ارتد قوم من المسلمين إلى اليهودية، وقالوا: إن محمدا رجع إلى دين آبائه». فهذا معنى قوله: ﴿ممن ينقلب على عقبيه﴾ وقوله - تعالى -: ﴿وإن كانت لكبيرة﴾ لثقيلة.

قيل: معناه: وإن كانت القبلة لكبيرة. قال الزجاج: وإن كانت التحويلة لكبيرة.

﴿إلا على الذين هدى الله﴾ أى: هداهم الله. ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ نزل هذا فى قوم معينين. ذلك ما روى: «أن القبلة لما حولت سأل قوم رسول الله ﷺ فقالوا: إن قوما منا كانوا قد صلوا إلى بيت المقدس، وماتوا، فما شأنهم؟ منهم أسعد بن زرارة، وأبو أمامة والبراء بن معرور - فنزل قوله - تعالى -: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾» أى: صلاتكم فجعل الصلاة إيمانا، وهذا دليل على المرجئة؛ حيث لم يجعلوا الصلاة من الإيمان. وإنما سموا مرجئة لأنهم أخروا العمل عن الإيمان.

وحكى: أن أبا يوسف شهد عند شريك بن عبد الله القاضى فرد شهادته، قيل له أترد شهادة يعقوب؟ فقال: كيف أقبل شهادة من يقول: إن الصلاة ليست من الإيمان؟!.

وقيل: معنى قوله: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ بالتحويل.

﴿إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾ والرأفة: أشد الرحمة.

قوله - تعالى -: ﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء﴾ هذه الآية وإن كانت

لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ

متأخرة فى التلاوة لكنها متقدمة فى المعنى؛ فإنها رأس القصة.

وسبب نزول الآية ما روى جابر: «أن النبى ﷺ بعد ما قدم المدينة صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا - أو سبعة عشر شهرا - وكان يود أن يحوله الله إلى الكعبة فكان يقول لجبريل: وددت لو حولنى الله إلى الكعبة؛ فإنها قبلة أبى إبراهيم، وكان يقول لجبريل: سل ربك فقال له جبريل: سل أنت فإنك عند الله بمكان، وكان كلما نزل جبريل تردد وجهه فى السماء؛ رجاء أن ينزل بالنسخ»(١).

قال السدى: إنه ﷺ كلما افتتح صلاة، كان يردد وجهه فى السماء رجاء أن يحوله الله إلى الكعبة، فاقامه الله عليه ستة عشر شهرا، ثم نزل قوله - تعالى -: ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ﴾ أى: تودها وتهواها؛ لأن القبلة الأولى كانت [ترضيه](٢) أيضا.

﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ أى نحو البيت.

﴿ وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ أى: نحوه. وفى الخبر أن النبى ﷺ قال: «هذه القبلة وأشار إلى البيت»(٣).

﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ يعنى التحويل إلى الكعبة ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ قال ابن عباس: أول ما نسخ بعدما قدم المدينة هو القبلة.

(١) لم أقف عليه بهذا السياق من حديث جابر ولا غيره، وقد صح عن النبى ﷺ أحاديث فى حبه أن يستقبل الكعبة وفى سبب نزول قوله تعالى ﴿ قد نرى ... ﴾ منها حديث البراء الذى أخرجه البخارى فى صحيحه (٨/ ٢٠ رقم ٤٤٨٦)، والله أعلم.

(٢) فى «الأصل، وك»: ترضاه.

(٣) متفق عليه من حديث ابن عباس. فرواه البخارى (١/ ٥٩٧ رقم ٣٩٨)، ومسلم (٩/ ١٢٥ - ١٢٦ رقم ١٣٣٠).

فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا

وقيل: أول صلاة صليت إلى الكعبة كانت صلاة العصر. وروى «أنها حولت إلى الكعبة وكانوا فى الصلاة. والصحيح: أن التحويل كان خارج الصلاة. وإنما كان ذلك فى حق أهل قباء؛ فإنهم شرعوا فى صلاة العصر، وكانت صلاة العصر نحو بيت المقدس، فأتاهم آت وقال: «أشهد أنى صليت هذه الصلاة مع رسول الله ﷺ إلى الكعبة؛ فاستداروا إلى الكعبة وبنوا على صلاتهم»(١).

قوله – تعالى –: ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ معناه: لو أتيتهم بكل معجزة ما تبعوك فى الكعبة. ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ يعنى: قبلة اليهود والنصارى ﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ يعنى: اليهود والنصارى، وذلك أن قبلة اليهود بيت المقدس وهو المغرب، وقبلة النصارى المشرق، وأما قبلة المسلمين هى الكعبة.

وقد روى ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة»(٢) قال ابن عمر: يعنى لأهل المشرق. وصورته أن يجعل مشرق الشتاء فى أقصر يوم من السنة على يساره. ومغرب الصيف فى أطول يوم من السنة عن يمينه، فيكون وجهه إلى الكعبة وذلك بأن يتوجه إلى مسقط قلب العقرب حين يسقط. فهذا معنى قوله: «ما بين المشرق والمغرب قبله..».

﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ وإن كان الخطاب مع الرسول، ولكن المراد به الأمة كما سبق.

(١) تقدم فى حديث البراء عند البخارى.

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (١/٢٠٥-٢٠٦)، والبيهقى من طريق الحاكم (٢/٩) وقال الحاكم: صحيح، وقد أوقفه جماعة عن عبد الله بن عمر، وقال الذهبى: وصححه أبو حاتم موقوفاً على عبد الله، والله أعلم.

قلت: وفى العلل لابن أبى حاتم (١/١٨٤) أن أبا زرعة قال فى الرواية المرفوعة لابن عمر: هذا وهم، الحديث حديث ابن عمر موقوف.

قلت: وفى الباب عن أبى هريرة مرفوعاً، أخرجه الترمذى فى سننه (٢/١٧٣ رقم ٣٤٤)، وابن ماجة (١/٣٢٣ رقم ١٠١١) وقال الترمذى: حسن صحيح.

قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن

﴿ من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين ﴾ معلوم التفسير.

قوله - تعالى -: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ قيل: أراد به القبلة. وقيل: أراد به محمدا ﷺ.

وروى أن عبد الله بن سلام قال: معرفتى بهذا النبى أشد من معرفتى بابنى. قال له عمر: وكيف ذاك؟ قال: لأنى لا أعرف ما أحدثت النساء، وأعرف أنه نبى حق. فقال عمر: لله درك.

﴿ وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ أى: الشاكّين.

قوله - تعالى -: ﴿ ولكل وجهة هو موليها ﴾ قال مجاهد: هو موليها وجهة. يعنى: القبلة. وقال أبو حاتم، عن الأخفش معناه: الله موليها.

فقوله: «هو» كناية عن الله - تعالى - يعنى: الله مولى الأمم إلى قبلتهم. وقرأ ابن عامر: «هو مولاها»(١) أى: المستقبل مصروف إليها.

﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ أى: بادروا، والمراد ها هنا: المبادرة إلى القبول من الله ﴿ أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شىء قدير ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ أى: نحوه.

﴿ وإنه للحق من ربك ﴾ ذكره تأكيداً للأول ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾.

(١) انظر النشر (٢/٢٢٣).

رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا

قوله تعالى: ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ يعنى: اليهود؛ وذلك أنهم قالوا: إن محمدا اتبع قبلتنا، فسيعود إلى ملتنا.

﴿إلا الذين ظلموا﴾ وهم المشركون. وقيل: «إلا» بمعنى «ولا» الذين ظلموا. ومثله: قول الشاعر:

وكل أخ مفارقه أخوه لعمرو أبيك إلا الفرقدان

يعنى: ولا الفرقدان.

والصحيح: أنه استثناء منقطع، «وإلا» بمعنى «لكن» الذين ظلموا يخاصمونكم ويحاجونكم بالحجة الباطلة، وذلك أن المشركين قالوا - حين تحولت القبلة إلى الكعبة -: إنه رجع إلى قبلتنا فسيعود إلى ملتنا، والحجة الباطلة قد تسمى حجة، كما قال الله - تعالى -: ﴿حجتهم داحضة﴾[(١)] فكأنه أبطل حجة اليهود بالتحويل إلى الكعبة: ثم أبطل حجة المشركين بدليل سواه.

﴿إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون﴾ قال سعيد بن جبير: لاتتم نعمته على المسلم إلا بأن يدخله الجنة.

وفى الخبر: «أن النبى ﷺ سمع رجلا يقول الحمد لله على الإسلام، فقال ﷺ: لقد حمدت الله على نعمة عظيمة»[(٢)].

قوله - تعالى -: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم﴾ فإن قال قائل: الكاف للتشبيه فأين المشبه به؟ قلنا: قال - على رضى الله -: عنه تقديره: فاذكره لى، كما

(١) الشورى: ١٦.

(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الشكر (ص٦٨ رقم ٩) عن الحسن مرسلا.

تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا

أرسلنا فيكم رسولا فيكون الذكر على هذا القول بمعنى الشكر.

وقيل: تقديره: ولأتم نعمتى عليكم كما أرسلنا فيكم رسولا منكم، وذلك أن إبراهيم - صلوات الله عليه - كان قد دعا دعوتين: دعا أن يبعث فيهم رسولا منهم، ودعا إتمام النعمة على ذريته بالرزق من الثمرات، فأجاب إحدى الدعوتين بأن بعث فيهم رسولا، ثم أجاب الدعوة الثانية فقال: ولأتم نعمتى عليكم، كما أرسلنا فيكم رسولا منكم.

﴿ يتلو عليكم آياتنا ﴾ يعنى: القرآن ﴿ ويزكيكم ﴾ كما بينا ﴿ ويعلمكم الكتاب والحكمة ﴾ وقد ذكرنا. وقيل: الحكمة السنة، وقيل: مواعظ القرآن.

﴿ ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكرونى أذكركم ﴾ قيل: ذكر الله ها هنا بمعنى المدح والثناء عليه.

وفى الخبر عن النبى ﷺ «أن الله - تعالى - يقول: أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حين يذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسي، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه، وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلى ذراعا، تقربت إليه باعا وإن أتانى يمشى أتيته هرولة» أخرجه مسلم فى الصحيح[1].

وقيل: معناه: فا ذكرونى كما أرسلنا، وهذا قريب من قول على.

وقيل: الذكر من العبد الطاعة، ومن الله المغفرة والرحمة. ومعناه: فاذكرونى بالطاعة أذكركم بالمغفرة والرحمة.

﴿ واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ يعنى واشكروا لى بالطاعة ولا تكفرونى بالمعصية. فإن من أطاع الله فقد شكره، ومن عصاه فقد كفره.

(١) هو فى الصحيح (١٧/٣ رقم ٢٦٧٥) عن أبى هريرة مرفوعاً.

فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ

وحكى أن موسى – صلوات الله عليه – سأل ربه فقال: ما الشكر الذى ينبغى لك؟ فقال أن لايزال لسانك رطبا بذكرى.

قوله – تعالى –: ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ﴾ فالاستعانة: طلب المعونة. وفى الصبر قولان: أحدهما: الثبات على الدين، والآخر: الصوم. ووجه الاستعانة بهما ما سبق.

﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ قال عطاء، عن ابن عباس: بالحفظ والنصر.

قوله – تعالى –: ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات ﴾ نزلت الآية فى قوم معينين، استشهدوا يوم بدر، وكان يقول المسلمون: مات فلان، فلم يَرْضَ الله – تعالى – ذلك منهم، وأنزل الله هذه الآية.

﴿ بل أحياء ولكن لاتشعرون ﴾ أى: شهداء؛ لأن الشهيد حىّ.

وقيل: معناه ما ورد فى الخبر: «أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تعلف من ثمار الجنة – أى تأكل – وتأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش».[1] فذلك قوله: ﴿ بل أحياء عند ربهم ﴾[2].

وقيل: معناه أحياء بالثواب والثناء الحسن، وليسوا بأموات بالذكر السيء وعدم الثواب.

قوله – تعالى –: ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف ﴾ واللام فيه لجواب القسم. وتقديره: والله لنبلونكم. وحكمة الابتلاء لإظهار المطيع من العاصى، لا ليعلم شيئًا

(١) رواه الترمذى (٤/١٥١ رقم ١٦٤١)، وابن ماجة (١/٤٦٦ رقم ١٤٤٦) وأحمد فى مسنده (٦/٣٨٦) جميعهم من حديث كعب بن مالك، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وبنحوه رواه الإمام مسلم فى صحيحه (١٣/٤٦-٤٧ رقم ١٨٨٧)، والترمذى (٥/٢١٥ – ٢١٦ رقم ٣٠١١) من حديث ابن مسعود، وقال الترمذى: حسن صحيح.

(٢) آل عمران: ١٦٩.

﴿١٥٣﴾ وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ

لم يكن عالماً به، واختلفوا فيمن نزلت الآية فيه، منهم من قال : نزلت فى اليهود وقيل: نزلت فى المسلمين .

﴿ بشئ من الخوف ﴾ خوف العدو ﴿ والجوع ﴾ بالقحط والجدب ﴿ ونقص من الأموال ﴾ بالخسران والهلاك ﴿ والأنفس ﴾ بالمرض والشيب والموت ﴿ والثمرات ﴾ بالجوائح، وقيل : بالأولاد؛ وذلك أنهم ثمرات القلوب، وحكمة الابتلاء بهذه الأشياء: حتى إذا صبروا عليه فكل من سمع به بعدهم؛ علم أنهم أنما صبروا عليه لما عرفوا من الحق .

﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنّا إليه راجعون ﴾ . قال سعيد بن جبير : كلمة الإسترجاع لم تعط [لأحد][(١)] من الأمم سوى هذه الأمة . ألا ترى أن يعقوب – صلوات الله عليه – لما ابتلي بفراق يوسف قال: ﴿ يا أسفى على يوسف ﴾[(٢)] ولم يقل: إنا لله وإنا إليه راجعون؟ ومعناه: إنا لله ملْكًا وعبودية، وإنا إليه راجعون في القيامه، وإنما قيد بهذا لأن الأمر فى القيامة يخلص لله – تعالى – .

وروي : «أن رسول اللّه ﷺ طُفِيءَ سراجه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. فقيل له في ذلك، فقال : كل ما أذى المؤمن فهو مصيبة له»[(٣)] .

قوله تعالى : ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ ومعنى الصلوات هاهنا الرحمة بعد الرحمة؛ لأن الصلاة من الله: الرحمة. ومن الملائكة: الاستغفار، ومن الناس الدعاء. قال الشاعر :

(١) فى الأصل أحد .

(٢) يوسف : ٨٤

(٣) أخرجه أبو داود فى مراسيله (رقم ٤١٢) عن عمران القصير.
وروى مرسلا أيضا عن عكرمة، أخرجه عبد بن حميد وابن أبى الدنيا فى «الفداء» كما فى الدر المنثور للسيوطى (١/ ١٦٥) . وعزاه أيضا لابن أبى الدنيا عن عبد العزيز بن أبى داود بلاغا.

وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ

صلى على يحيى وأشياعه ربٌّ كريم وشفيع مطـاع

يعني: ترحم عليه.

قوله: ﴿ ورحمة ﴾ ذكرها تأكيداً للأول ﴿ وأولئك هم المهتدون ﴾ قال عمر - رضى الله عنه -: نِعْمَ العِدلان ونِعْمَتِ العِلاوة، والعِدلان: الصلوات والرحمة، والعلاوة: الهداية.

وقد ورد فى ثواب المصيبة أخبار كثيرة، منها: ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصيب العبد المؤمن بمصيبة إلا كُفِّر عنه، حتى الشوكة يشاكها»[1].

قوله - تعالى -: ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ الصفا: جبل بأحد طرفى المسعى. والمروة: جبل بالطرف الثانى، والصفا: الحجر الصلب، والمروة: الحجر الرخو.

قوله - تعالى -: ﴿ من شعائر الله ﴾ فالشعائر: جمع الشعيرة، وهى: الأعلام التى على مناسك الحج. ومثله المشاعر، فالموقف شعيرة، والمطاف شعيرة، والمنحر شعيرة، والمشعر شعيرة.

﴿ فمن حج البيت أو اعتمر ﴾ فأصل الحج: القصد. قال الشاعر:

وأشهدُ من عوفٍ حُلُولاً كثيـرةً يحجون[2] سِبَّ الزِّبرِقانِ المزعفَرَا

أى: يقصدون. وأصل العمرة: الزيارة. قال الشاعر:

وجاشَت النفس لما جاء فَلُّهُمُ وراكب جاء من تثليثَ معتمرُ[3]

أى: زائرا وفى الحج والعمرة قصد وزيارة.

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة، فرواه البخارى (١٠/١٠٧ رقم ٥٦٤٠)، ومسلم (٦/١٩٣-١٩٦ رقم ٢٥٧٢) وفى هذا المعنى أحاديث كثيرة فى الصحيحين وغيرهما.

(٢) فى «الأصل» و«ك»: يحجون العمامة. والبيت فى لسان العرب (مادة: حجج وتفسير الطبرى (٣/٢٢٨). وزيادة «العمامة» ليست فى لسان العرب، ولاتفسير الطبرى، ولعلها مقحمة.

(٣) كذا فى لسان العرب (مادة: عمر)، ووقع فى «الأصل، وك»: معتمراً. على النصب.

﴿١٥٧﴾ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا

وقوله – تعالى –: ﴿ فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ قرأ ابن عباس: «فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما». وهى قراءة أنس، وكذلك كان فى مصحف أبى بن كعب، وابن مسعود . والقراءة المعروفة: ﴿ أن يطوف بهما ﴾.

وقد روى عن عروة بن الزبير: أنه قال لعائشة: «أنا[1] لا أرى جناحا على من لا يطوف بين الصفا والمروة، وقرأ هذه الآية.

فقالت عائشة: بئسما رأيت يا ابن أختى وذكرت القصة فى سبب نزول الآية»[2].

والقصة فى ذلك أنه كان فى الجاهلية على الصفا والمروة صنمان: إساف ونائلة، وكان إساف على الصفا، ونائلة على المروة، وكان أهل الجاهلية يطوفون بين الصفا والمروة تعظيما للصنمين، فلما فتح النبى ﷺ مكة، وكسر الأصنام. وكان المسلمون يتحرجون عن السعى بين الصفا والمروة لمكان الصنمين اللذين كانا عليهم؛ فنزلت الآية فى رفع ذلك الحرج.

ثم وجوب السعى بالخبر؛ وهو قوله ﷺ: «إن الله – تعالى – كتب عليكم السعى فاسعوا»[3].

---

(١) فى «ك»: إنى.

(٢) متفق عليه من حديث عائشة. أخرجه البخارى (٣/ ٥٨١ رقم ١٦٤٣) ومسلم (٩/ ٢٩-٣٤ رقم ١٢٧٧).

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٦/ ٤٢١، ٤٢٢)، وابن خزيمة فى صحيحه (٤/ ٢٣٢-٢٣٣)، والدارقطنى (٢/ ٢٥٥) والحاكم فى مستدركه (٤/ ٧٠) من حديث حبيبة بنت أبى تجزأة. وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ٢٠٠): وفيه عبد الله بن المؤمل. وثقه ابن حبان وقال: يخطئ، وضعفه غيره.

ورواه الدارقطنى (٢/ ٢٥٥)، والبيهقى (٥/ ٩٧) عن نسوة من بنى عبد الدار أدركن رسول الله ﷺ. ونقل الزيلعى فى نصب الراية (٣/ ٥٦) تصحيح ابن عبد الهادى لإسناد هذا الحديث.

ورواه الطبراني فى الكبير (١١/ ١٨٤ ، ١١٤٣٧) من حديث ابن عباس وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ٢٥١): وفيه المفضل بن صدقة وهو متروك. ورواه الطبرانى فى الكبير (٢٤/ ٢٠٦-٢٠٧ رقم ٥٢٩)، والبيهقى فى سننه (٥/ ٩٨) من حديث تملك العبدية. وقال الهيثمى: وفيه المثنى بن الصباح، وقد وثقه ابن معين فى رواية، وضعفه جماعة. وللحديث طرق كثيرة انظر نصب الراية (٣/ ٥٥ – ٥٧).

أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا

فأما تلك القراءة «أن لايطوف بهما» فهي قراءة مهجورة فلا تترك بها القراءة المعهودة.

وقيل: «لا» فيه صلة. والمراد: أن يطوف. قال الشاعر:

لا ألوم البيض ألا تسخرا   لما رأين الشمط القفندرا

أي: أن تسخر.

قوله - تعالى -: ﴿ومن تطوع خيرا﴾ قرأ حمزة: «ومن يَطَّوع» مشدد[1]. ومعناه يتطوع والمعروف ﴿ومن تطوع﴾. ثم من قال: إن السعي ليس بركن صرف قوله: ﴿ومن تطوع﴾ إلى السعي.

ومن قال: إنه ركن صرفه إلى أصل الحج والعمرة.

ويحتمل أنه أراد التطوع بسائر الأعمال.

﴿فإن الله شاكر عليم﴾ والشكر من الله: أن يُعطى فوق ما يستحق العبد.

قوله - تعالى -: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب﴾ نزلت الآية فى اليهود.

﴿أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ قال ابن عباس: اللاعنون: هم كل الخلائق سوى الجن والإنس.

وفى الأخبار: «أن الأرض إذا أجدبت يلعن كل شيء عُصَاة بنى آدم؛ حتى الخنافس يقولون: اللهم العن عُصَاة بنى آدم؛ فإنا حرُمنا الرزق بشؤم معاصيهم»[2].

وقال قتادة: اللاعنون: هم الملائكة والمؤمنون. وقيل: هم الجن والإنس.

---

(١) قرأ حمزة، والكسائى، وخلف «يَطَّوع» بالياء المفتوحة، وتشديد الطاء، وإسكان العين على الاستقبال. وقرأ الباقون بالتاء، وتخفيف الطاء وفتح العين على المضى. انظر النشر (٢ / ٢٢٣).

(٢) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢ / ٣٣)، وعبد بن حميد، وأبو نعيم، والبيهقى فى الشعب عن مجاهد قوله. وأخرجه ابن جرير (٢ / ٣٣)، وعبد بن حميد عن عكرمة قوله، وانظر الدر (١ / ١٧٠).

التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه -: ما تلاعن اثنان ولم يكونا مستحقين إلا رجعت اللعنة على اليهود.

قوله - تعالى -: ﴿إلا الذين تابوا﴾ أى: أسلموا ﴿وأصلحوا﴾ أى: داموا على التوبة ﴿وبينوا﴾ ما كتموا ﴿فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾.

قوله - تعالى -: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ فإن قال قائل: قد قال: ﴿الناس أجمعين﴾ والملعون من جملة الناس؛ فكيف يلعن نفسه؟ قيل: يلعن نفسه فى القيامة. قال الله - تعالى -: ﴿ويلعن بعضكم بعضا﴾(١).

وقوله: ﴿خالدين فيها﴾ يعنى فى اللعنة، ويحتمل فى النار وإن لم تكن مذكورة فى الآية ﴿لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ معلوم التفسير.

قوله - تعالى -: ﴿وإلهكم إله واحد﴾ وسبب نزول [هذه](٢) الآية ما روى أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ انسب لنا ربك، أوصفْ لنا ربك؛ فنزل قوله - تعالى - ﴿وإلهكم إله واحد﴾ وسورة الإخلاص.

قال الأزهرى: الواحد: الذى لانظير له، يقال: فلان واحدُ العالم أى: لانظير له فى العالم. وحقيقة الواحد: هو المنفرد الذى لانظير له ولاشريك. ﴿لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ روى شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد النهشلية(٣) عن النبى ﷺ أنه قال: «اسم الله الأعظم فى آيتين من سورة البقرة: آية الكرسى، وهذه الآية ﴿وإلهكم إله واحد﴾»(٤).

قوله - تعالى -: ﴿إن فى خلق السموات والأرض﴾ روى أنه لما نزل قوله:

(١) العنكبوت: ٢٥.

(٢) من «ك».

(٣) كذا فى «الأصل»، «ك». والصواب الأشهلية كما جاء فى ترجمتها فى كثير من المواضع، وهى أسماء بنت يزيد بن السكن بن رافع بن عبد الأشهل الأنصارية. انظر تهذيب الكمال (٣٥/١٢٨).

(٤) رواه أبو داود (٢/٨٠ رقم ١٤٩٦)، والترمذى (٥/٤٨٣ رقم ٣٤٧٨)، وابن ماجة (٢/١٢٦٧ رقم ٣٨٥٥) وأحمد (٦/٤٦١)، وابن أبى شيبة (١٠/٢٧٢ رقم ٩٤١٢، والدارمى (٢/٥٤٢ رقم ٣٣٨٩) والطبرانى فى الكبير (٢٤/١٧٤ - ١٧٥ رقم ٤٤٠، ٤٤١)

يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ

﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ قال المشركون لرسول الله ﷺ : ما الدليل على أنه واحد؛ فنزل قوله: ﴿ إن فى خلق السموات والأرض ﴾ والخلق: هو ابتداع الشىء وتقديره، ومنه قول الشاعر:

ولأنت تفرى ما خلقت وبعـ ـــض القومِ يخلق ثم لايفرى

أى: يقطع ما قدرت.

والسموات: جمع سماء، وهى سبع سموات، وكذلك الأرضون سبع، على الصحيح.

وإنما ذكر السموات بلفظ الجمع، والأرض بلفظ الواحد؛ لأن كل سماء من جنس آخر. والأرضون كلها من جنس واحد. وهو التراب، والآية فى السموات: سمكها [وسعته][(١)] وارتفاعها من غير عمد ولا عُلاَّقة، وما ترى فيها من الشمس والقمر والنجوم.

والآية فى الأرض: مدها وبسطها وسعتها وما يرى فيها من الأشجار والأنهار والجبال والبحار والجواهر والنبات.

وقوله تعالى: ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ وذلك [ذهابهما ومجيئهم][(٢)] ومنه قولهم: فلان يختلف إلى فلان. أى: يذهب ويجىء مرة بعد أخرى. ومثله قوله - تعالى -: ﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة ﴾[(٣)] أى: يخلف أحدهما الآخر، والآية فى الليل والنهار نقصانهما وزيادتهما وأن يذهب ضوء النهار فلا يدرى أين ذهب، ويذهب سواد الليل فلا يدرى أين ذهب.

(١) فى «الأصل، وك»: شعلها.

(٢) فى «الأصل، وك»: ذهابها ومجيئها.

(٣) الفرقان: ٦٢.

النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

وقوله – تعالى –: ﴿والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس﴾ والفلك: اسم للجمع والواحدان فإذا أريد به الجمع يؤنث، وإذا أريد به الواحد يذكر، وقد ورد بالصيغتين فى القرآن، والمراد ها هنا الجمع.

والآية فى الفلك تسخيره [وجريها][(1)] على وجه الماء. وهى موفرة مثقلة لا ترسب تحت الماء بل تعلو على وجه الماء.

قوله – تعالى –: ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾ قيل: إن الله – تعالى – يخلق الماء فى السحاب، فعلى هذا؛ السماء ها هنا بمعنى السحاب. وقيل: بل يخلق الماء فى السماء، ومن السماء ينزل إلى السحاب ثم من السحاب ينزل إلى الأرض.

وقوله – تعالى –: ﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ أى: بعد يبسها وجدوبتها. فإن الأرض إذا أجدبت فقد ماتت. وإذا أخصبت فقد حييت.

وقوله – تعالى –: ﴿وبث فيها من كل دابة﴾ أى: فرق فيها. وقوله: ﴿وتصريف الرياح﴾ قيل: تصريفها: أن الريح تارة تكون شمالا وتارة تكون جنوبا، وتارة تكون قبولا، وتارة تكون دبورا، وتارة نكباء، والنكباء: فهى التى لاتعرف لها جهة.

وقيل: تصريفها: أن الريح تارة تكون لينا، وتارة عاصفا، وتارة حارة، وتارة باردة.

قال ابن عباس: أعظم جنود الله الريح والماء.

وقال ابن المبارك: للريح جناحان، والسحاب: غلاف مملوء من الماء.

وفى مصحف حفصة: (وتصريف الأرواح) وهو قريب من الرياح. وسميت الريح ريحا؛ لأنها تريح النفس.

قال شريح القاضى: ما هبت ريح إلا لشفاء سقيم أو لسقم صحيح.

وقوله – تعالى –: ﴿والسحاب المسخر﴾ أى: المذلل ﴿بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾.

(1) ليست فى الأصل، ولا «ك»، وما أثبتناه من تفسير البغوى (1 / 135) فإن البغوى ينقل عن المصنف.

يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ

قال وهب بن منبه: ثلاثة لايدرى من أين تجيء: الرعد، والبرق، والسحاب.

قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا﴾ كأنه عاب المشركين حيث اتخذوا من دونه أندادا بعدما أظهر الدلائل، ونصب البراهين، على الوحدانية ﴿أندادا﴾ أى: أصناما.

قوله – تعالى –: ﴿يحبونهم كحب الله﴾ قال أبو العباس المبرد النحوى: معنى قوله: ﴿يحبونهم كحب الله﴾ أى: يحبون آلهتهم كحب المؤمنين لله.

وقيل معناه: يحبون الأصنام كما يحبون الله؛ لأنهم أشركوها مع الله.

﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ لأنهم لايختارون على الله ما سوى الله. والمشركون إذا اتخذوا صنما ثم رأوا أحسن منه، طرحوا الأول واختاروا الثانى.

وقوله – تعالى –: ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب﴾ قرئ هذا بقراءتين. «ولو يرى» بالياء. «ولو ترى» بالتاء[1].

والمعنى: اعلم أولاً أن جواب «لو» ها هنا محذوف، ومثله كثير فى القرآن.

قال الله – تعالى –: ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم﴾[2] وقال: ﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى﴾[3] ثم حذف الجواب اختصارا لسبقه إلى الإفهام.

---

(١) قرأ نافع، وابن عامر، ويعقوب بالخطاب: «ولو ترى، وقرأ الباقون بالغيب «ولو يرى» واختلف على أبى جعفر فروى ابن شبيب عن الفضل من طريقه النهراوانى عنه بالخطاب.

انظر النشر (٢ / ٢٢٤). وتفسير البغوى (١ / ١٣٧).

(٢) سبأ: ٣١.

(٣) الرعد: ٣١.

ثم من قرأ «ولو يرى» بالياء، فتقديره : ولو يرى الذين ظلموا شدة عذاب الله وعقوبته – حين يرون العذاب – لعرفوا أن ما اتخذوا من الأصنام لايضرهم ولاينفعهم.

ومن قرأ «ولو ترى» بالتاء ففى معناه قولان : أحدهما : ولو ترى يامحمد الذين ظلموا فى شدة العذاب – حين رأوا العذاب – لرأيت أمرا عجيبا.

والثانى : معناه : قل يا محمد : أيها الظالم، ولو ترى الذين ظلموا فى شدة العذاب لتعجبت منه ولرأيت أمرا فظيعا.

وقوله – تعالى – : ﴿أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب﴾ قوله : «أن القوة» يقرأ بكسر الألف، وفتحها[١]، فمن قرأ بالكسر، كان على الابتداء بعد تمام الأول، ومن قرأ بالفتح كان تمام الأول، ومعناه : لأن القوة لله.

قوله – تعالى – : ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا﴾ هذا فى القيامة، حين يجمع الله القادة وأتباعهم، يبرأ بعضهم من بعض.

﴿ورأوا العذاب وتقطعت [بهم][٢] الأسباب﴾ أى : الوصلات فى الدنيا من [القرابات][٣] والصداقات.

قال مجاهد : يعنى الوصل وهو قريب من الأول.

وقيل الأسباب : الأعمال. وقد ترد بمعنى : أبواب السموات والأرض.

(١) قرأ يعقوب وأبو جعفر بكسر الهمزة، وقرأ الباقون بفتحها. انظر النشر (٢ / ٢٢٤)، وتفسير البغوى (١ /١٣٧).

(٢) فى الأصل» : به، وهو سبق قلم.

(٣) فى الأصل، وك» : القربات، وما أثبتناه هو الصواب انظر البغوى (١ / ١٣٧)

الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

وذلك فى قوله – تعالى –: ﴿لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات﴾[1] أى: أبوابها. قال الشاعر:

ومن هاب أسباب المنايا [يتلقها] [2] وإن رام أسباب السماء بسلم

وأصل السبب: ما يوصل. ومنه يقال: للحبل سبب، وقوله – تعالى –: ﴿وتقطعت بهم﴾ أى: عنهم، ومثله قوله – تعالى –: ﴿فاسأل به خبيرا﴾[3] أى: عنه خبيرا.

وقوله – تعالى –: ﴿وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة﴾ أى: رَجْعَةَ إلى الدنيا. ﴿فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾.

وفيه قولان: أحدهما: أنه يريهم ما ارتكبوا من السيئات؛ فتلك الحسرات.

والثانى: أنه يريهم ما تركوا من الخيرات والحسنات؛ ليكون عليهم حسرات.

---

(١) غافر: ٣٦ – ٣٧.

(٢) فى «الأصل»: يتلقه، وفى «ك» ثلثه. وكلاهما خطأ انظر لسان العرب (مادة: سبب). وفيه: (ولو رام). بدلا من: (وإن رام).

(٣) الفرقان: ٥٩.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ

قوله – تعالى –: ﴿يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض﴾ حكى عن أبى محمد سفيان بن عيينة الهلالى أنه سئل عن أكل الطين فقال: لاتأكل لأن الله – تعالى – قال: ﴿كلوا مما فى الأرض﴾ ولم يقل: كلوا من الأرض ﴿حلالا طيبا﴾ فالحلال: كل ما أحله الشرع.

وفى الطيب قولان:

أحدهما: كل ما يستطاب ويستلذ فهو طيب. والمسلم يستطيب الحلال ويَعَافُ الحرام.

وقيل: الطيب: الطاهر.

وقوله – تعالى –: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها قال مجاهد: هى خطايا الشيطان. وقال أبو مجلز لاحق بن حميد السدوسى: هى النذور فى المعاصى. والقول الثالث: هى كل أعمال الشيطان. واشتقاقها من الخطوة؛ لأن لِلْخُطَا آثاراً تبقى ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ ظاهر المعنى.

قوله – تعالى –: ﴿إنما يأمركم بالسوء والفحشاء﴾ فالسوء: المعصية.

والفحشاء فيه قولان: أحدهما: أنه أراد به الزنا. وقيل: البخل، ومنه قول الشاعر:

عقيلة مال الفاحش المتشدد

أى: البخيل المتشدد

﴿وأن تقولوا على الله ما لاتعلمون﴾ قوله – تعالى –: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا﴾ أى: وجدنا.

﴿عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون﴾ معناه: كيف يتبعون

آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

آباءهم وآباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون؟! وفى هذا نهى عن تقليد الآباء فى الدين.

قوله - تعالى -: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع إلا دعاء﴾ النعق: صوت الراعى بالغنم قال الأخطل.

فانعق بضأنك ياجرير فإنما مَنَّتْكَ نفسك فى الخلاء ضلالا

وفى الآية محذوف مقدره.وتقديرها: مثل الكفارومثلك يا محمد فى دعائهم كمثل الراعى ينعق بالغنم وهى لاتسمع إلا صوتا ولاتفهم إلا دعاء.

﴿ونداء صم بكم عمى فهم لايعقلون﴾ وقيل: معناه: مثل الكفار فى دعاء الأصنام.

على هذا القول إشكال لأن؛ الأصنام لايسمعون النداء ولا الدعاء. وكيف يكون مثلا أن يسمع ذلك كمثل الذى ينعق بما لايسمع كما بينا؟

قال ابن الأنبارى: أراد بالذى ينعق: الصائح فى الجبل يصيح فيسمع صوتا؛ وهو الصدى. وليس هناك معقول ولا مفهوم. وضرب المثل به للكفار فى قلة الفهم والعقل.

قوله - تعالى -: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ وفى الخبر عن النبى ﷺ أنه قال: «أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات﴾[(١)] وقال للمؤمنين ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله﴾»[(٢)] وقد ذكرنا معنى الطيبات.

(١) المؤمنون: ٥١.

(٢) رواه مسلم (٧/١٣٩ - ١٤٠ رقم ١٠١٥)، والترمذى (٥/٢٠٥ رقم ٢٩٨٩) وقال: حسن غريب، وأحمد (٢/٣٢٨).

كُلُوا من طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا

﴿ واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ يعنى: أنكم كما تعبدونه على الإلهية، فاشكروه على الإحسان. قوله - تعالى -: ﴿ إنما حرم عليكم الميتة ﴾ «إنما» للنفى والإثبات؛ لأنها مركبة من حرفى النفى والإثبات «فإن» للإثبات «وما» للنفى.

تقول: إن فى الدار زيدا. يفهم منه وجود زيد فى الدار. فإذا قلت: «إنما زيد فى الدار» يفهم منه أنه لا أحد فى الدار إلا زيد.

وأما الميتة: إسم لما خرج روحه من غير ذكاة ﴿ والدم ﴾ معروف وفيهما تخصيص؛ فإن الشرع أباح من الميتة: السمك والجراد، ومن الدماء: الكبد والطحال.

وقوله - تعالى -: ﴿ ولحم الخنزير ﴾ أى: الخنزير بلحمه وشحمه وجميع أجزائه.

﴿ وما أهل به لغير الله ﴾ أى: ذبح على اسم الأصنام، وأصل الإهلال: رفع الصوت، وكانوا يرفعون أصواتهم على الذبائح، قال ابن أحمر:

يهل بالفرقد ركبانها كما يهل الراكب المعتمر

قوله - تعالى -: ﴿ فمن اضطر ﴾ يقرأ بقراءتين: بكسر النون، ورفعها،[1] فمن قرأ بالكسر فهو على الأصل ومن قرأ بالضم فلاتباع ضمة الطاء، والاضطرار إلى أكل الميتة ﴿ غير باغ ولا عاد ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: غير باغ أى: غير خارج على السلطان. ﴿ ولا عاد ﴾ ولا متعد، عاص فى سفره. ففى هذا دليل على أن العاصى فى سفره لايترخص بأكل الميتة.

وقال الحسن وقتادة ﴿ غير باغ ﴾ أى: غير طالب للميتة على الشبع؛ فيأكله تلذذاً. ﴿ ولا عاد ﴾ ولا مجاوزاً بأكله حد الحاجة.

﴿ فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم ﴾ ظاهر المعنى.

(١) قرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب، وأبو عمرو بكسر النون، وقرأ الباقون بضمها. انظر النشر (٢ / ٢٢٥) وتفسير البغوى (١ / ١٤٠).

عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ

قوله تعالى: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا﴾ قد سبق تفسيره.

وقوله - تعالى -: ﴿أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار﴾ فيه قولان: أحدهما: أن الذين أكلوا من الرشوة فالمأكلة تصير فى بطونهم نارا.

وقيل: معناه أن ذلك الأكل لما كان يفضى بهم إلى النار؛ فكأنهم يأكلون فى بطونهم نارا.

ومثله قول الشاعر:

وأم سليم فلا تجزعن ... فللموت ما تلد الوالدة

وقال آخر:

لدوا للموت وابنوا للخراب ... فَكُلُّكُمْ يصير إلى الفوات

ومعلوم أن الولد لايولد للموت، ولكن لما كان يؤول إلى الموت لا محالة أضافه إليه.

وقوله - تعالى -: ﴿ولايكلمهم الله يوم القيامة﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه لايكلمهم[1] ولكن يكلمهم بالتهديد والتوبيخ.

وقيل: فى معناه: أنه غضبان عليهم؛ كما يقال: فلان لايكلم فلانا؛ إذا كان عليه غضبان.

(١) فى تفسير البغوى (١/ ١٤١): أنه لايكلمهم بالرحمة وبما يسرهم، ولكن يكلمهم بالتهديد والتوبيخ. ولعله سقط من الناسخ: «بالرحمة وبما يسرهم» أو ما يشبه ذلك.

اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ

﴿ ولايزكيهم ﴾ أى: لايطهرهم من الذنوب ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾. قوله – تعالى –: ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ﴾ قال ابن عباس: معناه: أى شيء صبرّهم على النار؟!

وقال الكسائى والفراء: معناه: فما أجرأهم على النار، وحكى الكسائى: أن أعرابيين اختصما إلى قاض، فحلف المنكر، فقال له المدعى: ما أصبرك على النار، أى: ما أجرأك على النار.

وقال بعض النحويين: معناه: فما أبقاهم فى النار، يقال: فلان ما أصبره على الحبس، أى: ما أبقاه فى الحبس، «وما» للتعجب ها هنا.

قال الكسائى: التعجب من الله بمعنى: التعجب للخلق ﴿ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ﴾ وهم منكرون لذلك.

﴿ وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد ﴾ أى: خلاف طويل.

وإنما سمى الخلاف: شقاقا؛ لأن المخالف يكون فى شق، وصاحبه فى شق آخر.

قوله – تعالى –: ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴾ فالبر: كل عمل خير، يفضى بصاحبه إلى الجنة.

وفى معناه قولان: أحدهما: أن الخطاب مع المسلمين، فإنهم كانوا فى الابتداء يأتون بالشهادتين، والصلوات إلى أى جهة شاءوا.

فقال: ليس كل البر أن تُصَلُّوا قِبَل المشرق والمغرب ﴿ ولكن البر من آمن بالله ﴾ فأمرهم بسائر الشرائع المذكورة فى الآية.

وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا

وقيل: هو خطاب لليهود والنصارى إذ كان قِبْلَةُ اليهود المغرب، وقبلة النصارى المشرق.

فقال: ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق أيها النصارى، وقبل المغرب أيها اليهود، ولكن البر من آمن بالله.

وفى تقديره قولان: أحدهما: أن تقديره ولكن ذا البر من آمن بالله، والثانى: أن تقديره: ولكن البَرَّ من آمن بالله ﴿واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه﴾ أى: حب المال.

قال ابن مسعود: هو أن تتصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل البقاء، وتخشى الفقر ﴿ذوى القربى﴾ أهل القرابات. ﴿و اليتامى والمساكين﴾ قد ذكرناهم.

﴿وابن السبيل﴾ هو المنقطع. وقيل: أراد به الضيف ﴿والسائلين﴾ معلوم ﴿وفى الرقاب﴾ يعنى: المكاتبين.

﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ فإن قال قائل: لم قال: «والموفون» على الرفع؟ قيل: فيه قولان. أصحهما: أنه معطوف على خبر لكن، وتقديره: ولكن ذا البر المؤمنون بالله والموفون.

وقيل تقديره: وهم الموفون كأنه عد أصنافا، ثم قال: هم والموفون كذا وكذا.

وفيه قول ثالث: أن الكلام إذا طال فالعرب قد تخالف فى الإعراب.

﴿والصابرين﴾ نصب على المدح. وقيل تقديره: أعنى الصابرين. قال الشاعر:

لايبعدن قومى الذين هُمُ ... سم العداة وآفة الجزر

النازلين بكل معترك ... والطيبين معاقد الأزر

وقوله – تعالى –: ﴿فى البأساء﴾ هو الجوع ﴿والضراء﴾ المرض والضرر.

عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ

﴿ وحين البأس ﴾ وحين القتال ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ وَفَّوا بالعهد، وقيل: صَدَّقَتْ أفعالُهم أقوالَهم ﴿ وأولئك هم المتقون ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ﴾ أى: فرض عليكم. ﴿ الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ قال ابن عباس: كان هذا فى ابتداء الإسلام، وكان القصاص بين الحر والحر، والعبد مع العبد، والأنثى مع الأنثى، وما كان يقتل الحر بالعبد، ولا العبد بالحر، ولا الذكر بالأنثى، ولا الأنثى بالذكر: ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ﴾[1] فجرى القصاص بين الكل.

وأما على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فقد قال فى الحر إذا قتل عبدا: يقتل الحُرُّ بِهِ، ثم سيد العبد يغرم لولى القاتل الحر، ما بين ديته وقيمة العبد، وإذا قتل العبد حرا، يقتل العبد به، ثم يغرم سيد العبد القاتل لولى الحر المقتول ما بين ديته وقيمة العبد.

وفيه قول آخر محكى عن ابن عباس: أن الآية نزلت فى قبيلتين، كان لأحديهما على الأخرى فضل. فقالت القبيلة الفاضلة: يقتل الحر منكم بالعبد منا، والذكر منكم بالأنثى منا؛ فنزلت الآية ردًّا لقولهم.

وقوله - تعالى -: ﴿ فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ﴾ وأصل العفو: الترك. وأظهر الأقوال فيه: مذهب عامة الصحابة والتابعين؛ أن من عفا عن القصاص فله أخذ الدية، فهذا يَتَّبِع بالمعروف، يعنى: لا يطلب المزيد على قدر حقه. ويُؤَدِّى ذلك بالإحسان، أى: لايماطل فى الأداء.

---

(١) المائدة: ٤٥.

إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ

قال الأزهرى: فى الآية تقدير: ومعناه: فمن جُعل له من مال أخيه - يعنى القاتل - أو فمن جعل له من بدل دم أخيه - يعنى المقتول - عفو أى: فضل، فليتبع الطالب بالمعروف، وليؤد المطلوب بالإحسان.

وظاهره يقتضى أن أخوَّة الدين لاتنقطع بين القاتل والمقتول، حيث قال: من أخيه، وهو الذى نقول به. وقيل: معناه أخوة النسب.

وقيل: إنما سماه أخا حال إنزال الآية، وحال نزول الآية كان أخا له قبل حصول القتل، لا أنه يبقى أخا له، فإن القتل يقطع الموالاة بين القاتل والمقتول، ويوجب البراءة [منه](1)؛ لفسقه وقتله.

﴿ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾ ومعناه: أن الدية كانت فى شرع النصارى حتما، والقصاص فى شرع اليهود حتما، وخيرت هذه الأمة بين القصاص والدية، [فذلك](2) التخفيف.

﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ أى: قتل بعد العفو. ﴿فله عذاب أليم﴾ أى: القصاص.

قال ابن جريج: إن القصاص حتم عليه، بحيث لايقبل العفو.

قوله - تعالى -: ﴿ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب﴾ ومعنى الحياة: أنه إذا فكر أنه لو قتل قتل، لم يقتل؛ فيبقى والمقتول حيين. ﴿لعلكم تتقون﴾ ترتدعون عن القتل.

قوله - تعالى -: ﴿كتب عليكم﴾ أى: فرض عليكم ﴿إذا حضر أحدكم

(١) فى «الأصل»: عنه.

(٢) فى «الأصل، وك»: فكذلك.

إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين ﴿١٨٠﴾ فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله

الموت ﴾ إذا قارب أوان الموت. ﴿ إن ترك خيرا ﴾ أى: مالا وسعة، والخير فى كل القرآن بمعنى المال.

﴿ الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين ﴾ وذلك أن الوصية كانت واجبة فى ابتداء الإسلام للوالدين والأقربين، ثم صار منسوخا بآية الميراث.

قال النبى ﷺ: «إن الله - تعالى - قد أعطى كل ذى حق حقه، ألا لا وصية لوارث»(1).

وقال الحسن، وطاوس، وقتادة والضحاك،: إن النسخ فى الوالدين دون الأقربين.

ثم اختلفوا فيمن أوصى بثلث ماله للأجنبى، فقال بعضهم: ثلث ما أوصى به للأقربين، وثلثاه للأجنبى.

وقال بعضهم: ثلثاه للأقربين، وثلثه للأجنبى.

وقال بعضهم: كل الثلث للأقربين، ولاشىء للأجنبى، والأصح: أنه صار منسوخا فى حق الكل، وبقى الاستحباب فى حق الأقربين الذين لايرثون.

وقيل: هو فى ابتداء الإسلام كان على الندب، والمندوب فى الوصية: بما دون الثلث.

وحكى عن بعض السلف أنه قال: الخمس معروف، والربع جهد، والثلث غاية تنفذها القضاة.

قوله - تعالى -: ﴿ فمن بدله بعد ما سمعه ﴾ فإن قال قائل: لم قال: ﴿ فمن

---

(١) أخرجه أبو داود (٣/١١٤ رقم ٢٨٧٠)، والترمذى (٤/٣٧٦-٣٧٧ رقم ٢١٢٠) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٢/٩٠٥ رقم ٢٧١٣) وأحمد فى مسنده (٥/٢٦٧) من حديث أبى أمامة، وللحديث طرق كثيرة عن غير واحد من الصحابة انظر تلخيص الحبير (٣/١٩٧-١٩٩)، ونصب الراية (٤/٤٠٣-٤٠٥).

سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى

بدله ﴾ بعلامة التذكير، والمذكور مؤنث، وهى: الوصية؟ قيل معناه: فمن بدل أمر الوصية.

وقيل: معناه: فمن بدل قول الموصى؛ لأن الوصية تصدر عن قول الموصى؛ فرجع إلى المعنى دون اللفظ، وهذا مثل قوله - تعالى -: ﴿ فمن جاءه موعظة ﴾[1] أى: جاءه وعظ، فرجع إلى المعنى، كذا وأراد بالتبديل: تبديل الشهداء والأوصياء والأولياء.

﴿ فإنما إثمه على الذين يبدلونه ﴾ لا على الموصى. ﴿ إن الله سميع ﴾ لما أوصى به الموصى ﴿ عليم ﴾ بتبديل المبدلين.

قوله - تعالى -: ﴿ فمن خاف من موص جنفا أو إثما ﴾ الخوف ها هنا بمعنى العلم.

وهو مثل قوله - تعالى -: ﴿ فإن خفتم ألا يقيما حدود الله ﴾[2] وقوله: ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما ﴾[3]. أى: علمتم، وإنما عبر بالخوف عن العلم؛ لأن الخوف طرفٌ إلى العلم فإنه إنما يخاف الوقوع فى الشيء؛ للعلم به.

وقوله - تعالى -: ﴿ من موص ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد[4]، يقال: أَوْصَى وَوَصَّى بمعنى واحد.

وأما الجنف: الميل، والإثم: الظلم، وأنشد سيبويه:

تجانف عن جو اليمامة ناقتى ... وما كان قصدى أهلها لسوائكا

(١) البقرة: ٢٧٥.

(٢) البقرة: ٢٢٩.

(٣) النساء: ١٤٩.

(٤) قرأ يعقوب، وحمزة، والكسائى، وخلف، وأبو بكر، بفتح الواو وتشديد الصاد، وقرأ الباقون بالتخفيف، مع إسكان الواو.

انظر النشر (٢ / ٢٢٦)، وتفسير البغوى (١ / ١٤٨).

الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ

وقال السدى: الجنف: الخطأ، والإثم: العمد.

ومعنى الآية على – قول ابن عباس ومجاهد –: أن الرجل إذا حضر وصية الموصى فرآه يميل، إما بتقصير، أو بإسراف، أو وضع الوصية فى غير موضعها؛ فأرشده، ورده إلى الحق فهو مباح له، وهذا معنى قوله – تعالى –: ﴿ فأصلح بينهم فلا إثم عليه ﴾.

وقيل: هذا فى الوصية للأقربين حين كانت واجبة، فإذا رآه يوصى لغير الأقربين، يرده إلى الوصية للأقربين.

وقيل: أراد به الإمام يصلح بين الموصَى لهم والورثة، فيردهم إلى الحق.

﴿ فلا إثم عليه ﴾ أى: فلاحرج عليه ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ﴾ أى: فرض عليكم الصيام.

والصيام فى اللغة: هو الإمساك. يقال: صامت الخيل: إذا أمسكت عن العلف، والسير، ومنه قول الشاعر:

خيل صيام وخيل غير صائمة ... تحت العجاج وأخرى تعلك اللُّجُمَا

ومنه يقال: صام النهار: إذا ارتفعت الشمس وصارت فى إبطاء السير كالواقفة؛ وذلك فى وقت الهاجرة، ومنه قول الشاعر:

فدعها وسل النفس عنك بجسرة ... [ذمول][1] إذا صام النهار وهجرا

ومنه قوله – تعالى –: ﴿ إنى نذرت للرحمن صوما ﴾[2] أى: صمتا، وفى الصمت إمساك عن الكلام.

---

(١) فى «الأصل، وك»: ذبول بباءٍ بدلا من الميم.

وما أثبتناه من لسان العرب (مادة: صوم). وفيه أيضاً: وتسلِّ الهم بدلاً من وسَلِّ النفس.

(٢) مريم: ٢٦.

خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ

وأما الصوم فى الشريعة: هو الإمساك عن الأكل، والشرب، والوطء، مع النية، فى وقت مخصوص.

﴿ كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ اختلفوا فى هذا التشبيه،

قال سعيد بن جبير: كان الصوم فى ابتداء الإسلام واجبا من العتمة إلى الليلة القابلة، وكذا كان واجبا على من قبلنا.

وقيل: أراد به: صوم رمضان كتب على المسلمين كما كتب على الذين من قبلهم، يعني: النصارى.

قال دغفل بن حنظلة: كان الصوم واجبا على النصارى ثلاثين يوما، ثم إن ملكا منهم مرض، فقال: إن شفانى الله أزيد عشرة، فشفاه الله فزاد عشرة، ثم إن ملكا آخر منهم مرض وقال: إن شفانى الله أزيد فيه سبعة أيام، فشفاه الله فزاد سبعة. قالوا: ما هذا النقصان؟! أكملوه بخمسين. وقالوا: نصومه فى وقت لاحر ولا قر. فكانوا يصومون الخمسين فى وقت الربيع، فهذا أصل صوم الخمسين فى حق النصارى.

وقيل: أراد به: صوم ثلاثة أيام من كل شهر: كان واجبا فى ابتداء الإسلام، كما كتب على اليهود.

روى معاذ بن جبل: «أن النبى ﷺ لما هاجر إلى المدينة، رأى اليهود يصومون ثلاثة أيام من كل شهر، ويوم عاشوراء، ففرضه الله عليه كذلك»[1].

وكان يصومها سبعة وثلاثين يوما، من الربيع إلى الربيع، ثم نسخ ذلك بصوم

---

(١) رواه أبو داود (١ / ١٤٠ وقم ٧٠٥) أحمد فى مسنده (٥ / ٢٤٦-٢٤٧)، والطبرى فى تفسيره (٢ / ٧٦)، والطبرانى فى الكبير (٢٠ / ١٣٢ - ١٣٤ رقم ٢٧٠) والحاكم فى مستدركه (٢ / ٢٧٤) وقال: صحيح الإسناد، والبيهقى فى السنن الكبرى (٤ / ٢٠٠) جميعهم من طريق ابن أبى ليلى عن معاذ به مرفوعاً. وقال البيهقى: وهذا مرسل؛ عبد الرحمن لم يدرك معاذ بن جبل.

رمضان.

وقيل: كان يصوم الثلاث فى أيام البيض.

قال ابن عباس: أول ما نسخ بعد الهجرة: أمر القبلة، والصوم.

قوله – تعالى –: ﴿لعلكم تتقون﴾ يعنى: بالصوم؛ لأن الصوم وصلة إلى التقوى بما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات.

وقيل: معناه لعلكم تحترزون عن الشهوات من الأكل، والشرب، والوطء.

قوله – تعالى –: ﴿أياما معدودات﴾ فإن قلنا بنسخ الآية فهو صوم كان واجبا ثم نسخ.

وإن قلنا: الآية غير منسوخة فالمراد بقوله: ﴿أياما معدودات﴾ أيام رمضان، وفيه إشارة إلى التيسير، حيث لم يوجب صوم كل السنة، وإنما أوجبه أياما معدودات ﴿فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ قال داود وأهل الظاهر: يجب على المسافر صوم عدة من أيام أخر وإن صام رمضان قولا بظاهر الآية.

والجمهور على أن فيه إضمارا وتقديره: فأفطر، فعدة من أيام أخر.

ثم اختلفوا فى حد المرض الذى يبيح الفطر، فقال داود وأهل الظاهر: هو ما ينطلق عليه اسم المرض. وهو قول ابن سيرين من السلف. وقال الحسن: هو المرض الذى تجوز معه الصلاة قاعدا.

ومذهب الشافعى: هو المرض الذى يخاف من الصوم معه الزيادة فى المرض.

فأما حد السفر الذى يبيح الفطر اختلفوا فيه، فقال داود ومن تابعه: هو ما ينطلق عليه اسم السفر. ومذهب الشافعى أنه مسافة القصر، ستة عشر فرسخا.

ومذهب أبى حنيفة – رضى الله [عنه](١)– أنه مسيرة ثلاثة أيام، كما قال فى القصر.

قوله – تعالى –: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ فى الآية قراءات: فالقراءة المعروفة: هذا.

وقرأ ابن عباس وعائشة – وهو صحيح، عن ابن عباس –: و«على الذين يُطَوَّقُونه» وقرأ مجاهد: «وعلى الذين يَطَّوَّقونه»، وهما من الشواذ.

فأما قراءة: «فدية طعام مسكين» فيه قراءتان معروفتان: أحدهما هذه،

والثانية: قراءة أهل المدينة والشام «فدية طعام مساكين» بالألف(٢).

وأما القراءة المعروفة ﴿وعلى الذين يُطِيقُونَهُ فدية﴾ أراد به: فى ابتداء الإسلام كانوا مخيرين بين الصوم والفدية، فقال: وعلى الذين يطيقونه فدية؛ إن اختاروا الفدية.

وقيل معناه: وعلى الذين يطيقونه فى حال الشباب، وعجزوا عنه فى الكبر الفدية إذا أفطروا، وهو مروى عن عليٍّ، فَعَلَى هذا لا تكون الآية منسوخة.

فأما قراءة ابن عباس معناه: وعلى الذين يُطَوَّقونه فلا يطيقونه الفديةُ.

---

(١) فى «الأصل، وك»: عنهما.

(٢) قرأ نافع، وجعفر، وابن ذكوان: «فديةُ» بغير تنوين، «طعام» بالخفض. وقرأ الباقون بالتنوين، والرفع «فديةٌ طعامُ».

وقرأ نافع، وأبو جعفر وابن عامر «مساكين» بالألف على الجمع، وقرأ الباقون «مسكين» على الإفراد. انظر النشر (٢/ ٢٢٦).

الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

وأما قراءة مجاهد يَطَّوَّقونه أى: يتطوقونه ويكلفونه فلا يطيقونه.

وأما قوله: ﴿فدية طعام مساكين﴾ إنما أضاف الفدية إلى الطعام لأن الفدية قدر من الطعام، والطعام اسم الجنس، وهو كما يقال خاتم فضة، وثوب خز، ونحو ذلك.

وأما القراءة الثانية ﴿فديةٌ﴾ رفع على الابتداء ﴿طعام مسكين﴾ تفسير له وبدل عنه، وإنما قال: «مسكين»؛ لأن لكل يوم يُطعم مسكينا.

ومن قرأ: «مساكين» لأن جملة طعام أيام الصوم تكون لمساكين.

وقوله - تعالى -: ﴿فمن تطوع خيرا فهو خيرا له﴾ قال ابن عباس: أراد به: من أطعم مسكينين وعليه طعام مسكين واحد، أو أطعم صاعا وعليه مد، فهو خير له.

قوله - تعالى -: ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾ إن قلنا بقول النسخ، معناه: وأن تصوموا خير لكم من الفدية.

وإن قلنا: الآية غير منسوخة فمعناه: وأن تصوموا فى حال الشباب خير لكم من الفدية فى حال الكبر والعجز.

وقيل: هذا فى حق الشيخ الهرم، أن يتكلف الصوم خير له من أن يفدى. والصحيح: أحد القولين الأولين ﴿إن كنتم تعلمون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿شهر رمضان﴾ سمى الشهر بذلك لشهرته.

وأما رمضان كان فى الجاهلية يسمى شهر رمضان ناتقا.

قال أبو على قطرب: إنما سمى: رمضان؛ لأنهم كانوا يصومون فى الحر الشديد، ومنه الرمضاء: للرمل الذى حمى بالشمس.

وقال مجاهد: هو اسم من أسماء الله، ولذلك لايجمع على رمضانات، ويروى هذا

عن النبى ﷺ غريبا(١)، والصحيح أنه اسم الشهر.

وقد ورد فى فضل الشهر والصوم أخبار، منها ما روى مرفوعا: «سيد الشهور شهر رمضان»(٢).

وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا كان أول ليلة من رمضان فتحت أبواب الرحمة، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين»(٣) أخرجه مسلم فى الصحيح.

وقال ﷺ: «يقول الله – تعالى –: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم؛ فإنه لى وأنا أجزى به..»(٤) الخبر.

واختلفوا فى تخصيص الصوم، منهم من قال: لأنه أشد العبادات فى كسر

---

(١) رواه ابن عدى فى الكامل (٧/٥٣) من حديث أبى هريرة والبيهقى من طريقه (٤/٢٠١-٢٠٢)، وابن الجوزى فى الموضوعات من طريق ابن عدى (٢/١٨٧) ولفظه: «لا تقولوا: رمضان، فإن رمضان اسم الله، ولكن قولوا: شهر رمضان».وقال ابن الجوزى: هذا حديث موضوع لا أصل له، وأبو معشر اسمه نجيح، كان يحيى بن سعيد يضعفه ولا يحدث عنه، ويضحك إذا ذكره.

وقال ابن معين: إسناده ليس بشىء، ثم قال – رحمه الله – ولم يذكر أحد فى أسماء الله – تعالى – رمضان، ولا يجوز أن يسمى به إجماعا.

وأخرجه ابن أبى حاتم فى العلل (١/٢٤٩ – ٢٥٠ رقم ٧٣٤) ونقل عن أبيه أنه قال: هذا خطأ، إنما هو قول أبى هريرة.

وقال البيهقى: وقد قيل: عن أبى معشر، عن محمد بن كعب، من قوله، وهو أشبه. وفى الباب عن عائشة، وابن عمر انظر اللآلىء المصنوعة (٢/٩٧ – ٩٨).

(٢) رواه البزار – مختصر زوائد البزار لابن حجر (١/٤٠٢ رقم ٦٦٣) – من حديث أبى سعيد، وقال: يزيد فيه لين، وقد روى عنه جماعة.

(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى (٤/١٣٥ رقم ١٨٩٩)، ومسلم (٧/٢٦٢ – ٢٦٣ رقم ١٠٧٩) واللفظ له.

(٤) متفق عليه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى (٤/١٤١ رقم ١٩٠٤)، ومسلم (٨/٤٢ رقم ١١٥١).

الشهوات وقمع النفس. ومنهم من قال: لأنه سر بين العبد وبين ربه.

وقوله - تعالى -: ﴿الذى أنزل فيه القرآن﴾ فإن قال قائل: إنما أنزل القرآن فى ثلاث وعشرين سنة فكيف قال: أنزل فيه القرآن؟ والجواب: قال ابن عباس: أنزل الله - تعالى - القرآن جملة فى رمضان إلى بيت فى السماء الدنيا يسمى بيت العزة، ثم منه أنزل إلى الأرض إرسالا.

روى واثلة بن الأسقع عن النبى ﷺ أنه قال: «أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة فى الليلة السادسة من رمضان، وأنزل الإنجيل فى ليلة الثالث عشر من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين من رمضان»[(1)].

وفيه قول ثالث معناه: أنزل فيه القرآن بفريضة صوم رمضان.

وإنما سمى القرآن قرآنا؛ لأنه يجمع السور والآى، والحروف، وأصل القرآن: الجمع، ومنه قول الشاعر:

ذراعى عيطل أدماء بكر　　　هجان اللون لم تقرأ جنينا

وقوله - تعالى -: ﴿هدى للناس﴾ رشاد وبيان. وقوله - تعالى -: ﴿وبينات من الهدى والفرقان﴾ أى: دلالات واضحات من الحلال والحرام، والفرقان: المفرق بين الحق والباطل.

وقوله - تعالى -: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: معناه فمن كان منكم مقيما فى الحضر فأدرك الشهر فليصمه.

ثم اختلفت الصحابة فيمن أدرك الشهر وهو مقيم، ثم سافر على قولين: فقال على - رضى الله عنه -: لايجوز له أن يفطر. وأكثر الصحابة على أنه يجوز الفطر،

---

(١) رواه الإمام أحمد (٤/١٠٧)، والطبرانى، فى الكبير (٢٢/٧٥ رقم ١٨٥)، والطبرى فى تفسيره (٢/٨٤).

وقال الهيثمى فى المجمع (١/٢٠٢): فيه عمران بن داود وثقه ابن حبان وضعفه يحيى، وقال أحمد: أرجو أن يكون صالح الحديث، وبقية رجاله ثقات. وعزاه للطبرانى فى الأوسط أيضًا.

وهو الأصح؛ لما صح عن رسول الله ﷺ برواية جابر «أنه سافر فى رمضان فلما بلغ كراع الغميم أفطر وأفطر الناس»[(1)].

وقوله – تعالى –: ﴿فليصمه﴾ أى بقدر ما أدرك وهو مقيم ﴿ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ إنما أعاد هذا ليعلم أن هذا الحكم فى الناسخ مثل ما كان فى المنسوخ.

وقوله – تعالى –: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ يعنى فى إباحة الفطر بالمرض والسفر، وتأخير الصوم إلى أيام أخر.

وحكى عن الشعبى أنه قال: ما خير رجل بين أمرين فاختار أيسرهما؛ إلا كان ذلك أحبهما إلى الله.

وروى محجن بن أدرع: «أن النبى ﷺ أخبر برجل كان يطيل الصلاة فى المسجد طول النهار – فجاء إليه وأخذ بمنكبيه وهزهما هزا، ثم قال: إن الله – تعالى – رضى لهذه الأمة باليسر، وكره لهم العسر، وإن هذا الرجل رضى بالعسر ويكره اليسر».[(2)]

ومشهور عن رسول الله ﷺ: «أن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»[(3)].

---

(1) رواه مسلم (٧ / ٣٢٨ رقم ١١١٤)، والترمذى (٣ / ٨٩ رقم ٧١٠)، والنسائى (٤ / ١٧٧ رقم ٢٢٦٣)، والطيالسى (ص ٢٣٢ رقم ١٦٦٧) والحميدى (٢ / ١٣٥ رقم ١٢٨٩)، والشافعى فى مسنده (١ / ٢٦٨ – ٢٦٩ رقم ٧١٢، والطحاوى فى شرح المعانى (٢ / ٦٥)، وأبو يعلى (٣ / ٤٠٠ – ٤٠١ رقم ١٨٨٠)، وابن خزيمة (٣ / ٢٥٥ رقم ٢٠١٩)، وابن حبان فى صحيحه (٦ / ٤٢٣ رقم ٢٧٠٦)، والبيهقى فى الكبرى (٤ / ٢٤١، ٢٤٦) وفى الدلائل (٥ / ٢٥).

(2) رواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده كما فى بغية الباحث (ص٨٨ رقم ٢٣٣) وقال البوصيرى فى مختصر اتحاف السادة المهرة (٣/ ٦٠ رقم ٢٠٠٢) –: رواه الحارث عن سعيد بن يونس ولم أقف له على ترجمة وباقى رجال الإسناد ثقات.

(3) رواه البزار – كما فى مختصر الزوائد لابن حجر – (١/ ٤٢٠ رقم ٧٠١)، والطبرانى فى الكبير (١١/ ٣٢٣ رقم ١١٨٨٠) وابن حبان فى صحيحه (٢/ ٦٩ رقم ٣٥٤)، وأبو نعيم فى الحلية (٨/ ٢٧٦) عن ابن عباس مرفوعاً.
وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ١٦٥): رجال البزار ثقات، وكذلك رجال الطبرانى.
وفى الباب عن ابن عمر، وأبى هريرة، وعائشة وابن مسعود وانظر تلخيص الحبير (٢/ ١٠٥–١٠٦).

﴿ ولتكملوا العدة ﴾ أى: عدة الشهر بقضاء ما أفطر فى المرض أو السفر. ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم ﴾ أى: لتعظموه على ما أرشدكم إلى ما رضى به من صوم رمضان. قال ابن عباس: هو تكبيرات ليلة الفطر – وهو مروى عن ابن عمر، وعائشة – رضى الله عنهما –. وقال: حق على كل مسلم أن يكبر ليلة الفطر إلى أن يفرغ من صلاة العيد ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ﴾ فى سبب نزول الآية قولان: أحدهما: أن الصحابة قالوا: يارسول الله أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزلت الآية».

والثانى: أنه لما نزل قوله – تعالى –: (﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾[١] قالوا: يارسول الله كيف ندعوه ومتى ندعوه؛ فنزلت الآية.

وقول:[٢] ﴿ فإنى قريب ﴾ أى: لايخفى علىّ شىء، وهو أقرب إلى العباد من حبل الوريد، وأقرب إلى القلب من ذى القلب.

وقوله – تعالى –: ﴿ أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ فيه حذف. وتقديره: أجيب دعوة الداع إن شئت. وهذا مثل قوله – تعالى –: ﴿ فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ﴾[٣].

قال ابن الأنبارى: معناه: أسمع دعوة الداعى، تقول العرب: فلان يدعو من لايجيب، أى من لايسمع، وهذا لأنه قد يدعى فلا يجيب، فدل أنه أراد بالإجابة السماع.

وقيل: هو على حقيقة الإجابة، ومعناه: أنه لايخيب من دعاه، فإنه إن دعاه بما قَدَّر

---

(١) غافر: ٦٥.

(٢) ما بين القوسين ليس في «ك».

(٣) الأنعام: ٤١.

وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا

له أعطى، وإن دعاه بما لم يُقَدَّر له يدخر له الثواب فى الآخرة فلا يخيب دعاءه.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من عبد يقول [يارب][1] إلا قال الله - تعالى -: لبيك عبدى، فيعجّل ماشاء، ويدخر ما شاء»[2].

قوله - تعالى -: ﴿فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى﴾ قيل: الاستجابة ها هنا بمعنى الإجابة، وعليه يدل قول الشاعر:

وداع دعايا من يجيبُ إلى النَّدَى ... فلـم يستجبه عند ذاك مجيـب

أى: فلم يجبه، وقال أبو عبيدة: معناه فليستدعوا منى الإجابة.

وحقيقته فليطيعوا لى. ﴿وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾ ظاهر المعنى.

قوله - تعالى -: ﴿أحل لكم﴾ أى: أبيح لكم ﴿ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾.

قيل: والرفث: كل ما يريده الرجل من امرأته، وهو بمعنى الوطء ها هنا.

قال ابن عباس: إن الله حَيِيٌّ كريم، يكنى بالحسن عن القبيح.

﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ قيل: معناه: هن سكن لكم، وأنتم سكن لهن. وقيل: لايسكن شيء إلى شيء كسكون أحد الزوجين إلى الآخر.

وقيل: أراد به حقيقة اللباس، فإن أحدهما يصير لباسا لصاحبه عند المباشرة، قال

---

(١) ليست فى «الأصل، ولا ك».

(٢) روى والبخارى فى الأدب المفرد (١٠٩-٢١٠) وأحمد (٢/٤٤٨)، والحاكم (١/٤٩٧) وقال صحيح الإسناد. من حديث أبى هريرة مرفوعًا: «ما من مسلم ينصب وجهه لله - عز وجل - فى مسألة إلا أعطاه إياها، إما أن يعجل له، وإما أن يدخرها له» قال المنذرى فى الترغيب (٢/٤٧٨): رواه أحمد بإسناد لا بأس به.

الشاعر:

إذا ما الضجيع ثنى جيده ... تثنت فصارت عليه لباسا

قال الربيع بن أنس: معناه: هن فرش لكم، وأنت لحف لهن.

وقوله - تعالى -: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ هو افتعال: من الخيانة، أى: تخونون أنفسكم بمخالفة الأمر، وترك الوقاية.

وقوله - تعالى -: ﴿فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن﴾ قيل: أراد به الوطء.

وقيل: مادون الوطء.

وقوله تعالى: ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ قال أنس بن مالك: أراد به طلب الولد.

وروى أبو الجوزاء عن ابن عباس: أراد به ابتغاء ليلة القدر.

وقال قتادة - وهو أحسن الأقوال -: يعنى: وابتغوا ما كتب الله لكم من الرخصة بإباحة الأكل، والشرب، والوطء، فى اللوح المحفوظ.

وقرأ ابن عباس فى الشواذ: «واتبعوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا».

وسبب نزول الآية: أن الله - تعالى - كان قد أوجب الصوم فى الابتداء من العتمة إلى الليلة القابلة، وكان كل من نام أو صلى العشاء حرم عليه الأكل، والشرب، والوطء «فروى أن رجلا يقال له: صرمة أبو قيس ظل يعمل جميع النهار، ثم آوى إلى منزله، وطلب من امرأته طعاما، فأبطأت، فغلبه النوم، فلما استيقظ كان قد حرم الطعام والشراب فأصبح وقد جهد جهدا شديدا، حتى خر مغشيا عليه، فأخبر به

رسول الله ﷺ؛ فنزلت الآية بإباحة الأكل والشرب بالليل[١].

وسبب إباحة المباشرة: ما روى أن عمر – رضى الله عنه – قال: «يارسول الله إنى أصبت امرأتى بعد ما نمت، فقال ﷺ: ما كنت جديرا بهذا ياعمر»[٢].

«وروى أن رجلا من الصحابة أخبر النبى ﷺ بمثل ذلك، فنزلت الآية بإباحة المباشرة» وذلك معنى قوله: ﴿كنتم تختانون أنفسكم﴾.

فأما قوله: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: أراد بالخيط: اللون، ومعناه: بياض النهار من سواد الليل.

وقوله – تعالى –: ﴿من الفجر﴾ سبب نزوله ما روى «أنه لما نزلت هذه الآية أخذ عدى ابن حاتم عقالين، أحدهما أبيض، والآخر أسود، ووضعهما تحت وسادته فلما أصبح كان ينظر إليهما، ويتسحر، حتى يتبين الأبيض من الأسود، فأخبر به النبى ﷺ فقال: إنك لَعَرِيضُ الوساد»[٣].

وفى رواية: «إنك لعريض القفا، إنما هو بياض النهار من سواد الليل»[٤] وهى كلمة لهم يكنون بها عن قلة الفهم؛ فنزل قوله ﴿من الفجر﴾ والفجر فجران:

---

(١) قصة صرمة أبو قيس أخرجها البخارى فى صحيحه (٤/١٥٤ رقم ١٩١٥)، وأبو داود (٢/٢٩٥ رقم ٢٣١٤)، والترمذي (٥ / ١٩٤ رقم ٢٩٦٨) والنسائى (٤/١٤٧ رقم ٢١٦٨). من حديث البراء لن عازب. ووقع فى اسمه اختلاف كثير، وانظر الإصابة (٢/١٨٢ – ١٨٣).

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٢/٩٦) وعزاه السيوطى فى الدر (١ / ٢٠٦) لابن أبي حاتم أيضًا من حديث ابن عباس.

(٣) متفق عليه من حديث عدى بن حاتم، رواه البخارى (٤/١٥٧ رقم ١٩١٦)، ومسلم (٧/٣٨٢ رقم ١٠٩٠).

(٤) البخارى (٨/٣١ رقم ٤٥١٠).

أحدهما فجر مستطيل كذنب السرحان، يطلع صاعدا، ثم يغيب، ويغلب الظلام، وهو الفجر الكاذب.

والثانى بعده: فجر مستطير، ينتشر فى الأفق سريعا، وقيل: تختلط به الحمرة، وهو الفجر الصادق الذى يُحَرِّم الطعام ويبيح الصيام.

وتقول العرب: الفجر(بشير)[1] الشمس.

ويحكى عن حذيفة بن اليمان خلافا غريبا، وهو معروف عنه، أنه قال: أراد بالفجر طلوع الشمس، وكان يبيح التسحر بعد طلوع الفجر.

وقوله - تعالى -: ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ وهذا يقتضى حرمة الصوم بالليل لأنه قد جعله حدا.

وقد قال ﷺ: «من صام بالليل فقد تعب ولا أجر له»[2].

وقال أيضا: «إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من هاهنا، فقد أفطر الصائم»[3].

قوله - تعالى -: ﴿ولاتباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد﴾ والعكوف: هو المقام فى الموضع.

وقيل: نزلت الآية فى قوم من المسلمين كانوا يخرجون من الاعتكاف، ويباشرون الأهل، ثم يعودون إلى المعتكف، فحرم الله - تعالى - المباشرة فى الاعتكاف.

---

(١) فى «ك»: مشى. وهو خطأ.

(٢) رواه الترمذى فى العلل الكبير (١/ ٢٦٤) وقال: سألت البخارى عن هذا الحديث، فقال: أرى هذا الحديث مرسلا، وما أرى عبادة بن نسى سمع من أبى سعد الخير، وعزاه الحافظ فى الإصابة (٢/ ٨٦) لابن أبى داود فى الصحابة، وأبى أحمد الحاكم، والدولابى فى الكنى.

(٣) متفق عليه من حديث عمر، رواه البخارى (٤/ ٢٣١ رقم ١٩٥٤)، ومسلم (٧/ ٢٩٥ رقم ١١٠٠).

يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ يَسْأَلُونَكَ

والاعتكاف جائز فى كل المساجد، وحكى عن حذيفة بن اليمان خلافا شاذا فيه فقال: لايجوز الاعتكاف إلا فى ثلاثة مساجد: فى المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجد المدينة وكان يعيب على عبد الله بن مسعود اعتكافه فى غيرها من المساجد، وكان عبد الله ينكره ويرد عليه قوله، والأمة على قول عبد الله.

وقوله - تعالى -: ﴿ تلك حدود الله ﴾ وهى ما منع الله - تعالى - عنها من المعاصى.

وأصل الحد: المنع. ومنه الحداد للبواب؛ لأنه يمنع الناس، ومنه الحديد؛ لأنه يُحْتَمَى به للامتناع من الأعادى.

وقوله - تعالى -: ﴿ فلا تقربوها ﴾ أى: فلا ترتكبوها.

وقوله - تعالى -: ﴿ كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ أى: لايأكل بعضكم أموال بعض بالباطل. والأكل بالباطل نوعان:

أحدهما: أن يكون بطريق الغصب والنهب والظلم.

والآخر: بطريق اللهو واللعب مثل القمار والرهان وأجرة المغنى ونحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ وتدلوا بها إلى الحكام ﴾ قيل: معناه: ولا تدلوا بها إلى الحكام، أى لاترشوهم وتصانعوهم فيحكموا لكم بالجور.

وقيل: معناه: ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتنسبونه إلى قول الحكام وتتخذون قولهم حجة.

﴿ وأنتم تعلمون ﴾ خلافه، هذا دليل على من يقول بنفوذ القضاء ظاهرا وباطنا.

والإدلاء: الإلقاء يقال: أدلى دلوه، إذا أرسل، ودَلَّى إذا أخرج.

عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

وقوله – تعالى–: ﴿ لتأكلوا فريقا ﴾ أى: طائفة ﴿ من أموال الناس بالإثم ﴾ بالظلم ﴿ وأنتم تعلمون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ يسألونك عن الأهلة ﴾ وهى جمع الهلال، وهو اسم للقمر أول ما يبدو دقيقا وإنما سمى هلالا؛ لأن الناس يرفعون أصواتهم عند رؤيته. يقال: استهل الصبى: إذا صاح بالبكاء، والعرب تسمى كل ثلاثة من الشهر باسم خاص، فتقول للثلاثة الأولى: غرر، ثم يليه، نفل، ثم يليه، تسع، ثم يليه، عشر، ثم يليه، بيض، ثم يليه، ربع، والأصح روع، ثم يليه، ظلم، ثم يليه، حناوس، ثم يليه، وادى، ثم يليه محاق.

وسبب نزول الآية: ما روى أن معاذ بن جبل، وثعلبة بن عثمة، قالا: «يارسول الله، ما بال حال القمر يبدو دقيقا؛ ثم يمتلئ فورا ثم يعود دقيقا؛ فنزل قوله تعالى: ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج ﴾.

يعنى: فعلت ما فعلت؛ ليكون مواقيت لصومكم، وفطركم، وحجكم، وآجال ديونكم».

وقوله – تعالى –: ﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ قال البراء بن عازب: نزلت الآية فينا معشر الأنصار، كان الرجل منا إذا خرج إلى الحج ثم عاد، لايدخل داره من الباب، ولكن ينقب نقبا فى مؤخر البيت، فيدخل منه، ويعد الدخول من باب البيت فجورا؛ فنزل قوله – تعالى –: ﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ أى: بآخرها.

﴿ ولكن البر من اتقى ﴾ أى: برَّ من اتقى ﴿ وأتوا البيوت من أبوابها ﴾ ردهم إلى الأبواب ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾ قيل: كان فى ابتداء

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ

الإسلام، أمر الله – تعالى – نبيه بالكف عن قتال المشركين ثم[1] لما هاجر إلى المدينة أمره بقتالهم إذا قاتلوا؛ بقوله – تعالى –: ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ [ثم][1] أمره بقتالهم قاتلوا أو لم يقاتلوا.

وقوله – تعالى –: ﴿ولا تعتدوا﴾ أى: لاتبدءوهم بالقتال.

وقيل: ولاتعتدوا أى: لاتقتلوا المعاهدين منهم ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾.

قوله – تعالى –: ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ قيل: نسخت الآية الأولى بهذه كما بينا. وقيل: بل نسخت بقوله – تعالى –: ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾[2].

وقالوا: نسخت بها قريبا من سبعين آية.

﴿حيث ثقفتموهم﴾ أى: وجدتموهم.

وقوله – تعالى –: ﴿وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾ وذلك أنهم أخرجوا المسلمين من مكة؛ فقال: أخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم.

﴿والفتنة أشد من القتل﴾ يعنى بالفتنة: الكفر، وسبب ذلك: أن الله – تعالى – لما حرم بدايتهم بالقتال فى الشهر الحرام، بادر إلى قتالهم بعض المسلمين، فعيرهم الكفار عليه، فقال الله – تعالى – ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ يعنى: الشرك الذى أنتم عليه أشد من قتالهم الذى بدءوا به.

وقوله – تعالى –: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه﴾ كذا كان فى الابتداء حراما بدايتهم بقتالٍ فى البلد الحرام، ثم صار منسوخا.

---

(١) ليست فى «الأصل، ولا ك».

(٢) التوبة: ٥.

وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ

قال عطاء: لم يصر هذا منسوخا. والأصح أن الآية منسوخة.

وقوله - تعالى -: ﴿فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين﴾

﴿فإن انتهوا﴾ يعنى فإن أسلموا. ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ لما سلف.

قوله - تعالى -: ﴿وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة﴾ أى: شرك ﴿ويكون الدين لله﴾ أى: قاتلوهم حتى يسلموا لله. وقيل: حتى لاتكون سجدة إلا لله.

وقوله - تعالى -: ﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ أى: فإن أسلموا فلا نهب، ولا أسر، ولا قتل، إلا على الذين بقوا على الشرك.

قوله - تعالى -: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾ فى معنى الآية قولان:

أحدهما: أنه أراد به فى أمر العمرة، وذلك ما روى «أن النبى ﷺ خرج معتمرا فى ذى القعدة، فلما بلغ الحديبية صده المشركون، فصالحهم على أن يعود فى العام المقبل، ثم عاد معتمرا فى العام المقبل فى ذى القعدة فأقضاه الله - تعالى - ما فات فى العام الأول بما فعله فى العام الثانى»[1] فهذا معنى قوله: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ يعنى ذا القعدة. ﴿والحرمات قصاص﴾ يعنى: حرمة الشهر الحرام، وحرمة البلد الحرام، وحرمة الإحرام.

والقول الثانى: أنه وارد فى أمر القتال، ومعناه فإن بدءوكم بالقتال فى الشهر الحرام، وانتهكوا حرمته فقاتلوهم فيه ولا تبالوا بحرمته؛ فإنه قصاص بما فعلوا.

﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ والاعتداء: الظلم،

(١) رواه الطبرى (٢/١١٤ - ١١٥) عن ابن عباس بنحوه، وكذا هو عنده عن مجاهد، وقتادة، وعثمان بن مقسم، والسدى، والضحاك، والربيع.

الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ

وإنما سمى الجزاء على الظلم: اعتداء، على ازدواج الكلام، ومثله قوله – تعالى – ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾[1].

وتقول العرب: ظلمنى فلان فظلمته، أى: جازيته على الظلم. ويقال: جهل فلان عليَّ فجهلت عليه، قال الشاعر:

ألا لايَجْهَلَنْ أحد علينا فنجهلَ فوق جَهْلِ الجاهلينا

وقال آخر:

ولى فرس للحلم بالحلم مُلْجَمُ ولى فرس للجهل بالجهل مُسْرَجُ

﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ وأنفقوا فى سبيل الله ﴾ أراد به: الإنفاق فى الجهاد، وكل خيرٍ سبيلُ الله، ولكن إذا أطلق سبيل الله، ينصرف إلى الجهاد.

﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ قيل: الباء زائدة، وتقديره: ولا تلقوا أيديكم، وعبر بالأيدى عن الأنفس، كما قال الله – تعالى: ﴿ بما كسبت أيديكم ﴾[2] أى: بما كسبتم. وقيل الباء فى موضعها، وفيه حذف، وتقديره: ولاتلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة.

والتهلكة والهلاك: واحد. وقيل: بينهما فرق، فالتهلكة: ما يمكن الاحتراز عنه، والهلاك: ما لايمكن الاحتراز عنه. وفى معناه قولان: أحدهما: ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بترك الإنفاق فى سبيل الله.

والثانى: قال النعمان بن بشير، والبراء بن عازب: إن المراد به: أن يذنب الرجل

---

(١) الشورى: ٤٠.

(٢) الشورى: ٣٠.

اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ

ذنبا ثم يقول: لا توبة لى، فيقنط من رحمة الله - ونعوذ بالله.

والأول أصح. لما روى عن أبى أيوب الأنصارى - رضى الله عنه - أنه قال: نزلت الآية فينا معشر الأنصار فإن الله - تعالى - لما نصر دينه، وأعز نبيه، قلنا: لو أقمنا فى أموالنا نصلحها، ونترك الجهاد، فإنها تضيع، فنزلت الآية: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾» يعنى: بترك الإنفاق فى الجهاد، والإقامة على الأموال، حتى روى: أنه لما نزلت الآية مازال أبو أيوب يغزو حتى كان آخر غزوة غزاها بقسطنطينية، فى بعث بَعَثَهُ معاوية وتوفى (هنالك)[1] ودفن فى أصل سور قسطنطينية وهم يستسقون[2] به.

وقوله - تعالى -: ﴿وأحسنوا﴾ يعنى: بالإنفاق فى سبيل الله.

وقال عكرمة: معناه: أحسنوا الظن بالله.

وقيل معناه: أدوا فرائض الله ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ قال فضيل بن عياض: من كانت تحت يده دجاجة فلم يحسن إليها لم يكن من المحسنين.

قوله - تعالى -: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ وقرأ ابن مسعود: فى الشواذ: «وأتموا الحج والعمرة إلى البيت» من غير قوله: «لله» وقرأ الشعبى: وأتموا الحج والعمرةُ لله على الابتداء.

واختلفوا فى معنى الإتمام، قال عمر: إتمامهما أن لاينسخ إذ كان جائزا نسخه فى الابتداء. وقال على، وابن مسعود: إتمامهما أن يحرم بهما من دويرة الأهل. وقيل: إتمامهما أن يكون الزاد والنفقة من الحلال. وقال سفيان الثورى: إتمامهما أن يقصد

(١) فى «ك»: هناك

(٢) فى «ك»: يستشفون، وفى كلاهما نظرة، فالاستسقاء أو الاستشفاء بالأموات وقبورهم غير جائز، كما هو مقرر فى علم العقيدة.

يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ

الحج ولايقصد التجارة.

وقيل: إتمامهما أن لايعصى الله فيه، ويأتى به على وجهه كما أمر.

ثم اعلم أن العمرة واجبة، وهو قول ابن عمر، وعند أبى حنيفة - رضى الله عنه - سنة، وهو مروى عن جابر.

والدليل على وجوبها: ظاهر الآية، وهو قوله: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ وظاهر الأمر للوجوب.

وقد ورد فى فضل الحج والعمرة أخبار، منها: ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «العمرتان تكفران ما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»(1).

وقوله - تعالى -: ﴿فإن أحصرتم﴾ قال ابن عمر: الإحصار: من العدو. (وقال ابن مسعود: الإحصار: من العدو)(2) والمرض كلاهما معتبر. وعن ابن عباس فيه روايتان. والإحصار والحصر بمعنى واحد.

وقال الفراء: الإحصار: بالحبس، والحصر: منع العدو. والصحيح أنه من العدو دون المرض لقوله: ﴿فإذا أمنتم﴾ والأمن: من العدو. ومن قال: بالأول قال فيه حذف، وتقديره. فإذا أمنتم من العدو، وبرأتم من المرض.

وقوله - تعالى -: ﴿فما استيسر من الهدى﴾ وأقل ما يجب منه: ذبح الشاة، والأعلى: نحر بدنة، والأوسط: ذبح بقرة، والهَدْىُ والتهدية والهَدِىُّ بمعنى واحد؛ وهو ما يهدى إلى موضع، أو إلى شخص. قال الشاعر:

حلفت برب مكةَ والمُصلَّى ... وأعناقِ الهَدِىِّ مُقلَّدات

وقوله - تعالى -: ﴿ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله﴾ أى: حتى

---

(1) متفق عليه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى (٣/ ٦٩٨ رقم ١٧٧٣)، ومسلم (٩/ ١٦٧ رقم ١٣٤٩).

(2) سقط من «ك».

يذبح فى موضعه، وموضع الذبح عندنا: حيث أحصر وتحلل.

وقال أبو حنيفة: موضعه: مكة. وما قلناه أصح؛ لأن رسول الله ﷺ «لما بلغ الحديبية معتمرا، فصده المشركون، تحلل وذبح هنالك»(1).

قوله - تعالى -: ﴿فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه﴾ نزل هذا فى كعب بن عجرة. روى عبد الرحمن بن أبى ليلى. عن كعب بن عجرة أنه قال: «كنت مع رسول الله ﷺ بالحديبية، وكنت أنفخ تحت القدر والقمل يتهافت على وجهى، فقال - عليه السلام -: ماهذا؟! احلق رأسك، واذبح شاة، أو صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين»(2). فهذا معنى قوله: ﴿ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ يعنى: ذبح الشاة.

وذلك المذهب عندنا، أن يذبح فى فدية الأذى: شاة، أو يصوم ثلاثة أيام، أو يتصدق بفرق من طعام، والفرق: ثلاثة أصوع، كل صاع أربعة أمداد، فيتصدق على كل مسكين بِمُدَّيْنِ.

وقال عطاء: يطعم عشرة مساكين.

وقوله - تعالى -: ﴿فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج﴾ قال ابن الزبير: يختص التمتع بالْمُحْصَرِ؛ لقوله - تعالى -: ﴿فإذا أمنتم﴾ وعامة الصحابة على أنه جائز على العموم للكافة.

ثم مذهب المدنيين، والكوفيين: أن التمتع هو: أن يحرم بالعمرة فى أشهر الحج،

---

(1) متفق عليه من حديث ابن عمر رواه البخارى (٤/٦-٧ رقم ١٨٠٧)، ومسلم (٨/٢٩٢-٢٩٥ رقم ١٢٣٠).

(2) متفق عليه من حديث كعب بن عجرة، رواه البخارى (٤/١٦ رقم ١٨١٤)، ومسلم (٨/١٦٧-١٧٢ رقم ١٢٠١).

لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

ثم يقيم بمكة، ويحج من عامه ذلك.

وسمى تمتعا؛ لأنه يستمتع بالمحظورات إذا تحلل عن العمرة إلى أن يحرم بالحج.

وقال طاوس: لايختص التمتع بأشهر الحج، بل إذا أحرم بالعمرة فى غير أشهر الحج يكون متمتعا.

وقوله - تعالى -: ﴿ فما استيسر من الهدى ﴾ أى: ذبح الشاة.

وقوله - تعالى -: ﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج ﴾ وذلك بأن يصوم يومًا قبل التروية، ويوم التروية، ويوم عرفة، ويجوز أن يصوم الثلاثة متفرقة.

وقال ابن عمر، وعائشة: يصوم ثلاثة أيام منى، وذلك أيام التشريق وهو قول الشافعى فى القديم. وقوله - تعالى -: ﴿ وسبعة إذا رجعتم ﴾ قال ابن عمر: معناه إذا رجعتم إلى الأهل.

والصحيح: أنه إذا أراد الرجوع عن الحج حتى لو صام السبع فى الطريق جاز ويجوز متفرقا أيضا.

وقوله - تعالى -: ﴿ تلك عشرة كاملة ﴾ فإن قال قائل: لايشكل أن الثلاثةَ والسبعَ عشرة، فلِمَ قال: تلك عشرة كاملة؟ قلنا: قيل: إنما قاله تأكيدا، ومثله قول الفرزدق[1]:

ثلاث واثنتان فهن خمس … وسادسة تميل إلى شمام

وهذا لأن العرب ما كانوا يهتدون إلى الحساب، وكانوا يحتاجون إلى فضل شرح وزيادة بيان.

(١) فى «الأصل، وك» الفارق، وهو تحريف.

﴿١٩٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الشهر هكذا وهكذا وهكذا - حبس إبهامه فى الكرّة الثالثة»(١). فأشار إليهم بأصابعه ليعرفوا الحساب.

وقيل: فيه تقديم وتأخير، يعنى: فصيام عشرة أيام: ثلاثة أيام فى الحج، وسبعة إذا رجعتم، وقيل: إنما قال ذلك؛ لقطع توهم الزيادة، فإن قوله: فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم. يوهم وخمسة إذا فعلتم كذا، ونحوذلك، فقال: تلك عشرة ليقطع توهم الزيادة.

وقوله: ﴿كاملة﴾ أى: كاملة فى الأجر. وقيل: كاملة فيما أريد به من إقامة الصوم مقام الهدى.

قوله - تعالى -: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام﴾ قال بعض الصحابة: أراد بحاضرى المسجد الحرام: أهل مكة، وكان ابن عباس يقول: يا أهل مكة لاتمتع لكم. إنما التمتع للغرباء.

وقيل: هم جميع أهل الحرم. وقال الشافعى: كل من كان من مكة على ما دون مسافة القصر؛ فهو من حاضرى المسجد الحرام.

﴿واتقوا الله﴾ أى: فى أداء الأوامر ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ على ارتكاب المناهى.

قوله - تعالى -: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ الأكثرون على أن المراد به: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذى الحجة.

وقال مالك: كل ذى الحجة وقوله - تعالى -: ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ قال ابن عمر، وابن مسعود: أراد به: فمن فرض فيهن الحج بالتلبية. أى: فمن لبى.

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر، رواه البخارى (٤/١٤٣ رقم ١٩٠٨) ومسلم (٧/٢٦٤ - ٢٧٠ رقم ١٠٨٠)

فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا

وعندنا يختص إحرام الحج بأشهر الحج، وعند أبى حنيفة يجوز فى جميع السنة. وفيه خلاف الصحابة، وهو مذكور فى الفقه.

وقوله - تعالى -: ﴿فلا رفث﴾ قيل: هو الوطء. وقيل: الرفث: الإفحاش فى القول.

وقيل: هو أن يتعرض لأمر الوطء مع النساء، وذلك بأن يقول: إذا حللنا فعلنا كذا.

وعن ابن عباس أنه كان محرما فأنشد:

فَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسَا ... إنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ نَنِكْ لَمِيسَا

فقيل له: أترفث وأنت محرم؟ فقال: الرفث: هو ما روجع به النساء، أى: يذكر فى مشاهدتهن.

وقوله - تعالى -: ﴿ولافسوق﴾ الفسوق: السباب. وقيل: هو كل المعاصى.

وقوله: ﴿ولا جدال فى الحج﴾ قال ابن مسعود: الجدال: أن يمارى الرجل صاحبه حتى يغضبه.

وقيل: أراد به ما كان عليه أهل الجاهلية من الاختلاف فى أمر الحج، حتى كان بعضهم يقف بعرفة، وبعضهم بالمزدلفة، وكان يحج بعضهم فى ذى القعدة، وبعضهم فى ذى الحجة، وكل يقول: ما فعلته فهو صواب، فقال: ﴿ولاجدال فى الحج﴾ أى: استقر أمر الحج على ما فعله الرسول، فلا خلاف فيه من بعد وذلك معنى قوله ﷺ «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته...»[1] الحديث.

وقوله - تعالى -: ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ أى: لايخفى عليه ولايضيعه، بل يثيب عليه.

---

(١) متفق عليه من حديث أبى بكرة، رواه البخارى (٨/ ١٧٥ رقم ٤٦٦٢)، ومسلم (١١/ ٢٤١ - ٢٤٧ رقم ١٦٧٩).

أُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ

وقوله – تعالى –: ﴿وتزودوا﴾ نزل فى قوم من اليمن، كانوا يخرجون إلى الحج من غير زاد ويسألون الناس الزاد، وربما يفضى الحال بهم فى السلب والنهب، فقال: ﴿وتزودوا﴾ أى: اخرجوا مع الزاد.

وقوله: ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ يعنى: من السلب والسؤال.

وقال سعيد بن جبير: تزودوا بالكعك والسويق.

وقال غيره: وتزودوا بالخشكنانج، والسويق. وقوله – تعالى –: ﴿واتقون يا أولى الألباب﴾ معلوم المعنى.

قوله – تعالى –: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ فى سبب نزول هذا قولان: أحدهما: ما روى عن أبى أمامة التيمى أنه قال: قلت لابن عمر: إنا نكرى فى هذا الوجه – يعنى إلى مكة – والناس يقولون: لاحج لكم، فقال ابن عمر: ألست تقف؟ ألست تسعى؟ ألست تطوف؟ قلت: نعم. فقال: لك حج. وروى ابن عمر «أن رسول الله ﷺ سئل عن ذلك، فلم يجب بشىء حتى نزل جبريل بهذه الآية»(١).

والثانى: قال ابن عباس: كان فى الجاهلية أسواق يقال لها عكاظ، والمجنة، وذو المجاز، وكان أهل الجاهلية يتجرون منها، فلما جاء الإسلام كان المسلمون يتحرجون عن التجارة فى تلك الأسواق، فنزل قوله: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾» يعنى: بالتجارة فى تلك الأسواق.

وقرأ ابن الزبير: فضلا من ربكم فى مواسم الحج.

وقوله – تعالى –: ﴿فإذا أفضتم من عرفات﴾ أما عرفات: سمى بذلك؛ لأن

(١) رواه أبو داود (٢/١٤٢ رقم ١٧٣٣)، والحاكم فى مستدركه (١/٤٩٩)، وأحمد (٢/١٥٥) وقال: صحيح الإسناد، والبيهقى فى سننه (٤/٣٣٣).

لِمَنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

جبريل لما وقف بإبراهيم، كان يقول له: عرفت. فيقول: عرفت.

والإفاضة: الدفع بكثرة، يقال: فاض الإناء. إذا امتلأ حتى سال من الجوانب، ومنه: رجل فياض، إذا كان كثير العطاء، قال الشاعر:

وأبيض فَيَّاضٌ يداه غمامة ... على معتقيه ما تَغِبُّ نَوَافِلُهْ

وإنما قال: ﴿فإذا أفضتم﴾ لأنه يدفع بعضهم بعضا بكثرة عند الرجوع.

وقوله - تعالى -: ﴿فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾ والمشعر الحرام، والمزدلفة، والجمع أسامي موضعٍ واحد. فالمشعر: المَعْلَمُ فإن المزدلفة مَعْلَمٌ للمبيت، والوقوف، والدعاء، والجمع بين الصلاتين. وإنما سمى: جمعا؛ لأنه يجمع هنالك بين المغرب والعشاء.

وسمى: مزدلفة، من الازدلاف وهو: الاجتماع، والمزدلفة: موضع بين جبلين، يسمى أحدهما: قزح يقف عليه الإمام، وهو من جملة الحرم ولذلك سمى المشعر الحرام.

وقوله - تعالى -: ﴿واذكروه كما هداكم﴾ أى: واذكروه بالتوحيد والتعظيم، كما ذكركم بالهداية.

وقوله - تعالى -: ﴿وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ قيل: ما كنتم من قبله إلا من الضالين، وقيل: معناه: قد كنتم من قبله لمن الضالين.

قوله - تعالى -: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ يعنى: من عرفات.

فإن قيل: كيف قال: ثم أفيضوا - بكلمة التعقيب - والإفاضة من عرفات إنما تكون قبل الوصول إلى المزدلفة؟ قلنا: «ثم» بمعنى «الواو» ههنا، يعنى: وأفيضوا. وهو مثل قوله: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾[1] أى: وكان من الذين آمنوا، فيكون

(١) البلد: ١٧.

جمعا بين الحكمين.

وقيل: تقديره: ثم أمركم أن تفيضوا من عرفات. وهذا مثل قوله - تعالى -: ﴿ثم آتينا موسى الكتاب﴾[1] (وإنما آتاه الكتاب قبل محمد ﷺ لكن معناه ثم أخبركم أنا آتينا موسى الكتاب)[2]، كذلك هاهنا، فيكون عمل «ثم» فى الأمر لا فى الإفاضة.

وأما الكلام فى المعنى: قيل: إن قريشا وأحلافهم كانوا يقفون بالمزدلفة ويقولون نحن أهل حرم الله فلا نخرج من حرم الله. لأن عرفات كانت فى الحل، وأما سائر العرب كانوا يقفون بعرفات.

فقوله: ﴿ثم أفيضوا﴾ خطاب لقريش، يعنى: قفوا بعرفات، وأفيضوا منها ﴿من حيث أفاض الناس﴾ يعنى: سائر العرب.

وقيل: أراد بالناس فى قوله: ﴿من حيث أفاض الناس﴾ إبراهيم، وقد يسمى الواحد ناسا، كما قال الله - تعالى -: ﴿الذين قال لهم الناس﴾[3] وأراد به: نعيم ابن مسعود الأشجعى وحده.

وقرأ الضحاك، وسعيد بن جبير ﴿من حيث أفاض النَّاسِ﴾ يعنى: آدم - عليه السلام -.

وقوله - تعالى -: ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾[4].

قوله - تعالى -: ﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾ يعنى: فرغتم من المناسك، وذلك عند رمى جمرة العقبة والاستقرار بمنى، وقوله: ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم﴾

---

(١) الأنعام: ١٥٤.

(٢) سقط من «ك».

(٣) آل عمران: ١٧٣.

(٤) كذا فى الأصل، وك» لم يعلق علي هذه الآية، ولعله وقع سقط هاهنا. ولعله قال: «ظاهر المعنى». والله أعلم.

فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾

يعنى: فاذكروا الله بالتكبير والتمجيد والثناء عليه.

وفى قوله: ﴿ كذكركم آباءكم ﴾ قولان، قال عطاء: هو أن الصبى أول ما يتكلم فإنما يلهج بذكر أبيه، فيقول: يا أبة. لايذكر غيره، فقال – تعالى –: ﴿ فاذكروا الله ﴾ لاغيره ﴿ كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا ﴾.

والثانى: هو أن العرب كانوا إذا فرغوا من الحج، ذكروا مفاخر آبائهم، فقال – تعالى –: فاذكروا الله بدل ذكركم آباءكم أو أشد ذكرا.

وقوله – تعالى –: ﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا ﴾ أراد به: المشركين، كانوا لايسألون الله فى الحج إلا الدنيا، وكان الرجل منهم يقول: اللهم إن أبى كان عظيم القبة كبير الجفنة، كثير المال، اللهم فاعطنى مثل ما أعطيته.

وقوله – تعالى –: ﴿ وما له فى الآخرة من خلاق ﴾ من نصيب.

قوله – تعالى –: ﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ﴾ أراد به المسلمين، واختلفوا فى معناه.

قال الحسن البصرى: ﴿ فى الدنيا حسنة ﴾ يعنى: العلم والعبادة، ﴿ وفى الآخرة حسنة ﴾ يعنى: الجنة.

وحكى عن على – رضى الله عنه – أنه قال ﴿ فى الدنيا حسنة ﴾ المرأة الصالحة، ﴿ وفى الآخرة حسنة ﴾ الجنة.

وقد ورد فى الحديث مرفوعا: «من أوتى قلبا شاكرا، ولسانا ذاكرا، وامرأة صالحة تعينه على أمر دينه، فقد جُمِعَ له خير الدنيا والآخرة»[1].

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى الشكر (ص ٨١ رقم ٣٤)، والطبرانى فى الكبير (١١/ ١٣٤ رقم ١١٢٧٥)، وفى الأوسط – كما فى مجمع البحرين (٤/ ١٥٥ – ١٥٦ رقم ٢٢٤٩)، وأبو نعيم فى الحلية (٣/ ٦٥)، والبيهقى فى الآداب (ص٢٩٣ رقم ٨٨٩) كلهم من حديث ابن عباس.

وقال الهيثمى فى المجمع (٤/ ٢٧٦) رواه الطبرانى فى الأوسط، والكبير، ورجال الأوسط رجال الصحيح.

واختلف فى إسناده انظر الضعيفة رقم (١٠٦٦).

أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

وقال قتادة: ﴿فى الدنيا حسنة﴾ يعنى: العافية، ﴿وفى الآخرة حسنة﴾ يعنى: العاقبة.

وروى أنس عن النبى ﷺ: «أنه عاد مريضا قد أنهكه المرض حتى صار كالفرخ، فقال له – عليه السلام –: بم كنت تدعو؟ فقال الرجل: قلت: اللهم إن كنت معاقبى بشىء فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا، فقال ﷺ: سبحان الله، ما تطيق ذلك، هلا قلت: ﴿ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة﴾»[1]. وقيل: كان هذا أكثر دعاء رسول الله ﷺ[2].

وقوله – تعالى –: ﴿وقنا عذاب النار﴾ أى: اصرف عنا عذاب النار.

قوله – تعالى –: ﴿أولئك لهم نصيب﴾ أى: الاستجابة ﴿مما كسبوا﴾ من الدعاء. ﴿والله سريع الحساب﴾ قال أهل التفسير: يحاسب العباد أسرع من لمح البصر.

وقال أهل المعانى: يحاسب العباد من غير تدبير ولا رؤية؛ لكونه عالما بما للعباد، وما على العباد فلا يحتاج إلى رؤية.

وقال ابن الأنبارى: معناه: أن الله آت بالقيامة عن قريب، فإن ما هو كائن لامحالة فهو قريب، ففيه إشارة إلى قرب القيامة.

---

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد (ص٢١٤)، ومسلم فى صحيحه (١٧ / ٢٢–٢٣ رقم ٢٦٨٨)، والترمذى (٥ / ٤٨٧ رقم ٣٤٨٧) وقال: حسن صحيح غريب. والنسائى فى الكبرى (٦ / ٢٦٠–٢٦١ رقم ١٠٨٩٢)، وأحمد (٣ / ١٠٧، ٢٨٨).

(٢) متفق عليه من حديث أنس بن مالك. رواه البخارى (١١ / ١٩٥ رقم ٦٣٨٩)، ومسلم (١٧ / ٢٧ رقم ٢٦٩٠).

فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ

قوله – تعالى –: ﴿واذكروا الله فى أيام معدودات﴾ يعنى: أيام منى، وهى أيام التشريق. قال ابن عمر: الأيام المعلومات والأيام المعدودات فى أربعة أيام، فيوم النحر ويومان بعده هى الأيام المعلومات، وثلاثة أيام بعد يوم النحر هى الأيام المعدودات.

والمعدودات الْمُحْصَيات، وإنما قال ذلك لقلتهن، والمراد بالذكر منها ههنا: هو التكبيرات أدبار الصلوات.

وقوله – تعالى –: ﴿فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه﴾ أراد به: النفر فى اليوم الثانى من أيام التشريق، يعنى: فمن تعجل بالنفر بالرجوع من منى فيه فلا حرج عليه.

وقوله – تعالى –: ﴿ومن تأخر فلا إثم عليه﴾ يعنى: من تأخر بالنفر الثانى فى اليوم الثالث من أيام التشريق فلا حرج عليه.

فإن قيل: الآية فيمن رجع على إتمام المناسك، فكيف نفى الحرج عنه وهو بمحل استحقاق الثواب لابمحل الحرج؟ قلنا: قال ابن مسعود: أراد به: من[نفى][١] الحرج: أنه رجع مغفورا له. وهذا مؤيد بالحديث، وما روى مرفوعا «من حج هذا البيت ولم يرفث ولم يفسق؛ رجع كيوم ولدته أمه»[٢].

وقال النخعى معناه: فمن تعجل فلا إثم عليه بالتعجيل، ومن تأخر فلا إثم عليه بالتأخير.

وفيه قول ثالث: إنما قال ذلك، لأن بعضهم كان يزيد فى المقام بمنى على الثلاث تبررا وتقربا؛ فقال الله – تعالى –: من رجع فى اليوم الثانى أو الثالث ولم يزد على الثلاث فلا حرج عليه. يعنى: فى ترك الزيادة.

(١) ليست فى «الأصل»، ولا فى «ك».

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة، فرواه. البخارى (٣/ ٤٤٦ رقم ١٥١٩، وأطرافه فى: رقم ١٨١٩، ١٨٢٠)، ومسلم (٩/ ١٦٦ – ١٧٠ رقم ١٣٥٠).

اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ

وفيه قول رابع: حسن، معناه: من ترخص بالتعجيل فلا إثم عليه بالترخص، ومن تأخر فلا إثم عليه بترك الترخص؛ وذلك أن النبى ﷺ كان قد ندب إلى الرخصة بقوله: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»[1].

قوله - تعالى -: ﴿لمن اتقى﴾ قال أبو العالية: معناه: لمن اتقى الله بعد الحج فى جميع عمره.

وقال الآخرون: معناه: لمن اتقى المعاصى فى الحج، وقوله - تعالى -: ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ ظاهر المعنى

قوله - تعالى -: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا﴾ نزلت الآية فى الأخنس بن شريق حليف بنى زهرة فإنه أتى النبى - عليه السلام - وقال: «إنى أحبك، وأريد أن أؤمن بك، والله يعلم ما فى قلبى، وكان يبطن بغضه، وكان - عليه السلام - يعجبه قوله (ويُسَرُّ به)[2] فنزلت الآية: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا﴾»[3] يعنى فى العلانية.

وأما قوله: ﴿ويشهد الله على ما فى قلبه﴾ قرأ ابن مسعود: وشهيد[4] الله على ما فى قلبه. وقرأ ابن محيصن: ويَشْهَدُ الله على ما فى قلبه، وهما فى الشواذ، والمعروف هو الأول.

وقوله - تعالى -: ﴿وهو ألد الخصام﴾ أى: شديد الخصومة قال الشاعر:

إن تحت (التراب)[5] حزمًا وجودًا … وخصيما ألدَّ ذا معْلاق

(١) تقدم تخريجه.

(٢) فى «ك»: ويسره.

(٣) رواه ابن جرير الطبرى فى تفسيره (٢/ ١٨١ - ١٨٢) عن السدى مرسلا.

(٤) كذا «بالأصل، وك» وفى تفسير القرطبى، وغيره: (ويستشهد).(٥) فى لسان العرب (مادة: علق): الأحجار.

الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ

وقال مجاهد: ﴿ألد الخصام﴾ أى: الظالم فى الخصومة.

وقوله - تعالى -: «﴿وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها﴾ فيه نزلت الآية أيضا؛ فإنه خرج من عند النبى ﷺ فرأى حمارا فعقره، ومر بزرع فأحرقه(١) فهذا معنى قوله: ﴿سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل﴾ فالحرث: الزرع. والنسل: ولد كل دابة.

﴿والله لايحب الفساد﴾ أى: لايرضى الفساد، وقيل: من الفساد: كسر الدرهم، وشق الثوب من غير مصلحة.

قوله - تعالى -: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾ فيه نزلت الآية أيضا. ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة﴾ أى: حمية الجاهلية ﴿بالإثم﴾ أى: بالظلم، والعزة: التكبر والمنعة، ومنه قوله تعالى: ﴿فى عزة وشقاق﴾(٢).

وعن ابن مسعود قال: كفى بالمرء إثما أن يقال له: اتق الله، فيقول: أنت الذى تأمرنى بالتقوى.

وروى أنه قيل لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه -: اتق الله. فوضع خده على الأرض تواضعا لله.

وفى رواية قيل لعمر: اتق الله: فأنكر المغيرة بن شعبة على قائله، فقال عمر: إنكم لاتزالون بخير ما قالوا ذلك لنا، وقبلنا منهم.

وقوله - تعالى -: ﴿فحسبه جهنم﴾ أى: كافيه. قال امرؤ القيس.

وتملأ بيتنا أَقْطًا وَسَمْنًا ... وحسبك من غنى شِبَعٌ وَرِىٌ

وقوله - تعالى -: ﴿ولبئس المهاد﴾ المهاد: كل فراش يستقر المرء عليه.

(١) رواه ابن جرير الطبرى فى تفسيره (٢ / ١٨١) عن السدى مرسلا.

(٢) ص: ٢.

بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ

قوله – تعالى –: ﴿ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله﴾ قال سعيد ابن المسيب: «نزلت الآية فى صهيب بن سنان، وذلك أنه خرج من مكة مهاجرا إلى المدينة فتبعه المشركون ولحقوه، فنثر كنانته وقال: إنكم تعلمون أنى من أرماكم، والله لاتصلون إلى حتى أرمى جميع ما بكنانتى ثم آخذ سيفى وأضرب حتى أعجز أو ترجعوا عنى وما لكم مالى ثمة، فقالوا: أين مالك؟ فدلهم عليه، فرجعوا عنه، فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ قال: ربح البيع يا أبا يحيى»(١). فهذا معنى قوله: و﴿ومن الناس من يشرى نفسه﴾ أى: يبيع.

والشراء: البيع، ومنه قول الشاعر:

وشريُت بُرْدًا ليتنى   من بعد برد [صرت هامه](٢)

قاله رجل كان له غلام يسمى بردا، وكان مفتونا به، فباعه فندم عليه.

وقوله – تعالى –: ﴿والله رءوف بالعباد﴾ أى: شديد الرحمة بهم.

قوله – تعالى –: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة﴾ آمنوا: أى صدقوا.

ادخلوا فى السلم كافة، أى: ادخلوا جميعا فى الإسلام.

قال الأزهرى السلم الصلح، والسلم: الانقياد، والمراد به: الإسلام هنا.

---

(١) رواه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ١٧١ – ١٧٢) والحارث بن أبى أسامة فى مسنده كما فى بغية الباحث فى زوائد الحارث (ص٢١٤ رقم ٦٧٧) وأبو نعيم فى الحلية (١/ ١٥١ – ١٥٢).

وعزاه السيوطى فى الدر (١/ ٢٤٩) لابن المنذر، وابن أبى حاتم، وابن عساكر. ورواه الحاكم عن أنس (٣/ ٢٩٨) وقال: صحيح على شرط مسلم. وأخرجه الطبرى (٢/ ١٨٦) عن عكرمة بنحوه.

(٢) فى الأصل: ضرب هامة، وفى «ك»: ضرب هامتى.

يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ

وقال الأزهرى أيضا: معناه: ادخلوا فى الإسلام وشرائعه كافة.

وفيه قول ثالث، معناه: ادخلوا فى الإسلام إلى منتهى شرائعه، كافِّين عن المجاوزة إلى غيره، من الكَفِّ.

قال ابن عباس: نزلت الآية فى عبد الله بن سلام، وقوم من اليهود أسلموا، وأرادوا أن يجمعوا بين الإسلام واليهودية، فقالوا: نلزم السبت فلا نأكل لحوم الإبل ونحو ذلك، فنزلت الآية. أى: كونوا للإسلام خاصة، ولا تجمعوا بينه وبين اليهودية، وكفوا عن المجاوزة إلى غيره.

فإن قال قائل: كيف خاطب المؤمنين بالدخول فى الإسلام؟ قيل: يحتمل معناه: الثبات على الإسلام، ويحتمل أنه خطاب للذين آمنوا باللسان ولم يؤمنوا بالقلب.

وقوله - تعالى -: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أى: آثار الشيطان، وهى جمع الخطوة. والخطوة: ما بين القدمين ﴿إنه لكم عدو مبين﴾.

قوله - تعالى -: ﴿فإن زللتم﴾ زَلّ يَزِلُّ: إذا ضل وتنحى عن الطريق، وأَزَلّ يُزِلُّ: إذا أسدى نعمة إلى غيره. ومنه قوله ﷺ: «من أزلت إليه نعمة فليشكرها»(١).

وقوله - تعالى -: ﴿من بعد ما جاءتكم البينات﴾ الدلالات الواضحات.

﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ فالعزيز: الغالب الذى لايفوته شىء، والحكيم: ذو الإصابة فى الأمر.

قوله - تعالى -: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة﴾ والآية من المتشابهات.

(١) رواه القضاعى فى مسند الشهاب (١/٢٣٨ - ٢٣٩ رقم ٣٧٦) من طريق يحيى بن صيفى عن ابن عمر. وعزاه الحافظ ابن حجر فى الإصابة (٣/٦٧٩) لابن الأعرابى فى معجمه.

شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا

وروى أصحاب الحديث عن أبى بن كعب ومجاهد، أنهما قالا فى تفسير الآية: يأتى الله يوم القيامة فى ظلل من الغمام.

وأما أبو بكر محمد بن الحسن النقاش المفسر فلم يتعرض للآية بشىء، وقال الزجاج: يحتمل معنى الآية من حيث اللغة: يأتى الله بما وعدهم من العقاب.

قال الشيخ الإمام: والأولى فى هذه الآية وما يشاكلها أن نؤمن بظاهره ونكل علمه إلى الله – تعالى – وننزه الله – سبحانه وتعالى – عن سمات الحدث والنقص.

وأما قوله: ﴿فى ظلل﴾ فهو جمع الظلة وهو السترة من الغمام. قد ذكرنا معنى الغمام.

﴿والملائكة﴾ قرئ بالرفع والخفض[1]. فإذا قرئ بالرفع، فهو منسوق على الله، وإذا قرئ بالخفض فهو منسوق على الظلل.

﴿وقضى الأمر﴾ أى: فرغ من الأمر، وذلك فصل الله القضاء بالحق بين الخلق.

﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ قال قطرب: إنما خص به يوم القيامة؛ لأن الأمر يخلص يومئذ لله – تعالى –.

قوله – تعالى –: ﴿سل بنى إسرائيل﴾ هو خطاب للرسول ﷺ، يعنى: سل الذين أسلموا منهم ﴿كم آتيناهم من آية بينة﴾ أى: من دلالة واضحة على نبوة موسى.

وقيل: معناه: الدلالات التى آتاهم فى التوراة والإنجيل على نبوة محمد ﷺ ﴿ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾ فى معناه قولان:

أحدهما: ومن يغير عهد الله.

والثانى معناه: ومن ينكر الدلالة التى على نبوة محمد ﷺ.

---

(١) قرأ أبو جعفر بالخفض، وقرأ الباقون بالرفع. انظر النشر (٢/٢٢٧)، وتفسير البغوى (١/١٨٤).

فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا

قوله – تعالى –: ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾. قال الزجاج: المزينُ هو الشيطان. فإن الله – تعالى – قد زهد الخلق فى الدنيا، ورغبهم فى الآخرة. وقال الأكثرون: المزينُ هو الله – تعالى – والتزيين من الله هو أنه خلق الأشياء الحسنة والمناظر المعجبة، فنظر الخلق إليها بأكثر من قدرها، فأعجبهم ذلك، ففتنوا به؛ [فلذلك][(١)] التزيين من الله.

﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾ أى: يستهزئون. وهم رؤساء قريش كأبى جهل وغيره، وكانوا يسخرون من الفقراء.

قال ابن عباس: أراد بالذين آمنوا: عبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، وخباب بن الأرت، وأبا ذر.

﴿والذين اتقوا﴾ أى: هؤلاء الفقراء ﴿فوقهم يوم القيامة﴾ لأنهم فى أعلى عليين، وأولئك فى أسفل السافلين.

﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ فيه أقوال، أحدها: أنه يوسع على من يشاء من غير مضايقه ولا تقتير.

والقول الثانى: معناه: أنه لايأخذ شيئا من شىء مقدر، كالعبد يأخذ ألفًا من ألفين، فيعطى قدرا من مقدَّرِه فيخاف الإجحاف على ماله؛ ولكن الله يرزق العباد من خزائنه التى لاتنفد.

والثالث: معناه: أنه يقتر على من يشاء، ويبسط على من يشاء، ولايعطى كل أحد على قدر حاجته؛ بل يعطى الكثير من لايحتاج إليه، ولايعطى القليل من يحتاج إليه.

والقول الرابع: قال ابن عباس: هذا فيما سهل الله – تعالى – على رسوله من

(١) فى «الأصل»: فلذلك، وفى «ك»: فكذلك.

اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا

الاستيلاء على بنى قريظة والنضير، على أسهل وجه من غير قتال ولا تعب.

وقوله – تعالى –: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ فالأمة فى اللغة: على وجوه، منها: الأمة بمعنى الدين، ومنه قول النابغة:

حلفتُ، فلم أترك لنفسكَ رِيبَةً　　　وهل يَأْثَمَنْ ذو أمة وهو طائع

أى: ذو دين

والأمة: الفرقة من الناس وغيرهم، فالترك أمة، والروم أمة، والفرس أمة، ومن الطير أمة، قال الله – تعالى –: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾[(1)].

والأمة: الحين، وقال الله تعالى: ﴿وادكر بعد أمة﴾[(2)] أى: بعد حين.

والأمة: الإمام الذى يقتدى به ومنه قوله – تعالى –: ﴿إن إبراهيم كان أمة﴾[(3)].

والأمة: الْمُعَلِّمُ للخير. والأمة: القامة، ومنه قول الشاعر:

وإن معاوية الأكرمين　　　حسان الوجوه طوال الأمم

والإمة – بكسر الألف –: النعمة، والمراد بالأمة ههنا الدين.

يعنى: كان الناس على دين واحد ثم اختلفوا فى معناه.

وقال بعضهم – وهو قول مجاهد – أراد به آدم، كان أمة واحدة.

وقيل – وهو قول قتادة وسعيد بن جبير –: أراد به عشرين قرنا من بنى آدم ونوح كانوا على الإسلام.

(١) الأنعام: ٣٨.

(٢) يوسف: ٤٥.

(٣) النحل: ١٢٠.

اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ

وقيل: أراد به الناس فى زمن إبراهيم كانوا على ملة الكفر.

﴿فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾.

فإن قال قائل: كيف يحكم الكتاب؟ قيل: قرأ عاصم الجحدرى: «لِيُحْكَمَ بين الناس» بضم الياء[١] - فيكون الحكم من الأنبياء.

وأما قوله: ﴿ليحكم بين الناس﴾ يعنى: ليحكم الذين أوتوا الكتاب من النبيين.

وقوله - تعالى -: ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه﴾ يعنى: أوتوا الكتاب. ﴿من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم﴾ أى: حسدا وظلما. ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ قال زيد بن أسلم: اختلفوا فى القبلة، فهدانا الله إلى الكعبة، واختلفوا فى الأيام، فاختار اليهود السبت، والنصارى يوم الأحد، فهدانا الله للجمعة، واختلفوا فى عيسى، فقال بعضهم: كذاب. وقال بعضهم: ابن الله فهدانا الله لكونه نبيا عبدا، واختلفوا فى إبراهيم، فادَّعاه كل فرقة فهدانا الله لكونه حنيفا مسلما.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون، وأول الناس دخولا الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب قبلنا وأوتيناه من بعدهم، الناس لنا تبع، فاليوم لنا، - يعنى: الجمعة - وغدا لليهود، وبعد غد للنصارى»[٢].

﴿والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

---

(١) وهى قراءة أبى جعفر المدنى، كما فى تفسير البغوى، (١ / ٨٦)، والنشر فى القراءات العشر لابن الجزرى (٢ / ٢٢٧). وقرأ الباقون بفتح الياء.

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى (٢ / ٤١٢ رقم ٨٧٦)، ومسلم (٦ / ٢٠٤ - ٢٠٦ رقم ٨٥٥).

يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا

قوله – تعالى –: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾.

نزل فى المهاجرين إلى المدينة حين أصابهم حر شديد و فاقة عظيمة فأنزل الله – تعالى – هذه الآية؛ تطييبا لقلوبهم وتسلية لهم.

فقوله: ﴿أم﴾ كلمة للخروج من كلام إلى كلام، ونكون بمعنى: بل يقول الله – تعالى – لهم: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم﴾ يعنى: ولم يصبكم ما أصابهم، وقوله – تعالى –: ﴿مثل الذين خلوا﴾ أى: صفة الذين خلوا. ﴿من قبلكم مستهم البأساء﴾ الفقر ﴿والضراء﴾ المرض ﴿وزلزلوا﴾ حُرِّكُوا بشدة وخُوِّفُوا. ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾ حتى استبطئوا نصر الله. ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾.

قوله – تعالى –: ﴿يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين﴾ قيل: المراد به الوصية التى كانت واجبة فى الابتداء للوالدين والأقربين.

وقيل: أراد به التطوعات والصدقات جعلها للوالدين، والأقربين، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل.

وقيل: إنه كان فى الابتداء، ثم نسخت بآية الزكاة.

﴿وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾ أى: يحصى ويجازى عليه. وهذا مثل قوله – تعالى –: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره﴾[1] أى: يرى الجزاء على العمل؛ لأن العمل فائت فلا يراه.

قوله – تعالى –: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ أى: شاق عليكم.

واعلم أن أكثر العلماء على أن الجهاد فرض على الكفاية، وقال عطاء – وهو قول الثورى[2] –: أنه تطوع قالوا: والآية فى الذين أمروا بالقتال من الصحابة.

(١) الزلزلة: ٧.

(٢) فى «ك»: النووى، وهو خطأ.

مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ

﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا ﴾ يعنى: القتال ﴿ وهو خير لكم ﴾ بإصابة الشهادة، وحيازة الغنيمة، والظفر بالعدو.

﴿ وعسى أن تحبوا شيئا ﴾ يعنى: القعود عن القتال ﴿ وهو شر لكم ﴾ بفوت المنازل. قال ابن عباس: «كنت رديف رسول الله ﷺ فقال لى: يا غلام ارض بما قدر الله لك؛ فعسى أن تكره شيئا وهو خير لك، وعسى أن تحب شيئا وهو شر لك، وتلا هذه الآية: ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾»[1].

قوله – تعالى –: ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ﴾ أى: عن قتال فيه، خُفضَ على البدل ﴿ قل قتال فيه كبير ﴾ عظيم. ثم ابتدأ فقال: ﴿ وصد عن سبيل الله ﴾ يعنى: صدكم المسلمين عن الإسلام.

﴿ وكفر به ﴾ أى: كفركم بالله. ﴿ والمسجد الحرام ﴾ أى: وصدكم المسلمين عن المسجد الحرام.

﴿ وإخراج أهله منه ﴾ أى: إخراج أهل مكة من مكة ﴿ أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ﴾ أى: والكفر الذى أنتم عليه، وأفعالكم تلك، أكبر عند الله، وأشد من قتال المسلمين فى الشهر الحرام.

قال عروة بن الزبير: سبب نزول الآية: ما روى «أن النبى ﷺ بعث عبد الله بن جحش مع ثمانية نفر قبل مكة، ودفع إليهم كتابا وقال: لاتَفُكُّوهُ إلا بعد يومين، فلما مضى يومان فكوا الكتاب، فإذا فيه: امضوا إلى بطن النخل – وذلك موضع بين مكة والطائف – وفيه استعلموا أخبار قريش، فنزلوا هنالك، وكانوا يستعلمون خفية، فمر بهم عير من الطائف عليهم عمرو بن الحضرمى مع زبيب وأدم، فرماه واحد من

---

(١) رواه ابن جرير الطبرى (٢/ ٢٠١).

وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

المسلمين فقتله وقادوا العير إلى رسول الله ﷺ . وكان ذلك فى آخر يوم من جمادى الآخر، أو فى أول يوم من رجب – وكانوا شاكين فيه – فعيرهم المشركون بقتلهم ابن الحضرمى فى الشهر الحرام فنزلت الآية»(١).

يعنى الذى فعلتم أنتم من تلك الأفعال أكبر وأشد من قتلهم فى الشهر الحرام.

وفى الخبر: «أن النبى ﷺ لم يمد يده إلى شىء من ذلك العير حتى نزلت الآية، ثم قسمها بين المسلمين»(٢).

﴿ ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ يعنى: المشركين كانوا يقاتلون المسلمين ويعيرونهم على الإسلام.

﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾.

قال – تعالى –: ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدو ا فى سبيل الله ﴾ هذه الآية متصلة بالأولى فى المعنى وذلك أن عبد الله بن جحش لما مر بالسرية وقتل ابن الحضرمى من قتله قال: المشركون إن لم يصيبوا وزرا فلا ينالون خيرا فنزلت هذه الآية ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ يعنى عبد الله بن جحش وقومه ﴿ والذين هاجروا ﴾ من أوطانهم ﴿ وجاهدوا ﴾ يعنى بالغزو فى سبيل الله ﴿ أولئك يرجون رحمة الله ﴾ أخبر أنهم على رجاء الرحمة، وإنما لم يقطعوا لأنفسهم بالرحمة؛ لأن الإنسان يعرف من نفسه أنه لايمكنه تأدية حق الله – تعالى – على وجهه فلا يأمن تقصيرا؛ فلا يمكنه القطع لنفسه بالرحمة.

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (٢/ ٢٠٢ – ٢٠٣) مطولاً.

(٢) تقدم فى الذى قبله من رواية عروة.

﴿٢١٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن

ولأنه ربما يرتكب فى المستقبل ما يستوجب به العقاب .

﴿ والله غفور رحيم ﴾ فالغفور : الستور . والرحيم : العطوف .

قوله – تعالى – : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ فالخمر : كل شراب مسكر، وسمى المسكر : خمرا؛ لأنه يخامر العقل ويستره .

وأصل الخمر : الستر والتغطية . ومنه الخِمَار؛ لأنه يستر الرأس . ويقال : دخل فلان فى خمار الناس، أى تَستَّرَ فيهم .

وقال عمر – رضى الله عنه – : الخمر ما خامر العقل . وهو حجة أصحاب الحديث على أن كل مسكر خمر، ومنه يقال للسكران من أى شراب : كان مخمورا .

والميسر : القمار . وقال ابن مسعود : دعوا الكعاب فإنه من الميسر .

وقال ابن سيرين : كل ما يلعب به فهو ميسر، حتى الجوز الذى يلعب به الصبيان . ثم اختلفوا فى تحريم الخمر أنه بأى آية كان؟ .

قال بعضهم : هو بهذه الآية، فإنه قال : ﴿ قل فيهما إثم كبير ﴾ (ولفظ الإثم)[١] يدل على التحريم؛ فإنه حرم الخمر بلفظ الإثم فى آية أخرى، حيث قال : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم ﴾[٢] وأراد به : الخمر . ومنه قول الشاعر :

شربتُ الإثم حتى ضل عقلى كذاك الإثم يذهبُ بالْعُقُــولِ

وقال ابن عباس، وأكثر المفسرين : إن تحريم الخمر بالآية التى فى سورة المائدة[٣] . بأنه لما نزلت هذه الآية : ﴿ قل فيهما إثم كبير ﴾ فانتهى بعضهم، ولم ينته البعض . فنزل قوله : ﴿ لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾[٤] فكانوا يتحينون للشرب حتى كان

---

(١) فى «ك» : والإثم الكبير.

(٢) الأعراف : ٣٣ .

(٣) هى قوله – تعالى – : ﴿ إنما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ إلى قوله : ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ آية : ٩٠، ٩١ .

(٤) النساء : ٤٣ .

الرجل يشرب بعد العشاء الأخيرة فيصبح وقد زال السكر، ثم يشرب بعد صلاة الصبح فيصحو إذا جاء وقت الظهر، فنزلت آية المائدة. قال ابن عمر: حرمت الخمر بآية المائدة، وروى هو عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تحريم الخمر بآية المائدة»(١).

وعن عمر - رضى الله عنه - أنه لما سمع قوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾(٢) قال: انتهينا ربنا.

﴿قل فيهما إثم كبير﴾ قرأ حمزة والكسائى: بالثاء وقرأ الباقون كبير(٣)- بالباء، فالكبير: بمعنى العظيم، والكثير: لكثرة عدد الآثام فى الخمر التى ذكرها فى آية المائدة ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة و البغضاء﴾(٢) الآية.

وقوله - تعالى -: ﴿ومنافع للناس﴾ فالإثم فى الخمر: هو ما يقع فيه من العداوة و البغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

وأما المنافع فى الخمر: اللذة، والفرح، واستمراء الطعام، والربح فى التجارة فيه.

وقد قال حسان بن ثابت: فى الخمر ونفعها:

ونشربها فتتركنا أُسُودًا ... ولُبُوثاً ما يُنَهْنِهُنَا اللقاءُ(٤)

وقال آخر:

وإذا سَكِرْتُ فإننى ... رَبُّ(الْخَوَرْنَق)(٥) والسدير

وإذا صحوتُ فإننى ... رَبُّ الشُّوَيْهَةِ والبعير

وأما المنافع للناس فى الميسر: فهو إصابة المال فيه من غير كد وتعب.

والإثم فيه: أنه إذا ذهب ماله من غير عوض يأخذه يسوءه ذلك؛ فيعادى صاحبه، ويقصده بالسوء.

---

(١) رواه ابن جرير الطبرى فى تفسيره (٢/٢١١) من حديث ابن عمر. (٢) المائدة: ٩١.

(٣) انظر النشر (٢/٢٢٧)، وتفسير البغوى (١/١٩٣).

(٤) كذا وقع فى «الأصل وك». وفى تفسير القرطبى (٣/٥٧).

ونشربها فتنزلنا ملوكًا ... وأسداً ما ينهنهنا اللقاء

(٥) فى «ك»: الخرونق.

وقوله ﴿ وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ قيل: معناه: إثمهما بعد التحريم أكبر من نفعهما قبل التحريم.

وقيل: إثمهما أكبر من نفعهما قبل التحريم، يعنى: الإثم الذى يصير الخمر سببا فيه من العدواة والعربدة أكبر من نفعهما.

قوله تعالى: ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ قرأ أبو عمرو وحده بضم الواو، وقرأ الباقون بفتحها[1]، فمن قرأ بالضم؛ فتقديره ما الذى ينفقون، فقال: قل الذى ينفقون العفوُ؛ ومن قرأ بالفتح فتقديره: ماذا ينفقون؟ فقال: قل: ينفقون العفو. واختلفوا فى معنى العفو، فقال طاوس: هو اليسير من كل شىء، وقال أكثر المفسرين: العفو: الفضل، وذلك أن الصدقة إنما تجب فى الفاضل عن الحاجة، وكانت الصحابة يكتسبون المال، ويمسكون قدر النفقة، ويتصدقون بالفضل، بحكم هذه الآية، ثم نسخ ذلك بآية الزكاة.

وقيل معناه: [التصدق][2] عن ظهر الغنى؛ وذلك أن يتصدق وهو غنى، ولايتصدق وهو فقير. فيبقى كَلاً على الناس. وهو معنى قوله ﷺ: «أفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى»[3].

وحقيقة العفو: الميسورُ. ومنه قوله: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾[4] أى: ما تيسر من أخلاق الرجال.

---

(١) انظر النشر (٢ / ٢٢٧)، وتفسير البغوى (١ / ١٩٣).

(٢) فى «الأصل وك»: التصديق. وهو تحريف.

(٣) متفق عليه من حديث حكيم بن حزام، رواه البخارى (٣ / ٣٤٥ رقم ١٤٢٧)، ومسلم (٧ / ١٧٦ رقم ٩٥٠).

ورواه البخارى من حديث أبى هريرة (٣ / ٢٤٥ رقم ١٤٢٦) وأطرافه فى ١٤٢٨، و ٥٣٥٥، ٥٣٥٦.

(٤) الأعراف: ١٩٩.

فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا و الآخرة ﴾ فيه تقديم وتأخير، وتقديره: يبين الله لكم الآيات فى الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة؛ فتعرفون فضل الآخرة على الدنيا. فتزهدون فى الدنيا، وتنفقون رغبة فى الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ ويسألونك عن اليتامى ﴾ روى أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا ﴾[1] تحرج المسلمون من أموال اليتامى تحرجا شديدا، حتى عزلوا أموال اليتامى عن أموالهم فى المرعى، والطعام، والإدام، فنزلت هذه الآية بإباحة المخالطة فى ذلك كله؛ لكن بشرط أنه إن استخدم غلام اليتيم يخدمه، وإن أكل بطعامه يبدله.

قال مجاهد: يوسع عليه من طعام نفسه لايتوسع من طعام اليتيم.

وقوله تعالى: ﴿ قل إصلاح لهم خير ﴾ قرأ الضحاك: قل إصلاح إليهم خير، والمتلو: قل إصلاح لهم. ومعناه: إصلاح لهم خير لكم فى الدين. ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ هو إباحة المخالطة.

﴿ والله يعلم المفسد ﴾ يعنى: الذى يخالط فيخون ﴿ من المصلح ﴾ وهو الذى يخالط فلا يقصد الخيانة. ﴿ ولو شاء الله لأعنتكم ﴾ قال أبو عبيدة: لأهلككم. وقال ابن عباس: يجعل ما أصبتم من أموال اليتامى موبقا لكم. وقيل: معناه: ولو شاء الله لما أباح لكم المخالطة.

وقال أهل اللغة: العنت: المشقة. ومعناه: ﴿ ولو شاء الله لأعنتكم ﴾ أى: كلفكم فى كل شيء ما يشق عليكم.

﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ فالعزيز: هو الذى يأمر بعزة؛ سهل على العباد، أو لم يسهل، والحكيم، قد ذكرنا معناه.

(١) النساء: ١٠.

قوله تعالى : ﴿ ولاتنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾ قال ابن عباس : لايجوز نكاح الكوافر أبداً إلى يوم القيامة؛ بحكم هذه الآية.

وسائر المفسرين والعلماء من الصحابة وغيرهم، على أن الآية منسوخة فى الكتابيات، بقوله: ﴿ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب ﴾(١).

وروى عن عثمان - رضى الله عنه - أنه تزوج بنائلة بنت فرافصة - وكانت نصرانية - فأسلمت تحته. وعن طلحة بن عبيد الله: أنه تزوج بنصرانية. وعن حذيفة: أنه تزوج يهودية. وقال قتادة وسعيد بن جبير: أراد بالمشركات: الوثنيات.

فإن قال قائل: الكفار عندكم مشركون كلهم، فمن لاينكر إلا نبوة محمد كيف يكون مشركا بالله؟

قلنا: قال أبو الحسين بن فارس صاحب المجمل: هو مشرك؛ لأنه يقول: القرآن الذى أتى به محمد ﷺ كلامُ غير الله، وهذا القرآن معجز لايقوله إلا من كان إلها، فإذًا هو كلام غير الله. وكأنهم أشركوا بالله غير الله.

وأما سبب نزول الآية: ما روى «أن أبا مرثد الغنوى كانت له حبيبة بمكة، وكان يصيبها بالفجور - وتسمى عناقًا - فلما هاجر إلى المدينة وأسلم، تمنت له حاجة، فرجع إلى مكة، فتزينت له، فقال أبو مرثد: إنى قد دخلت فى دين الإسلام، وإن الزنا حرام فى دينى، فحتى أرجع فاستأذن رسول الله ﷺ أن أتزوج بك، فرجع واستأذن؛ فنزل قوله تعالى : ﴿ ولاتنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾»(٢).

وقوله: ﴿ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ﴾ نزل هذا فى عبد الله بن رواحة. «كانت له أمة سوداء فلطمها، ثم أخبر رسول الله ﷺ بذلك فسأله عنها، فقال:

(١) المائدة: ٥.

(٢) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص ٥٠) عن ابن عباس، وفى (ص ٤٩) عن مقاتل بن حيان.

وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي

إنها مؤمنة، تؤمن بالله والرسول، وتحسن الوضوء، والصلاة. فقال عليه السلام: بئسما صنعت. فقال: والله لأتزوجن بها، فأعتقها، وتزوج بها. وكان قد عُرِضَت عليه حرة مشركة، فعيره المشركون على نكاح الأمة السوداء؛ فنزل قوله: ﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾»(١).

﴿ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾ فى هذا إجماع، أن المسلمة لاتنكح من المشركين أجمع ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾، فإن قال قائل: كيف قال: ﴿خير من مشرك﴾ ولاخيرَ فى المشرك؟ قيل: يجوز مثله كما قال الله - تعالى -: ﴿ءآلله خير أما يشركون﴾(٢) ويقال: الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل.

﴿أولئك يدعون إلى النار﴾ أى: إلى أسباب النار ﴿والله يدعو إلى الجنة و المغفرة بإذنه﴾ أى: بقضائه وإرادته ﴿ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾

قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن المحيض﴾ أما السائل عنه: هو أسيد بن حضير، وعباد بن بشير. وأما المحيض: مفعل من الحيض. والمراد به: نفس الحيض.

قال الأزهرى: يقال: حاضت المرأة حيضا، ومحيضا: إذا نزل بها الدم من الرحم فى وقت معلوم.

ويقال: استحيضت المرأة: إذا نزل بها الدم من عرق لا من الرحم لا فى وقت معلوم.

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (٢ / ٢٢٣) عن السدى مرسلاً.

(٢) النمل: ٥٩.

الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

﴿ قل هو أذى ﴾ أى: قذر. وقال الكلبى: الأذى: هو الدم.

﴿ فاعتزلوا النساء فى المحيض ﴾ وسبب نزول الآية ما روى عن أنس: أن اليهود كانوا يعتزلون المرأة فى حالة الحيض أشد الاعتزال، وكانوا لايؤاكلونها، ولايشاربونها، ويخرجونها من البيت، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فنزلت الآية.

ولم يُرِدْ بهذا الاعتزال ما كانوا يفعلونه، وإنما أراد به الاعتزال بترك الوطء حتى تحل المضاجعة، وسائر أنواع المباشرة.

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «اصنعوا كل شىء إلا الوطء»(١).

وفيه قول آخر: أنه يفعل كل شىء ويجتنب ما تحت الإزار، وذلك ما بين السرة والركبة وهو قول الشافعى.

﴿ ولا تقربوهن ﴾ أراد به: القربان بالوطء؛ فإن قُربانها بغير الوطء مباح. ﴿ حتى يطهرن ﴾ يقرأ مخففا. والمراد به حتى يطهرن من المحيض. وقرأ أهل الكوفة غير حفص «حتى يَطَّهَّرن» مشدد(٢).

وقرأ أبى بن كعب، وابن مسعود – رضى الله عنهما –: «حتى يتطهرن» فى الشواذ.

وقوله: ﴿ يطهرن ﴾ بمعنى: يتطهرن؛ إلا أنه أدغم التاء فى الطاء. ومعناه: حتى

(١) رواه مسلم فى صحيحه (٣/٢٧٢ رقم ٣٠٢)، وأبو داود (١/٦٧ – ٦٨ رقم ٢٥٨)، والترمذى (٥/١٩٩ رقم ٢٩٧٧) وقال: حسن صحيح، والنسائى (١/١٥٢ رقم ٢٨٨)، وابن ماجه (١/٢١١ رقم ٦٤٤)، وأحمد (٣/١٣١، ٢٤٦) والطيالسى فى مسنده ص٢٧٣ رقم ٢٠٥٢، وابن حبان (٤/١٩٥–١٩٦ رقم ١٣٦٢)، والبيهقى (١/٣١٣).

(٢) قرأ حمزة والكسائى، وخلف، وأبو بكر بتشديد الطاء والهاء، وقرأ الباقون بتخفيفها. انظر النشر (٢/٢٢٧)، وتفسير البغوى (١/١٩٧).

يغتسلن.

قال أبو جعفر النحاس: قوله: ﴿يَطْهُرْنَ﴾ على التخفيف قد يكون بمعنى الاغتسال، من فعل الطهارة.

والكل حجة الشافعي فى وجوب الاغتسال (لإباحة الوطء فإنه)[1] مَدَّ التحريم إليه.

وقوله: ﴿فإذا تطهرن﴾ أى: اغتسلن ﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ فيه قولان: أحدهما معناه: من حيث أمركم الله بالاجتناب فى حال الحيض.

و الثانى - وهو قول محمد بن الحنفية - معناه: من حيث أباح الله، وذلك بطريق النكاح.

﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ قيل: معناه: التوابين من الذنوب. والمتطهرين من العيوب.

والقول الثانى: معنى التوابين الرَّجَّاعين إلى الله بالتوبة والاستغفار، ومعنى المتطهرين: المتبرئين من حول أنفسهم وقوتهم.

وفيه قول ثالث: أن التوابين: من التوبة، والمتطهرين يعنى: بالاستنجاء بالماء.

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين﴾[2] يعنى: المتطهرين بالاستنجاء بالماء بعد الحجر.

قوله تعالى: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ أى: موضع حرث لكم ومزدرع، وقد قال الشاعر:

إذا أكل الجرادُ حروثَ قومٍ ... فحرثى هَمُّهُ أكلُ الجرادِ

(١) فى «ك»: فى وجوب الوط؛ لأنه.

(٢) التوبة: ١٠٨.

سمى العيال: حرثًا، أنشده المبرد.

﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ وسبب نزول هذا: ما روى جابر: أن اليهود قالوا من أتى امرأته مولية جاء ولده أحول؛ فنزلت الآية.

﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ أى: (مقبلة ومدبرة)[1] وقائمة وقاعدة، وكيف شئتم.

وقيل: معناه: متى شئتم.

قال ابن عباس: معنى قوله: ﴿أنى شئتم﴾ أى: إن شئتم فاعزلوا، وإن شئتم فلا تعزلوا.

قال الشيخ: واعلم أن الآية لاتدل على إباحة إتيان النساء فى غير المأتى؛ لأنه قال: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم﴾ فخص الإتيان بموضع الحرث، وهو القبل.

وروى نافع، عن ابن عمر. أنه كان يبيح إتيان المرأة فى الدبر، وأنكروا هذا على نافع. وقالوا: كذب العبد على سيده - عبد الله بن عمر - فإنه ما كان يبيحه قط، وحكى ذلك عن مالك أيضا، وأنكره أصحابه.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله لايستحى من الحق، لا تأتوا النساء فى أدبارهن»[2].

وعن ابن عباس أنه قال: هى اللوطية الكبرى. وقال فى العزل: هى الموؤدة الصغرى.

وقوله تعالى: ﴿وقدموا لأنفسكم﴾ قال ابن عباس: هو التسمية على الوطء. وقيل: هو طلب الولد. وقيل: سائر أفعال الخير.

---

(١) فى «ك»: مقبل ومدبر.

(٢) رواه والنسائي فى الكبرى (٥/٣١٨ رقم ٨٩٨٩)، وابن ماجة (١/٦١٩ رقم ١٩٢٤)، وأحمد فى مسنده (٥/٢١٢، ٢١٤، ٢١٥) وابن حبان فى صحيحه (٩/ ٥١٢ - ٥١٥ رقم ٤١٩٨و ٤٢٠٠) وغيرهم من حديث خزيمة بن ثابت. وفى الباب أحاديث عن غير واحد من الصحابة، وراجع تلخيص الحبير (٣/٣٦٧-٣٨٠).

أَنَّكُم مُّلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي

﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ صائرون إليه ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ يامحمد .

قوله – تعالى –: ﴿ ولاتجعلوا الله عرضة لأيمانكم ﴾ نزلت الآية فى عبد الله بن رواحة، كان له ختن على ابنته، فحلف أن لايبره فإذا قيل له : ألا تصل ختنك؟ فقال : حلفت – وكان من أقربائه – فنزلت الآية. ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا ﴾

والعرضة : كل ما يعترض فيمنع من الشيء. ومعناه : ولا تجعلوا الحلف بالله سببا يمنعكم عن البر والتقوى.

وقيل : معناه : لاتستكثروا من الأيمان؛ فإن من كثر يمينه فقد جعل اسم الله عرضة للهتك.

وفيه قول آخر : معناه : ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن لاتبروا، «ولا» محذوفة، وهذا كما قال الشاعر :

فقالت يمينُ اللهِ أبرحُ قاعـدًا   وإنْ قُطِعَتْ رأسى لديكِ وأوصالى

أى : لا أبرح قاعدا.

﴿ وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم ﴾ قوله تعالى : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ﴾ اللغو : كل مطرح (من) الكلام وفى معناه ها هنا خمسة أقوال :

أحدها : وهو قول عائشة – رضى الله عنها – قالت : يمين اللغو : قول الرجل : لا والله، وبلى والله، وإى والله. وهذا قول الشافعى.

والثانى : وهو قول أبى هريرة، وابن عباس : وهو أن يحلف الرجل على شيء أنه فعله ولم يفعله، أو على عكسه وهذا قول أبى حنيفة. وقال الشعبى : هو اليمين فى

أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا

حال الغضب. وقال سعيد بن جبير: هو الحلف بتحريم الحلال.

وقال زيد بن أسلم: هو أن يقول الرجل: أعمى الله بصرى، أو أتلف مالى، إن لم أفعل كذا؛ فهذا يمين اللغو، والله لايؤاخذ به، ولو يؤاخذ به الناس لعجل عقوبتهم.

والأصح: ماقالت عائشة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ وكسب القلب: هو القصد بالقلب إلى اليمين؛ فدل أن يمين اللغو: مالم يقصد بالقلب.

﴿والله غفور﴾ أى: ستور ﴿حليم﴾ وهو الذى لايعجل بالعقوبة.

قوله تعالى: ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر﴾ الأَلِيَّة: اليمين. وكذلك الإيلاء قال الشاعر:

قليل الألايا حافظٌ ليمينه وإن بدرت منه الأَلِيَّةُ برت

فقوله: ﴿للذين يؤلون﴾ أى: يحلفون. قال ابن عباس: إنما ينعقد الإيلاء إذا حلف على ترك الوطء أبدا ومطلقا. ومذهب أبى حنيفة أنه ينعقد الإيلاء بالحلف على أربعة أشهر. ومذهب الشافعى أنه إنما يصير مُولِيًا بالحلف على أربعة أشهر، وهى ﴿تربص أربعة أشهر﴾ أى: انتظار أربعة أشهر.

﴿فإن فاءوا﴾ أى: فإن رجعوا عن اليمين بالوطء فى حق من يقدر على الوطء، أو بالقول فى حق من لايقدر على الوطء ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ وقرأ أبى بن كعب: «فإن فاءوا فيهن» يعنى فى المدة، وهذا يوافق قول أبى حنيفة.

﴿وإن عزموا الطلاق﴾ يعنى: بالإيقاع ﴿فإن الله سميع عليم﴾ لقول الزوج، عليم بما يضمره.

ومذهب الشافعى أنه تجوز الفيئة بعد المدة بوقف حتى يفىء أى: يطلق، وهو

مروى عن عمر، وعلى، و أبى الدرداء - رضى الله عنهم -.

وذهب أبو حنيفة إلى أنها تطلق طلقة بائنة بانقضاء المدة. وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما - وابن مسعود، وعلى، فى رواية ضعيفة، والمسألة فى الخلافيات.

قوله تعالى: ﴿والمطلقات﴾ يعنى المخليات يقال: أطلق الأسير وأطلق البعير إذا خلاّه.

﴿يتربصن بأنفسهن﴾ ينتظرن ﴿ثلاثة قروء﴾ والقُرْء: الطهر، وهو قول أهل الحجاز.

قال الزهرى: لم يقل أحد من أهل الحجاز: أن الأقراء الحيض؛ إلا سعيد بن المسيب.

ومذهب أبى حنيفة. أن الأقراء الحِيَض وهو مروى عن عمر، وعلى، وابن مسعود، وهو قول أهل الكوفة.

وقال أبو عمرو بن العلاء: القرء اسم ينطلق على الحيض، وينطلق على الطهر، ويذكر بمعناهما أيضا.

وأصل القرء: الجمع. وقيل: هو مأخوذ من القرء بمعنى الوقت، يقال: أقرأت الرياح إذا هبت لوقتها.

وقَرَأَتْ النجوم إذا أفلت. ويكون بمعنى طلعت لوقت معلوم.

وأنشدوا فى الأقراء بمعنى الأطهار قول الأعشى:

أفى كل عام أنت جاشم غزوة ... تشد لأقصاها عزيم عزائكا

مُورِّثَةً مالا وفى الحى رِفْعَةً ... لِمَا ضاع فيها من قُروء نِسائكا

يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ

وإنما يضيع فى السفر زمان الأطهار لا زمان الحيض؛ لأنها مضيعة.

وقوله تعالى: ﴿ولايحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن﴾ يعنى: من الحيض، والحبل.

قال قتادة: علم الله تعالى أن يكون فى النساء لوائم، تقول المرأة: حضت، ولم تحض، وطهرت[1] ولم تطهر، وحبلت ولم تحبل.

قوله تعالى: ﴿إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿إن كن يؤمن بالله﴾ والحكم فى الكافرة مثل الحكم فى المؤمنة؟ قيل: معناه: أن هذا من فعل المؤمنات، كما يقال: إن كنت مؤمنا فأدّ حقى. يعنى: من فعل المؤمنين أداء الحقوق. وقوله ﴿وبعولتهن﴾ أى: أزواجهن ﴿أحق بردهن﴾ أى: برجعتهن ﴿فى ذلك﴾ يعنى: فى تلك المدة. ﴿إن أرادوا إصلاحا﴾ معناه: إن أرادوا بالرجعة الصلاح، وحسن العشرة، ولم يكن قصده الإضرار، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية. كان الرجل منهم يطلق امرأته، ثم يراجعها إذا أشرفت العدة على الانقضاء، ثم يطلقها، ثم يراجعها كذلك، يقصد به تطويل العدة عليها.

﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف﴾ قال ابن عباس: فى معناه: إنى أحب أن أتزين لامرأتى كما تحب امرأتى أن تتزين لى؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف﴾ وفيه قول آخر، معناه: على الرجل أن يتقى لحقها كما على المرأة أن تتقى لحقه يعنى: من الحرام.

﴿وللرجال عليهن درجة﴾ قال مجاهد: بالجهاد والميراث. وقيل: يعنى: فى الطلاق؛ لأن الطلاق بيد الرجال. وقال حميد: باللحية. ﴿والله عزيز﴾ أى: منيع

(١) فى «ك»: وتطهرت.

بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا

﴿ حكيم ﴾.

قوله تعالى : ﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾. قال عروة بن الزبير: كان الناس فى الابتداء يطلقون من غير حصر ولا عدد، فيطلق الرجل امرأته فلما قاربت انقضاء العدة راجعها، ثم طلقها كذلك، ثم راجعها، وقال: لا أُخليك تتزوجين أبدا! فنزلت الآية ﴿ الطلاق مرتان ﴾» ويعنى: الطلاق الذى يملك عقيبه الرجعة مرتان.

﴿ فإمساك بمعروف ﴾ هو الرجعة، وقيل: هو الإمساك بعد الرجعة للصحبة. وقوله: ﴿ بمعروف ﴾ هو كل ما يعرف فى الشرع من أداء حقوق النكاح، وحسن الصحبة. ﴿ أو تسريح بإحسان ﴾ هو أن يتركها بعد الطلاق حتى تنقضى عدتها.

«وسئل رسول الله ﷺ أين الطلقة الثالثة؟ فقال: أو تسريح بإحسان»(١).

ولفظ السراح والفراق صريحان مثل الطلاق عند الشافعى.

وقال أبو حنيفة: الصريح لفظ واحد وهو الطلاق.

وقوله تعالى : ﴿ ولايحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا ﴾ يعنى: غصبا وظلما، وذلك مثل قوله فى سورة النساء: ﴿ وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ﴾(٢).

وقوله تعالى : ﴿ إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ﴾ يعنى: إنما يحل الأخذ عند

---

(١) رواه الدارقطنى (٤/٣، ٤)، والبيهقى فى سننه (٧/ ٣٤٠) من حديث أنس وأنكراه، وصححاه من حديث أبى رزين مرسلا. وقال البيهقى: وروى عن قتادة عن أنس وليس بشىء.
ورواية أبى رزين أخرجها أحمد، وأبو داود فى المراسيل، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد وابن جرير الطبرى، وابن أبى حاتم، وابن مردويه، والبيهقى وغيرهم. وانظر التعليق المغنى على الدارقطنى.
(٢) النساء: ٢٠.

إرادة الخلع، ووجود الخوف.

وقوله: ﴿إلا أن يخافا﴾ يقرأ بفتح الياء وهو المعروف. وقرأ الأعمش وحمزة: «إلا أن يُخافا» بضم الياء[1]. وقرأ ابن مسعود: «إلا أن تخافوا».

أما الأول: راجع إلى الزوجين. وأما قراءة ابن مسعود: فهى خطابٌ للولاة والقضاة.

وأما قراءة حمزة: قيل: إنه قصد اعتبار معنى قراءة ابن مسعود، ومعناه: إلا أن يخاف الزوجان؛ [فيعلم][2] الولاة والقضاة. وقالوا: إنه لم يصب.

واختلفوا فى معنى هذا الخوف، قال أبو عبيدة إمام اللغة: الخوف بمعنى العلم.

قال أبو إسحاق الزجاج: هو على حقيقة الخوف، معناه إلا أن يغلب على الظن خوف أن لايقيما حدود الله.

وفيه قول ثالث: أن الخوف بمعنى الظن، قال الشاعر:

أتانى كلام من نصيب (يقوله)[3] وما خفت ياسلاَّم أنك [عائبى][4]

أى: ما ظننت.

وقوله تعالى: ﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ أى: فيما اختلعت به. واختلفوا فى الخلع،

قال طاوس، والربيع بن أنس: يختص جواز الخلع بحال خوف النشوز؛ تمسكا بظاهر الآية.

وقال الزهرى: يختص جواز الخلع بقدر ما ساق إليها من المهر، حتى لايجوز بالزيادة. وقال الحسن: الخلع إنما يجوز للولاة والقضاة؛ تمسكا بظاهر الآية.

---

(١) قرأ بالياء المضمومة: أبو جعفر، ويعقوب، وحمزة.

وقرأ الباقون بفتحها. انظر النشر (٢/٢٢٧)، وتفسير البغوى (١/٢٠٧).

(٢) فى «الأصل و ك»: ومن الخائف، وما أثبتناه هو الصواب، انظر تفسير البغوى (١/٢٠٧).

(٣) فى «ك»: بقول.

(٤) فى «الأصل وك»: عاصى.

افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ

والأكثرون على أن الخلع يجوز بكل حال، وبكل قدر تراضيا عليه من الزوجين وغيرهما.

وإنما الآية خرجت على وفق العادة في أن الخلع إنما يكون في حال خوف النشوز، وهو الأولى أن يؤتى بالخلع في حال النشوز، وبقدر المهر.

وقوله - تعالى -: ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ﴾ أي: فلا تَجَاوَزُوها، وحدود الله: كل ما منع الشرع من المجاوزة عنه.

وقوله تعالى: ﴿ ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾. ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ فإن طلقها فلا تحل له من بعد ﴾ هو الطلقة الثالثة. وحكمها تحريم العقد إلى أن يوجد الزوج الثاني. ثم التحليل للزوج الأول إنما يحصل بالعقد والوطء جميعا، على قول أكثر العلماء.

وحكي عن سعيد بن المسيب - وقيل: عن سعيد بن جبير - أنه يحصل بمجرد النكاح. بظاهر الآية. وقد عُدّ هذا من شواذ الخلاف.

والدليل على صحة القول الأول: ما روى «أن امرأة رفاعة القرظي جاءت إلى رسول الله ﷺ، وقالت: إن رفاعة بَتَّ طلاقي، وتزوجت بعده بعبد الرحمن بن الزبير، وإنما معه مثل هدبة الثوب. فقال عليه السلام: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك»[1]. فدلت السنة على اشتراط الوطء وهذا خبر صحيح.

وقوله تعالى: ﴿ حتى تنكح زوجا غيره ﴾ فالنكاح بمعنى الوطء، ويكون بمعنى

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري (٩/٢٧٤ رقم ٥٢٦٠)، ومسلم (١٠/٣-٧ رقم ٤٤٣٣) من حديث عائشة - رضي الله عنها -.

عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ

العقد. ﴿فإن طلقها﴾ يعنى: الزوج الثانى ﴿فلا جناح عليهما أن يتراجعا﴾ وأراد بالرجعة هاهنا: إنشاء النكاح مع الزوج الأول.

وقوله تعالى: ﴿إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾ يعنى: إن علما أن يكون بينهما الصلاح، وحسن الصحبة.

وقوله: ﴿وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾ أى: يعلمون ما أمر الله به

قوله تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن﴾ أى: قاربن بلوغ الأجل كما يقال: بلغت المنزل، إذا قاربه.

وقوله: ﴿فأمسكوهن بمعروف﴾ أى: راجعوهن بالمعروف.

﴿أو سرحوهن بمعروف﴾ أو اتركوهن حتى تنقضى العدة.

﴿ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا﴾ أى: لاتقصدوا بالرجعة الضرار بالمرأة، كما كانوا يفعلونه. ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ أى: أضر بنفسه لابغيره.

﴿ولا تتخذوا آيات الله هزوا﴾ قالت عائشة – وهو الأصح –: هو النهى عن قصد الإضرار (بالرجعة)[1] فإن كل من خالف أمر الشرع فهو متخذ آيات الله هزوا. وقال أبو الدرداء – وهو قول الحسن –: هو أن الرجل منهم كان يطلق، ثم يقول: ما كنت جادا، ويعتق، ثم يقول: ما كنت جادا، كنت لاعبا.

وفيه قول ثالث: أنه نَهْىٌ عن الزيادة على قدر الطلاق الثلاث.

(١) فى «ك»: مع الرجعة.

وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم

وقوله تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ قال عطاء: أراد به نعمة الإسلام.

﴿وما أنزل عليكم من الكتاب﴾ يعنى: القرآن ﴿والحكمة﴾ يعنى: السنة.

﴿يعظكم به﴾ يرشدكم به ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾.

قوله تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن﴾ أراد ببلوغ الأجل فى هذه الآية: تمام انقضاء العدة.

وقوله تعالى: ﴿فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾ والعضل: المنع.

قال الخليل: يقال: دجاج معضل، إذا نشبت فيها البيضة وامتنعت من الخروج؛ لضيق المخرج. ومنه الداء العضال، وهو الذى لايطاق علاجه.

وعن عمر - رضى الله عنه - أنه قال: أعضل بى أهل الكوفة. أى: ضيقوا علىَّ، وأوقعوا بى فى أمر شديد.

وأكثر العلماء والمفسرين على أنه خطاب للأولياء، نهاهم عن الامتناع من التزويج.

وقد قال الشافعى: هذا بين، أنه دليل على أن المرأة لاتلى عقد النكاح.

ونزلت الآية فى معقل بن يسار المزنى؛ فإنه زوج أخته من رجل فطلقها وتركها حتى انقضت عدتها، ثم جاء يخطبها مع الخُطَّاب، ورغبت المرأة فيه، فقال معقل: زوجتك أختى دون غيرك، وخطبها أشراف قومى فاخترتك! أطلقتها، لا أنكحتكها أبدا؛ فنزلت الآية.

وفيه قول آخر: أنه خطاب للأزواج؛ لأن ابتداء الآية خطاب لهم.

ومنع الأزواج هو ما ذكرنا من أن يطلق، ثم يراجع، ثم يطلق. والأول أصح.

وقوله - تعالى -: ﴿إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم

بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا

يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ إنما خصهم لأن الوعظ إنما يؤثر فى المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿ذلكم أزكى لكم وأطهر﴾ أزكى لكم أى: خير لكم، وأطهر أى: أصلح. ﴿و الله يعلم وأنتم لاتعلمون﴾.

قوله تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن﴾ هذا خبر بمعنى الأمر.

﴿حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾.

فالحولان: (مدة)[1] الرضاع، فإن قال قائل: لم قال: كاملين؟

قيل: لأن الحولين قد ينطلق على الحول وبعض الحول الثانى، كما فى قوله: ﴿الحج أشهر معلومات﴾[2] أطلق الأشهر على شهرين وبعض الثالث، فقال: كاملين ليعرف أنه أراد تمام الحولين. وقيل: إنما قاله تأكيدا.

وروى أن امرأة أتت بولدٍ لستة أشهر من وقت النكاح، فجاء زوجها إلى عثمان فى ذلك. فهم عثمان - رضى الله عنه - برجمها، فقال عليّ: لاسبيل لك عليها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾[3] وقال: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ فإذا ذهب الفصال حولين، بقى للحمل ستة أشهر، فتركها عثمان، ودرأ الحد.

وقوله تعالى: ﴿وعلى المولود له﴾ يعنى: الزوج أبو الولد. ﴿رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾ وذلك نفقة مدة الرضاع. ﴿لاتكلف نفس إلا وسعها﴾ إلا طاقتها،

(١) فى «ك»: عدة.

(٢) البقرة: ١٩٨.

(٣) الأحقاف: ١٥.

تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن

يعنى: على الموسع بقدر وُسْعِه، وعلى المقتر بقدر طاقته.

وقوله تعالى: ﴿لاتضار والدة بولدها﴾ بفتح الراء. وقرأ أبو عمرو وغيره بضم الراء. وقرأ أبان [عن][1] عاصم: «لاتضارر» وفى الشواذ[2]. فمن قرأ بفتح الراء فمعناه: لاتضار المرأة بولدها. يعنى: لايَنْتَزِعِ الأبُ ولدها منها، فيسلمه إلى غيرها وهى راغبة فى الإرضاع.

ويحتمل أن معناه: أن المرأة لاتضار بولدها فتتركه (لغيرها)، وتمتنع من الإرضاع.

ومن قرأ بالرفع فهذا أيضا معناه، وهو معنى القراءة الثالثة.

وقوله تعالى: ﴿ولا مولود له بولده﴾ يعنى الأب لايضر بولده فيسلم إلى غير الأم.

وقوله تعالى: ﴿وعلى الوراث مثل ذلك﴾ قال عمر: أراد به على غير الوالدين مثل ذلك النفقة، وهذا قول أبى حنيفة، فإنه يوجب نفقة القرابة على الإخوة والأعمام.

والقول الثانى: أراد بمثل ذلك: ترك المضارة. وهو قول ابن عباس، ولم ير النفقة على غير الوالدين. وهذا مذهب مالك والشافعى.

وفيه قول ثالث: أراد بالوارث هذا: الولد، عليه نفقته من ماله إن كان له مال.

وقوله تعالى: ﴿فإن أرادا فصالا﴾ أى: فيما دون الحولين. ﴿عن تراض منهما﴾ يعنى: من الوالدين ﴿وتشاور﴾ أى: يشاور أهل العلم به حتى يخبروا أن الفصال فى ذلك الوقت لايضر بالولد. والمشاورة: استخراج الرأى.

---

(١) فى «الأصل وك»: بن، خطأ.

(٢) قرأ ابن كثير، ويعقوب، وأبو عمرو. برفع الراء، وقرأ الباقون بفتحها واختلف على أبى جعفر فى تخفيف الراء وتسكينها، أم تشديدها وفتحها انظر النشر (٢ / ٢٢٧)، وتفسير البغوى (١ / ٢١٢).

تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ

وقيل: إن عمر ركب فرسا يشوره، أى: يستخرج سيره، فعطب تحته، فَحَكَّمَ شريحا؛ فقضى عليه بالضمان. وقال: إنما ركبته سوما؛ فولاه القضاء، فقضى بعد ذلك سبعين سنة.

وقوله: ﴿ فلا جناح عليهما ﴾ أى: فلا حرج فى الفصال قبل تمام الحولين.

وقوله: ﴿ وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم ﴾ أى: تستأجروا مرضعة لأولادكم، واللام محذوفة. ومعناه: أن تسترضعوا لأولادكم.

وقوله: ﴿ فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ﴾.

يقرأ: «آتيتم» ممدودا، ويقرأ: «أتيتم» مقصورا[1] ومعنى الأول: إذا سلمتم إلى الأم، وما آتيتم أى: ما سميتم لها من أجرة الرضاع بقدر ما أرضعت. ويحتمل التسليم إلى المستأجرة أجرتها إلى الرضاع.

ومن قرأ «أتيتم» فمعناه: إذا سلمتم ما أتيتم بالمعروف، يعنى: إذا سلمتم لأمره وانقدتم لحكمه فيما فعلتم من المعروف. ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعلمون بصير ﴾.

قوله تعالى: ﴿ والذين يتوفون منكم ﴾ قرأ على: «يَتَوفون» بفتح الياء، ومعناه: يستوفون أعمارهم. والمعروف بضم الياء، ومعناه: والذين يموتون ويتوفى آجالهم ﴿ ويذرون أزواجا ﴾ أى: ويتركون أزواجا والمراد بالأزواج: الزوجات.

﴿ يتربصن ﴾ ينتظرن ﴿ بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾ الآية فى عدة الوفاة، وهى مقدرة بأربعة أشهر وعشرٍ باتفاق الأمة لنص الكتاب.

(١) قرأ ابن كثير بقصر الهمزة. وقرأ الباقون بالمدّ. انظر النشر (٢ / ٢٢٨).

فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ

وقيل: إنما قدر بتلك المدة لحكمة، وهى أن الولد يرتكض فى بطن الحامل لنصف مدة الحمل وأربعة أشهر وعشر قريب من نصف مدة الحمل.

والارتكاض: بمعنى التحرك، ويقال: امرأة مركضة إذا تحرك [فى](١) بطنها، قال الشاعر:

ومُرْكِضَةٌ صَرِيحىٌّ أبوها يهان لها الغُلامةُ والغُلامُ

وأما قوله: ﴿وعشرا﴾ فهى ليال، يقال: عشرة أيام وعشر ليال، وإنما خص الليالى لأن كل أجل يبتدئ من الليل.

وقال المبرد: أراد به: عشر مدد، كل مدة يوم وليلة.

وقوله تعالى: ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ أى: انقضت عدتهن.

﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف﴾ يعنى: فيما فعلن من اختيار الأزواج دون العقد، والعقد إلى الولىِّ.

وقيل: معناه فيما (تَزَيَّنُ)(٢) للأزواج زينة لاينكرها الشرع. ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون خبير﴾.

قوله تعالى: ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء﴾ التعريض بالخطبة فى أوان العدة جائز. والخطبة: خطبة العقد، يقال: خَطَبَ يَخْطُبُ خِطْبَةً إذا خطب العقد. وخَطَبَ يَخْطُبُ خُطْبَةً إذا خطب الناس بكلام معلوم الأول والآخر.

وصورة التعريض بالخطبة: أن يقول للمرأة: إنكِ لجميلة، وإنك علىَّ لكريمة، وإنى لراغب فى النساء، أو ما قضى الله يكون، ونحو ذلك. فهذا لا بأس به فى حق المعتدة. ولايجوز التصريح بالخطبة.

وقال مجاهد: وذلك أن يقول: لاتسبقينى بالنكاح، أو يقول: لاتفوتى على نفسك، أو أخطبك حتى إذا حللت أتزوجك، ونحو هذا.

---

(١) فى «الأصل»: ذو.

(٢) فى «ك»: تتزين.

وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ

وقيل: إن ذلك يجوز مع الولى بأن يقول له: لاتسبقنى بالنكاح ونحو ذلك.

وإنما لايجوز التصريح معها. والدليل على جواز التعريض بالخطبة: ما روى أن سكينة بنت حنظلة تأيمت عن زوجها، فدخل عليها أبو جعفر محمد بن على الباقر، وقال: تعلمين قرابتى من رسول الله، وقرابتى من علىّ، وحقى فى الإسلام، وشرفى فى العرب. فقالت سكينة: أتخطبنى وأنا معتدة وأنت أنت - يعنى: منك يؤخذ العلم؟! فقال: ما خطبتك، ولكن ذكرت منزلتى.

ثم روى «أن رسول الله ﷺ دخل على أم سلمة - وكانت فى عدة زوجها أبى سلمة، فذكر - عليه السلام - كرامته على الله، ومنزلته عند الله، وكان يذكر من ذلك ويعتمد على يديه حتى أثر الحصير فى يديه»[1]. فهذا كله من التعريض بالخطبة، ودل الحديث على جوازه.

وقوله - تعالى -: ﴿أو أكننتم فى أنفسكم﴾ أى: أضمرتم فى أنفسكم أمر النكاح ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن﴾ يعنى: فى أنفسكم. ﴿ولكن لاتواعدوهن سرا إلا أن تقولوا قولا معروفا﴾ فى معنى هذا السر أقوال، أصحها: أنه أخذ ميثاق النكاح مما، نهى الشرع عنه فى حال العدة.

وقيل: السر: الزنا. وقيل: هو الوطء. قال امرؤ القيس:

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى ... كَبِرْتُ وأن لايحسنُ السرَّ أمثالى

يعنى: الجماع. قال الشافعى قوله: ﴿لاتواعدهن سرا﴾ هو أن يصف نفسه بكثرة الجماع؛ ليرغبها فى نكاحه.

وقوله تعالى: ﴿إلا أن تقولوا قولا معروفا﴾ هو ما ذكرنا من التعريض المباح.

قوله: ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح﴾ أى: لاتحققوا العزم على عقد النكاح فى العدة ﴿حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ أى: فرض الكتاب؛ لأن العدة من فرض الكتاب.

﴿واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه﴾ هذا فى التحذير عما نهاهم عنه. ﴿واعلموا أن الله غفور حليم﴾.

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (٢/ ٣٢٢)، والدارقطنى فى سننه (٣/ ٢٢٤)، والبيهقى فى الكبرى (٧/ ١٧٨) جميعهم من حديث أبى جعفر الباقر مرسلا.

غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً

قوله تعالى: ﴿لاجناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة﴾ تقديره: ولم تمسوهن، ولم تفرضوا لهن فريضة.

هذه الآية فى المطلقة قبل الفرض والمسيس. وفى الآية دليل على جواز إخلاء النكاح عن تسمية المهر. وفيها دليل على وجوب المتعة فى الجملة؛ فإنه قال: ﴿ومتعوهن﴾.

قال ابن عباس فى المتعة: أعلاها خادم، وأوسطها الورق، وأدناها ثوب للكسوة. قال الشافعى: واستحسن فى المتعة أن تكون من عشرين درهما إلى ثلاثين، وفى الجملة هى مفوضة إلى اجتهاد الحكام، فيوجب على كل واحد تقدير ما يرى ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين﴾.

قال شريح: هذا إرشاد وندب إلى الإمتاع، ولم ير وجوب المتعة، وسائر العلماء ذهبوا إلى وجوب المتعة، فمذهب على - رضى الله عنه - أن لكل مطلقة متعة.

وقال ابن عمر: لكل مطلقة متعة؛ إلا التى فرض لها زوجها، وطلقها قبل الدخول، حسبها نصف المسمى، وهذا أحد قولى الشافعى.

وفيه قول ثالث: أنها لاتجب إلا للتى لم يفرض لها، وطلقت قبل الدخول.

قوله تعالى: ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾ هذه الآية فى المطلقة بعد الفرض قبل المسيس، وجب لها نصف المسمى عند الطلاق قبل الدخول.

﴿إلا أن يعفون﴾ هذا فى الزوجات، يقال: تعفو، تعفوان، يعفون. ومعنى عفو المرأة: هو الفضل بترك النصف الذى وجب لها.

﴿أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح﴾ قال على - وهو مذهب شريح، والشعبى:

فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا

إن المراد به: الزوج، وعفوه: الفضل بإعطاء تمام المهر.

وقال ابن عباس: أراد به: الولى – وهو الأليق بنظم الآية – ورأى جواز إبراء الولى عن مهر المرأة.

وفيه قول ثالث: أنه فى أب البكر خاصة، وله العفو عن مهر ابنته مادامت بكرا.

والفتوى على أَنْ ليس إلى الولى من العفو شيء. وإنما الآية فى الزوج، كما قال على رضى الله عنه.

﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ الخطاب مع الكل. ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ أى: أفضال بعضكم على بعض. ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾.

قوله تعالى: ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ أمر بالمحافظة على جميع الأوقات.

وأما الصلاة الوسطى ففيها سبعة أقوال: أحدها: قال عمر، وعلى، وأبو هريرة، وأبو أيوب، وعائشة – رضى الله عنهم – هى صلاة العصر، لأنها وسط (صلاتى)[1] الليل وصلاتى النهار.

وعن حفصة أنها قالت لكاتب مصحفها: إذا بلغت قوله: ﴿ حافظوا على الصلوات ﴾ فأعلمنى، فلما بلغه أعلمها، فقالت: اكتب: والصلاة الوسطى صلاة العصر.

وقد صح الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال يوم الخندق: «شغلونا عن صلاة الوسطى – صلاة العصر – ملأ الله بطونهم وقبورهم نارا»[2].

والقول الثانى – وهو قول زيد بن ثابت –: أنها صلاة الظهر، لأنها وسط النهار.

(١) فى «ك»: صلاة.

(٢) متفق عليه من حديث على بن أبى طالب، إلا أن ذكر صلاة العصر تفرد بها مسلم، رواه البخارى (٨/ ٤٣ رقم ٤٥٣٣)، ومسلم (٥/ ١٧٧ – ١٧٨ رقم ٦٢٧)، وفى الباب أحاديث، وانظر تعليق الحافظ ابن حجر فى الفتح.

والقول الثالث – وهو قول ابن عباس، وابن عمر، وجابر – : أنها صلاة الصبح. وهو [اختيار](١) الشافعى لأنها وسط صلاتى الليل وصلاتى النهار.

ووراء هذا فيه أربع أقوال غريبة: أحدها قاله قبيصة بن ذؤيب: أنها صلاة المغرب؛ لأنها وسط فى عدد الركعات.

والقول الثانى – وهو قول سعيد بن المسيب، والربيع بن خثيم – : أنها كل صلاة من الصلوات الخمس؛ لأن كل صلاة من الصلوات الخمس: وُسْطَى بين الأربع. وإنما خصه بعد ذكر الصلوات تأكيدا وتحريضا على المحافظة على جميع الصلوات.

والقول الثالث: أنها الجمعة.

والقول الرابع: أنها الجماعة.

واختلفوا فى صلاة الصبح أنها من صلاة الليل، أو من صلاة النهار؟

فأكثر العلماء على أنها من صلاة النهار.

وقال بعضهم: إنها [من](٢) صلاة الليل. وهذا الخلاف يرجع إلى أن النهار من وقت طلوع الفجر أو[من](٣) وقت طلوع الشمس.

فمن قال: إنه من وقت طلوع الفجر؛ جعل صلاة الصبح من صلاة النهار.

ومن قال: إن النهار من وقت طلوع الشمس؛ جعلها من صلاة الليل. واستدل قائل هذا القول بقول أمية بن الصلت.

والشمس تطلع كل آخر ليلة حمـراء يصبح لونها يتورد

وقال ابن الأنبارى: ليل محض، ونهار محض، ومشترك بين الليل، والنهار فصلاة المغرب والعشاء الآخرة فى محض الليل.

وصلاة الظهر والعصر فى محض النهار، وصلاة الصبح مشترك بين الليل والنهار.

(١) فى «الأصل وك»: اختيارات.

(٢) ليست فى «الأصل ولا ك».

(٣) من «ك».

فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا

وفيه قول آخر – هو المختار –: أنه ليل لغة ونهارٌ شرعا.

وقوله: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ أى: مطيعين ساكتين.

وذلك أن الكلام كان مباحا فى الصلاة فى الابتداء، فلما نزلت هذه الآية؛ سكتوا.

والقارئ فى الصلاة ساكت عن الكلام. ومذهب الشافعى أنه [لو](١) حلف لايتكلم فقرأ القرآن لم يحنث؛ لأنه كلام الله لا كلامه.

خلافا لأبى حنيفة قال: يحنث.

قوله تعالى: ﴿فإن خفتم فرجالا أو ركبانا﴾ هذه فى صلاة الخوف، يصلون مشاة، وفرسانا.

وقوله: ﴿فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون﴾ يعنى: كما علمكم من أصل الصلاة فى حال الأمن.

قوله تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم﴾. يقرأ بالفتح، وتقديره: أوصوا وصية. ويقرأ بالضم: وتقديره: عليكم وصية،(٢) وهذا ورد فى ابتداء الإسلام حين كانت (العدة للوفاة)(٣) حولا كاملا، وكانت نفقة جميع الحول على الزوج واجبة، وكان يجب عليه الوصية بالإنفاق إذا مات، فهذا معنى قوله: ﴿وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول﴾ أى: نفقة الحول.

وقوله: ﴿غير إخراج﴾ وحرم على الوارث إخراج المعتدة من البيت قبل تمام الحول، لكن إذا خرجت بنفسها سقطت نفقتها. فنسخ ذلك بآية عدة الوفاة كما سبق، وتلك

---

(١) ليست فى «الأصل» ولا «ك»، ويقتضيها السياق.

(٢) قرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، وحفص بالفتح، وقرأ الباقون بالضم. انظر النشر (٢/٢٢٨)، وتفسير البغوى (١/٢٢٢).

(٣) فى «ك»: عدة الوفاة.

جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ

الآية وإن كانت متقدمة فى التلاوة ولكنها متأخرة فى المعنى، وهى ناسخة لهذه الآية.

وقيل لعثمان: ألا تضع تلك الآية مكان هذه الآية، وهذه مكان تلك؟ فقال: أكره أن أُغَيِّرَ القرآن عن موضعه.

وقوله تعالى: ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فى ما فعلن فى أنفسهن من معروف﴾ هو ما ذكرنا بعد الفراغ من العدة.

وقوله تعالى: ﴿والله عزيز حكيم﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف﴾ أعاد ذكر المتعة تأكيدا.

وسبب نزول الآية: ما روى أنهم لما سمعوا قوله تعالى: ﴿متاعا بالمعروف حقا على المحسنين﴾[(١)] قالوا: إن شئنا نمتع، وإن شئنا لا نمتع، فنزلت هذه الآية.

﴿وللمطلقات متاع بالمعروف﴾ أى: المتعة لهن ملكا، جعلها لهن بلام التمليك. وقوله: ﴿حقا على المتقين﴾ يعنى: واجبا على المؤمنين[(٢)].

قوله تعالى: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ لأنه ذكر فيما قبل كثيرا من الآيات، والأحكام، فأراد به ذلك. وقوله: ﴿لعلكم تعقلون﴾ أى: تفهمون وتفقهون.

قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف﴾ قال ابن عباس: كانوا أربعة آلاف، وقال غيره: كانوا ثمانية آلاف، وقال السدى: كانوا [بضعة][(٣)]

---

(١) البقرة: ٢٣٦.

(٢) فى «ك»: على امرئ يتقى.

(٣) فى «الأصل وك»: بضعٌ.

فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَن ذَا

وثلاثين ألفا وفى رواية ابن جريج: أربعين ألفا، وقال ابن دريد: ألوف، أى: مؤتلفة قلوبهم، والصحيح أن المراد به: العدد كما بينا.

وقوله: ﴿ حذر الموت فقال لهم الله موتوا ﴾ أى: أماتهم الله ﴿ ثم أحياهم ﴾ هذا [فى](1) قوم من بنى إسرائيل هربوا من الطاعون، وقالوا: نذهب إلى أرض ليس بها طاعون، فذهبوا فأماتهم الله تعالى هنالك وبقوا سبعة أيام كذلك، فمر بهم نبى يقال له: حزقيل، فدعا الله تعالى فأحياهم. قال الحسن البصرى: أماتهم الله تعالى قبل آجالهم؛ عقوبة لهم، ثم أحياهم ليستوفوا آجالهم.

وفى القصص: أنه بعد ما أحياهم كان يوجد منهم ريح الموت، وكذلك من أولادهم. وقوله تعالى: ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ قيل: هو على العموم فى حق الكافة فى الدنيا، وقيل: هو على الخصوص فى حق المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿ ولكن أكثر الناس لايشكرون ﴾ أما الكفار فلا يشكرون.

وأما [المؤمنون](2) فلم يبلغوا غاية الشكر.

قوله تعالى: ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم ﴾ قيل الخطاب مع الصحابة. والمعنى فيه: أن أولئك القوم لما هربوا من الموت لم ينفعهم الهرب حتى أدركهم الموت، فلا تقعدوا أنتم عن القتال خوفا من الموت؛ بل جاهدوا وقاتلوا فى سبيل الله.

وقيل: الخطاب مع أولئك القوم من بنى إسرائيل، فإنهم إنما قعدوا عن القتال؛ فأماتهم الله ثم أحياهم، وأمرهم بالقتال.

---

(1) من «ك».

(2) فى «الأصل وك»: المؤمنين. وهو خلاف الجادة.

قوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ﴾ القرض : هو القطع . ومنه المقراض، وسمى القرض قرضا؛ لأنه يقطع من ماله شيئا ليكافأ عليه . أو يرد عليه مثله .

قال لبيد :

وإذا جوزيت قرضا فأجزه　　　　إنما يجزى الفتى ليس الإبل

فإن قيل : كيف يكون الإقراض من الله تعالى ؟ قيل معناه : يقرض أنبياء الله . فقال الضحاك : معناه : يتصدق لله، وسماه قرضا لأن الله تعالى قد وعد الثواب عليه .

وقوله تعالى : ﴿ قرضا حسنا ﴾ يعنى : حلالا، وقيل : حسنًا أى : طيبة نفسه به .

وقوله : ﴿ فيضاعفه له أضعافا كثيرة ﴾ يقرأ بقراءات : فيضاعفُه » بضم الفاء على إتباع قوله : ﴿ يقرض ﴾ .

وقرىء : « فيضاعفَه » . بفتح الفاء نصبا على جو اب الاستفهام . ويقرأ : « فَيُضَعِّفَه » بالياء ويقرأ بالنون : « فنضعفه »(١).

والتضعيف والمضاعفة بمعنى واحد . والضِّعْفُ كل مازاد على المثل .

وقوله : ﴿ أضعافا كثيرة ﴾ قال السدى : كثيرة لايعلم عددها إلا الله .

وقال غيره : سبعمائة ضعف .

وقوله : ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾ فيه أربعة أقوال :

---

(١) قرأ ابن عامر، ويعقوب بفتح الفاء، وقرأ الباقون بضمها، واختلفوا فى حذف الألف وتشديد العين، فقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب « فيضعِّفه » بالتشديد مع حذف الألف، وقرأ الباقون بإثبات الألف والتخفيف .

انظر النشر (٢ / ٢٢٨)، وتفسير البغوى (١ / ٢٢٥)، وتفسير القرطبى (٣ / ٢٤٢) .

[أحدهما(١)]: قال الحسن: يقبض بالتقتير، ويبسط بالتوسيع.

وقال الزجاج: يقبض بقبول الصدقة، ويبسط بإعطاء الثواب عليه.

والقول الثالث: يقبض بتقليل الأعمار، ويبسط بتكثير الأعمار.

والقول الرابع: يقبض بالتحريم، ويبسط بالإباحة.

وقوله تعالى: ﴿وإليه ترجعون﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى﴾ الملأ: أشراف كل قوم. وفى الخبر: «أنه لما قتل رءوس المشركين مثل أبى جهل، وعتبة، وغيرهما يوم بدر قال رجل من الأنصار: ما قتلنا إلا عجائز صلعا - أى: أواخر القوم شيوخا - فكره ذلك رسول الله ﷺ وقال: أولئك الملأ من قريش؛ لو رأيتهم هبتهم، وإن أمروك أطعتهم، واحتقرت فعلك مع فعلهم»(٢).

وقوله: ﴿إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله﴾ قيل: ذلك النبى كان اشمويل، وقيل: كان يوشع بن النون، وقيل: هو شمعون، وسمى بذلك؛ لأن الله تعالى دعاه فسمعه. والقصة فى ذلك: أن بنى إسرائيل [ظهر](٣) عليهم العدو، وسبوا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين نفرا - وكانوا قد قعدوا عن القتال أربع سنين - فجاءوا إلى نبيهم ذلك، وقالوا له: ابعث لنا ملكا يجتمع أمرنا عليه

---

(١) من «ك».

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٧/ ٨٦ - ٨٧ رقم ٢٠١) من حديث عدى بن حاتم فى حديث طويل، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٧) وفيه حصين السلولى، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. وذكر موسى بن عقبة فى كتاب المغازى له أن القائل هو سلمة بن سلامة أحد بنى عبد الأشهل، رواه البيهقى بإسناده لموسى فى الدلائل (٣/ ١٤٧).

(٣) ليست فى «الأصل» ولا «ك» وما أثبتناه يقتضيه السياق.

ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ

فنقاتل فى سبيل الله .

وقوله تعالى : ﴿ قال هل عسيتم ﴾ القراءة المعروفة : بفتح السين . وقرىء : « هل عَسِيتم » بكسر السين وهما فى المعنى سواء . وبالفتح أصوب .

وقوله : ﴿ إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ﴾ ومعنى الآية : لعلكم أن تجبنوا عن القتال فلا تقاتلوا .

وقوله : ﴿ قالوا ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله ﴾ أى : ما يمنعنا أن نقاتل فى سبيل الله . ﴿ وقد أخرجنا من ديارنا ﴾ لأنهم كانوا أخرجوا من بيت المقدس .

﴿ وأبنائنا ﴾ أى : أخرجنا من أبنائنا بالسبى ، والسبى فيه مضمر ، ومثله قول الشاعر :

ورأيت زوجك فى الوغى[1] **متقلدا سيفـــا ورمحـــا**

أى : وحاملا رمحًا .

وقوله تعالى : ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين ﴾ وأراد بالقليل : أولئك الذين اقتصروا على الغَرْفَةِ ، وجاوزوا مع طالوت وسيأتى .

قوله تعالى : ﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ﴾ قيل : إنه كان سَقَّاء يستسقى على الحمار .

وسمى طالوت ؛ لطوله لأنه كان أطول من كل أحد برأسه ومنكبه .

وقيل : كان الرجل منهم إذا رفع يديه وصل إلى رأسه ، يعنى : رأس طالوت .

(١) جاء هذا الشطر فى لسان العرب (مادة : قلد) : ياليت زوجك قد غدا .

بعث لكم طالوت ملكًا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم ﴿٢٤٧﴾ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن

وقوله: ﴿قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه﴾ أى: كيف يكون له الملك علينا، وليس هو من سبط النبوة، والملك؟

وذلك أن سبط النبوة كان سبط لاوى بن يعقوب، وهو سبط موسى بن عمران، وسبط الملك كان سبط يهوذا، وكان طالوت من سبط بنيامين، ولم يكن سبط ملك ولا نبوة؛ وذلك أنهم كانوا قد عصوا الله معصية عظيمة؛ فنزع الله منهم النبوة والملك وكانوا يسمون سبط الإثم.

وقوله: ﴿ولم يؤت سعة من المال﴾ لأنه كان سقاء كما بينا.

قوله تعالى: ﴿قال إن الله اصطفاه عليكم﴾ أى: اختاره عليكم.

وقوله: ﴿وزاده بسطة فى العلم والجسم﴾ أما الزيادة بالجسم: معلوم.

وأما العلم: قيل أراد به علم الحرب - وكان طالوت أعلمهم بأمر الحرب - وقيل: أراد به علم الدين، والأول أصح.

وقوله: ﴿والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾ فالواسع: ذو السعة، وهو الذى يعطى عن غنى.

وأما العليم: فقيل: العليم والعالم بمعنى واحد، ومنهم من فرق بين العليم والعالم، فقال: العالم: بما كان، والعليم: بما يكون.

قوله تعالى: ﴿وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت﴾ طلبوا منه آية على الملك، فأخبرهم نبيهم بآية ملكه، وذلك إتيان التابوت.

قيل: هو التابوت الذى كان مع موسى وهارون، كانت بنو إسرائيل يخرجون به إلى الغزوات ويستنصرون به.

وقيل: كان من شجر الشمشاذ، وكان ثلاثة أذرع في ذراعين.

وفيه قول آخر: أنه التابوت الذي أنزله الله تعالى على آدم مع الركن، وكان فيه صورالأنبياء.

وقوله: ﴿فيه سكينة من ربكم﴾ قال علي – رضي الله عنه –: السكينة لها وجه كوجه الإنسان، وهي بعد ريح هفافة.

وقال ابن عباس: هو طست من ذهب كان يُغْسَل فيه قلوب الأنبياء، وقيل: هي شيء يشبه الهر له عينان لهما شعاع، وله جناحان من الزمرد والزبرجد، وكانوا إذا سمعوا صوته تيقنوا بالنصر، وكانوا إذا خرجوا بالتابوت إلى الحرب يضعونه قدامهم، فإن سار ساروا، وإن وقف وقفوا.

وقال مجاهد: السكينة آية كانوا يسكنون إليها.

وقوله – تعالى –: ﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾ وذلك عصى موسى، ونعلاه، وعمامة هارون، ورضاض الألواح التي تكسرت، وقفيز من المن الذي أنزل على بني إسرائيل.

وقيل: أراد به التوراة، كانت في التابوت. ﴿مما ترك آل موسى وآل هارون﴾ يعني: موسى وهارون، ومثله قول الشاعر:

فلا تَبْكِ ميتا بعد ميت أَجَنَّهُ ... عليٌّ وعباسٌ وآلَ أبي بكرِ

أي: دفنه يعني: وأبو بكر.

وقوله تعالى: ﴿تحمله الملائكة﴾ قال الحسن: كان التابوت مع الملائكة في السماء، فلما تولى طالوت الملك، حملت الملائكة التابوت ووضعوه بينهم.

وقيل: إن العمالقة غلبوا على التابوت، ودفنوه، فأمر الله تعالى الملائكة حتى استخرجوه، وحملوه إليهم.

الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ

قال ابن عباس: إن العمالقة لما غلبوا على التابوت أخذهم الباسور، فعلموا أن ذلك عقوبة عليهم من أجل التابوت، فشدوه على عجلة وحملوه على ثورين، وساقوهما إلى المفازة وتركوه فجاءت الملائكة وساقوا ذلك إلى بنى إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿فلما فصل طالوت بالجنود﴾ قال ابن عباس: كان عدد الجنود ثمانين ألفا.

وقوله تعالى: ﴿قال إن الله مبتليكم بنهر﴾ وذلك نهر كان بين أردن وفلسطين، ومعناه: أن الله ممتحنكم بذلك النهر؛ ليظهر من له نية وقصد فى القتال، ممن لا نية له.

وقوله: ﴿فمن شرب منه فليس منى﴾ قاله طالوت، يعنى: ليس من أهل ولايتى وصحابتى.

﴿ومن لم يطعمه فإنه منى﴾ أى: من لم يذقه، قال الشاعر:

فإن شئت حَرَّمتُ النساء سِواكمُ　　　وإن شئت لم أطعَمْ نُقاخًا ولا بَرْدًا

أى: لم أذق ماء ولا نوما. يقال: منع البردُ البردَ أى: منع البردُ النومَ.

وقوله تعالى: ﴿إلا من اغترف غرفة بيده﴾ يقرأ بقراءتين، بفتح الغين وضمها(١).

والغَرفة بفتح الغين: المرة. والغُرفة بضم الغين: ملء الكف.

وقوله: ﴿فشربوا منه إلا قليلا منهم﴾ قال عكرمة: كان عدد القليل الذين اقتصروا على الغرفة: أربعة آلاف.

---

(١) قرأ نافع، وأبو جعفر، وابن كثير، وأبو عمرو بفتح الغين وقرأ الباقون بضمها. انظر النشر (٢ / ٢٣٠)، وتفسير البغوى (١ / ٢٣١).

اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ

وأكثر المفسرين - وهو الأصح - على أنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر نفرا.

قال البراء بن عازب: كنا نتحدث أن عدد أصحاب رسول الله ﷺ، ورضى عنهم يوم بدر كانوا على عدة الذين جاوزوا مع طالوت، وكانوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر نفرا»[(١)]. قال البراء بن عازب: ولم يجاوز إلا مؤمن.

وفى القصص: أنهم لما وصلوا إلى النهر، كان قدألقى الله عليهم العطش، فشرب الكل إلا هذا العدد القليل. وكل من شرب منهم اسودت شفتاه، ولم يرو، وبقى على الشط، وكل من اقتصر على الغرفة روى وجاوز.

وقيل: إن الكل جاوزوا، ولكن حضر بعضهم القتال، ولم يحضر البعض.

وقوله: ﴿ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾

قال ابن عباس والسدى: إنما قاله الذين انخذلوا ولم يجاوزوا، وقيل: إنما قاله من الذين جاوزوا؛ من قلت بصيرته فى الدين دون من قويت بصيرته.

وقوله - تعالى -: ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله ﴾ يعنى: الذين قويت بصيرتهم.

﴿ يظنون ﴾ يستيقنون أنهم ملاقو الله، وقد ذكرنا الظن بمعنى اليقين، وقيل: هو على حقيقة الظن يعنى: الذين يظنون إصابة الشهادة فى الوقعة.

وقوله: ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ بقضائه وإرادته.

﴿ والله مع الصابرين ﴾ بالنصر والمعونة.

وقوله: ﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده ﴾ كان جالوت رئيس تلك العمالقة.

(١) البخارى فى صحيحه (٧/٣٣٩ رقم ٣٩٥٧).

وَجُنُوده قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ

وقوله: ﴿ قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا ﴾ معناه: أصبب علينا.

وقوله: ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ أى: فى القتال ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ فهزموهم بإذن الله ﴾ أى: كسروهم، يقال: سقاء مهزم، ومنهزم أى: متكسر مُتَثَنٍّ بعضه على بعض.

وقوله ﴿ بإذن الله ﴾ أى: بقضائه وإرادته.

وقوله: ﴿ وقتل داود جالوت ﴾ وفى القصة: أن أبا داود حضر الحرب مع ثلاثة عشر نفرا من أولاده كان أصغرهم سنا داود، وكان [أصاب][(١)] معه مقلاع وقذافة، فبرز جالوت وطلب البراز وخرج إليه داود، ورماه بالمقلاع - الحجر - بين عينيه وخرج من قفاه، وأصاب قوما آخرين وقتلهم.

وقوله: ﴿ وآتاه الله الملك والحكمة ﴾ جمع لدواد بين الملك والحكمة، يعنى: النبوة. قيل: بعده بسبع سنين، ولم يكن من قبل مجتمعا، بل كان الملك فى سبط والنبوة فى سبط، وقيل: الملك والحكمة: هو العلم مع العمل.

وقوله: ﴿ وعلمه مما يشاء ﴾ قيل: صنعة الدروع، وأصوات الطيور، والزبور.

وقوله: ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ قرأ نافع: «ولولا دفاع الله»[(٢)] والمعنى واحد.

قال ابن عباس ومجاهد: معناه: لولا دفع الله الكفار بالمؤمنين؛ لكثر الكفر، ونزلت السخطة، واستؤصلت الأرض.

---

(١) فى «الأصل وك»: ماصاب. وما أثبتناه هو الصواب.

(٢) وهى قراءة أبى جعفر المدنى، ويعقوب أيضًا، بكسر الدال، وألف بعد الفاء. وقرأ الباقون بفتح الدال، وإسكان الفاء، بغير ألف. انظر النشر (٢/ ٢٣٠)، وتفسير البغوى (١/ ٢٣٥).

عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ

وقال على، وعامة المفسرين: إن الله يدفع بالمتقى عن غير المتقى، وبالصالح عن الفاجر، وبالمصلح عن غير المصلح، وبالمؤمن عن الكافر، وهو معنى قول النبى ﷺ «لولا مشايخ ركع، وبهائم رتع، وصبيان رضع، لصب عليكم العذاب صبا»[1].

وقال رسول الله ﷺ «إن الله يدفع البلاء بالرجل الصالح عن مائة بيت من أهله وجيرانه»[2].

وقوله: ﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾ وهى ما ذكر من الآيات.

قوله تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾ هذه الآية فى بيان فضل الرسل بعضهم على بعض مع استوائهم فى أصل الرسالة.

وقوله: ﴿منهم من كلم الله﴾ يعنى: موسى وقوله: ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ يعنى: محمدا ﷺ قال الزجاج: ما أوتى نبى آية إلا أوتى نبينا مثل تلك الآية، وقدأوتى انشقاق

---

(١) رواه أبو يعلى فى مسنده (١١/٢٨٧ رقم ٦٤٠٢)، (١١/٥١١ رقم ٦٦٣٣)، والبزار – كما فى مختصر الزوائد (٢/٤٥٠ رقم ٢١٩٣)، والطبرانى فى الأوسط – كما فى مجمع الزوائد – (٨/٢٦٤ رقم ٥٠٨٤)، والبيهقى فى الكبرى (٣/٣٤٥)، والخطيب فى تاريخه (٦/٦٤)، كلهم من حديث أبى هريرة.

وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٣٠): وفيه إبراهيم بن خثيم، وهو ضعيف.

ورواه الدولابى فى الكنى (١/٤٣ – ٤٤)، والطبرانى فى الكبير (٢٢/٣٠٩ رقم ٧٨٥)، وفى الأوسط – مجمع البحرين – (٨/٢٦٤ – ٢٦٥ رقم ٥٠٨٥)، وابن عدى فى الكامل (١/٢٤٣)، (٦/٣٨٠) كلهم من طريق مالك بن عبيدة بن مسافع، عن أبيه عن جده.

وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٣٥): فيه عبد الرحمن بن سعد بن عمار، وهو ضعيف.

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٢/٤٠٤)، والطبرانى فى الأوسط – مجمع البحرين – (٥/١٩٠ – ١٩١ رقم ٢٨٩٩)، (٨/٢٢٢ رقم ٥٠٠٥)، والعقيلى فى الضعفاء (٤/٤٠٣ – ٤٠٤) وابن عدى فى الكامل (٢/٣٨٢ – ٣٨٣)، والبغوى فى تفسيره (١/٢٣٦)، وأشار الطبرانى، وابن عدى إلى تفرد حفص بن سليمان به – وهو متروك.

وقال الهيثمى فى المجمع (٨/١٦٧): رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط، وفيه يحيى بن سعيد العطار، وهو ضعيف.

وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ

القمر، وحنين الجذع، وكلام الشجر، ونبع الماء من بين الأصابع، والقرآن العظيم، وبعث إلى الأحمر والأسود، وغيره من الأنبياء بعث إلى قوم مخصوصين.

وقوله: ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾ قد سبق ذكره.

وقوله: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات﴾ هذا دليل على القدرية حيث أحالوا الاقتتال على المشيئة.

وقوله: ﴿ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾ منهم من تفضل عليه الله فآمن، ومنهم من خذله الله فكفر.

وقوله: ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ أعاده ثانيا تأكيدا. وقوله: ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم﴾ قال السدى: أراد به الزكاة المفروضة. وقال غيره: أراد به الإنفاق فى سبيل الله وقوله: ﴿من قبل أن يأتى يوم﴾ يعنى: يوم القيامة.

وقوله: ﴿لابيع فيه﴾ أى: لافدية فيه، وسماها بيعا، لأن فى الفدية شراء نفسه.

وقوله: ﴿ولا خلة﴾ فإن قال قائل: قد نفى الخلة هاهنا فى القيامة، وقد قال فى آية أخرى: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو﴾[1] فأثبت الخلة.

وقيل: تقديره: الأخلاء فى الدنيا بعضهم لبعض عدو يوم القيامة، وإنما قال ﴿ولا خلة ولا شفاعة﴾ وذلك أن الكفار كانوا يقولون: إن الملائكة أخلاؤنا والأصنام

---

(١) الزخرف: ٦٧.

شفعاؤنا فقال: لاتنفع خلتهم ولا شفاعتهم.

وقوله: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو﴾ ذكره مبالغة فى الثناء، وهو مثل قولهم: لا كريم إلا فلان. أبلغ من قولهم: فلان كريم.

وقوله: ﴿الحى القيوم﴾ قرأ عمر: «القَيَّام». وقرأ علقمة: «القَيِّمُ» والمعروف: ﴿القيوم﴾. فالحى هو الباقى الدائم على الأبد، وهو من الحياة.

والحياة: صفة الله تعالى وأما القيوم: قيل: هو القائم على كل أحد بتدبيره فى الدنيا.

وقيل: هو القائم على كل نفس بما كسبت للمجازاة فى الآخرة.

وقيل: هو القائم بالأمور.

وقوله: ﴿لا تأخذه سنة ولانوم﴾ قال المفضل الضبى: السِّنة فى الرأس، والنوم فى القلب، فالسِّنة أول النوم، وهو النعاس.

ومنهم من فرق بين السِّنة والنُّعاس، فقال: السِّنة فى الرأس والنعاس فى العين، والنوم فى القلب.

والنوم: غشية ثقيلة تقع على القلب تمنع من المعرفة بالأشياء.

وفى الأخبار أن «موسى – عليه السلام – قال يارب ألك نوم؟ فأوحى الله إليه ياموسى انظر ما تقول، خذ قَارُورَتَيْن فأخذهما بيديه فألقى الله عليه النوم، فوقعت إحداهما على الأخرى وانكسرتا، قال الله تعالى: لو كان لى نوم ما قامت سماء ولا أرض»[1].

وقوله: ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾

---

(١) رواه الطبرى (٣/٦)، وأبو يعلى (١٢/٢١ رقم ٦٦٦٩)، والبيهقى فى الأسماء والصفات (ص٦٨ – ٦٩)، والخطيب فى تاريخه (١/٢٦٨) وابن الجوزى فى العلل (١/٣٩–٤٠ رقم ٢٢،٢٣)، كلهم من حديث أبى هريرة، قال ابن الجوزى: لايثبت هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، وغلط من رفعه. وقال الذهبى فى الميزان (١/٢٧٦): حديث منكر...، ولايسوغ أن يكون هذا وقع فى نفس موسى، وإنما روى أن بنى إسرائيل سألوا موسى عن ذلك.

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ

لأنهم زعموا أن الملائكة والأصنام يشفعون لهم فقال: ﴿ من ذا الذى ﴾ يمكنه الشفاعة إلا برضاه.

وقوله: ﴿ يعلم ما بين أيديهم ﴾ يعنى: الآخرة ﴿ وما خلفهم ﴾ يعنى: الدنيا، وقيل: ﴿ ما بين أيديهم ﴾ ما قدَّموا ﴿ وما خلفهم ﴾ ما خَلَّفوا.

وقوله: ﴿ ولايحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ﴾.

الإحاطة: العلم بالشىء بجميع جهاته وأنواعه، ومعناه: ولا يحيطون بشىء من علم الغيب إلا بما شاء، يعنى: إلا بما أَخبَر به الرسل، وهو مثل قوله فى سورة الجن: ﴿ فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾(١).

وقوله: ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ قرأ يعقوب الحضرمى: «وسع كرسيه السمواتُ والأرضُ» والمعروف هو الأول.

واختلفوا فى الكرسى، قال الحسن: هو العرش نفسه. وقال أبو هريرة: الكرسى موضوع قُدَّام العرش.

ومعنى قوله: ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ أى: سعته مثل سعة السموات والأرض وأوسع منه، وهو ظاهر فى قراءة الحضرمى، وفى الأخبار «أن السمو ات والأرض فى جنب الكُرْسى كحلقة فى فَلاَة، والكُرْسى فى جنب العرش كحلقة فى فلاة»(٢).

وفى رواية عطاء عن ابن عباس: أن السموات والأرض فى جنب الكُرْسى كدراهم سبعة على الترس.

---

(١) الجن: ٢٦ – ٢٧.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٣/٧–٨)، وأبو الشيخ في العظمة (ص ٨٦ رقم ٢٢٢، وص ١٠١ رقم ٢٦١) والبيهقى فى الأسماء والصفات (ص ٥١٠ – ٥١١) وابن مردويه في تفسيره – كما في تفسير ابن كثير – (١/٣٠٩ – ٣١٠) من حديث أبي ذر مرفوعاً.

وروى سعيدبن جبير، عن ابن عباس: أنه أراد بالكرسى علمه. ومثله قول الشاعر:

مالى بأمرك كرسى أكاتمه ولا بكرسى علم الله مخلوقه.

ومعناه: العلم. وقيل: هو مُلْكُه وسُلطانُه. قال الزجاج: وفى الجملة هو أمر عظيم يَدُلّ على كمال قُدْرَته.

وقوله: ﴿ولا يؤده حفظهما﴾ قيل: هو راجع إلى الله تعالى. يعنى: ولايَثْقُل عليه حفظ السموات والأرض.

وقيل: هو راجع إلى الكرسى، وقيل على هذا: إن الكرسى تحت الأرض كالعرش فوق السموات، والسموات والأرض على الكرسى. وقيل: معلقة بالكرسى.

﴿ولا يؤده﴾ أى: لايثقل على الكرسى حفظ السموات والأرض.

﴿وهو العلى العظيم﴾ يعنى بالعَلىّ: المتعالى عن الأشياء والأنداد.

وقيل: العلى بالمُلْك والسلطنة. والعظيم: الكبير.

وقد ورد فى فضل آية الكرسى أخبار منها:

ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال لأبى بن كعب: «أى آية أعظم فى القرآن؟ فقال: آية الكرسى. فقال عليه السلام: لِيَهْنِئْكَ العلمُ أبا المُنذر»(١).

قوله: ﴿لا إكراه فى الدين﴾ قيل: سبب نزول الآية أن المرأة من أهل المدينة كان لايعيش لها ولد؛ فكانت تنذر وتقول: إن عاش لى ولد لأُهوِّدَنَّه، فإذا عاش لها ولد جعلتْه بين اليهود، فلما جاء الإسلام وأجلى رسول الله ﷺ بنى النضير إلى الشام بقى بينهم عدد من أولاد الأنصار قد هُوِّدُوا فاستأذنوا رسول الله ﷺ فى استردادهم؛

(١) رواه مسلم في صحيحه (٦/١٣٥ رقم ٨١٠)، وأبو داود (٢/٧٢ رقم ١٤٦٠)، وأحمد (٥/١٤٢)، والحاكم (٣/٣٠٤).

الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

فنزلت الآية». ﴿لا إكراه فى الدين﴾ فمن شاء منهم أن يدخل فى الإسلام، فليدخل ومن لم يشأ فلا إكراه فى الدين.

وقال الشعبى: هذا فى أهل الكتاب لايجبرون على الإسلام إذا بذلوا الجزية.

وفيه قول ثالث: أنه كان فى الابتداء، ثم صار منسوخا بآية القتال.

وقوله: ﴿قد تبين الرشد من الغى﴾ أى: الحق من الباطل، والإيمان من الكفر.

وقوله: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله﴾ الطاغوت: هو الشيطان، وينطلق على الواحد والعدد. وقيل: كل ما يعبد من دون الله فهو طاغوت.

وأما الطاغوت فى قوله: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾[1] هو كعب بن الأشرف خاصة.

وقوله: ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾ العروة: الكوز والدلو. والمراد هاهنا بالعروة الوثقى: العقد الوثيق المحكم فى الدين.

قال ابن عباس: أراد به كلمة لا إله إلا الله. قال مجاهد: أراد به الإسلام. وقيل: هو القرآن ومعناه: فقد تمسك بتمسك.

﴿لا انفصام لها﴾ أى: لا انقطاع لها ﴿والله سميع﴾ بدعائك إياهم إلى الإسلام ﴿عليم﴾ بحرصك على إسلامهم.

قوله تعالى: ﴿الله ولى الذين آمنوا﴾ يعنى: القَيِّم عليهم بالنصر والمعونة والمثوبة.

وقوله: ﴿يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ يعنى: من الكفر إلى الإسلام، وإنما سمى الكفر ظلمات؛ لأن طريق الكفر مشتبه ملتبس. وإنما سمى الإسلام نورا لأن طريقه بين واضح.

(١) النساء: ٦٠.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ

وقوله: ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ أى: من الإسلام إلى الكفر.

فإن قال قائل: كيف يخرجو نهم من الإسلام ولم يدخلوا فيه؟ قيل: هو فى قوم من المرتدين خاصة.

وقيل: هو على العموم؛ وذلك أنهم لما عدلوا وصرفوا عن الإسلام؛ فكأنهم أخرجوا عنه، يقول الرجل لغيره: أخرجتنى عن صلتك، أى: لم تعطنى، ولم تصلنى.

وقوله: ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه ﴾ معناه: هل انتهى إليك خبر الذى حاج إبراهيم – وهو نمروذ –؟ قاله قتادة.

وهو أول من تَجَبَّر فى الأرض وادعى الربوبية. والمحاجة: المجادلة، ثم بَيَّن المحاجة فى سياق الآية.

قوله: ﴿ أن آتاه الله الملك ﴾ أى: كانت تلك المحاجة فى الربوبية من نظر الملك وطغيانه.

وقوله تعالى: ﴿ إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت ﴾ وفى القصص: أن الناس قحطوا على عهد نمروذ، وكانوا يمتارون من عنده الطعام، وكان إذا أتاه الرجل فى طلب الطعام يسأله من ربك؟ فإذا قال: أنت، باع منه الطعام، فجاء إليه إبراهيم فيمن جاء يمتار الطعام، فقال له نمروذ: من ربك؟ قال: ربى الذى يحيى ويميت، فأشغل[1] بالمحاجة ولم يعطه شيئا، فانصرف عنه إبراهيم، ومر بكثيب من الرمل، فملأ منه الجواليق تطييبا لقلوب أهله، فلما بلغ منزله فإذا فيه الدقيق.

(١) في «ك»: فاشتغل.

إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ

وقوله تعالى : ﴿ قال أنا أحيى وأميت ﴾ هذا قول نمروذ حين قال له إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت .

قال سفيان : إنه دعا برجلين وجب القتل عليهما، فقتل أحدهما ولم يقتل الآخر، فهذا إحياؤه وإماتته .

وقوله : ﴿ قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ فإن قال قائل : لِمَ انتقل إبراهيم من حجة إلى حجة، وهذا يكون عجزا؟ قيل : كانت الحجة الأولى لازمة، ومعارضة نمروذ إياه كانت فاسدة؛ لأنه أراد به الحياة والموت اختراعا، ولم يعارضه بمثله لكنه خاف أن يشتبه على السامعين، فأتى بحجة أوضح من الأولى؛ مبالغة فى الإلزام، وقطعا للشغب .

وقوله : ﴿ فبهت الذى كفر ﴾ أى : تحير بغلبة الحجة عليه . ومنه قول الشاعر :

وما هو إلا أن أراها فجأة فأبهت حتى ما أكاد أجيب

فإن قال قائل : كيف بهت وكان يمنكه أن يعارض إبراهيم فيقول له : سل أنت ربك حتى يأتى بها من المغرب؟ قلنا : إنما لم يقله؛ لأنه خاف أن لو سأله ذلك دعا، فأتى بها من المغرب؛ فكان زيادة فى فضيحته وانقطاعه .

والصحيح أن الله صرفه عن تلك المعارضة إظهارا للحجة عليه، ولتكون معجزة لإبراهيم .

وقوله : ﴿ والله لايهدى القوم الظالمين ﴾ ظاهر المعنى .

قوله تعالى : ﴿ أو كالذى مر على قرية ﴾ تقديره : ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم، وإلى الذى مر على قرية؟ .

وقيل : تقديره : هل رأيت كالذى حاج إبراهيم، وكالذى مر على قرية؟ .

عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ

واختلفوا فى الذى مر على قرية، فقال قتادة: هو عزير النبى. وقال وهب: هو إرمياء النبى. وقال محمد بن إسحاق: هو الخضر - عليهم السلام -.

والصحيح: أنه كان عزير النبى مر على قرية، يعنى: على بيت المقدس.

وقوله: ﴿وهى خاوية على عروشها﴾ قيل: كانت السقوف ساقطة على الأرض، وكانت الجدران متساقطة على السقوف، فهى الخاوية على عروشها. ومعناه: أنها كانت خالية، وكان قد خربها، بختنصر الملك البابلى.

وقوله: ﴿قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها﴾ وفى القصة: أن عزيرا مرّ [بها][1] وهو على حمار ومعه التين والعصير فقال: أنى يحيى هذه الله بعد موتها؟!

فإن قال قائل: كيف قال: أنى يحيى هذه الله بعد موتها، وهذا يكون سببه الشك فى قدرته؟ قيل: لم يكن شاكا فيه؛ وإنما قال ذلك استبعادا على ما يقال فى العادة، أى: لايحيى هذه الله بعد خرابها.

قال عطاء: دخل فى قلبه ما يدخل فى قلوب الناس.

وقوله: ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ أى: أحياه، وإنما سمى الإحياء بعثا؛ لأنه إذا أحيى يبتعث للأمور.

وفى القصة: أنه لما قال تلك المقالة غلبه النوم، فقبض الله روحه مئة عام، وبعث مَلكًا عمّر بيت المقدس فى تلك الأعوام، ثم لما أحياه بعث إليه مَلَكًا فسأله: كم لبثت؟

فهذا معنى قوله: ﴿قال كم لبثت﴾ وقوله: ﴿قال لبثت يوما أو بعض يوم﴾ لأن الله تعالى إنما أماته فى أول النهار وبعثه فى آخر النهار وقبل غروب الشمس، فقال:

(١) في «الأصل» و«ك»: به، والصواب ما أثبتناه وهو ما يقتضيه السياق.

لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ

لبثت يوما، ثم نظر إلى الشمس لم تغرب بعد، فقال: أو بعض يوم ﴿قال﴾ – يعنى – الملك –: ﴿بل لبثت مئة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾ أى: لم يتغير؛ فإن التين الذى كان معه لم يتغير؛ كأنه قطف من ساعته، وكذلك العصير كأنه عصر من ساعته.

قال الكسائى: لم يتسنه، معناه: كأنه لم تأت عليه السنون، وقطف من ساعته.

وقال مجاهد: معناه لم ينتن، ومنه قوله تعالى ﴿من حمأ مسنون﴾[1].

وقيل: أصله لم يتسنن، فقلبت إحدى النونين هاء ومثله فى كلام العرب كثير، مثل: يتمطى كان فى الأصل (يتمطط)، فقلبت إحدى الطائين ياء. وقال الشاعر:

يقضى البازى إذا البازى انكسر

وكان فى الأصل: (يقضض البازى).

وقوله: ﴿وانظر إلى حمارك﴾ قيل: فنظر إليه، فإذا عظام بيض تلوح نخرة فركَّب الله تعالى العظام بعضها على بعض، وجعله حماراً من عظام، ثم أدخل فيه الدم، ثم كساه الجلد، ثم نفخ فيه الروح، فقام الحمار ونهق، وهو ينظر إليه، فهذا معنى قوله: ﴿ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها﴾ يقرأ بقراءتين بالراء: نحييها، وبالزاى: يركب بعضها على بعض، من النَّشَز، وهو الارتفاع[2].

وقوله: ﴿ثم نكسوها لحما﴾ فى الآية تقديم وتأخير، وتقديرها: وانظر إلى حمارك، وانظر إلى العظام كيف ننشزها، ثم نكسوها لحما لنحييها.

---

(١) الحجر: ٢٦، ٢٨، ٣٣.

(٢) قرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائى، وعاصم بالزاى المنقوطة، وقرأ الباقون بالراء المهملة. انظر النشر (٢/ ٢٣١).

نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن

وقوله: ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ وبيان الآية فيه: أنه بُعثَ شابا، وابنه شيخ.

قال على - رضى الله عنه -: أماته الله وهو ابن خمسين سنة وامرأته حامل، ثم بُعِثَ بعد مئة سنة وهو ابن خمسين، وابنه [ابن][1] مئة سنة.

وقوله: ﴿فلما تبين له قال أعلم﴾ فلما ظهرت له قدرة الله تعالى على عمارة بيت المقدس، وإحياء الموتى ﴿قال أعلم﴾ يقرأ بقراءتين: على الخبر، وعلى الأمر[2]، أما على الخبر فمعناه: علمت أن الله على كل شيء قدير، وأما على الأمر قال لنفسه: ﴿أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾.

قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى﴾ قيل: سبب سؤاله ذلك: أن إبراهيم مرّ على حيوان على شط البحر مزقته السباع والوحش، وكان يأكل منه حيتان البحر، فقال: رب أرنى كيف تحيى الموتى.

وفيه قول آخر: أنه لما حاجّه نمروذ فى إحياء الموتى؛ أراد أن يعرف بالعيان ما آمن به بالخبر والاستدلال.

وقوله تعالى: ﴿قال أو لم تؤمن﴾ يعنى: قد آمنت فلم تسأل؟ وهذا مثل قول الشاعر:

ألستم خير من ركب المطايا

يعنى: أنتم كذلك.

وقوله: ﴿قال بلى ولكن ليطمئن قلبى﴾ فإن قال قائل: أكان إبراهيم شاكا فيه

---

(١) ليست فى «الأصل» ولا «ك».

(٢) قرأ حمزة، والكسائى بهمزة وصل وإسكان الميم على الأمر، وإذا ابتدأ كسر الهمزة، وقرأ الباقون بهمزة قطع، ورفع الميم على الخبر. انظر النشر (٢ / ٢٣١ - ٢٣٢).

حتى احتاج إلى السؤال، وما معنى قوله عليه السلام: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»[1]؟ والجواب: أنه لم يكن شاكا فيه، ولكنه إنما آمن بالخبر والاستدلال، فأراد أن يعرفه عيانا.

قال عكرمة: ليزداد يقينا على يقين؛ لأن العيان فوق الخبر فى ارتفاع العلم. وقد قال عليه السلام: «ليس الخبر كالمعاينة»[2].

وأما قوله: ﴿ولكن ليطمئن قلبى﴾؛ وذلك أنه لما سأل ذلك تعلق به قلبه، فقال: ولكن ليطمئن قلبى عن ذلك التعلق.

وقيل: إنما قال ذلك؛ لأن الله تعالى لما اتخذه خليلا، قال ملك الموت: يارب، ائذن لى حتى أبشره؛ فبشره بأن الله اتخذك خليلا فأراد أن يريه الله إحياء الموتى تخصيصا له بكرامته؛ ليطمئن قلبه بالخلة.

وقيل معناه: ولكن ليطمئن قلبى، فأعرف أنى إذا سألتك أعطيتنى، وإذا دعوتك أجبتنى. وأما قوله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»[3] إنما قاله على سبيل التواضع، يعنى: نحن دونه، وأحق بالشك منه، فإذا لم نشك نحن فكيف يشك إبراهيم؟

وقوله تعالى: ﴿قال فخذ أربعة من الطير﴾ قيل: هى الطاووس، والديك، والحمامة، والغراب.

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة، رواه البخاري (٦/ ٤٧٣ رقم ٣٣٨٢ وأطرافه فى ٣٣٧٥، ٤٥٣٧، ٤٦٩٤، ٦٩٩٢)، ومسلم (٢/ ٢٤٠ - ٢٤١، ١٥/ ١٧٩ رقم ١٥١).

(٢) رواه أحمد في مسنده (١/ ٢١٥، ٢٧١)، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٩٦ - ٩٧ رقم ٦٢١٣، و٦٢١٤)، وابن عدي في الكامل (٧/ ٢٨، ١٣٦)، والحاكم في مستدركه (٢/ ٣٢١)، وصححه جميعهم من حديث ابن عباس مرفوعًا. وفي بعض ألفاظه اختلاف، وفي الباب عن ابن عمرو، وأنس وأبي هريرة.

(٣) سبق.

جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ

وقوله تعالى: ﴿فصرهن إليك﴾ أى: فضمهن إليك. وقرأ حمزة بكسر الصاد(١).

وفيه تقديم وتأخير، وتقديره: فخذ أربعة من الطير إليك فصرهن، أى: فقطعهن.

وقوله: ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا﴾ قيل: جعلها على أربعة أجبل.

وقال السدى: على سبعة أجبل، وقال ابن عباس: على أربعة أرباع العالم، جزءا على جبل بجانب الشرق(٢)، وجزءا على جبل جانب الغرب(٢)، وجزءا على الشمال، وجزءا على الجنوب.

وفيه قول آخر: أنه أراد بقوله: ﴿اجعل على كل جبل منهن جزءا﴾ أى: عشرا، وكان على عشرة أجبل؛ حتى ذهب بعض العلماء من هذا إلى أنه لو أوصَى الإنسان بجزء من ماله ينصَرِف إلى العُشْر.

وقوله: ﴿ثم ادعهن يأتينك سعيا﴾ وفى القصة: أنه جزَّء تلك الطيور الأربعة، وخلط اللحم باللحم، والريش بالريش، والعظم بالعظم، وجعلها على الأجبل.

وقيل: دقَّه بالهَاوُن وأخذ رءوسهن بين أصابعه، وقيل: مناقيرهن، ثم دعاهن؛ فكان يطير الريش إلى الريش، واللحم إلى اللحم، والدم إلى الدم، ويُركَّب بعضها على بعض، وأتَيْنَ ساعيات إلى رءوسهن.

وقوله تعالى: ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله﴾ قيل: سبيل الله: الجهاد.

---

(١) وهى قراءة أبى جعفر، وخلف، ورويس. انظر النشر (٢/ ٢٣٢).

(٢) في «ك»: المشرق.. المغرب.

يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ

وقيل: جميع أبواب الخير سبيل الله.

وقوله: ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مئة حبة﴾ ضربه مثلا للمتقين وما وعد من الثواب على الإنفاق.

فإن قال قائل: كيف ضرب المثل به، وهل(١) يتصور فى كل سنبلة مئة حبة؟

قيل: لما كان ذلك متصورا فى الجملة، صح ضرب المثل به وإن لم يعرف، ومثله ما قاله امرؤ القيس:

ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وناب الغول لايعرف، ولكن لما تصور وجوده بالجملة مثل به. وقيل: هو يتصور فى سنبلة الدخن ونحوه.

وقوله: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ قيل: معناه: يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء. وقيل: معناه يضاعف على هذا ويزيد لمن يشاء.

وقوله: ﴿والله واسع﴾ أى: واسع الفضل والرحمة والقدرة، يعطى عن سعة.

وقوله: ﴿عليم﴾ أى: عليم بنية من يعطى.

قوله تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لايتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى﴾ أما المن: فهو أن يقول للفقير: أعطيتك كذا، وصنعت بك كذا، فيعدد عليه نعمه، وأما الأذى: فهو أن يعير الفقير، فيقول له: إلى كم تسأل، وكم تؤذينى فلا زلت فقيرا ونحو ذلك.

وقيل: من الأذى: أن يذكر إنفاقه عليه عند من لايريد أن يعرف.

وقوله: ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ أى: ثوابهم، وقوله: ﴿ولاخوف عليهم﴾

(١) فى «ك»: وكيف.

يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ

ولايخافون فوات الثواب، وقوله: ﴿ولا هم يحزنون﴾ أى: على ما أنفقوا إذا رأوا الثواب.

قوله تعالى: ﴿قول معروف﴾ قال الحسن: هو القول الجميل.

وقيل: هو أن يعطيه ويُبَرِّك له، فيقول: بارك الله لك فيه، أو يمنعه ويدعو له.

وقوله: ﴿ومغفرة﴾ هو: أن تستر خَلَّته[1]، ولاتهتك ستره.

وقيل: هو أن تعفو عن الفقير إن بدرت منه مساءة أو أذى.

وقوله: ﴿خير من صدقة يتبعها أذى﴾ يقول: ذلك القول المعروف، وتلك المغفرة، خير من صدقة يتبعها أذى.

وقوله: ﴿والله غنى﴾ أى: مستغن عن صدقاتكم. وقوله: ﴿حليم﴾ أى: لايعجل بالعقوبة إذا منعتم الصدقة.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ قد ذكرنا معناهما.

وقيل: المَنُّ فى الصدقة بمنزلة الحَدَث فى الصلاة، يبطلها ويحبطها.

وقوله: ﴿كالذى ينفق ماله رئاء الناس﴾ أى: كإبطال الذى ينفق ماله رئاء الناس؛ لأن الرياء يبطل الصدقة ويحبطها.

وقوله: ﴿ولايؤمن بالله واليوم الآخر﴾ يعنى: النفقة مع الرياء ليس من فعل المؤمنين.

وفى الجملة كل من أتى بالصدقة تقربا إلى مخلوق فلا يكون مؤمنا.

(١) الخَلَّة: الحاجة والفقر. انظر لسان العرب (مادة: خلل).

فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ

وقوله: ﴿فمثله كمثل صفوان عليه تراب﴾ الصفوان: الحجر الصلد الأملس.

وقوله: ﴿فأصابه وابل﴾ الوابل: المطر الشديد العظَام القطر.

وقوله: ﴿فتركه صلدا﴾ أى: أملس ﴿لايقدرون على شىء مما كسبوا﴾ ومعنى هذا المثل: أن الذى يرائى بالإنفاق يفرق نفقته، ولا يفوز بشىء من الثواب، كالتراب الذى يكون على الحجر فيصيبه الوابل؛ فيفوت الذى عليه، ويبقى أملس، بحيث لايقدر على شىء منه.

وقوله: ﴿والله لايهدى القوم الكافرين﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله﴾ أى: خالصا لوجه الله.

وقوله: ﴿و تثبيتا من أنفسهم﴾ قال قتادة: هو أن يكون محتسبا بالإنفاق.

وقال الحسن: هو أن يثبت من نفسه حتى إن كانت نيته أن يتصدق لله يفعل، وإن كانت نيته غيره يمسك، وقال الكلبى، والشعبى: هو أن يتصدق على يقين بالثواب، وتصديق بوعد الله فيه.

وقوله: ﴿كمثل جنة بربوة﴾ الجنة: البستان. والربوة: المكان المرتفع.

وقوله: ﴿أصابها وابل﴾ كما ذكرنا. وقوله: ﴿فآتت أكلها ضعفين﴾ أى: ثمرها ضعف ما تؤتى غيرها. قوله: ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾ الطل: المطر الخفيف الصغار القطر، ويكون دائما.

ومعنى هذا المثل: أن الذى ينفق خالصا لوجه الله تعالى لا تخلف نفقته، بل تنمو وتزكو بكل حال: كما أن الجنة التى على الربوة لاتخلف، بل تنمو وتزكو بكل حال سواء أصابها الوابل، أو أصابها الطل؛ وذلك أن الطل إذا كان يدوم يعمل عمل

بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

الوابل الشديد.

وقوله: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء﴾ أى: صغارا.

﴿فأصابها إعصارا فيه نار فاحترقت﴾ الإعصار: ريح ترتفع كالعمود نحو السماء، تسميه العرب، وسائر الناس: زوبعة، ومنه قول الشاعر:

إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا

وأما معنى الآية: روى أن عمر - رضى الله عنه - سأل الصحابة عن معنى هذه الآية، فقالوا: الله أعلم، فغضب عمر، وقال: قولوا: نعلم، أو لانعلم، ونحن نعلم أن الله يعلم؛ فسكتوا، وكان ابن عباس فيهم فقال: فى قلبى شىء، فقال له عمر: قل، ولا تحقر نفسك، ضرب مثلا لعمل. وروى تمام الكلام فيه. - ثم اختلفوا، منهم من قال: تمام الكلام من عمر، ومنهم من قال: تمام الكلام من ابن عباس -

وتمامه: أن الله تعالى ضرب هذا مثلا للذى يعمل طول عمره عملا، ثم يحبطه برياء أو بشىء فى آخر عمره، فيفوته ذلك، ولاينفعه فى أحوج حال يكون إليه؛ كالذى له بستان ذات أشجار، وثمار، وأنهار، فيدركه الكبر، وله عيلة كبيرة وأولاد صغار، فلما قرب إدراكه واحتاج إليه، أصابته نارٌ فأحرقته، فيفوته ذلك (ولاينفق)[1] فى أحوج حال يكون إليه.

(١) في «ك»: ينبت.

آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾

قوله : ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ . ظاهر المعنى .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ﴾ أى : من حلال ما كسبتم، وفى هذا دلالة على أن الكسب يتنوع إلى الطيب، والخبيث .

وقوله : ﴿ ومما أخرجنا لكم من الأرض ﴾ قيل : هو الأمر بإخراج العشور .

وقيل : هو أمر بإخراج الحقوق التى كانت واجبة فى نبات الأرض فى الابتداء، ثم صارت منسوخة بآية الزكاة .

وقيل : هو فى صدقات التطوع .

وقوله : ﴿ ولاتيمموا الخبيث منه تنفقون ﴾ أَمَّ، وتيمم : إذا قصد . وأراد بالخبيث : الرديُ ها هنا، أى : ولاتقصدوا الرديء منه تنفقون .

وسبب نزول الآية : « ما روى أن أصحاب النخيل على عهد رسول الله ﷺ كانوا يأتون بقنوٍ فيعلقونه فى المسجد ؛ ليأكله الفقراء، فجاء رجل بقنوٍ حشف أردأ ما يكون، وعلقه، فلم يرضه رسول الله ﷺ ونزلت الآية : ﴿ ولاتيمموا الخبيث منه تنفقون ﴾ »(١) .

وقوله : ﴿ ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ﴾ إلا أن تسامحوا وتساهلوا فى أخذه، ومعناه : أن الحق لو كان لكم على غيركم، فجاء به رديئا لاتأخذونه إلا بإغماض فيه، فتعتقدون أنكم تركتم بعض حقكم وأغمضتم .

وقوله : ﴿ واعلموا أن الله غنى ﴾ يعطى عن غنى ﴿ حميد ﴾ محمود الغنى، وفيه دليل على أن الغنى لغير الله مذموم .

وقيل : الحميد : المستحق للحمد .

---

(١) رواه الترمذي (٥ / ٢٠٣ - ٢٠٤ رقم ٢٩٨٧) وقال : حسن غريب صحيح، وابن ماجه (١ / ٥٨٣ رقم ١٨٢٢)، والحاكم في المستدرك (٢ / ٢٨٥) وقال : حديث غريب صحيح على شرط مسلم . جميعهم من حديث البراء بن عازب .

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً

قوله تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ يخوفكم بالفقر، والباء محذوفة.

وقوله: ﴿ويأمركم بالفحشاء﴾ أى: بأن لا تتصدقوا وتبخلوا، ومنه قول طرفة:

عَقيلةَ مالِ الفاحِشِ المتشددِ[1]

أى: البخيل المتشدد[2].

والبخل داء عظيم، قال ﷺ «لا داء أدوى من البخل».

وقوله: ﴿والله يعدكم مغفرة منه وفضلا﴾ مغفرة، أى: عفو الله، وفضلا: بالثواب.

وقوله: ﴿والله واسع عليم﴾ وقد ذكرنا معناهما.

وقوله تعالى: ﴿يؤتى الحكمة من يشاء﴾ قال ابن عباس: وهو حكمة القرآن، وهو أن يعرف ناسخه و منسوخه، ومقدمه ومؤخره، ومحكمه ومتشابهه، وحرامه وحلاله، وأمثاله.

وقيل: هو الفقه فى الدين.

وقال إبراهيم النخعى: هو معرفة معانى الأشياء وفهمها.

وفيه قول رابع: هو الإصابة، فعلا وقولا.

وقوله: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾.

قرأ يعقوب: «ومن يؤتِ» بكسر التاء يعنى: ومن يؤتِه الله الحكمة.

---

(١) هذا شطر من البيت، والشطر الأول كما فى لسان العرب (مادة: فحش):

أرى الموت يَعتام الكرامَ ويصطفى

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢/ رقم١٢٠٣)، والحاكم (٣/٢١٩) من حديث أبي هريرة، وقال: صحيح على شرط مسلم. وقال الهيثمى فى المجمع (٩/٣١٨): رواه الطبراني، والبزار، وفيه سعيد بن محمد الوراق، وهو متروك. وقد روى موقوفا على أبي بكر الصديق كما في البخاري (٦/٢٧٤،٢٧٩ رقم ٣١٣٧)، وأحمد في مسنده (٣/٣٠٧ –٣٠٨). وفي الباب عن جابر، وكعب بن مالك.

كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا

قيل: هذه الحكمة: هى الكتابة، ومعرفة الخط.

وقيل: هى العقل. وقيل: الأمانة.

﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ أى: وما يتفكر إلا أولوا العقول.

قوله تعالى: ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم﴾ فيه قولان: أحدهما: أن المراد بالنفقة: الزكاة المفروضة، وأما النذر: هو أن ينوى عمل الخير، وصدقة التطوع.

والقول الثانى: أن النفقة هى صدقة التطوع، وأما النذر هو ما عرف من نذر اللسان؛ وهو أن يوجب التصدق على نفسه.

وقوله: ﴿فإن الله يعلمه﴾ أى: يجازى. وقال مجاهد: يحصيه.

وقوله: ﴿وما للظالمين﴾ أى: الذين يتصدقون من الغصب والنهب. ﴿من أنصار﴾ جمع النصير، أى: ما لهم من ينصر ويمنع من العذاب.

قوله تعالى: ﴿إن تبدوا الصدقات﴾ معناه: إن تظهروا. ﴿فنعما هى﴾ يقرأ بالقراءات بفتح النون، وكسر العين، ويقرأ: بكسرهما، وقرأ أبو عمرو: بكسر النون وجزم العين، ولم يرض ذلك منه نحاة البصرة، وقالوا فيه التقاء الساكنين، واستشهد أبو عمرو بقوله ﷺ لعمرو بن العاص: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[1] والكل فى المعنى سواء، ومعناه: نعم خلة، هى أو نعم شىء هو.

قوله: ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ قيل: هذا فى صدقات

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (ص٩٠ – ٩١رقم)، وأحمد في مسنده (٤ /١٩٧، ٢٠٢)، والحاكم في مستدركه (٢ /٢٣٦،٢) وصححه. وأبو يعلى فى مسنده (١٣ / ٣٢٠ رقم ٧٣٣٦)، والقضاعى فى مسند الشهاب (٢ /٢٥٩ رقم ١٣١٥)، و،ابن حبان فى صحيحه – الإحسان – (٨ /٦–٧ رقم ٣٢١٠، ٣٢١١).
وقال الهيثمى فى المجمع (٩ /٣٥٥): رواه أحمد، وأبو يعلى، والطبرانى فى الأوسط والكبير... ورجال أحمد، وأبى يعلى رجال الصحيح.

وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

التطوع، والإخفاء فيها أفضل، وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «صدقة السر تفضل صدقة العلانية بسبعين ضعفا»[١].

وأما الزكاة المفروضة: فالإظهار فيها أفضل، وقد قال ﷺ «صدقة العلانية تفضل صدقة السر بخمس وعشرين»[٢]، وهذا فى الزكاة، والأول فى التطوعات.

وقيل: الآية فى الزكاة المفروضة، وكان الإخفاء خيرا فى الكل على عهد رسول الله ﷺ فأما فى زماننا فالإظهار خير فى الزكاة لسوء الزمان، كيلا يساء الظن به.

وقوله: ﴿ويكفر عنكم﴾ يقرأ: بالنون، والياء، ويقرأ: بالرفع، والجزم[٣] ﴿من سيئاتكم﴾ قيل: من صلة فيه. وتقديره: ويكفر عنكم سيئاتكم، فعلى هذا يكون شاملا للصغائر، والكبائر.

وفيه قول آخر: أن «مِن» على التحقيق، والتكفير بالصدقات يكون عن الصغائر فأما الكبائر فإنما تكفرها التوبة.

والأول أقرب إلى أهل السنة، وقد قال النبى ﷺ: «صدقة السر تطفئ غضب الرب»[٤].

وقوله: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ هذا ظاهر المعنى.

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٣/٦٢) عن ابن عباس موقوفا، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/٢٥٦ رقم ١٦٧) للحكيم الترمذي في نوادر الأصول.

(٢) هو بقية حديث ابن عباس المتقدم.

(٣) قرأ ابن عامر، وحفص بالياء، وقرأ الباقون بالنون، وقرأ نافع، وأبو جعفر، وحمزة، والكسائى، وخلف، بجزم الراء، وقرأ الباقون برفعها. انظر النشر (٢/٢٣٦).

(٤) روى هذا الحديث من حديث عمر بن الخطاب، وعبد الله بن جعفر، وأنس بن مالك، وأبي أمامة، وأبي سعيد الخدري، وابن عباس، وابن مسعود، ومعاوية بن حيدة، وأم سلمة.

وقال الشيخ ناصر – حفظه الله – في السلسلة الصحيحة (٤/٥٣٩): وجملة القول أن الحديث بمجموع طرقه وشواهده صحيح بلا ريب. وراجع الصحيحة (رقم١٩٠٨)، والإرواء (رقم ٨٨٥).

﴿٢٧١﴾ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي

قوله تعالى: ﴿ليس عليك هداهم﴾ ليس المراد به: هداية الدعوة، فإنها عليه حتم، وإنما المراد به: هداية التوفيق.

قال سعيد بن جبير: «سبب نزول الآية ما روى: أن النبى ﷺ نهى عن التصدق على المشركين، وإنما كان نهى عنه، كى تحملهم الحاجة على الدخول فى الإسلام فنزلت الآية فأمر النبى - ﷺ - بالتصدق على أهل الأديان كلها»(١).

ومعناه: ليس عليك هداهم، بأن تلجئهم وتحملهم على الدخول فى الإسلام، ﴿ولكن الله يهدى من يشاء﴾ أى يوفق من يشاء، ويخذل من يشاء.

قوله: ﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم﴾ أى: تعملونه لأنفسكم.

قوله: ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ هذا خبر بمعنى الأمر، أى: أنفقوا لوجه الله، ومعناه: ابتغاء مرضاة الله.

وقيل: هو على المبالغة، فإن قول الرجل: عملت لوجه فلان. أبلغ وأشرف من قوله: عملت لفلان، فذكرنا شرف اللفظين.

وقوله: ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم﴾ أى: يوفر عليكم ثوابه.

﴿وأنتم لا تظلمون﴾ ظاهر.

قوله تعالى: ﴿للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله﴾ يعنى: تلك الصدقات التى سبق ذكرها للفقراء.

قال مجاهد: أراد به فقراء المهاجرين من مكة.

وأما قوله: ﴿أحصروا فى سبيل الله﴾ فيه ثلاثة أقوال:

[أحدها](٢): قال ابن عباس: يعنى: حبسهم العدو والفقر عن سبيل الله والجهاد، فصاروا محصورين عنه.

---

(١) الطبري في تفسيره (٣/ ٦٣).

(٢) من «ك».

وقال سعيد بن المسيب : أراد به : أنهم خرجوا إلى الحرب، فأصابتهم جراحات، فصاروا محصَرين عن الجهاد بسبب الجراحات .

وقال قتادة - وهو أحسن الأقوال - : معناه : أنهم حبسوا أنفسهم على الجهاد فى سبيل الله، وتركوا الخروج للتجارة والمعاش، ووقفوا أنفسهم على الحرب .

وقد ورد ذلك فى أهل الصفة، كانوا قريبا من أربعمائة نفر، اجتمعوا فى مسجد رسول الله ﷺ وكانوا لا يأوون إلى أهل ولا إلى مال، وكان يبعث الناس إليهم بفضل قوتهم، وكانوا وقفوا أنفسهم على الجهاد فى سبيل الله، وقالوا : لا تخرج سرية إلا ونخرج معها، فهذا معنى قوله : ﴿ أحصروا فى سبيل الله ﴾ .

وقوله : ﴿ لايستطيعون ضربا فى الأرض ﴾ هذا على القولين الأولين يرجع إلى الضرب فى الأرض للجهاد .

وعلى القول الثالث : هو الضرب فى الأرض للمعاش والتجارة .

وقوله : ﴿ يحسبهم الجاهل ﴾ قال مجاهد : ليس المراد بهذا الجاهل خلاف العالم وإنما هو الذى لاخبرة له ولا معرفة بحالهم .

وقوله : ﴿ أغنياء من التعفف ﴾ يعنى : من القناعة التى لهم يظنهم من لم يعرفهم أغنياء .

قوله : ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾ قيل : بالتخشع الذى كان لهم .

وقال الضحاك : بصفرة الألوان .

وقال ابن زيد : برثاثة الثياب .

وقيل : أثر الجوع والجهد .

وقوله : ﴿ لايسألون الناس إلحافا ﴾ أى : إلحاحا .

وقيل: أصله من إلحاف؛ فالإلحاف: السؤال على العموم، كأنه يسأل كل من يلقى.

وفيه قول آخر: أنه أراد به ترك السؤال أصلا؛ فإنه إذا سأل فقد ألحف، يعنى: لايسألون أصلا.

والدليل عليه أنه قال: ﴿أغنياء من التعفف﴾ وإذا سأل لايكون متعففا، وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «من سأل وعنده أوقية فقد ألحف»[١]. يعنى: عنده أربعون درهما.

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره، خير له من أن يسأل الناس أعطى أو منع»[٢].

وقوله: ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية﴾.

قال ابن عباس: هذا فى على بن أبى طالب، كانت له أربعة دراهم، فتصدق بدرهم بالليل، ودرهم بالنهار، ودرهم فى السر، ودرهم فى (العلن)[٣]؛ فنزلت الآية رضا بفعله، وثناء عليه.

وقيل: أراد بالنفقة ها هنا: النفقة على الخيل فى سبيل الله؛ فإنها تعتلف من تلك النفقة ليلا ونهارا، وسرا وعلانية؛ والنفقة على الخيل فى سبيل الله باب عظيم فى

---

(١) رواه وأبو داود في سننه (٢/ ١١٦ - ١١٧ رقم ١٦٢٨)، والنسائي (٥/ ٩٨ رقم ٢٥٩٥)، والإمام أحمد في مسنده (٣/ ٧، ٩) وابن خزيمة في صحيحه (٤/ ١٠٠رقم ٢٤٤٧)، وابن حبان في صحيحه (٨/ ١٨٤ - ١٨٥رقم ٣٣٩٠) عن أبي سعيد الخدري.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة، رواه البخاري (٣/ ٢٩٣ رقم ١٤٧٠ وأطرافه فى ١٤٨٠، ٢٠٧٤، ٢٣٧٤)، ومسلم (٧/ ١٨٤ - ١٨٥ رقم ١٠٤٢).

(٣) في «ك»: العلانية.

وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ

الخير. وقد ورد فى الحديث: «أنه يؤجر بأرواثها وأبوالها»[1].

وقوله تعالى: ﴿فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿الذين يأكلون الربا﴾ أى: يأخذون، فعبر بالأكل عن الأخذ؛ لأنه يؤخذ ليؤكل.

وقوله: ﴿لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس﴾.

الخبط: ضرب على غير استواء، يقال: فلان يخبط خبط عشواء، إذا كان يسلك طريقا لايهتدى إليه. ومنه قول الشاعر:

رأيت المنايا خَبْطَ عشواء من تُصِبْ ... تُمِتْهُ ومــن تخطىء يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

ومعناه: أن آكل الربا يحشر يوم القيامة كمثل السكران، يقوم تارة، ويقع أخرى.

وقيل: هو من تخبط الشيطان، وذلك [أن][2] يدخل الإنسان فيصرعه.

والمس: الجنون، والخبط: أول الجنون، ومعناه: أنه يحشر يوم القيامة كمثل المصروع؛ وذلك علامة أكلة الربا يوم القيامة.

وقوله: ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا﴾. أراد بهم ثقيف؛ فإنهم قالوا إنما البيع مثل الربا.

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة، فرواه البخارى (٥/٥٦ رقم ٢٣٧١، وأطرافه فى ٢٨٦٠، ٣٦٤٦، ٤٩٦٢، ٤٩٦٣، ٧٣٥٦)، ومسلم (٧/٨٩ - ٩٧ رقم ٩٨٧).

(٢) فى «الأصل وك»: أن لا، ولعل «لا» زيادة مقحمة.

وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن

﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ هذا جوابهم.

وقوله: ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى ﴾ يعنى: من أكل الربا.

﴿ فله ما سلف ﴾ أى: مغفورا له ما سلف منه ﴿ وأمره إلى الله ومن عاد ﴾ إلى أكل الربا ﴿ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يمحق الله الربا ﴾ أى: يُذْهِبَ بركة المال؛ فإن للحلال بركة، وليست للحرام بركة.

وقيل: معناه: يبطل الصدقة من الربا ﴿ ويربى الصدقات ﴾ ويكثر الصدقات ﴿ والله لايحب كل كفار أثيم ﴾ فالكَفَّار: عظيم الكفران، والأثيم: كثير الإثم.

قوله تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ وقد سبق تفسيره.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾. نزل هذا فى ثقيف وبنى مخزوم تنازعوا إلى عتّاب بن أسيد قاضى مكة فقالت ثقيف إنما أسلمنا على أن ما علينا من الربا موضوع وما لنا باقي فكتب بذلك عتاب إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية، فبعث رسول الله ﷺ بالآية إلى عتاب ليقرأ عليهم»(١).

وقوله: ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ يعنى: ترك الربا من فعل المؤمنين».

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٣/ ٧١) عن ابن جريج مرسلا. وعزاه السيوطى فى الدر (١/ ٣٧٧) لابن أبى حاتم بنحوه عن مقاتل، وفيه شك فى اسم الصحابى، هل هو معاذ بن جبل أم عتاب. ورواه أبو يعلى - كما في أسباب النزول للواحدى من طريقه (ص٦٤ - ٦٥) - بإسناده عن ابن عباس في حديث طويل.

لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ

وقيل: معناه: إذ كنتم مؤمنين.

والآية فى إبطال ربا الجاهلية؛ وذلك أنهم كانوا يدينون الناس بشرط أن يزيدوا فى الدين عند الأداء، وكان يقرض الرجل غيره، ويضرب له أجلا، ثم عند حلول الأجل يقول له: زدنى فى الدين حتى أزيدك فى الأجل، فهذا كان ربا الجاهلية وهو حرام.

وقوله تعالى: ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ أى: فأيقنوا به.

ويقرأ ممدودا: «فآذنوا بحرب من الله»[1] أى: أعلموا غيركم أن يتركوا الربا، إنكم حرب الله ورسوله، فإذا أعلمتم فقد علمتم.

﴿ وإن تبتم ﴾ أى: تركتم استحلال الربا، ورجعتم عنه ﴿ فلكم رءوس أموالكم ﴾ أبطل الزيادة، وجعل لهم أصل المال.

وإنما قال: ﴿ وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم ﴾ لأنهم ما داموا على استحلال الربا كان ما لهم فيئا ليس لهم أصله ولا فرعه.

﴿ لاتظلمون ولا تظلمون ﴾ أى: لاتَظْلِمُون بطلب الزيادة، ولا تُظْلَمُون بنقصان حقكم فى أصل المال.

قوله تعالى: ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾ قرأ: أبى بن كعب: «وإن كان من عليه الدين ذا عسرة». وقرأ عطاء: «فناظرة إلى ميسرة».

والمعروف: ﴿ وإن كان ذو عسرة ﴾ أى: وإن وقع ذو عسرة، أو وإن كان ذو عسرة غريما لكم، فنظرة إلى ميسرة، أى: فأنظروه إلى اليسار.

وقرأ نافع: «إلى ميسُرة» بضم السين[2]، وهو مثل الأول فى المعنى.

---

(١) قرأ حمزة، وأبو بكر بقطع الهمزة ممدودة، وكسر الذال، وقرأ الباقون بفتحها ووصل الهمزة. انظر النشر (٢/٢٣٦).

(٢) قرأ نافع بضم السين، وقرأ الباقون بفتحها. انظر المصدر السابق.

تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب

وروى أبو اليسر عن النبى – عليه السلام – أنه قال: «من أنظر معسرا أظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله»[1].

وروى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «كان فيمن قبلكم رجل يداين الناس فقال لفتاه: إذا كان معسرا فتجاوز عنه؛ لعل الله يتجاوز عنا، فلقى الله فتجاوز عنه»[2]. والخبر فى الصحاح.

﴿وأن تصدقوا﴾ يعنى: بترك أصل المال الذى أعطيتموه قرضا. ﴿خير لكم إن كنتم تعلمون﴾.

قوله – تعالى: ﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله﴾. قال ابن عباس: هذه آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ.

قال ابن جريج: إنما عاش بعدها سبع ليال، وفى رواية تسع ليال.

ويروى أن جبريل – صلوات الله عليه – لما نزل بهذه الآية قال: ضعها على رأس مائتين وثمانين آية من سورة البقرة، وهذه الآية مسجلة سجلها الله على الخلق كافة.

﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون﴾ وهو ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين﴾ قال ابن عباس: أشهد أن السلف المضمون المؤجل فى كتاب الله، قد أنزل فيه أطول آية، وتلا هذه الآية.

وقوله: ﴿تداينتم بدين﴾ أى: تعاملتم بالدين، يقال: داينته، إذا عاملته بالدين.

فإن قيل: قوله: ﴿تداينتم﴾ يغنى عن المعاملة بالدين، فلمَ قال: تداينتم بدين؟ قيل: لأن العرب تقول: تداينا – أى: تعاطينا وتجازينا، وإن لم يكن فى الدين؛ فقال:

---

(١) رواه مسلم (٨/١٨١ – ١٩٣ رقم ٣٠٠٦)، وابن ماجة (٢/٨٠٨ رقم ٢٤١٩). وأحمد (٣/٤٢٧)، والحاكم (٢/٢٨-٢٩) والبيهقى فى الكبرى (٥/٣٥٧).

(٢) متفق عليه. رواه البخاري (٤/٣٦١ رقم ٧٠٢٨ وطرفه فى ٣٤٨٠)، ومسلم (١٠/٣٢٣ – ٣٢٤ رقم ١٥٦٢).

بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا

﴿ تداينتم بدين ﴾ ليعرف المعنى المراد من اللفظ، ويحتمل أنه قاله تأكيدا. ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ الأجل: مُدَّة معلومة الأول والآخر، وهذا يشتمل على الأجل فى السلم، والأجل فى الثمن، والأجل فى القرض، ولم يجوّز أكثر العلماء الأجل فى القرض، وجوزه بعضهم.

﴿ فاكتبوه ﴾ قيل: هو على الوجوب، وهو قول مجاهد.

وقال الشعبى: إنما يجب الكتب إذا وجد من يكتب، والأصح أنه على الندب.

وقال أبو سعيد الخدرى: هذا الأمر منسوخ بقوله تعالى: ﴿ فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى أؤتمن أمانته ﴾.

وقوله: ﴿ وليكتب بينكم كاتب بالعدل ﴾. الكتابة بالعدل هو: أن يكتب من غير زيادة ولانقصان، ولاتقديم فى الأجل ولا تأخير.

﴿ ولا يأب كاتب أن يكتب ﴾ قيل: الكتابة واجبة على الكتبة لظاهر الآية، والأصح أنه على الندب.

﴿ كما علمه الله فليكتب ﴾ أى: كما شرعه الله، فليكتب.

﴿ وليملل الذى عليه الحق ﴾ الإملال والإملاء بمعنى واحد.

والإملال لغة قريش وبنى أسد، والإملاء: لغة قيس وتميم، وهما مذكوران فى القرآن.

فالإملال هاهنا، والإملاء فى قوله: ﴿ فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾(١).

﴿ وليتق الله ربه ﴾ يعنى: المملى ﴿ ولايبخس منه شيئا ﴾، ولا ينقص من الحق شيئا.

وقوله: ﴿ فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا ﴾ أما السفيه: قال مجاهد:

(١) الفرقان: ٥.

يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا

هو الجاهل.

وقال الزجاج: هو خفيف العقل، ويشتمل هذا على: المرأة، والصغير ونحوه، ومنه قول الشاعر:

مشينَ كما اهتزت رماحٌ تسفهت ... أعاليهـا مَـرُّ الريـاحِ النواسـمِ

وقيل: السفيه: الصغير ومذهب الشافعي: أنه المبذر المفسد لماله.

وأما الضعيف: هو ضعيف العقل من عته، أو جنون.

﴿ أو لايستطيع أن يمل هو ﴾ أي: لايقدر على الإملال من خرس، أو عمى.

﴿ فليملل وليه بالعدل ﴾ يعني: وليّ هؤلاء.

أما من لم يجوز الحجر على السفيه - كالنخعي، وابن سيرين، وغيرهما - قالوا: أراد بالولي: صاحب الحق، يعني: إن عجز من عليه الحق من الإملال فليملل الذي له الحق.

﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم ﴾ أي: وأشهدوا.

﴿ فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ﴾ يعني: فإن لم يكن الشاهدان رجلين فرجل وامرأتان.

﴿ ممن ترضون من الشهداء ﴾ وهم أهل الفضل والدين، قاله ابن عباس. ﴿ أن تضل إحداهما ﴾ أن تنسى وتغفل إحداهما، وذلك بأن يغيب حفظها عن الشهادة، أو تغيب الشهادة عن الحفظ.

﴿ فتذكر إحداهما الأخرى ﴾ وذلك بأن تقول: ألسنا حضرنا مجلس كذا؟ ألم نسمع كيت وكيت؟.

الأُخْرَىٰ وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً

وقرأ حمزة: «إِنْ تضل فتذكرُ إحداهما الأخرى» على الشرط[1].

قال سفيان بن عيينة: فتذكر إحداهما الأخرى، معناه: تجعل إحداهما الأخرى ذَكَرًا، أى: يقومان مقام الذكر، والأول أصح.

﴿ ولايأب الشهداء إذا ما دعوا ﴾ قيل: أراد به: إذا ما دعوا للتحمل، وإنما سماهم شهداء على معنى أنهم يكونوا شهداء. وقيل: هو الدعاء إلى الشهادة.

﴿ ولاتسأموا ﴾ أى: لاتملوا ﴿ أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ﴾ يعنى: الذى قَلَّ أو كَثُر.

﴿ ذلكم أقسط عند الله ﴾ أعدل عند الله ﴿ وأقوم للشهادة ﴾ لأن الكَتَبة تذكر الشهود.

﴿ وأدنى ألا ترتابوا ﴾ أى: أن لاتشكوا ﴿ إلا أن تكون تجارة حاضرة ﴾ قرأ: بضم التاء على اسم كان، وقرأ بفتح التاء، يعنى: إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة، ومثله قول الشاعر:

فِدىً لِبَنِى ذهلِ بنِ شيبانَ ناقتى ... إذا كان يوما ذا كواكبَ أشهبا[2]

يعنى: إذا كان اليوم يوما.

﴿ تديرونها بينكم ﴾ يعنى: إذا كانت التجارة يدا بيد.

---

(١) قرأ حمزة: «إِن» بكسر الهمزة، وقرأ الباقون بفتحها، وقرأ: «فتذكرُ» بضم الراء، وقرأ الباقون بفتحها.
وقرأ ابن كثير، ويعقوب، وأبو عمرو بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد. انظر النشر (٢ / ٢٣٦ – ٢٣٧)، وتفسير البغوى (١ / ٢٦٩).

(٢) جاء هذا الشطر من البيت فى لسان العرب (مادة: شهب) كما يلى:
إذا كان يومٌ ذو كواكبَ أشهبُ

تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا

﴿ فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ أمر به استحبابا.

﴿ ولا يضار كاتب ولا شهيد ﴾ قرأ عمر: «ولا يضارِرَ» وقرأ ابن مسعود: «ولا يضارَر» والمعروف: ﴿ ولا يضارَّ ﴾، وهذا يحتمل أن يكون نهيا للكاتب والشاهد عن الإضرار، ويحتمل أن يكون نهيا للمملى والداعى.

فأما إضرار الشهود والكاتب: أن يأبى الكتابة والشهادة إذا دعى إليها.

وأما الإضرار بالكاتب والشهود: أن يدعوه وهو مشغول، فيمنعه من شغله.

قوله تعالى: ﴿ وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ﴾ أى: معصية منكم ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا ﴾. قرأ عطاء: «ولم تجدوا كُتَّابًا» وهو جمع الكاتب، كما يقال: قائم وقيام، ونائم ونيام.

﴿ فرهن مقبوضة ﴾ ويقرأ: «فرهان» مقبوضة والمعنى واحد[1].

وحكم الرهن معلوم، وليس ذكر السفر، وعدم الكاتب على سبيل الشرط فى جواز الرهن؛ وإنما خرج الكلام على الأعم الأغلب.

﴿ فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته ﴾ يعنى: إن ائتمنه فى الدين فليقضه على الأمانة.

﴿ وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ﴾ نهى الشهود عن كتمان الشهادة، وهو

(١) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: بضم الراء والهاء، من غير ألف، وقرأ الباقون: بكسر الراء، وفتح الهاء، وألف بعدها. انظر النشر (٢/ ٢٣٧).

فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

حرام.

﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ قيل: ما أوعد الله تعالى على شيء كإيعاده على كتمان الشهادة، فإنه قال: ﴿فإنه آثم قلبه﴾ وأراد به مسخ القلب، ونعوذ بالله ﴿والله بما تعملون عليم﴾.

قوله تعالى: ﴿لله ما فى السموات وما فى الأرض﴾ مِلْكًا ومُلْكًا. ﴿وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ هذا منسوخ؛ فإنه روى: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين وقالوا: يحاسبنا الله بما نحدث به أنفسنا؟! وبقوا فى ذلك حولا كاملا؛ فنزل قوله تعالى: ﴿لايكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ فصار هذا منسوخا به.

هذا قول أبى هريرة وابن مسعود، (وابن عمر)[1]، وفى إحدى الروايتين عن ابن عباس.

وقد قال النبى ﷺ: «إن الله تعالى عفى عن أمتى ما حدثت به أنفسها؛ ما لم تعمل أو تكلم به»[2] أى: تتكلم به».

وقال أهل الأصول: هذا ليس بمنسوخ؛ لأن قوله: ﴿يحاسبكم به الله﴾ خبر، والنسخ لايرد على الأخبار، وإنما يرد على الأوامر والنو اهى.

وقد روى الوالبى، عن ابن عباس - فى الرواية الثانية - أن معنى قوله: ﴿يحاسبكم به الله﴾ أى: يُعْلِمْكُم به، أى: لايخفى عليه شيء من ذلك.

---

(١) وفى «ك»: وأبى عمر، خطأ.

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى (٥/ ١٩٠ رقم ٢٥٢٨ وأطرافه فى ٥٦٦٩، ٦٦٦٤)، ومسلم (٢/ ١٩٣ رقم ٢٠١).

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا

﴿ فيغفر لمن يشاء ﴾ أى: يغفر للمؤمنين ﴿ ويعذب من يشاء ﴾ يعنى: الكافرين ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾.

قوله تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ﴾ لأنه ذكر الآيات والأحكام، ثم قال: آمن الرسول بذلك كله.

﴿ والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله ﴾ وقرأ يعقوب: «لايفرق» بالياء[١]، أى: لايفرق الرسول بين أحد من رسله.

﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا ﴾ أى: قبلنا ﴿ غفرانك ربنا ﴾ أى: اغفر غفرانك، أو اعطنا غفرانك ربنا ﴿ وإليك المصير ﴾ أى: المرجع.

قوله تعالى: ﴿ لايكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ أى: طاقتها.

وقيل: ما (يشق)[٢] عليها. وهو مثل قول الرجل: لا أستطيع أن أنظر إلى فلان، أى: يشق علي أن أنظر إليه، فكذلك ذكر الوسع بمعنى: السهولة، أى: لايكلف الله نفسا إلا ما يسهل عليها.

وهذه الآية هى الناسخة لما بينا.

﴿ لها ما كسبت ﴾ أى: من الخير ﴿ وعليها ما اكتسبت ﴾ أى: من الشر.

﴿ ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا ﴾ أى: تركنا، وقيل: هى على حقيقة النسيان.

﴿ أو أخطأنا ﴾ الخطأ: يكون بمعنى: العمد، ويكون على حقيقة الخطأ، يقال: أَخْطَأَ يُخْطِئُ وخَطَأَ يَخْطَأ [والمراد][٣] بقوله ها هنا ﴿ أو أخطأنا ﴾ أى: تعمدنا.

---

(١) انظر النشر (٢/٢٣٧).

(٢) فى «ك»: يضيق.

(٣) ليست فى «الأصل» ولا «ك»، والسياق يقتضيها.

رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ﴾

قيل: هو العهد الثقيل الذي حمل من قبلنا.

وقيل: لاتحمل علينا ما يشق علينا.

وقيل: الإصر: هو ذنب لاتوبة له، أي: اعصمنا من ذنب لاتقبل له توبة.

﴿ ربنا ولاتحملنا ما لاطاقة لنا به ﴾ فى هذا دليل علي أن الله تعالى يجوز أن يُحَمِّل العباد ما لايطيقونه؛ لكنه إنما حمل الكفار ما لايطيقونه ولم يحمل المؤمنين. ﴿ واعف عنا ﴾ أى: امح عنا ﴿ واغفر لنا ﴾ أى: استر علينا. ﴿ وارحمنا ﴾ أى: ارحم علينا.

﴿ أنت مولانا ﴾ أنت ناصرنا والقيم بأمورنا. ﴿ فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ وقد ورد فى فضل الآيتين أخبار، منها: ما روى عن النبى ﷺ أنه قال: «من قرأ فى ليلة بآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه»(١).

وروى أنه قال – عليه السلام –: «هما آيتان أنزلتا عليّ من كنز تحت العرش»(٢).

وﷺ [وآله أجمعين](٣).

(١) متفق عليه من حديث أبي مسعود الأنصاري، رواه البخاري (٨/٦٧٢ رقم ٥٠٠٩ وأطرافه فى ٤٠٠٨، ٥٠٠٨، ٥٠٤٠، ٥٠٥١))، ومسلم (٦/١٣٢ رقم ٨٠٧).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٤/١٤٧، ١٥٨)، والطبراني في الكبير (١٧/٢٨٣ رقم ٧٧٩، ٧٨٠) وأبو يعلى في مسنده (٣/ ٢٧٧رقم ١٧٣٥) عن عقبة بن عامر.

وقال الحافظ ابن كثير في رواية أحمد (١/٣٤١): هذا إسناد حسن ولم يخرجوه.

وقال الهيثمي في المجمع (٦/٣١٥): الحديث حسن. وفي الباب عن حذيفة وعلي.

(٣) من «ك».

تفسير سورة آل عمران

وهى مدنية

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قال الشيخ الإمام الأجل - رضي الله عنه - لقد ورد في فضل هذه السورة وسورة البقرة أخبار منها: ما روي عن رسول الله ﷺ [أنه][(١)] قال: «تعلموا البقرة وآل عمران فإنهما الزهروان تظلان صاحبهما يوم القيامة»[(٢)].

وروى عنه ﷺ أنه قال: «تجيء البقرة وآل عمران يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف»[(٣)].

---

(١) من «ك».

(٢) تقدم فى أول سورة البقرة.

(٣) رواه مسلم (٦/ ١٣٠ - ١٣١ رقم ٨٠٥)، والترمذى (٥/ ١٤٧ - ١٤٨ رقم ٢٨٨٣)، وأحمد (٤/ ١٨٣) عن النواس بن سمعان، وقد تقدم تخريجه فى أول سورة البقرة، من حديث أبى أمامة، وبريدة - رضى الله عنهما -.

الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ

قوله تعالى: ﴿آلم الله﴾

فالألف: هو الله، واللام: جبريل، والميم: محمد ﷺ، وفيه إشارة لما أنزل الله، على لسان جبريل، على محمد ﷺ.

وقد ذكرنا الأقوال فى حروف التهجى.

وإنما فتح الميم عند الوصل، وإن كان الساكن إذا حرك حرك إلى الكسر؛ لأنهم استثقلوا الكسرة بعد [الجزم، والياء فيه جزم][(١)].

﴿لا إله إلا هو﴾ لامعبود سواه. ﴿الحى القيوم﴾ فالحى: الدائم الذى لم يزل.

وأما القيوم فقد سبق تفسيره، وقيل: هو الذى لايزول ولايحول. وقال جعفر بن محمد[بن] [(٢)] الزبير: هو دائم الوجود. وقرأ عمر، وابن مسعود ﴿الحى القيام﴾ وهو فى الشواذ.

قوله تعالى: ﴿نزل عليك الكتاب بالحق﴾ الكتاب: القرآن، وسمى كتابا؛ لأنه يجمع الآى والحروف، وهو من الكتب وهو: الجمع، ومنه: الكتيبة و[هى] السرية لاجتماعهم.

ومنه يقال: كتبت البغلة، إذا جمع بين شفريها بحلقه. وقوله: ﴿بالحق﴾ أى: بالصدق فى الدلالات والإخبارات، والوعد والوعيد.

وقوله: ﴿مصدقا لما بين يديه﴾ يعنى: القرآن مصدق لما قبله من التوراة والإنجيل. وإنما قال: ﴿لما بين يديه﴾؛ لأنه فى تصديق ما قبله، وإظهار صدقه، كالشىء الحاضر بين يديه.

﴿وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس﴾

(١) من «ك».

(٢) ليس فى الأصل ولا «ك» والصواب إثباتها.

فذكر هاهنا ﴿ أنزل ﴾ وذكر في الابتداء ﴿ نزل الكتاب ﴾، لأنه أنزل التوراة جملة والإنجيل جملة، ونزل القرآن مفصلاً.

وأما التوراة أصلها وَوْرَيَةٌ من الورى، من قولهم ورى الزند إذا أضاء، وخرجت ناره، ويقال: ورى زندى عند فلان؛ إذا أضاء أمره عنده.

فسمى وورية؛ لضيائها وكونها نوراً، وقلبت الواو تاء فصارت تورية. وأما الإنجيل من «النجل» وهو الأصل فسمى به؛ لأنه كان أصلاً من الأصول فى العلم.

﴿ وأنزل الفرقان ﴾ قيل: هو القرآن، وهو المفرق بين الحلال والحرام، وقيل: كل ما أنزل الله فهو فرقان؛ لكونه مفرقاً بين الحلال والحرام، وفى الآية تقديم وتأخير، وتقديره وأنزل التوراة والإنجيل من قبل، وأنزل الفرقان هدى للناس.

قوله تعالى: ﴿ إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ﴾ «نزلت فى وفد نجران من النصارى، قدموا على رسول الله ﷺ، وفيهم السيد والعاقب: كانا رجلين منهم، وهم ستون راكبًا، وقيل: قريبًا من عشرين راكبًا، فدخلوا المسجد، والنبى ﷺ قد صلى العصر، فوقفوا يصلون نحو المشرق صلاتهم، فلما فرغوا سألهم رسول الله عن عيسى، فاختلفوا فيه، فقال بعضهم: الله. وقال بعضهم: ابن الله، وقال بعضهم: ثالث ثلاثة، فقال ﷺ: أسلموا، فقالوا: نحن مسلمون، فقال ﷺ: كذبتم؛ يمنعكم من ذلك قولكم عيسى ولد الله. فأنزل الله تعالى فيهم بضع وثمانين آية، من أول سورة آل عمران فى الحِجَاج، والدِّلالة عليهم، وردِّ قولهم، وهذه الآية من جملتها نزلت فيهم»(١).

﴿ والله عزيز ذو انتقام ﴾ فالعزيز: المنيع الذى لا يُقْدَر عليه، ومنه: الأرض العزاء،

---

(١) رواه ابن جرير الطبري (٣/١٠٨) من طريق ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير مرسلا، الخبر بطوله، وفي أماكن متفرقة من تفسيره. وعزاه صاحب الدر المنثور (٢/٣-٤) لابن إسحاق، وابن المنذر أيضا.
وعزاه في الدر (٢/٤٣) لأبي نعيم في الدلائل، من حديث ابن عباس ولكن قال: «وهم أربعة عشر رجلا..» الحديث، ورواه ابن مردويه من حديث رافع بن خديج. إلا أنه قال فى الأشراف: «كانوا اثنى عشر..» الحديث. (تفسير ابن كثير ١/٣٦٩)

يَخْفَىٰ عَلَيهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ

وهى الصلبة الشاقة المسلك، وقيل: العزيز: الغالب الذى لايفوته شيء، ومنه: يقال: من عزَّ بزَّ أى[١] من غلب سلب، والمنتقم المعاقب على (الجناية)[٢]، والنقمة: العقوبة.

قوله تعالى: ﴿إن الله لايخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء﴾ وهذا لاشك فيه.

﴿هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء﴾ هذا فى الرد على وفد نجران؛ حيث قالوا: عيسى ولد الله، فكأنه يقول: هو الذى صوره فى الرحم، (فكيف يكون ولد له)[٣]؟!

وقد روى عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: إن النطفة إذا وقعت فى الرحم تكون أربعين يوماً نطفة، ثم أربعين يوماً علقة، ثم أربعين يوماً مضغة، ثم يبعث الله تعالى ملكاً يأخذ تراباً بين أصبعيه فيخلطه بالمضغة، ثم يصوره بإذن الله كيف (شاء)[٤]، أحمر أو أسود أو أبيض، طويلاً أو قصيراً، حسناً أو قبيحاً، ثم يكتب رزقه وعمله وأثره وأجله وشقى أو سعيد، ثم إذا مات يدفن فى التربة التى أخذ منها التراب. ﴿لا إله إلا هو العزيز﴾ فى أمره ﴿الحكيم﴾ فى سلطانه.

قوله تعالى ﴿هو الذى أنزل عليكم الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ اختلفوا فى المحكمات والمتشابهات، قال ابن عباس: المحكمات هى[٥] الآيات الثلاث التى فى آخر سورة الأنعام، وذلك قوله: ﴿قل تعالوا﴾[٦] إلى

---

(١) تكررت فى الأصل من الناسخ.

(٢) في «ك»: الخيانة.

(٣) في «ك»: فكيف يكون له ولداً.

(٤) في «ك»: يشاء الله.

(٥) فى «ك»: من.

(٦) الأنعام: ١٥١.

آخر الآيات الثلاث، وأما المتشابهات: حروف التهجى فى أوائل السور. وقال عكرمة ومجاهد: المحكمات: الحلال والحرام[١]، وما سواه كله من المتشابهات؛ لأنه يشبه بعضها بعضاً فى الحق، والتصديق، يصدق بعضه بعضها.

وقال الضحاك: المحكمات: الناسخات، والمتشابهات: المنسوخات.

وقال جابر بن عبد الله الأنصارى: المحكمات ما أوقف الله تعالى الخلق على معناها، والمتشابهات ما لايعقل معناها، ولايعلمها إلا الله. وفيه قولان آخران: أحدهما: أن المحكمات ما لايشتبه معناها، والمتشابهات ما يشتبه ويلتبس معناها. والقول الثانى: أن المحكمات ما يستقل بنفسه فى المعنى، [والمتشابهات][٢] ما لايستقل بنفسه فى المعنى إلا بنوع استدلال، أو رُدَّ إلى غيره؛ وإنما سميت محكمات من الإحكام؛ (كأنه)[٣] أحكمها؛ فمنع الخلق من التصرف فيها؛ لظهورها (ووضوح)[٤] معناها.

﴿هن أم الكتاب﴾ أى: أصل الكتاب، فإن قال قائل: لِمَ لم يقل: هن أمهات الكتاب؟ قيل: قال الفراء: تقديره: هن الشىء الذى هو أصل الكتاب. وقال غيره: معناه: كل واحدة منهن أصل الكتاب، كما يقال: القوم أسد علىّ، أى: كل واحد منهم أسد علىّ، ومعناه: هن أصل الكتاب؛ لأن الخلق يفزعون إليه، كما تفزع الفروع إلى الأصول، فإن قال قائل: كيف فرق ها هنا بين المحكمات والمتشابهات، وسمى كل القرآن متشابها فى قوله تعالى ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها﴾[٥]. وسمى الكل محكمًا حيث قال: ﴿الر. كتاب أحكمت آياته﴾[٦]؟ قلنا: لما ذكر هنالك ﴿كتاباً متشابه﴾ على معنى: أنه يشبه بعضه بعضاً فى الحق والصدق، وإنما ذكر فى الموضع الآخر ﴿أحكمت آياته﴾[٧] على معنى أن الكل حق وجدٌّ، ليس فيه

(١) فى «ك»: الحلالات والحرامات.
(٢) من «ك».
(٣) فى «ك»: لأنه.
(٤) فى «ك»: وظهور.
(٥) الزمر: ٢٣.
(٦) هود: ١، ٢.
(٧) هود: ٢.

عبث ولا هزل، ثم ذكر تفصيلاً آخر بعده، فجعل البعض محكمًا والبعض متشابهًا.

﴿ فأما الذين فى قلوبهم زيغ ﴾ قال مجاهد: الزيغ: اللبس. وقيل: هو الشرك، وقيل: هو الشبهات التى تتعلق بالقلب ﴿ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ يعنى: أن الذين فى قلوبهم زيغ يغلون فى طلب التأويل للمتشابه؛ فيقعون على التأويل المظلم؛ فذلك ابتغاء الفتنة؛ لأن من غلا فى الدين، وطلب تأويل ما لايعلمه إلا الله، يقع فى الفتنة، ويكون مفتونًا، وخير الدين: النمط الأوسط الذى ليس فيه غلو ولا تقصير.

ثم اختلفوا فى الذين يتبعون ما تشابه من هم؟ قيل: هم اليهود الذين قالوا: مدة أمة محمد على حروف التهجى فى أوائل السور، فهم الذين اتبعوا ما تشابه من حروف التهجى، وقيل: هم النصارى من وفد نجران، حيث قالوا لرسول الله ﷺ: ما تقول فى عيسى؟ فقال: عبد الله ورسوله، قالوا: فهل تقول: إنه كلمة الله وروح منه؟ فقال: نعم، قالوا: حسبنا الله[(١)]. واتبعوا ما تشابه من قوله: كلمة الله وروح منه. وقيل: هم الغالون فى طلب التأويل واتباع المتشابه، وروت عائشة «أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية، ثم قال: إذا رأيتم الذين يجادلون فى الآيات فاحذروهم فهم هم»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ استأثر الله تعالى بعلم التأويل، وقطع أفهام العباد عنه، والفرق بين التأويل والتفسير: أن التفسير: هو ذكر المعنى الواضح، كما تقول فى قوله: ﴿ لاريب فيه ﴾[(٣)] أى: لاشك فيه، وأما التأويل: هو ما يؤول المعنى إليه، ويستقر عليه. ثم الكلام فى الوقف، فاعلم: أن أبىَ بن كعب وعائشة

---

(١) رواه ابن جرير الطبري (٣/١١٨)، وابن أبي حاتم فى تفسير (آل عمران ١/٦٦ رقم ١٠٦) كلاهما عن الربيع مرسلا. وعزاه السيوطي في الدر لهما عن الربيع (٢/٧).

(٢) متفق عليه من حديث عائشة. رواه البخاري (٨/٥٧ رقم ٤٥٤٧)، ومسلم (١٦/٢٣١-٢٣٢ رقم ٢٦٦٥).

(٣) البقرة: ٢.

مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لا تُزِغْ

وابن عباس – فى رواية طاوس عنه – (رأو)[1] الوقف على قول ﴿إلا الله﴾، وهو قول الحسن، وأكثر التابعين، وبه قال الكسائى، والفرّاء، والأخفش، وأبو عبيد، وأبو حاتم، قالوا: إن الواو فى قوله: ﴿والراسخون﴾ واو الابتداء؛ والدليل على صحته قراءة ابن عباس «ويقول الراسخون فى العلم آمنا به» وروى ابن جريج، عن مجاهد، عن ابن عباس – فى رواية أخرى –: الواو للنسق، ولا وقف (على قوله) ﴿إلا الله﴾ (وأن الراسخون)[2] فى العلم يعلمون التأويل، قال ابن عباس: وأنا ممن يعلم تأويله، وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل»[3]، قالوا: والصحيح رواية طاوس، عن ابن عباس، كما ذكرنا، وعليه إجماع القراء؛ ولأن على قضية قول مجاهد لايستقيم.

قوله: ﴿والراسخون فى العلم يقولون﴾ قال النحاة: وإنما يستقيم أن تقول: وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم قائلين ﴿آمنا به﴾(و)[1] لأنه قال: ﴿والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾؛ ولو علموا التأويل لم يكن لقولهم هذا معنى، وقد روى عن ابن عباس أنه قال: «أنزل القرآن على أربعة أوجه: الحلال والحرام، وعربية تعرفها العرب، ومما يعلم العباد تأويله، وما لايَعلم تأويله إلا الله» وهذا يشهد لما قلنا؛ فدل أن الوقف على قوله: ﴿إلا الله﴾. والواو: واو الابتداء فى قوله: ﴿والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ قالوا: ومن رسوخهم فى العلم يقولون ذلك ﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾.

قوله تعالى: ﴿ربنا لاتزغ قلوبنا﴾ أى: لا تمل قلوبنا ﴿بعد إذ هديتنا﴾ وهذا

---

(١) ليست فى «ك».

(٢) في «ك»: وإن الراسخين.

(٣) متفق عليه. رواه البخاري في الصحيح (١/٢٠٤رقم ٧٥، وأطرافه ١٤٣، ٣٧٥٦، ٧٢٧٠)، ومسلم (١٦/٥٥ رقم ٢٤٧٧).

قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ

دعاء للتثبيت والإدامة عليه، وقد روت أم سلمة عن النبى أنه كان يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك»(١) ﴿وهب لنا من لدنك رحمة﴾ نصرة ومعونة ﴿إنك أنت الوهاب﴾.

قوله تعالى: ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه﴾ أى: لاشك فيه عند أهل الحق، وقيل: أراد لاريب فيه: يوم القيامة إذا قامت وظهرت.

﴿إن الله لايخلف الميعاد﴾ فلا تزغ قلوبنا، وارحمنا، ولكنه أوجزه ولم يذكر تمام الدعاء

قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا﴾ هو قول الكافرين يوم القيامة: شغلتنا عن الحق أموالنا وأهلونا، يقول لا عذر لهم فيه، ولايغنيهم ذلك ﴿وأولئك هم وقود النار﴾.

قوله تعالى: ﴿كدأب آل فرعون﴾ الدَّأَب: الشأن، والدَّأْب: العادة، ومعنى الآية: أن هؤلاء الكفار فى تكذيب الرسول، وجحد الحق، والتظاهر على الكفر؛ كعادة آل فرعون، وآل فرعون: فرعون وقومه.

﴿والذين من قبلهم﴾ يعنى: عاداً وثمود ﴿كذبوا بآيتنا فأخذهم الله بذنوبهم﴾، عاقبهم بجرائمهم، ﴿والله شديد العقاب﴾ لأنه دائم، عقابه لاينقطع؛ وكل دائم شديد.

قوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا﴾ قال ابن عباس: وسبب نزول الآية ما روى: «أنه لما فرغ رسول الله ﷺ من قتال المشركين يوم بدر جمع اليهود بقينقاع، وقال

(١) رواه الترمذي (٥/٥٠٣ رقم ٣٥٢٢) وقال: حسن. وأحمد (٦/٢٩٤، ٣٠٢، ٣١٥)، وابن أبى شيبة فى مصنفه (١٠/٢٠٩ - ٢١٠ رقم ٩٢٤٦) وابن خزيمة فى التوحيد (ص٨١)، والطبرى فى التفسير (٣/١٢٦)، وابن أبى حاتم فى تفسير آل عمران (١/٨٤ رقم ١٤٥)، وابن أبى عاصم فى السنة (١/١٠٠/ رقم ٢٢٣)، والآجرى فى الشريعة (ص٣١٦).

الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ

لهم: أسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بالمشركين من بأس الله، فقالوا: إنك لقيت قوماً أغماراً لايعرفون القتال، فلو قاتلتنا لوليت»[١] فنزل[٢] قوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾ يعنى: ستغلبون فى الدنيا، وتحشرون فى الآخرة إلى جهنم. ﴿وبئس المهاد﴾ وقال مقاتل وجماعة: هو خطاب لأولئك المشركين يوم بدر، يقول الله: قل للمشركين: ستغلبون، وتحشرون إلى جهنم، وقد غلبوا وحشروا إلى جهنم، ويقرأ: «سيغلبون ويحشرون»[٣] بالياء – وهو بمعنى الأول، قال الفراء: وهو مثل قول الرجل: قل لزيد: إنك قائم. هو بمعنى قوله: قل لزيد: إنَّه قائم؛ فهما[٤] فى المعنى سواء، ويحتمل أن يكون هذا خطاب لليهود، يعنى: قل للذين كفروا من اليهود: سيغلب المشركون، ويحشرون إلى جهنم، وبئس المهاد، أى: بئسما مهدوا لأنفسهم، أو بئسما مُهِّد لهم.

قوله تعالى: ﴿قد كان لكم آية﴾ أى: معجزة وعلامة، ﴿فى فئتين﴾ فى فرقتين ﴿التقتا﴾ اجتمعتا، من الالتقاء: وهو الاجتماع، ومنه: «يوم التلاق»؛ لأنه يجتمع فيه أهل السماء وأهل الأرض ﴿فئة تقاتل فى سبيل الله﴾ يعنى: المسلمين يوم بدر ﴿وأخرى كافرة﴾ يعنى: المشركين ﴿يرونهم مثليهم رأى العين﴾ يعنى: المسلمين رأوا المشركين مثلى عددهم، وكانوا ثلاثة أمثالهم؛ لأن عدد المسلمين يوم بدر كان ثلثمائة وثلاثة عشر نفراً أو أربعة عشر نفراً، وكان عدد المشركين تسعمائة وخمسين

---

(١) رواه أبو داود فى سننه (٣/١٥٤ – ١٥٥ رقم ٣٠٠١)، وابن جرير في تفسيره (٣/١٢٨)، والبيهقي في الدلائل (٣/١٢٨) من حديث ابن عباس. وعزاه السيوطي في الدر (٢/٧) لهما وزاد فعزاه لابن إسحاق. وقد رواه ابن جرير من طريقه.

(٢) فى «الأصل»: فنزلت.

(٣) وهى قراءة حمزة، والكسائى، وخلف، انظر النشر (٢/٢٣٨) وأما القرطبى فى تفسيره (٤/٢٣) فعزى هذه القراءة لنافع.

(٤) فى «ك»: فهو.

نفرًا، وعن عليّ وابن مسعود: أن عدد المشركين كانوا ألفًا، فرآهم المسلمون نيفًا وستمائة. قال ابن مسعود: رأيناهم ضعفى عددنا، ثم رأيناهم مثل عددنا؛ رجل [برجل][(١)] وهذا معنى قوله تعالى فى سورة الأنفال ﴿وإذ يريكهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً﴾[(٢)] فرآهم المسلمون أقل من عددهم، وكذلك المشركون رأوا المسلمين أقل من عددهم، وكانت الحكمة فيه إذا رأوهم أقل مما كانوا لا يحجمون، ولايفترون عن القتال؛ لأن الله تعالى قد أخبرهم أن الواحد منهم يقاوم اثنين من المشركين، وكذلك المشركون إذا رأوا المسلمين أقل مما كانوا لا يمتنعون عن القتال؛ ﴿ليقضى الله أمراً كان مفعولاً﴾، وذلك من قتل رؤسائهم وقادتهم، بإذن الله تعالى.

قال الفراء: إنما رأوهم على عددهم كما كانوا، وإنما قال: ﴿يرونهم مثليهم﴾ يعنى: مثليهم سوى عددهم، وهذا مثل قول الرجل - وعنده درهم -: أنا أحتاج إلى مثلى هذا الدرهم، يعنى إلى مثليه سواه. والأول أصح.

وقرئ: «ترونهم» بالتاء[(٣)] فيكون خطابًا لليهود، وكان جماعة منهم حضروا قتال بدر؛ لينظروا على من الدبرة، فرأوا المشركين مثلى عدد المسلمين، ورأوا النصرة مع ذلك للمسلمين، وكان ذلك معجزة، وآية للرسول فى أعينهم. وعلى القراءة الأولى يكون الخطاب مع المسلمين فى قوله: ﴿قد كان لكم آية فى فئتين﴾.

﴿والله يؤيد بنصره من يشاء﴾؛ لأنه نصر المؤمنين يومئذ.

﴿إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار﴾ أى: علامة لأولى البصائر فى الدين، ولذوى العقول أجمعين.

---

(١) فى «الأصل، وك»: فرجل. أوله فاء، وهو تصحيف.

(٢) الأنفال: ٤٤.

(٣) وهى قراءة نافع، ويعقوب، وأبى جعفر. انظر النشر (٢/ ٢٣٨).

الأَبْصَار ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ

قوله تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ﴾ قال الحسن : المُزَيِّن : هو الشيطان؛ لأن الله تعالى ذم الدنيا بأبلغ ذم، فلا يزينه فى الأعين. وقال عامة المفسرين : المُزَيِّن : هو الله تعالى، وتزيينه : أنه حبب فى قلوبهم شهوة النساء والبنين ﴿ والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ﴾ ، فالقناطير : جمع القنطار، وهو مال كثير، ثم اختلفوا؛ قال معاذ وأُبَىّ بن كعب : القنطار : ألف ومائتا أوقية، وقال ابن عباس والضحاك : هو ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم. وقال سعيد بن المسيب : هو ثمانون ألف درهم. وقال مجاهد : هو سبعون ألف دينار. وقال قتادة : هو مائة رطل من ذهب أو فضة. وقال أبو نضرة : هو ملء مَسْك ثور من ذهب أو فضة. وسمى قنطاراً؛ من الإحكام والتوثيق، وأما المقنطرة : فهى المجموعة المملكة. قال الفراء : القناطير ثلاثة، والمقنطرة تسعة.

قوله : ﴿ والخيل المسومة ﴾ قال مجاهد : هى الحسان المُطَهَّمَة، وقال سعيد ابن جبير : المسومة : الراعية. يقال : أسام الخيل من الرعى. وفيه قول ثالث، المسومة : المعلمة من السيما، وهى العلامة. منهم من قال : سيماها : الشبه. ومنهم من قال : سيماها(١) الكى ﴿ والأنعام ﴾ : هى الإبل والبقر والغنم ﴿ والحرث ﴾ : هى الأراضى المهيأة للزراعة ﴿ ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ فيه إشارة إلى أنه متاع يفنى.

﴿ والله عنده حسن المآب ﴾ فيه تزهيد فى الدنيا وترغيب فى الآخرة، ثم أكده

بقوله تعالى : ﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله . . . ﴾ وقرئ « رُضوان » بضم الراء(٢)، وهما فى المعنى سواء يقال : رضى يرضى رضاً ورضوانًا . ورضواناً،

(١) من « ك ».

(٢) هى قراءة أبى بكر. انظر النشر (٢ / ٢٣٨).

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ

وفى الخبر عن النبى ﷺ: «أن أهل الجنة؛ إذا دخلوا الجنة يقول الله تعالى: إن لكم عندى موعداً، وأنا منجزكموه، فيقولون: قد أعطيتنا كل ما نتمنى، فما هو يارب؟ فيقول: أنزل عليكم رضوانى ولا أسخط عليكم أبدا»(١).

قوله تعالى: ﴿والله بصير بالعباد الذين يقولون﴾ فقوله: ﴿الذين يقولون﴾ يحتمل أن يكون فى موضع الخفض، وتقديره: بالعباد الذين يقولون، ويحتمل أن يكون فى موضع الرفع، وتقديره: يقولون على الابتداء، ويحتمل أن يكون فى موضع النصب، وتقديره: أعنى: الذين يقولون: ﴿ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾.

﴿الصابرين﴾ يحتمل أن يكون فى موضع الخفض، ويحتمل فى موضع النصب، يعنى: الصابرين على الشدائد والمصائب، وعلى الطاعات، وعن المعاصى ﴿والصادقين﴾ الذين استقامت أحوالهم وأفعالهم ﴿والقانتين﴾: المقيمين على الطاعة، المداومين عليها ﴿والمنفقين﴾ يعنى: المتصدقين، قيل: فى الجهاد، وقيل: فى كل أبواب البر ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ قال ابن عباس: هم المصلون بالليل. وقال أنس: هم السائلون بالمغفرة. وقال زيد بن أسلم: المصلون صلاة الصبح فى الجماعة، وإنما قيده ﴿بالأسحار﴾ لقرب صلاة الصبح من السحر.

قوله تعالى: ﴿شهد الله﴾ أى: بين وأعلم؛ وكل شاهد مبيِّن ومعلم ﴿أنه لا إله إلا هو﴾ لنفسه بالوحدانية؛ وذلك أن وفد نجران قد أنكروا وحدانيته، وهذه الآية من الآيات التى نزلت فى شأنهم، والحجاج عليهم ﴿والملائكة﴾ أى: وشهدت الملائكة، ﴿وأولوا العلم﴾ قيل: هم علماء بنى إسرائيل، وذلك مثل: عبد الله بن سلام، ومن

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري. رواه البخاري (١١/٤٢٣ رقم ٦٥٤٩، وطرفه في رقم ٧٥١٨)، ومسلم (١٧/٢٤٦ رقم ٢٨٢٩).

أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ

آمن معه، وقيل: هم المهاجرون والأنصار، وقيل: هم جميع علماء الأمة.

﴿ قائما ﴾ نصب على الحال، فهو الله تعالى قائم بتدبير الخلق ﴿ بالقسط ﴾: بالعدل، يقال: قَسَطَ يَقْسِط إذا جار. وأَقْسَطَ يُقْسِطُ؛ إذا عدل، فالقاسط: الجائر، ومنه قوله تعالى ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبًا ﴾(١) والمقسط: العادل، ومنه قوله تعالى: ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾(٢).

﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ ويقرأ: «أن الدين» بفتح الألف، فمن قرأ بكسر الألف؛ فهو على الابتداء وقرأ الكسائي بالنصب،(٣) وتقديره: شهد الله أن الدين عند الله الإسلام؛ فإنه لا إله إلا هو والإسلام: هو الانقياد والاستسلام، وقد يكون مجرد الاستسلام من غير العقيدة فرقا بينه وبين الإيمان على ما سيأتي.

والإسلام المعروف فى الشرع: هو الإتيان بالشهادتين مع سائر الأركان الخمس، وفى الأخبار: «أنه يؤتى بالأعمال يوم القيامة، فيؤتى بالصلاة على صورة، فتقول: يارب، إنى الصلاة، فيقول الله تعالى: إنك بخير، ويؤتى بالزكاة على صورة، فتقول: يارب، إنى الزكاة، فيقول الله: إنك بخير، وهكذا الصوم والحج، ثم يؤتى بالإسلام على أحسن الصور، فيقول: يارب، إنى الإسلام، فيقول الله تعالى: إنك إلى خير، بك آخذ اليوم وبك أعطى».

وحكى عن غالب القطان أنه قال: أتيت الكوفة للتجارة فنزلت قريبًا من الأعمش، فكنت أختلف إليه وأسمع منه الحديث، فقصدت منه ليلة أن أنحدر منه إلى البصرة، فوجدته يتهجد فى المسجد، فمر بهذه الآية ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة

---

(١) الجن: ١٥.

(٢) المائدة: ٤٢.

(٣) قرأ الكسائي بفتح الهمزة، وقرأ الباقون بكسرها. انظر النشر (٢/ ٢٣٨).

﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ

وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ ثم قال: وأشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة؛ لتكون وديعة لى عنده، ثم قال: ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ كرره مرارا، فقلت فى نفسى: لقد سمع فيه شيئاً، فمكثت، وصليت معه الصبح، ثم قلت له: مَرَرْتَ بهذه الآية، وكنت تكررها! فقال: أما بلغك ما ورد فيها؟!

قلت: أنا عندك منذ سنتين ولم تحدثنى، وقد قصدت الانحدار إلى البصرة، فقال: والله لا أحدثك سنة، فمكثت بالكوفة وكتبت على بابه ذلك اليوم، فلما تمت السنة أتيته، فقلت: يا أبا محمد، قد تمت السنة. فقال: حدثنى أبو وائل، عن عبد الله بن مسعود، عن النبى - ﷺ - أنه قال: «يجاء بصاحبها يوم القيامة، فيقول الله تعالى: إن لعبدى هذا عندى عهداً (وأنا)[1] أحق من وفى بالعهد، ادخلوا عبدى الجنة»[2].

قوله تعالى: ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب ﴾ يعنى: اليهود والنصارى ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾ أى: حسداً بينهم. ﴿ ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ فإن حاجوك ﴾ أى:[3] فإن جادلوك ﴿ فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ﴾ أى: قصدت بعبادتى الله تعالى ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب ﴾ يعنى: اليهود والنصارى ﴿ والأميين ﴾ يعنى: المشركين.

(١) فى «ك»: وإنى.

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير (١٠ / ١٩٩)، وأبو نعيم فى الحلية (٦ / ١٨٧ - ١٨٨)، والعقيلى فى الضعفاء (٣ / ٣٢٥) وابن عدى فى الكامل (٥ / ٣٥ - ٣٦)، والخطيب فى تاريخه (٧ / ١٩٣ - ١٩٤) وابن الجوزى فى العلل. (١ / ١١٠ - ١١١) وقال الذهبى فى الميزان (٣ / ٣٣١) الآفة من عمر؛ فإنه متهم بالوضع. وقال الهيثمى فى المجمع (٦ / ٣٢٩): وفيه عمر بن المختار وهو ضعيف.

(٣) ليست فى «ك».

ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ

﴿ أأسلمتم ﴾ يعنى: أسلموا، وقيل: ذكره على التهديد؛ كما يقال: أقبلت هذا منى؟ على وجه التهديد ﴿ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ أى: عليك تبليغ الرسالة وليست عليك الهداية ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ بالضال منهم والمهتدى.

وتلخيص معنى الآية: أن الله تعالى يقول: فإن جادلوك بالباطل، فقل: أسلمت وجهى لله، أى: أخلصت عملى لله، أو قصدت بعبادتى إلى الله الذى تقرون له[(١)] بالخلق والتربية؛ فإنهم كانوا مقرين بأن الله خالقهم ومربيهم، فأنا أقصد إليه بعبادتى ولا أتبع هواى كما تتبعون أهواءكم.

ثم قال: ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ﴾ أى: أسلموا. كما قال: ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾[(٢)] أى: انتهوا، وإنما سمى المشركين أميين؛ لأنهم لم يكونوا قراء، وقيل: نسبهم إلى أم القرى وهى مكة لسكونهم فيها.

قوله تعالى: ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ﴾ أراد به اليهود من بنى إسرائيل. ﴿ ويقتلون النبيين بغير حق ﴾ إنما قال: بغير حق تأكيداً؛ لأن قتل النبيين لا ينقسم إلى الحق والباطل.

وروى أبو عبيدة بن الجراح، عن النبى ﷺ أنه قال: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة من قتل نبيًا أو قتله نبى». ثم روى فى هذا الخبر أنه قال: «قتلت بنو إسرائيل اثنين وأربعين نبيًا فى ساعة واحدة، فقام إليهم مائة واثنا عشر رجلاً من زهادهم وعبادهم، وأمروا بالمعروف، فقتلوهم»[(٣)] فهذا قوله تعالى: ﴿ ويقتلون الذين

---

(١) ليست فى الأصل، ولا «ك».

(٢) المائدة: ٩١.

(٣) رواه البزار فى مسنده (٤/١٠٩ - ١١٠ رقم ١٢٨٥)، وابن جرير فى تفسيره (٣/١٤٤-١٤٥)، وابن أبى حاتم فى تفسير «آل عمران» (١/١٦١ - ١٦٢ رقم ٢٧٦)، والبغوى فى تفسيره (١/٢٨٨) من حديث أبى عبيدة وقال الهيثمى فى المجمع (٧/٢٧٥): وفيه ممن لم أعرفه اثنان.

يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم

يأمرون بالقسط من الناس ﴾ أى: بالعدل ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ وإنما خاطب أبناءهم به، مع أن (الجناية)[1] وجدت من آبائهم؛ (لأنهم)[2] رضوا بفعلهم، ودانوا بدينهم، فاستوجبوا هذا (العذاب)[3].

قوله تعالى: ﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم ﴾ أى: بطلت، والحبوط والبطلان، فى الدنيا والآخرة، وبطلان العمل فى الدنيا: ألا يقبل، وفى الآخرة: أنه لا يجازى عليه بالثواب، ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ من يمنع عنهم العذاب.

قوله تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ﴾ قيل: ورد هذا فى يهود بنى قريظة والنضير؛ «فإن النبى ﷺ أتى بيت مدارسهم، فقال له نعيم بن عمرو بن الحارث بن زيد: على أى ملة أنت؟ فقال ﷺ: على ملة إبراهيم. فقال نعيم: إن إبراهيم كان يهوديًا. فقال ﷺ: بينى وبينكم التوراة، أخرجوا التوراة. فأبوا أن يخرجوها»[4]، فهذا هو قوله ﴿ يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ﴾ يعنى: التوراة.

وفيه قول آخر: أن الآية فى نصارى وفد نجران، وقوله ﴿ يدعون إلى كتاب الله ﴾ يعنى: القرآن ليحكم بينهم.

﴿ ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ﴾ وذلك أن بعضهم قد أسلموا.

قوله - تعالى -: ﴿ ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات ﴾ يرجع هذا

(١) فى «ك»: الخيانة.

(٢) ليست فى «الأصل»، ولا «ك».

(٣) فى «ك» العتاب.

(٤) رواه ابن جرير فى تفسيره (٣/١٤٥) من حديث ابن عباس مرفوعًا.

مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ

إلى اليهود، وقد ذكرناه من قبل.

﴿ وغرهم في دينهم ﴾ الغرور: هو الإطماع فيما لايحصل منه شيء، والغَرُور: الشيطان، وغر الثوب: طيه، فيقال: أعد الثوب إلى غره، أى: إلى طيه، والغرور: ركوب الخطر. ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ الافتراء: اختلاق الكذب؛ ومنه: الفرية: تسوية الكذب، قال الشاعر:

وَلأَ أَنْتَ تَفْرِى ما خَلَقْتَ ... وبَعْضَ القَومِ يَخلقُ ثُمَّ لا يَفْرِى

أى: لا يكذب ولا يسوى.

قوله تعالى: ﴿ فكيف إذا جمعناهم ﴾ أى: فكيف حالهم ﴿ إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت ﴾ من الجزاء ﴿ وهم لا يظلمون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾ فى سبب نزول الآية قولان: أحدهما: أنه لما فتح مكة وعد أصحابه ملك فارس: فسمعه اليهود، وقالوا: هيهات فارس والروم أعز وأمنع جانبا مما تظنون؛ فنزلت هذه الآية.

وقال الحسن: إنه ﷺ سأل ربه لأصحابه ملك فارس و الروم.

فأما قوله: ﴿ قل اللهم ﴾ فأصله: يا الله؛ فلما حذف حرف النداء زيدت الميم فى آخره، قال الفراء: للميم فيه معنى، ومعناه: يا الله، أعنا بالمغفرة أى: اقصدنا.

﴿ مالك الملك ﴾ تقديره يا مالك الملك، ومعناه: مالك العباد؛ وما ملكوه، وقيل: أراد بالملك: النبوة، وقيل: مُلْك السموات والأرض. ﴿ تؤتى الملك من تشاء ﴾ أى: من تشاء أن تؤتيه من المسلمين. ﴿ وتنزع الملك ممن تشاء ﴾ أى: ممن تشاء أن تنزعه، وهم فارس والروم. ﴿ وتعز من تشاء وتذل من تشاء ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدهما: تعز من تشاء بالنصر، وتذل من تشاء بالقهر.

والثانى: تعز من تشاء بالغنى، وتذل من تشاء بالفقر.

والثالث: تعز من تشاء بالهداية، وتذل من تشاء بالضلالة.

﴿بيدك الخير﴾ أى: بيدك الخير والشر، كما قال: ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾[1] أى: تقيكم الحر والبرد، فاكتفى بأحد المذكورين عن الآخر.

﴿إنك على كل شىء قدير﴾، وقد ورد فى فضل هذه الآية من الأخبار: ماروى عن جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه، عن على، عن النبى ﷺ أنه قال: «فاتحة الكتاب، وآية الكرسى، وآيتان من آل عمران – شهد الله، وهذه الآية – متشفعات لمن قرأها يوم القيامة، ليس بينها وبين الله حجاب».[2] وروى فى هذا الخبر: أنه قال: «لما أنزل الله تعالى هذه الآيات تعلقن بالعرش، وقلن: يارب، تهبطنا إلى أرضك وعبادك، فقال الله تعالى: «وعزتى وجلالى ما قرأكن عبد من عبادى إلا أسكنته جنتى؛ على ما كان عليه، و قضيت له كل يوم سبعين حاجة، أدناها المغفرة»[3].

قوله تعالى: ﴿تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل﴾ الإيلاج: الإدخال، ومعناه: تنقص من أحدهما وتزيد فى الآخر، وقيل: معناه: تغطى الليل بالنهار، والنهار بالليل.

﴿وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى﴾ قال الحسن: معناه: تخرج

---

(١) النحل: ٨١.

(٢) رواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة (رقم ١٢٤)، وابن حبان فى المجروحين (١/٢٢٣)، وابن الجوزى فى الموضوعات (١/٢٤٥)، وقال ابن حبان فى ترجمة الحارث بن عمير: كان يروى عن الأثبات الموضوعات، ثم ساق له هذا الحديث، وقال الذهبى فى الميزان (١/٤٢٠): قال ابن حبان: موضوع لا أصل له. وقال ابن الجوزى: موضوع تفرد به الحارث بن عمير. وقال السيوطى فى اللآلئ (١/٢٢٨): موضوع. وانظر ما نقله السيوطى من كلام الأئمة على هذا الحديث وشواهده فى اللآلئ (١/٢٢٨ – ٢٣٣).

(٣) هو جزء من الحديث السابق.

الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ

الكافر من المؤمن، والمؤمن من الكافر، والقول الثانى: تخرج النطفة من الحى، والحى من النطفة، وفيه قول غريب: تخرج الفطن الكيس من البليد الفاجر، والبليد من الفطن؛ لأن البليد ميت فهمًا؛ والفطن حى فهمًا. ويقرأ ﴿من الميت﴾: مخففًا ومشددًا،(١) وفرّق نحاة الكوفة بين الميّت والميْت، فقالوا: الميِّت - بالتشديد -: هو الحى الذى يموت، والميْت مخففًا: هو الذى مات؛ واستدلوا بقوله تعالى ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾(٢) وأنكر ذلك نحاة البصرة وقالوا: هما بمعنى واحد.

وأنشد المبرد لبعض الشعراء:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فاستراحَ بميتٍ ... إنَّما الميْت ميِّتُ الأحياءِ

إنَّما الميتُ مَنْ يعيشُ كئيبًا(٣) ... كاسفًا بالُه قليلَ الرجاءِ

فجمع بين الميت والميت على معنى واحد.

﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾: من غير تضييق ولا تقتير.

قوله تعالى: ﴿لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ هذا فى قوم مخصوصين، أسلموا على موالاة اليهود والمشركين، فنهاهم الله عن ذلك، وهو معنى قوله: ﴿لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾(٤).

﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء﴾ أى: ليس من حزب الله ﴿إلا أن

---

(١) قرأ أبو جعفر، ونافع، وحمزة، والكسائى، وخلف وحفص، بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف، وانظر النشر (٢/٢٢٤).

(٢) الزمر: ٣٠.

(٣) كذا فى «الأصل»، و«ك». وفى لسان العرب (٢/٩١ مادة: موت): شقيًا. وعزا البيت لعدىّ بن الرعلاء.

(٤) المجادلة: ٢٢.

إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا

تتقوا منهم تقاة ﴾ وقرئ: تَقِيَّة(١)، ومعناهما واحد، يعنى: إلا أن يقع فى أيديهم، فيخافهم، فيوافقهم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان، فلا بأس به، ولكن لو صبر حتى قتل، فله من الأجر العظيم، ما الله به عليم.

وقد روى: «أن مسيلمة الكذاب – لعنه الله – أخذ رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ وقال لأحدهما: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم، فقال: أتشهد أنى رسول الله؟ قال: نعم، تقية منه، فخلى سبيله. ثم قال للآخر: أتشهد أن محمدا رسول الله فقال: نعم نعم نعم، قال: أتشهد أنى رسول الله، فقال: أنا أصم، فقتله؛ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فذكر درجة الذى صبر على القتل، وقال: إن الأول أخذ برخصة الله».

وقد صح عن رسول الله: أنه قال: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»(٢). وقال ﷺ: «إن أفضل الشهداء بعد شهداء أحد: من قام إلى سلطان جائر وأمره بالمعروف، فقتله عليه(٣)»(٤).

قوله – تعالى –: ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أى: يخوفكم إياه ﴿ وإلى الله

(١) هى قراءة يعقوب. انظر النشر (٢/ ٢٣٩).

(٢) رواه أبو داود (٤/ ١٢٤ رقم ٤٣٤٤) والترمذى (٤/ ٤٠٩ رقم ٢١٧٤)، وأحمد في مسنده (٣/ ١٩، ٦١) جميعهم عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا. وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقال: وفى الباب عن أبى أمامة.
قلت: حديث أبى أمامة رواه الإمام أحمد (٥/ ٢٥١، ٢٥٦)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٠ رقم ٤٠١٢).
ورواه النسائى (٧/ ١٦١ رقم ٤٢٠٩)، وأحمد (٤/ ٣١٥) من حديث طارق بن شهاب مرسلا. وانظر السلسلة الصحيحة للألبانى رقم (٤٩١).

(٣) كذا فى «الأصل» و«ك» وسيكرره المصنف بعد ذلك، وفيه: غيلة.

(٤) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وروى الطبرانى فى الأوسط – كما فى مجمع البحرين (٦/ ٣١٤ رقم ٣٧٦٢، و (٧/ ٢٣٥ رقم ٤٣٧٥) عن ابن عباس مرفوعا: سيد الشهداء يوم القيامة حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه، فقتله». وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٢٧١): فيه ضعف.
قلت: ورواه الحاكم فى مستدركه (٣/ ١٩٥) عن جابر مرفوعا وقال: صحيح الإسناد، وتعقبه الذهبى بأن فى إسناده الصفار، ولا يدرى من هو. والخطيب فى تاريخه (٦/ ٣٧٧). وانظر السلسلة الصحيحة رقم (٣٧٤).

ا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

لمصير﴾ أى: المرجع.

قوله تعالى: ﴿قل إن تخفوا ما صدوركم أو تبدوه يعلمه الله﴾ أى: يجازى عليه ﴿ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شيء قدير﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا﴾ أى: محضر لها ما عملت من الخير والشر، فتسر بما عملت من الخير.

﴿وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا﴾ أى: غاية مديدة، قال السدى: ما بين المشرق والمغرب. وفى الأخبار: أن الأعمال يؤتى بها يوم القيامة على صور فما كان منها حسنا، فعلى الصورة الحسنة، وما كان قبيحا، فعلى الصورة القبيحة.

﴿ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد﴾ ومن رأفته أن حذرهم، ورغبهم ورهبهم، ووعدهم وأوعدهم.

قوله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾ فى سبب نزول هذه الآية قولان: أحدهما: أنه خطاب لليهود والنصارى من وفد نجران، وذلك أنهم قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، فنزل قوله: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم﴾ والثانى: أنه خطاب لمشركى قريش؛ فإنه ﷺ رآهم يعبدون الأصنام؛ فقال لهم: «خالفتم ملة أبيكم إبراهيم، فقالوا: إنما نعبدهم تقربًا إلى الله؛ فإنا نحبه؛ فنزل قوله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾

والله غفور رحيم ﴾ »(١).

واعلم أن محبة الله العبد، ومحبة العبد الله لايكون بلذة وشهوة، ولكن محبة العبد فى حق الله: هو إتيان طاعته، وابتغاء مرضاته، واتباع أمره، ومحبة الله فى حق العبد: هو العفو عنه، والمغفرة، والثناء الحسن، وأكده قوله تعالى: ﴿ قل أطيعوا الله والرسول ﴾؛ بين أن محبته فى طاعته وطاعة رسوله.

﴿ فإن تولوا فإن الله لايحب الكافرين ﴾، فإن قال قائل: لِمَ كرر اسم الله مرارا، وكان يكفيه: أن يقول فإنه لايحب الكافرين؟ قيل: هو على عادة العرب؛ فإن من عادتهم أنهم إذا عظمّوا شيئا كرروا ذكره، وأنشد سيبويه فى مثل ذلك:

لا أرى المـوت سبق الموت شىء نغص الموت زلته الغنى والفقير (٢)

وقوله تعالى: ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا ﴾ الاصطفاء: الاختيار. والصفوة: الخيرة: ولِمَ(٣) اختار آدم؟ اختلفوا؛ فمنهم من قال: اختاره للدين، ومنهم من قال: اختاره للنبوة. فإن قال قائل: إلى من كان مبعوثًا؟ قيل: إلى الملائكة؛ حتى علمهم الأسماء، وإلى أولاده. قال: وآل إبراهيم: هم إسماعيل وإسحاق ويعقوب.

وآل عمران: موسى وهارون، وآل عمران من آل إبراهيم، وقيل: أراد به عيسى؛لأنه ابن مريم بنت عمران ﴿ على العالمين ﴾ على عالمىْ أهل زمانهم.

قوله تعالى: ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾ قيل: هو مشتق من ذرأ بمعنى: خلق، وقيل: هو من الذرِّ، لأنه خلقهم؛ واستخرجهم من صلب آدم كالذر، والأبناء يسمون ذرية، وكذلك الآباء، قال الله تعالى ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى

---

(١) أورده الواحدى فى أسباب النزول ص ٧٣ عن ابن عباس بطوله.

(٢) كذا وقع البيت فى « الأصل، و « ك ». وفى تفسير القرطبى (٤ / ٥٨).

لا أرى الموتَ يسبقُ الموتَ شيء نغص الموتُ ذا الغِنَى والفقـيرا

(٣) فى « الأصل » ، و« ك »: وم. بميمين. والصواب ما أثبتناه.

﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ

الفلك المشحون ﴾ [١] يعني: آباءهم، والأبناء: ذرية، لأنه ذرأهم، والآباء ذرية؛ لأنه ذرأ الأبناء منهم، ﴿ بعضها[٢] من بعض ﴾ فى التفاضل، وقيل: في التناسل.

﴿ والله سميع ﴾ بما قالوا ﴿ عليم ﴾ بما اضمروا.

قوله تعالى: ﴿ إذ قالت امرأت عمران ﴾ وهى: حنة زوجة عمران، وكانت أختها تحت زكريا ﴿ رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً ﴾ قال الشعبى: معناه مخلَصًا لعبادة الله تعالى. وقال مجاهد معناه: مسمى لخدمة البيت، مفرغا لها عن سائر الأشغال.

﴿ فتقبل منى إنك أنت السميع العليم ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى ﴾ وذلك أن زوجها عمران كان قد (عاتبها)[٣]. على ما نذرت، وقال لها: لاتدرين أنه يخلق ولدك ذكرا أو أنثى، وقد نذرت مطلقا.

﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن علمه ويقرأ «والله أعلم بما وضعتُ»[٤] على الخبر؛ وذلك من قول المرأة ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ فإن الذكر أقوم وأقوى لخدمة البيعة من الأنثى، وقيل: لأنه أبعد عن الموانع من العبادة بخلاف الأنثى، يمنعها الحيض والنفاس.

﴿ وإنى سميتها مريم ﴾، فإن قال قائل: ما معنى قولها: وإنى سميتها مريم؟ قيل: حتى تعرف هل وقع ذلك الاسم برضا الله تعالى حتى يغير أو يقرر.

(١) يس: ٤١.

(٢) فى «الأصل»، و«ك»: بعضًا.

(٣) فى «الأصل» و«ك»: عاقبها عاتبها. ولعله من الناسخ.

(٤) هى قراءة ابن عامر، ويعقوب وأبى بكر، بإسكان العين وضم التاء، وقرأ الباقون بفتح العين وإسكان التاء. انظر النشر (٢/ ٢٣٩).

وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيًّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيًّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ

﴿ وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ فالشيطان: المطرود، والرجيم: المرجوم بالشهب، وروى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «ما من ولد يولد إلا ويطعن الشيطان فى خاصرته؛ فيستهل صارخا إلا مريم وابنها، فإنه ضربهما فوقع الضرب فى الحجاب، وقرأ قوله تعالى ﴿ وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾»(١).

قوله تعالى: ﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن ﴾ أى: رضى بها وقبلها ﴿ وأنبتها نباتا حسنا ﴾، أى وأنبتها فنبتت نباتا حسنا.

قال أبو العباس بن عطاء الصوفى(٢): لما أنبتها الله نباتا حسنا، فانظروا إلى ثمرته كيف أثمر النبات؟ يعنى: عيسى صلوات الله عليه.

﴿ وكفلها ﴾ – مشدد – ﴿ زكريا ﴾ بنصب الألف، وتقرأ مخففا «وكَفَلَها زكرياءُ» بضم الألف(٣)، ومعنى الكفالة: الضم، يعنى: وضمها زكرياء إلى نفسه، ومن قرأ بالتشديد، معناه: ضمها الله إلى زكريا، وقال النبى ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين»(٤).

ومن الأسباب التى خُصَّ بها زكريا بكفالة مريم؛ أن خالتها كانت تحته، وهى أخت حنة امرأة عمران، ولكفالة زكريا مريم قصة معروفة ستأتى فى سورة مريم إن شاء الله تعالى.

﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب ﴾ يقرأ «زكريا» بالمد والقصر(٥)، والمحراب:

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى (٦/ ٣٨٨ – ٣٨٩ رقم ٣٢٨٦، وطرفاه فى ٣٤٣١، ٤٥٤٨) ومسلم (١٥/ ١٧٤ رقم ٢٣٦٦).

(٢) فى «الأصل»، «ك»: الصونق. آخره قاف. وهو تحريف.

(٣) اختلف القراء فى (وكفلها) فقراء الكوفيون – حمزة، والكسائى، وأبو بكر – بتشديد الفاء، وقرأ الباقون بتخفيفها.

(٤) رواه البخارى (٩/ ٣٤٩ رقم ٥٣٠٤) وطرفه فى [٦٠٠٥]، وأبو داود (٤/ ٣٣٨ رقم ٥١٥٠)، والترمذى (٤/ ٢٨٣ رقم ١٩١٨)، وأحمد فى مسنده (٥/ ٣٣٣)، وابن حبان – الإحسان – (٢/ ٢٠٧ رقم ٤٦٠) كلهم من حديث سهل بن سعد، وفى الباب عن أبى هريرة، وأبى أمامة، ومرة الفهرى.

(٥) واختلفوا فى (زكريا) أيضاً، فقرأ حمزة، والكسائى، وخلف، وحفص بالقصر من غير همز، وقرأ الباقون بالمد، والهمز؛ إلا أن أبا بكر نصبه هاهنا بعد (كفلها) على مفعول ثانٍ لـ (كفلها) ورفعه الباقون ممن خفف. انظر النشر (٢/ ٢٣٩).

يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾

غرفة يرتقى إليها بالسلم، وكان زكريا قد اتخذ لمريم مثل تلك الغرفة، وكان يرقى إليها بالسلم، قال الشاعر فى معناه:

رَبَّةُ مِحْـــراب إذا جئْتُهـا   لَمْ ألقها أو أرتقى سُلَّما[1]

أى: ربة غرفة، وقيل: المحراب: أشرف المجالس، وقيل: هو المحراب المعروف.

﴿وجد عندها رزقا﴾ والرزق: ما يؤكل، قال قتادة: فاكهة الشتاء فى الصيف، وفاكهة الصيف فى الشتاء، كان قد رآها عندها، قال الحسن: حين ولدت مريم لم تلقم ثديا، وكان يأتيها الله تعالى برزقها.

﴿قال يامريم أنى لك هذا﴾ قال أبو عبيدة: معناه: من أين لك هذا؟!وأنكرت النحاة هذا، وقالوا: هذا تساهل من أبى عبيدة، وبينهما فرق، فـ«أَنَّى» للسؤال عن الجهة، و«أين» للسؤ ال عن المكان، وأنشد المبرد لبعضهم.

أنىَّ وَمِنْ أينَ آنك الطربُ

فرق بينهما، قوله: ﴿أنى لك هذا﴾ أى: من أى جهة لك هذا؟! ﴿قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

قوله تعالى: ﴿هنالك دعا زكريا ربه﴾ وذلك أن زكريا لما رأى مريم يأتيها رزقها فى غير حينه نحو فاكهة الصيف فى الشتاء – طمع أن يرزق الولد فى غير حينه – على الكبر – فدعا الله أن يرزقه ولدا، وكان قد بلغ مائة وعشرين سنة، وبلغت امرأته ثمان وتسعين سنة.

﴿قال رب هب لى من لدنك﴾ من عندك ﴿ذرية طيبة﴾ أى: ولدا صالحا تقيا نقيا، والذرية تشتمل على الذكر والأنثى، وإنما قال: ﴿طيبة﴾ بنعت المؤنث على لفظ

---

(١) فى «الأصل»، و«ك»: أو ألتقى السلما. وهو تصحيف. وما أثبتناه من لسان العرب (مادة: حرب).

وفى تفسير القرطبى (٤/٦٦): حتى أرتقى سلمًا.

الذرية.

﴿إنك سميع الدعاء﴾ ﴿فنادته الملائكة﴾، ويقرأ: «فناداه الملائكة» بالألف[1] واختلفوا فى المنادى، منهم من قال: كان جبريل. ومنهم من قال: جمع من الملائكة ﴿وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك﴾ يقرأ «إن» بكسر الألف وفتحها[2]، فمن قرأ بالكسر، فتقديره: فنادته الملائكة وقالوا: إن الله يبشرك، ومن قرأ بالفتح، فهو على النسق، ﴿يبشرك﴾ يقرأ مخففا ومشددا[3]، وهما فى المعنى سواء.

والبشارة: خبر سار يظهر أثره على بشرة الوجه، ﴿يبشرك بيحيى﴾ سماه يحيى قبل أن يولد، ﴿مصدقا بكلمة من الله﴾ قيل: مصدقا بكتاب الله وكلامه. وقيل: معناه مصدقا بعيسى، وهو كلمة الله فإن قال قائل: «كلمة الله» لايكون مخلوقا، وقد أنكرنا على النصارى قولهم: «المسيح ابن الله»، وقولهم: «إن الله ثالث ثلاثة»، فكيف نعرف أن عيسى كلمة الله؟ قيل: فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كلمة الله على معنى: أنه يكون بكلمة من الله حيث قال له: «كن فكان»، من غير سبب ولا علة، وصنع بشر وإلقاء نطفة.

الثانى: أنه كلمة الله على معنى: أنه يهتدى به، كما يهتدى بكلام الله.

والثالث: أن الله تعالى كان قد أخبر سائر الأنبياء، ووعدهم فى كتبه أنه يخلق نبيًا بلا أب، ووعد مريم أنه يولد لها ولد بلا أب، فلما تكوّن عيسى سماه كلمة؛ لأنه حصل بتلك الكلمة، وذلك الوعد، وهو كما تقول العرب: أنشدنى كلمتك، أى قصيدتك، وقيل لحسان: إن الحويدرة أنشأ قصيدة، فقال: لعن الله كلمته، أى:

---

(١) هى قراءة حمزة، والكسائى، وخلف. انظر النشر (٢/ ٢٣٩).

(٢) قرأ ابن عامر وحمزة بكسر الهمزة، وقرأ الباقون بالفتح. انظر المصدر السابق.

(٣) قرأ حمزة، والكسائى بفتح الياء، وفتح الشين وضمها، وقرأ الباقون بضم الياء، وتشديد الشين المكسورة. انظر المصدر السابق.

اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ

قصيدته، فلمّا حصلت القصيدة بكلمته سمّى ذلك كلمة.

قوله: ﴿وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين﴾ أما السيد: قال سعيد بن جبير: السيد: التقى، وقال مجاهد: هو الكريم، وقيل: هو العليم الذى لايغضبه شيء، وقيل: هو الذى يفوق قومه فى جميع خصال الخير.

والحصور: قال سعيد بن جبير ومجاهد والضحاك وعطاء وجماعة: هو الذى لايأتى النساء، والحصور بمعنى: المحصور، وكان ممنوعا من النساء، وهو مثل قول الشاعر

فِيهَا اثْنَتَانِ وأربعونَ حلوبة ... سودًا كَخَافِيَةِ الغُرَابِ الأَسْحَمِ

فالحلوبة بمعنى: المحلوب، وقال سعيد بن المسيب: كان له مثل هدبة الثوب، وقد تزوج مع ذلك؛ ليكون أغض لبصره، وقال الشعبى: الحصور العنّين، وفيه قول آخر: الحصور: هو الممتنع من الوطء مع القدرة عليه، وهذا يوافق قول الشافعى فى مسألة التخلى لعبادة الله.

واختاروا هذا القول لوجهين: أحدهما: أنه يكون أقرب إلى استحقاق الثناء، لأن الكلام خرج مخرج الثناء.

والثانى: أنه يكون أبعد من إلحاق الآفة بالأنبياء؛ لبعدهم عن الآفات.

قوله تعالى: ﴿قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر﴾ وإنما قال: ﴿بلغنى الكبر﴾؛ لأن الكبر فى طلب الإنسان، فإذا أصابه فقد بلغه.

وأما العاقر: فهى التى عقم رحمها من الكبر، فإن قيل: كان شاكا فى وعد الله تعالى حين قال: ﴿رب أنى يكون لى غلام﴾ قيل: إنما قاله على سبيل التواضع، يعنى: مثلى على هذا الكبر من مثل هذه العجوز يكون له الولد، وقيل معناه: كيف يكون لى هذا الغلام؟ أتردنى لحالة الشباب، أم يكون الغلام على حال الكبر؟.

﴿قال كذلك يفعل الله ما يشاء﴾.

آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ

قوله تعالى : ﴿ قال رب اجعل لى آية ﴾ أى : علامة . قيل : إنما سأل العلامة؛ لأن إبليس وسوس إليه أن الذى ناداك هو الشيطان، دون الملك وكان يديم عليه وسوسته، فسأل العلامة؛ دفعا لتلك الوسوسة . وقيل : إنما سأل العلامة؛ لمعرفة وقت الولادة حتى يزداد لله[١] شكرا .

﴿ قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام ﴾ وقيل : [إن الله أمسك][٢] لسانه وحبس عنه الكلام ثلاثة أيام، وهو سَوِىٌّ صحيح؛ وعليه دلّ قوله تعالى فى سورة مريم ﴿ ثلاث ليال سويا ﴾[٣] .

﴿ إلا رمزا ﴾ أى : إشارة، والإشارة تكون باللسان، وتكون باليد، وتكون بالعين والمراد هاهنا : الإشارة بالإصبع المسبحة، قال قتادة : إنما أمسك لسانه عن الكلام عقوبة له على ما سأل من الآية بعدما أوحى الله تعالى إليه، وشافهته الملائكة بالبشارة .

﴿ واذكر ربك كثيرا ﴾ قيل : إنما أمسك لسانه عن الكلام مع الناس، ولم يمسكه عن ذكر الله تعالى، فأمره بالذكر .

﴿ وسبح بالعشى والإبكار ﴾ المراد بالتسبيح : الصلاة، وأما العشى : ما بين زوال الشمس إلى غروب الشمس، ومنه سمى صلاة الظهر والعصر صلاتى العَشِىّ، وأما الإبكار : ما بين طلوع الفجر إلى الضحى الأعلى .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قالت الملائكة يامريم ﴾ أى : واذكر إذ قالت الملائكة : ﴿ يامريم إن الله اصطفاك ﴾ اختارك وطهرك من الحيض والنفاس، وقيل : من الذنوب . ﴿ وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ منهم من قال : على نساء عالمى زمانها، ومنهم من قال :

---

(١) فى الأصل : الله، وهو خطأ من الناسخ .

(٢) فى الأصل : إنه أمسك الله . وما أثبتناه من « ك » .

(٣) مريم : ١٠ .

الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ

على (جميع نساء)[1] العالمين؛ فى أنها وَلَدَت بلا أب، ولم يكن ذلك لأحد من نساء العالم.

قوله تعالى: ﴿يا مريم اقنتى لربك﴾ أى: أطيعى ربك، وقومى لطاعته. والقنوت: طول القيام، قال مجاهد: معناه أطيلى[2] القيام لربك، وقيل: إنها قامت حتى انتفخت قدماها وتورمت. وسمى القنوت فى الصلاة؛ لأنه فى حال القيام، وعن النبى ﷺ «أنه سئل عن أفضل الصلاة، فقال: طول القنوت»[3] أى: طول القيام.

﴿واسجدى واركعى مع الراكعين﴾ قيل: إنما قدم السجود على الركوع؛ لأنه كان كذلك فى شريعتهم، وقيل: لا، بل الركوع قبل السجود فى جميع الشرائع، وليست الواو للترتيب، بل للجمع، ويجوز أن يقول الرجل: رأيت زيدا وعَمرا، وإن كان قد رأى عَمرا قبل زيد، ويجوز أن نقول: رأيت عمرا وزيدا أى زيداً وعمراً، قال الشاعر:

ألا يانخلة من ذات عرق   عليك ورحمة الله السلام

أى: عليك السلام ورحمة الله، فكذلك قوله: ﴿واسجدى واركعى﴾ أى: واركعى واسجدى، وإنما قال: مع الراكعين، ولم يقل: مع الراكعات؛ ليكون أعم وأشمل، وقيل معناه: مع المصلين فى الجماعة.

قوله - تعالى -: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ يقول لمحمد ﷺ: ذلك من أخبار الغيب نوحيه إليك ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ فالأقلام: السهام، وإنما سمى قلما؛ لأنه يقطع ويبرى. وأصل القلم: القطع، ومنه قلّم الظفر.

---

(١) فى «ك»: نساء جميع.

(٢) فى «الأصل»: أطيل، وفى «ك»: أطول.

(٣) رواه مسلم فى صحيحه (٦/٥٢ رقم ٧٥٦)، والترمذى (٢/٢٢٩ رقم ٣٨٧) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (١/٤٥٦ رقم ١٤٢١) جميعهم من حديث جابر.

لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ

والقصة فى ذلك: أنهم تشاحنوا واختصموا فى كفالة مريم، فقال زكريا: أنا أولى بكفالتها منكم؛ لأن خالتها عندى، وقال أحبارهم – وقيل: أولياؤهم –: نحن أولى بكفالتها؛ لأن أباها كان إمامنا وحبرنا، فاقترعوا واستهموا، على أن من يثبت قلمه فى الماء وصعد، فهو أولى بكفالتها، فألقوا الأقلام على الماء، وعلى كل قلم اسم واحد منهم، فانحدرت أقلامهم تجرى فى الماء، وجرى قلم زكريا مصعدا إلى أعلى الماء، قيل: غرقت أقلامهم، وارتد قلم زكريا، وبقى فوق الماء، وقيل: إنما اختصموا فى كفالتها؛ لأنه كان قد أصابهم قحط وأزمة، وكانت تضيق بهم النفقة؛ فاستهموا على كفالتها تدافعا حتى أن من خرج سهمه هو الذى يعولها، وينفق عليها، والأول أصح وأشهر.

قوله تعالى: ﴿إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾ قيل: إن الملائكة قالوا لها ذلك مشافهة وعيانا.

﴿اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾ قال ابن عباس: إنما سمى مسيحا؛ لأنه ما مسح ذا عاهة إلا برئ، وقال الحسن وقتادة: سمى مسيحا؛ لأنه مسح بالبركة، وقيل: المسيح: الصديق، ويكون المسيح بمعنى: الكذاب، وهو من الأضداد، وقيل: سمى مسيحا؛ لأنه كان يمسح وجه الأرض، ويسيح فيها، وقيل: إنما سمى مسيحا؛ لأنه ممسوح القدم لأخمص قدميه، ومنه قول الشاعر:

بَاتَ يُقَاسِيهَا غُلامٌ كَالزَّلَمْ ... خديج السَّاقين مَمْسُوحُ القدمْ

ومن ذلك سمى الدجال مسيحا؛ لأنه مسح أحد شقى وجهه، لاعين له.

﴿وجيها فى الدنيا والآخرة﴾ أى: رفيعا ذا جاه عند الله ﴿ومن المقربين﴾ ﴿ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين﴾ أما كلامه فى المهد هو قوله فى سورة

فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ

مريم ﴿إنى عبد الله﴾[١] وأنكر النصارى كلامه فى المهد سيأتى بيانه، وأما كلامه وهو كهل، قيل: هو إخباره عن الأشياء المعجزة، وقيل: هو كلامه بعد نزوله من السماء.

والكهل: قيل: هو ما فوق الغلام، ودون الشيخ، وهو ابن أربع وثلاثين سنة، وأصله: الطول، ومنه: اكتهل النبات إذا طال.

قوله تعالى: ﴿قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر﴾ قالت ذلك تعجبا؛ إذ لم تكن جرت العادة بأن يولد ولد بلا أب ﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن، فيكون﴾ أى: لايعسر عليه شىء، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

قوله تعالى: ﴿ويعلمه الكتاب﴾ يقرأ: بالياء، والنون[٢]، والكتاب: الخط ﴿والحكمة﴾: العلم والفقه، ﴿والتوراة والإنجيل﴾ علمه الله التوراة والإنجيل، ﴿ورسولا إلى بنى إسرائيل﴾. منهم من قال: كان رسولا فى حالة الصبا، ومنهم من قال: إنما كان رسولابعد البلوغ.

﴿أنى قد جئتكم بآية من ربكم﴾ معناه: بآيات من ربكم، وإنما اكتفى بذكر الآية؛ لأن الكل دال على شىء واحد.

﴿أنى أخلق لكم من الطين﴾ أى: أقَدِّر وأصور ﴿كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله﴾ قيل: إن عيسى قال لهم: أى شىء أشد خلقا؟ قالوا: الخفاش، فقدر من الطين خفاشا وصوره، ونفخ فيه؛ فقام يطير بإذن الله.

---

(١) مريم: ٣٠.

(٢) قرأ نافع، وأبو جعفر، وعاصم، ويعقوب بالياء. وقرأ الباقون بالنون. انظر النشر (٢ / ٢٤٠).

مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ

﴿ وأبرئ الأكمه ﴾ قال أبو عبيد: الأكمه الذى ولد أعمى، وقيل: هو الأعمش الذى يبصر بالنهار ولايبصر بالليل ﴿ والأبرص ﴾: الذى به وضح ﴿ وأحيى الموتى بإذن الله ﴾ قال ابن عباس: قد أحيا أربعة: عازر وابن العجوز وبنت العاشر وسام بن نوح عليه السلام.

فأما عازر: فكان صديقا لعيسى، فَأُخْبِرَ بموته، فدعا الله تعالى فأحياه [الله](1)، وأما ابن العجوز: كان على السرير يحمل إلى المقبرة، فرآه عيسى، فأمر بوضع السرير، ودعا فأحياه، فأخذ كفانه(2)، ولبسها ورجع إلى البيت، وأما بنت العاشر: فقد كان رجل يأخذ العشور، ماتت له ابنة فدعا الله فأحياها، وأما سام بن نوح فإن عيسى جاء(3) إلى قبره ودعا (الله فأحياه)(4)، فقام إليه وقال: أقامت القيامة؟! وقد شاب نصف رأسه خوفا من قيام الساعة.

فقال: لا، أنا عيسى بن مريم؛ فكلمه؛ ومات من ساعته، وأما الثلاثة الذين أحياهم عاشوا، وَوُلِدَ لَهم.

﴿ وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ﴾ كان عيسى يخبر الرجل بما أكل فى بيته البارحة، وما يأكل اليوم، وما ادخره للعشاء، وقيل: إنه كان فى المكتب يخبر الصبى بما أكل، وما خبّأت له أمه من الطعام، حتى كان الصبى يأتى إلى أمه، فيبكى حتى تعطيه الطعام، فيحمله إلى عيسى، فحبسوا الصبيان عن المكتب، فجاء عيسى فى طلبهم، وكانوا فى دار، فقال: من هؤلاء الذين فى الدار؟ فقيل: خنازير، فقال عيسى: يكونون كذلك؛ فصاروا خنازير بأمر(5) الله - نعالى - ﴿ إن فى ذلك لآية

(1) من «ك».

(2) في «ك»: لباسه.

(3) في «ك»: صار.

(4) تكررت فى «ك».

(5) فى «ك»: بإذن.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ

لكم إن كنتم مؤمنين﴾.

قوله تعالى: ﴿ومصدقا لما بين يدى من التوراة﴾ يعنى: وأكون مصدقا، ﴿ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم﴾ قال أبو عبيدة: أراد بالبعض: الكل، يعنى: كل الذى حرم عليكم، ومثله قول الشاعر:

أو يرتبط بعض النفوس حمامها

أى: كل النفوس، وقيل: هو على حقيقته، وقدكان أحل لهم بعض ما حرم عليهم فى التوراة من لحوم الإبل وثروبها(١).

﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾ يعنى: بآيات كما بينا، ﴿فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ أى: طريق واضح.

قوله تعالى: ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ أى: أبصر ووجد منهم الكفر؛ قال: ﴿قال من أنصارى إلى الله﴾ قيل معناه: من أنصارى مع الله، وقال النحويون: «إلى» فى موضعها، وليست بمعنى «مع»، وإنما معناه: من يضم نصرته إلى نصرة الله لى ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ قال ابن أبى نجيح: الحواريون: كانوا قوما قصارين، سموا بذلك لأنهم كانوا يقصرون الثياب.

وقيل: كانوا صيادين يصطادون السمك. والصحيح أن الحوارى: صفوة كل شىء وخالصته، ومنه قوله ﷺ فى الزبير: «هو ابن عمتى وحواريى من أمتى»(٢)، أى:

(١) الثروب: هو الشحم الرقيق الذي يغشى الكرش والأمعاء. النهاية ١/٢٠٩.

(٢) رواه النسائى فى الكبرى (٥/٦٠/رقم ٨١١٢، وأحمد (٣/٣١٤). وابن أبى شيبة (١٢/٩٢) والخطيب فى تاريخه (٥/١٢٦) من حديث جابر.

ورواه البخاري (٧/٩٩ رقم ٣٧١٩)، ومسلم (١٥/٢٦٨ رقم ٢٤١٥) من حديث جابر ايضًا مرفوعاً: «إن لكل نبي حواريا، وإن حواريى الزبير بن العوام».

أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ

صفوتى وخالصتى.

وأصل الحوارى: النقاء والنظافة؛ فسموا حواريين؛ لنقاء قلوبهم، ومنه يقال لنساء الأمصار: حواريات. قال الشاعر:

فقل للحَوَارِيَّات يَبْكِين غيرنا ... ولا تَبْكِينَا إلا الكلابُ النوابحُ

ومنه الخبز الحوارى؛ لنقاوته وبياضه.

وأما قوله: ﴿نحن أنصار الله﴾ لأنهم إذا نصروا عيسى، فكأنهم نصروا الله ﴿آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾.

قوله تعالى: ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ قيل: مع الشاهدين من أمة محمد؛ لأنهم يشهدون للرسل بالبلاغ، وقيل: من الشاهدين على نبوة عيسى.

قوله تعالى: ﴿ومكروا ومكر الله﴾ المكر من العبد: الخب والخداع، ومن الله تعالى: أن يأخذ العبد بغتة من حيث لايعلم، وإنما سماه مكرا - على المقابلة - لأنه جزاء مكرهم: كما قال: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾[1] والمراد بمكرهم هاهنا: أنهم احتالوا لقتل عيسى، فقال رجل: ألا أدلكم على البيت الذى فيه عيسى، فجاءوا معه البيت الذى كان فيه عيسى، فرفعه الله إلى السماء، وألقى شبه عيسى على من دلهم عليه، فأخذوه، وهو يصيح: لست بعيسى، فقتلوه، وقيل: إن الدال كان واحدا من الحواريين؛ فذلك مكر الله ﴿والله خير الماكرين﴾.

قوله تعالى: ﴿إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك﴾ أى: واذكر قول الله لعيسى: إنى متوفيك ﴿ورافعك إلىّ﴾. فإن قال قائل: ما معنى التوفى، وعيسى فى الأحياء

(١) الشورى: ٤٠.

على زعمكم؟ قلنا: فيه أقوال، قال الحسن البصرى: معناه: إنى قابضك من الأرض، وهو صحيح عند أهل اللغة، فيقال: توفيت حقى من فلان. أى: قبضت.

قال الأزهرى: كأنه يقول: إنى متوفى عدد آبائك فى الأرض، وكل شيء تم فهو متوفى، ومستوفى، وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير، وتقديره: إنى رافعك إلىّ ومتوفيك» أى: بعد النزول من السماء.

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليهبطن عيسى بن مريم حكما مقسطا يكسر الصليب ويقتل الخنزير»(١)، وفى رواية: «أنه يقتل الدجال بباب لدّ»(٢) من دمشق، وفى الأخبار: أنه يعيش بعد ذلك فى الأرض سبع سنين،(٣) ويتزوج، ويولد له. ثم يموت، ويصلى عليه المؤمنون من هذه الأمة(٤).

وهذا التقديم والتأخير الذى ذكرنا فى الآية محكى عن ابن عباس وله قول آخر: أن الآية على حقيقة الموت، وأن عيسى قد مات، ثم أحياه الله تعالى ورفعه إلى السماء.

قال وهب بن منبه: أماته الله ثلاث ساعات من النهار، ثم أحياه الله، ورفعه إليه، وقال الربيع بن أنس: التوفى: هو النوم، وكان عيسى قد نام، فرفعه الله نائما إلى السماء، والمعروف: القولان الأولان.

وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رأيت ابنى الخالة: عيسى، ويحيى فى السماء الثانية ليلة المعراج»(٥)، وروى أيضا: «أنه رآهما فى السماء الدنيا» والأول

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة. رواه البخاري بطوله (٦/٥٦٦ رقم ٣٤٤٨)، ومسلم (٢/٢٤٩ رقم ١٥٥).

(٢) رواه مسلم (١٨/٨٥-٩٤ رقم ٢١٣٧، وأبو داود (٤/١١٧ رقم ٤٣٢١)، والترمذى (٤/٤٤٢ - ٤٤٥ رقم ٢٢٤٠، وابن ماجة (٢/١٣٥٦ - ١٣٥٩ رقم ٤٠٧٥) وأحمد فى مسنده (٤/١٨١ - ١٨٢) كلهم من حديث النواس بن سمعان به وقوله «من دمشق» ليس فى الحديث، بل هو تفسير منه، وهو خطأ، انظر شرح مسلم للنووى (١٨/٩١)، ومعجم البلدان (٥/١٧).

(٣) ثبت هذا عند مسلم (١٨/٩٩-١٠٢ رقم ٢٩٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو..

(٤) رواه أبو داود (٤/١١٧ - ١١٨ رقم ٤٣٢٣)، وأحمد (٢/٤٠٦، ٤٣٧)، والطبرى (٦/١٦ - ١٧) وابن حبان (١٥/٢٣٣ - ٢٣٤ رقم ٦٨٢١) والحاكم (٢/٥٩٥) وصححه من حديث أبى هريرة.

(٥) متفق عليه من حديث أنس، عن مالك بن صعصعة، رواه البخارى (٦/٣٤٨ - ٣٥٠ رقم ٣٠٢٧) وأطرافه فى (٣٣٩٣، ٣٤٣٠، ٣٨٨٧)، ومسلم (٢/٢٩٠ - ٢٩٣ رقم ١٦٤).

بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ

أصح، وقال عليه الصلاة والسلام: «رأيت المسيح بن مريم يطوف بالبيت»[1] فدلّ على أن الصحيح أنه فى الأحياء، وفى أخبار المعراج: «أن النبى ﷺ لقى آدم فى السماء الأولى وعيسى فى السماء الثانية ويوسف فى السماء الثالثة، وإدريس فى السماء الرابعة وهارون فى السماء الخامسة وموسى فى السماء السادسة، - وفى رواية السماء السابعة - وإبراهيم في السماء السابعة»[2].

قوله: ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ أى: مخرجك من أرجاسهم وأنجاسهم، ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾.

وقيل: أراد به النصارى، وهم فوق اليهود إلى يوم القيامة، واليهود أذل الفريقين؛ قد ذهب ملكهم، فلا يعود أبدا، وملك النصارى دائم إلى قريب من قيام الساعة، وقيل: أراد بالذين اتبعوه: أمة محمد ﷺ؛ حيث صدقوه ووافقوه على دين التوحيد، فهم فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة.

وفيه قولان: أحدهما: أنهم فوقهم بالحجة.

والثانى: بالعز والغلبة، وقد قال ﷺ: «أنا أولى بعيسى بن مريم، ليس بينى وبينه نبى»[3].

﴿ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾.

قوله تعالى: ﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة﴾

---

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر في حديث طويل، رواه البخاري في صحيحه (٦/ ٥٥٠ رقم ٣٤٤٠ وأطرافه فى ٣٤٤١ ، ٥٩٠٢، ٦٩٩٩، ٧٠٢٦، ٧١٢٨)، ومسلم (٢/ ٣٠٢ - ٣٠٧ رقم ٦٦٩).

(٢) تقدم تخريجه في رقم (٥)، ورواية: أنه رأى موسى في السماء السابعة، أخرجها البخاري من حديث شريك عن أنس (١٣/ ٤٨٦ رقم ٧٥١٧) وهو عند مسلم (٢/ ٢٨٣ رقم ١٦٢) ولكن لم يسرده.

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة، رواه البخاري (٦/ ٥٥٠ - ٥٥١ رقم ٣٤٤٢ وطرفه فى ٣٤٤٣)، ومسلم (١٥/ ١٧٣ - ١٧٤ رقم ٣٣٦٥).

أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾

والعذاب فى الدنيا: القتل والأسر والجزية، والعذاب فى الآخرة: عذاب النار.

قوله تعالى: ﴿وما لهم من ناصرين وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم﴾ أى: جزاء أعمالهم ﴿والله لايحب الظالمين﴾ أى: لايرحم الكافرين، ولا يثنى عليهم بالجميل.

قوله تعالى: ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات﴾ يعنى: القرآن ﴿والذكر الحكيم﴾ أى: الذكر ذى الحكمة، وقيل: الذكر المحكم الذى لا يتخلله الفساد.

قوله تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾؛ سبب نزول الآية ما روى: أن وفد نجران لما قدموا على النبى ﷺ قال لهم: «أسلموا، فقالوا: نحن مسلمون، قال: كذبتم؛ يمنعكم من ذلك ثلاث: قولكم إن الله اتخذ ولدا، وسجودكم للصليب، وأكلكم الخنزير، فقالوا: من أبو عيسى؟ فنزلت هذه الآية»[1]، وفى الآية دليل عليهم، ورد لقولهم، فقوله: ﴿إن مثل عيسى﴾ أى: صفة عيسى ﴿عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾، يعنى: إن خلق عيسى بلا أب مثل خلق آدم بلا أب، ولا أم، وخلق عيسى بلا أب ليس بأبدع من خلق آدم بلا أب ولا أم.

فأما قوله: ﴿ثم قال له كن فيكون﴾ راجع إلى آدم، فإن قال قائل: لما ذكر أنه خلقه من تراب، فما معنى قوله بعده ﴿ثم قال له كن فيكون﴾ بعد الخلق؟ قيل: معناه: خلقه من تراب، ثم أُخْبِرُكم أنى قلت له: كن، فكان من غير ترتيب فى الخلق: كما يكون فى أولاده، وهو مثل قول الرجل: أعطيتك اليوم درهما، ثم أعطيتك أمس درهما، أى: ثم أخبرك أنى أعطيتك أمس درهما.

قوله تعالى: ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾، فإن قيل: أكان شاكا فى الحق حتى نهاه عن الشك؟ قيل: الخطاب مع النبى، والمراد به: الأمة، وقيل: معناه: قل للشاك فيه: الحق من ربك فلا تكن من الشاكين.

(١) تقدم تخريجه.

واعلم أن فيما سبق من التمثيل على جواز القياس دليل، على أن القياس هو رد فرع إلى أصل بنوع شبه، وقد رد الله تعالى عيسى إلى آدم بنوع؛ فدل على جواز القياس. والمثل: هو ذكر سائر يستدل به على غيره فى معناه.

قوله تعالى: ﴿فمن حاجك فيه﴾ أى: جادلك فى الحق ﴿من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكافرين﴾.

هذا فى دعاء النبى ﷺ بنى نجران إلى المباهلة، روى سعد(١) بن أبى وقاص: «أن النبى ﷺ أخذ بيد الحسن والحسين وفاطمة وعلى، ثم دعاهم إلى المباهلة»(٢).

فقوله: ﴿ندع أبناءنا﴾ أراد به: الحسن والحسين، وقوله: ﴿ونساءنا﴾ يعنى: فاطمة، وأنفسنا يعنى: نفسه وعليّ، فإن قال قائل: كيف قال: ﴿وأنفسنا﴾ وعليّ - رضى الله عنه - غيره؟ قيل: العرب تسمى ابن عم الرجل نفسه، وعليّ كان ابن عمه، وقيل: ذكره على العموم لجماعة أهل الدين. والابتهال: الالتعان، ومنه البهلة: وهى اللعنة، يقال:

عليك بهلة الله، أى: لعنة الله، والابتهال: الاجتهاد فى دعاء اللعنة.

واللعنة: الإبعاد والطرد عن الرحمة بطريق العقوبة، قال لبيد:

وكهول سادةٌ مِنْ عَامِرٍ نَظر الدَّهْرُ إليْهِمْ فابتهلْ

أى: نظر الدهر إليهم بالهلاك فأفناهم باجتهاد فيه.

وفى القصة وكهول «أن النبى ﷺ لما دعاهم إلى الابتهال، وجعل اللعنة على

(١) في «ك»: سعيد وهو خطأ.

(٢) رواه مسلم بطوله (١٥/ ٢٥١ رقم ٢٤٠٤)، والترمذي (٥/ ٢١٠ رقم ٢٩٩٩) وقال: حسن غريب صحيح و(٥/ ٥٩٦ رقم ٣٧٢٤)، وأحمد (١/ ١٨٥).

الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَا أَهْلَ

الكاذب من الفريقين، فقال الأسقف لهم: لاتباهلوا؛ فإنكم لو ابتهلتهم؛ لاضطرم عليكم الوادى نارا، فقالوا للنبى ﷺ: وهل غير المباهلة؟ قال: الإسلام أو الحرب أو الجزية، فقبلوا الجزية، وانصرفوا»[1]، وقال النبى ﷺ: «لو تلاعنوا لصاروا قردة وخنازير»[2] وفى رواية «لو تلاعنوا لم يبق فى الدنيا نصرانى ولا نصرانية إلى يوم القيامة»[3].

قوله تعالى: ﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾ أى: النبأ الحق ﴿وما من إله إلا الله﴾ «مَن» صلة، وتقديره: وما إله إلا الله ﴿وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾.

﴿فإن تولوا﴾ أى: أعرضوا ﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾ أى: بمن يفسد منهم.

قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب﴾ الخطاب مع اليهود والنصارى ﴿تعالوا إلى كلمة﴾ العرب تسمى كل قصة لها شرح: كلمة، ومنه سميت القصيد: كلمة.

﴿سواء بيننا وبينكم﴾ أى: عدل، ومنه قول زهير بن أبى سلمى:

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه (٢/٥٩٤)، وابن مردويه (تفسير ابن كثير ١/٣٧٠ - ٣٧١) وعزاه السيوطي في الدر (٢/٤٣) لهما ولأبي نعيم في الدلائل من حديث جابر بمعناه، وفيه قوله ﷺ: «إن العذاب قد أظل نجران». وقوله: «لو ابتهلتم؛ لاضطرم عليكم الوادي نارا، هو من قوله - ﷺ -.

وقال الحافظ ابن كثير (١/٣٧١): وقد رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة عن المغيرة عن الشعبي مرسلا، وهذا أصح، وقد روي عن ابن عباس والبراء نحو ذلك.

قلت: راجع تخريج حديث وفد نجران الذي تقدم في أول السورة.

(٢) لم أقف عليه مرفوعاً، وإنما جاء في سياق حديث رواه ابن جرير (٣/٢١٣) من حديث علباء بن أحمد اليشكري مرسلاً، في مباهلة النبي ﷺ اليهود «فقال شاب منهم: ويحكم، أليس عهدكم بالأمس إخوانكم الذين مسخوا قردة وخنازير، لا تلاعنوا فانتهوا».

(٣) رواه ابن جرير (٣/٢١٢)، وعبد بن حميد، وأبو نعيم في الدلائل - كما في المنثور - (٢/٤٦) بمعناه، ولفظه: لو فعلوا لاستؤصلوا عن جديد الأرض».

الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ

أَرُوْنى خُطَّـةً لاضَيْم فِيــهَا ... يُسَـوِّى بَيَنَا فيهَا السَّــوَاءُ
فإِنْ تُرِكَ السَّوَاءُ فليس بينى ... وبينكُـم بنى عمـرو لقــاءُ

وأراد بالسواء: العدل.

﴿ ألا نعبد إلا الله ﴾ سبب هذا: أن اليهود قالوا: لايريد محمد منا إلا أن نعبده، وكذلك قالت النصارى؛ فنزلت الاية ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾، معناه: تعالوا إلى أمر نستوى فيه: وهو أن لانعبد إلا الله، ولنتفق جميعا على عبادته ﴿ ولانشرك به شيئا ﴾.

﴿ ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ﴾ قال عكرمة: أى: لايسجد بعضنا لبعض؛ فإن من سجد لغيره فقد اتخذه ربا.

وقيل: هو طاعة الخلق فى معصية الخالق ﴿ فإن تولوا ﴾ أى: فإن أعرضوا ﴿ فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ أى: بهذه الكلمة وهذا الأمر.

قوله تعالى: ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم ﴾ سبب نزول الآية: أن اليهود والنصارى اختصموا [إلى][(١)] النبى ﷺ فى إبراهيم، فقالت اليهود: هو منا، وقالت النصارى: لا، بل منا؛ فنزل قوله: ﴿ لم تحاجون ﴾ لم تجادلون ﴿ فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾ [(٢)]، معناه أن اليهودية محرفة من التوراة، والنصرانية محرفة من الإنجيل، والتوراة والإنجيل أنزلتا بعد إبراهيم.

فكيف تَدَّعُون أنه على اليهودية أو على النصرانية؟ وأما التوراة والإنجيل فقد ذكرنا

---

(١) كذا في «ك»: إلى وفى «الأصل»: الذى وهو خطأ.

(٢) رواه ابن جرير (٣/١٢١٦)، والبيهقي في الدلائل (٥/٣٨٤) عن ابن عباس رضي الله عنه، وعزاه السيوطي أيضا في الدر (٢/٤٥) لابن إسحاق.

ورواه ابن جرير (٣/٢١٦، ٢١٧) عن قتادة، والربيع، والشعبي جميعهم مرسلا.

﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ

اشتقاقها، وقيل: ليس لهما اشتقاق، وهما اسمان بالسريانية.

قوله تعالى ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ «ها» للتنبيه، ومعناه: يا هؤلاء، أنتم ﴿حاججتم﴾ جادلتم ﴿فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ أى: جادلتم فى أمر موسى وعيسى، وادعيتم أنَّا على دين موسى وعيسى، وقد أنزلت أمره عليكم، فلم تجادلون فى أمر إبراهيم، ولم أنزله عليكم ، ولا علم لكم به؟! ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ .

قوله تعالى : ﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا﴾ أخبر الله تعالى أنه ليس على ما ادعوا من اليهودية و[لا](1) النصرانية، ﴿ولكن كان حنيفا مسلما﴾ .

والحنيف: هو المائل إلى الدين، المستقيم عليه، ومنه: الأحنف: وهو المائل القدم ، وقال مجاهد : الحنيف: المتبع، وقال الضحاك: الحنيف: الحاج. فإن قال قائل: لم قال ﴿حنيفا مسلما﴾ والمسلم: هو الذى يكون على جميع ما أتى به محمد رسول الله ﷺ، وإبراهيم لم يكن على جملة شريعته؟

قيل: قد كان على بعض شريعته؛ فيكون بذلك مسلما؛ كمن مات من هذه الأمة فى بدء الأمر، كان مسلما ببعض شريعته؛ فإنها إنما تمت، واستقرت فى آخر الأمر، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿مسلما﴾ بمعنى: الانقياد من قوله: ﴿أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾(2)؛ فلذلك قال: ﴿حنيفا مسلما وما كان من المشركين﴾ .

قوله تعالى : ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه﴾ : من اتبعه فى زمانه. ﴿وهذا النبى﴾ يعنى: محمداً ﷺ ﴿والذين آمنوا﴾ يعنى: من هذه الأمة ﴿والله ولى المؤمنين﴾ .

قوله تعالى : ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب﴾ أى: تمنت طائفة من أهل

(1) من «ك».

(2) البقرة : ١٣١.

وَالَّذين آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُم وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ

الكتاب. ﴿لو يضلونكم﴾ لو يردونكم إلى الضلالة، وما هم عليه من اليهودية والنصرانية ﴿وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾.

قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾ فيه قولان: أحدهما: معناه: لم تكفرون بنعت محمد وصفته، وأنتم تشاهدونه فى التوراة والإنجيل؟!.

والثانى: معناه: لم تكفرون بما يأتى [به][1] محمد من الدلالات والمعجزات، وأنتم تقرون بمثلها مما أتى به موسى وعيسى؟!

قوله - تعالى -: ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ معناه: لم تخلطون الإيمان بعيسى - وهو الحق - بالكفر بمحمد ﷺ - وهو الباطل -؟ وقيل معناه: لم تغطون «الحق» من نعت محمد بالتغيير «الباطل»؟!.

قوله تعالى: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار، واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ أما وجه النهار: أوله، ومنه قول الشاعر:

من كان مسرورا بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار

أى: أول النهار، وهذا فى اليهود، قالوا: نؤمن بمحمد فى أول النهار، ثم نكفر به فى آخر النهار؛ حتى (يتهمه)[2] الناس (ويقولوا)[3]: قد ظهر منه شيء؛ حتى كفروا به، وقيل: إنهم قالوا: نصدقه فى البعض، ونكذبه فى البعض؛ حتى يقول الناس: صدقوه فيما كان صادقا، وكذبوه فيما كان كاذبا (فيستريبون)[4] بحاله.

(١) ليست فى «الأصل»، ولا «ك».

(٢) فى «ك»: نريب.

(٣) في «ك»: يقولون.

(٤) فى «ك»: فيسترقبون.

﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن

﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أى: من تَبِعَهُ فى دينه، ويكون وجه النهار وآخره بمعنى: البعض على القول الثانى.

قوله - تعالى -: ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ أى: لاتصدقوا إلا من تبع دينكم، «واللام» فيه زائدة كما قال: ﴿ قل عسى أن يكون ردف لكم ﴾[١] أى: ردفكم. وهذا فى اليهود أيضا، قالوا: لاتصدقوا إلا من وافقكم فى ملتكم.

ثم ابتدأ الله تعالى فقال: ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾ أى: إن البيان بيان الله.

﴿ أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴾ أى: لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، يقوله للمسلمين.

﴿ أو يحاجوكم عند ربكم ﴾ أى: ولا يحاجونكم عند ربكم؛ فإن الحجة لكم عليهم، وليست لهم عليكم عند الله.

وقال محمد بن يزيد المبرد: فى الآية تقديم وتأخير: قوله: ﴿ ولا تؤمنوا ﴾ أى: لاتصدقوا ﴿ أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴾ من الدلالات والآيات من المن والسلوى ونحوه.

﴿ إلا لمن تبع دينكم ﴾ إلا لمن وافقكم فى اليهودية ﴿ أو يحاجوكم عند ربكم ﴾ أى إن صدقتموهم، يحاجونكم يوم القيامة عند ربكم، فيقولون: نحن مثلكم، أو خير منكم، فلا تصدقوهم حتى لايحاجوكم عند ربكم. إلى هاهنا كلام اليهود ثم ابتدأ الله تعالى فقال: ﴿ قل: إن الهدى هدى الله ﴾ وقيل: معناه ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ أى: ولاتصدقوا أن النبوة فى غير بنى إسحاق، وأنها فى بنى إسماعيل.

[قوله تعالى][٢] ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم يختص

---

(١) النمل: ٧٢.

(٢) من «ك».

يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

برحمته من يشاء﴾ قال ابن عباس: هو الدين. وقال مجاهد: هو النبوة. وقال ابن جريج: هو القرآن والإسلام ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾.

قوله تعالى: ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك﴾ قد ذكرنا الأقوال فى القنطار، وقال عطاء بن أبى رباح: هو ست آلاف دينار.

وهذا فى عبد الله بن سلام؛ أودعه رجل ألفين ومائتى أوقية من الذهب فأدى الأمانة(١) فيه.

﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لايؤده إليك﴾ هذا فى فنحاص بن عازوراء اليهودى؛ أودعه رجل دينارا فخان فيه.

﴿إلا ما دمت عليه قائما﴾ أى: لايؤده إليك إلا مادمت على رأسه قائما تطالبه. وقيل: أراد بالقيام: الإلحاح والمطالبة.

﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل﴾ قالت اليهود: ليس علينا فى أخذ أموال العرب حرج، كأنهم استحلوا أموال الأميين: وهم العرب، محمد وأصحابه.

﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ ﴿بلى﴾ عليهم سبيل؛ ذكره جوابا لقولهم.

قالت النحاة: وهو وقف تام، ثم ابتدأ، فقال: ﴿من أوفى بعهده واتقى﴾ قال ابن عباس: واتقى الشرك ﴿فإن الله يحب المتقين﴾ الموحدين.

قوله تعالى: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا﴾ روى أبو وائل - وهو شقيق بن سلمة - عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من حلف على يمين كاذبة؛ ليقتطع بها مال امرئ مسلم، لقى الله وهو عليه غضبان،

(١) فى «ك»: الثانية. وهو تحريف.

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ

وتلا هذه الآية قال: وكان الأشعث بن قيس حاضرا، فقال: فيّ نزلت الآية، وذكر قصة» وهذا حديث في الصحيحين[1]، ورواه مسلم في صحيحه برواية أخرى، وزاد فيه أنه: «قيل: يارسول الله، وإن كان في شيء يسير؟ قال: وإن كان في قضيب من أراك»[2].

وروى مسلم أيضا في كتابه برواية ثالثة عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة لايكلمهم الله ولاينظر إليهم يوم القيامة، ولايزكيهم [ولهم عذاب أليم][3]: المنان بما أعطى والمسبل إزاره، والمنفق سلعته باليمين الكاذبة»[4].

فقوله: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا﴾ أي: شيء قليل من حطام الدنيا ﴿أولئك لاخلاق لهم في الآخرة﴾ أي: لاحظ لهم فيها.

﴿ولايكلمهم الله﴾ أي: ولايكلمهم كما يكلم المؤمنين؛ وقد صح أنه جلّ جلاله - يكلم المؤمنين يوم القيامة من غير ترجمان[5]، وقيل: هو بمعنى: الغضب، كما يقال: أنا لا أكلم فلانا، إذا كان غضبانا عليه ﴿ولاينظر إليهم يوم القيامة﴾ يعني: لاينظر إليهم بالرحمة.

﴿ولايزكيهم﴾ لايثني عليهم بالجميل، ولايطهرهم من الذنوب ﴿ولهم عذاب أليم﴾.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٥/ ٤١ رقم ٢٣٥٦، ٢٣٥٧)، والحديث رقم ٢٣٥٦ أطرافه في: ٢٤١٦، ٢٥١٥، ٢٦٦٦، ٢٦٦٩، ٢٦٧٣، ٢٦٧٦، ٤٥٤٩، ٦٦٥٩، ٦٦٧٦، ٧١٨٣، ٧٤٤٥)، والحديث رقم ٢٣٥٧ أطرافه في: ٢٤١٧، ٢٥١٦، ٢٦٦٧، ٢٦٧٠، ٢٦٧٧، ٤٥٥٠، ٦٦٦٠، ٦٦٧٧، ٧١٨٤). ورواه مسلم (٢/ ٢٠٨ رقم ١٣٨).

(٢) رواه مسلم من حديث أبي أمامة - رضي الله عنه - (٢/ ٢٠٧ رقم ١٣٧).

(٣) من «ك».

(٤) رواه مسلم من حديث أبي ذر - رضي الله عنه - (٢/ ١٥٠ رقم ١٠٦).

(٥) متفق عليه من حديث عدى بن حاتم، رواه البخارى (٣/ ٣٣٠ رقم ١٤١٣ وانظر أطرافه فى ١٤١٧، ٣٥٩٥، ٦٠٢٣، ٦٥٣٩، ٦٥٤٠، ٦٥٦٣، ٧٤٤٣، ٧٥١٢) ومسلم (٧/ ١٤١ رقم ١٠١٦) ولفظ مسلم «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله، ليس بينه وبينه ترجمان...» الحديث.

الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ

قوله تعالى: ﴿وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ أى: يغيرون، ويحرفون الكتاب بألسنتهم. وقيل: يعدلون بألسنتهم عن الكتاب ﴿لتحسبوه﴾ لتظنوه ﴿من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾.

قوله تعالى: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة﴾ سبب نزول الآية: «أن اليهود والنصارى اجتمعوا عند النبى ﷺ واختصموا فى إبراهيم، فقالت كل فرقة: هو منا، فقال ﷺ: كذبتم؛ فغضبوا، وقالوا: يامحمد، لاتريد منا إلا أن نتخذك ربا؛ فنزلت الآية»(١).

﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب﴾ يعنى: القرآن ﴿والحكم﴾ الأحكام، والحكمة: السنة ﴿والنبوة﴾ المنزلة الرفيعة بالأنبياء.

﴿ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله﴾ أى: عبيدا لى من دون الله وقيل: أراد بالبشر: عيسى – صلوات الله عليه – لأنهم كانوا يدعون أن عيسى أمرهم أن يعبدوه، ويتخذوه ربا، فقال: ﴿ما كان لبشر﴾ يعنى: عيسى.

﴿أن يؤتيه الله الكتاب﴾ يعنى: الإنجيل ﴿والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب﴾.

قال سعيد بن جبير: الربانى: الفقيه العالم الذى يعمل بعلمه. وقال الضحاك: الربانى: العالم الحكيم. وفى الخبر: «كونوا علماء حلماء»(٢).

والربانى من طريق المعنى: هو أن يكون على دين الرب وعلى طريق الرب.

---

(١) سبق تخريجه عند قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم...﴾ الآية.

(٢) روى هذا عن ابن عباس، وابن مسعود موقوفًا عليهم. انظر الدر المنثور (٢ / ٥٢).

وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم

وقيل: هو من التربية، فالرباني هو الذى ربى[(١)] بصغار العلم حتى بلغ كباره، وروى: أن ابن عباس لما توفى، قام محمد بن الحنفية على قبره، وقال: اليوم مات ربانى هذه الأمة.

وقال مجاهد: الربانيون فوق الأحبار؛ فالأحبار: العلماء، والربانيون: الذين جمعوا مع العلم البصيرة بسياسة الناس.

﴿ بما كنتم تعلمون الكتاب ﴾ - بالتشديد - من تعليم القرآن، وبالتخفيف من العلم[(٢)].

﴿ وبما كنتم تدرسون ﴾ تقرءون.

قوله تعالى: ﴿ ولا يأمركم ﴾ يقرأ بالرفع على الابتداء، أى: ولايأمركم الله، ويقرأ بنصب الراء على النسق[(٣)]، أى: ولايأمركم ذلك البشر ﴿ أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ﴾ فالنصارى: هم الذين اتخذوا النبيين أربابا، والصابئون: هم الذين اتخذوا الملائكة أربابا.

﴿ أيامركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ أى: لايأمركم بالكفر بعد الإسلام.

قوله تعالى: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبين ﴾ قرأ ابن مسعود: «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب» ﴿ لما آتيتكم من كتاب وحكمة ﴾: هو أحد القولين فى معنى القراءة المعروفة، قال ابن عباس: معنى الآية: وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب مع النبيين. قال ابن عباس: لما استخرج الله الذرية من صلب آدم كالذر،

---

(١) في «ك»: ولي.

(٢) قرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائى، وعاصم (تُعَلِّمُونَ) بضم التاء، وفتح العين وكسر اللام مشددة، وقرأ الباقون (تَعْلَمُون) بفتح التاء واللام وإسكان العين مخففًا.

انظر النشر (٢ / ٢٤٠).

(٣) قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمز، وخلف، ويعقوب، بنصب الراء.

وقرأ الباقون بالرفع. انظر المصدر السابق.

بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا

والأنبياء كانوا فيهم كالمصابيح والسرج، أخذ الميثاق على النبيين أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأن يصدقوه، وينصروه إن أدركوه. فهذا معنى قوله: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة﴾، وقرأ حمزة «لِما آتيتكم» مخففا بكسر اللام، وقرأ غيره: «لَمَّا آتيتكم» بفتح اللام مشددا، والقراءة المعروفة: بفتح اللام مخففا[1]، ومعناه: للذى آتيتكم بمعنى الخبر.

وقيل: معناه: لئن آتيتكم بمعنى: الشرط، ﴿ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ يعنى: محمدا ﷺ.

﴿قال أأقررتم﴾ أى: أقروا ﴿وأخذتم على ذلكم إصرى﴾ أى: عهدى. والإصر: العهد الثقيل﴿قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾.

وقال الضحاك: إنما أخذ الميثاق على النبيين خاصة كما نطقت به الآية، فأخذ الميثاق على كل نبى أن يؤمن بالذى يأتى بعده من الأنبياء وينصره، فأخذ الميثاق على موسى - صلوات الله عليه وسلم - أن يؤمن بعيسى، وعلى عيسى أن يؤمن بمحمد ونحو ذلك.

ثم قال: ﴿فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون أفغير دين الله يبغون﴾ يطلبون، يقرأ بالياء والتاء[2].

﴿وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها﴾ قال ابن عباس: لما خاطبهم بقوله: ﴿ألست بربكم﴾[3] أسلم الكل، وقالوا: بلى، ولكن بعضهم قالوا: بلى،

---

(١) انظر النشر (٢ / ٢٤١).

(٢) قرأ أبو عمرو، ويعقوب، وحفص بالياء التحتية، وقرأ الباقون بالتاء الفوقية. انظر النشر (٢ / ٢٤١).

(٣) الأعراف: ١٧٢.

وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ

طوعا وبعضهم كرها. وقيل: أسلم من فى السموات طوعا، وأسلم من فى الأرض كرها وطوعا، وبعضهم طوعا، وبعضهم كرها؛ لخوف السيف ﴿وإليه ترجعون﴾.

قوله تعالى: ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ لما ذكر الملك والأديان، واضطراب الناس فيها، أمر رسوله أن يقول: ﴿آمنا بالله ..﴾ الآية، وقد ذكرنا معنى الأسباط وما قيل فيه ﴿وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾.

قوله تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾ وحق لمن يبتغى غير دين الإسلام أن يصبح غدا من الخاسرين.

قوله تعالى: ﴿كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات﴾ يعنى: لايهديهم الله، وهو مثل قول عبد الله بن قيس الرقيات[1]:

كَيْفَ نَوْمِى عَلَى الفِرَاشِ ولمّا تشتمل السآم غارة شعواءُ؟

أى: لانوم لى على الفراش.

والآية نزلت فى الحارث بن أوس بن الصامت؛ فإنه ارتد عن الإسلام، ولحق بمكة، وأقام مدة، ثم أرسل إلى المسلمين فى أن يرجع إلى الإسلام؛ فنزلت الآية ﴿كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم﴾.

قال الزجاج: يعنى: أنهم يستحقون الضلالة، ولايستحقون الهداية ﴿والله لايهدى القوم الظالمين أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾.

---

(١) فى «ك»: الرقبان. وهو خطأ.

وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ

فإن قال قائل: لم قال: ﴿والناس أجمعين﴾ فكذلك يتناول نفسه أيضا، فكيف يلعن على نفسه؟ قيل: أراد فى القيامة يلعن بعضهم بعضا، ويلعنون أنفسهم. وقيل: إنهم يلعنون الظالمين والكافرين؛ فذلك لعنهم على أنفسهم؛ لأن من لعن الظالمين والكافرين، وهو ظالم وكافر فقد لعن نفسه.

﴿خالدين فيها لايخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ يعنى بهذا: الحارث بن أوس؛ فإنه تاب وأسلم فقبلت توبته.

قوله - تعالى -: ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم﴾ هذا فى قوم كانوا مع الحارث بن أوس وارتدوا، فلما رجع هو إلى الإسلام أمسكوا عن الإسلام أولئك القوم، وقالوا: نتربص الدهر بمحمد، فإن ساعده الزمان، ونفذ أمره نرجع إلى دينه؛ فنزلت الآية.

﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم﴾ أى: ارتدوا عن الإسلام بعد إيمانهم ﴿ثم ازدادوا كفرا﴾ بقولهم: إنا نتربص بمحمد ريب المنون ﴿لن تقبل توبتهم﴾ قال أبو العالية: لأنهم لم يكونوا محققين للتوبة، بل كانوا متربصين ﴿وأولئك هم الضالون﴾ وقيل: أراد به: الذين كفروا بعد إيمانهم بعيسى؛ ازدادوا كفرا بمحمد ﴿لن تقبل توبتهم﴾ عند الناس ﴿وأولئك هم الضالون﴾.

قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به﴾ يعنى: لو افتدى به، و«الواو» زائدة مقحمة، وقيل: تقدير الآية: فلن يقبل من أحدهم أن يتبرع بملء الأرض ذهبا، ولو افتدى به أيضا لايقبل ﴿أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين﴾.

قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قال ابن مسعود وعمرو بن ميمون

مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا

ومسروق بن الأجدع أبو عائشة: البر: الجنة هاهنا. وقيل: هو العمل الصالح. وقيل: هو الثواب، وفي الخبر: «عليكم بالصدق؛ فإنه يهدى إلى البر، والبر يهدى إلى الجنة، وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدى إلى الفجور، والفجور يهدى إلى النار»(١).

﴿حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قيل: أراد بالإنفاق: أداء الزكاة. وقيل: أداء جميع الصدقات. وقيل: كل إنفاق يبتغى به مرضات الله تعالى ينال به هذا البر.

وروى أنه لما نزلت هذه الآية قال أبو طلحة: «يارسول الله، إنى أرى الله يسألنا أموالنا، فأشهدك أني جعلت حائط كذا لله تعالى فقال ﷺ: اقسمه بين الفقراء قرابتك، فقسمه بين أُبيّ وحسان»(٢).

وروى أن ابن عمر – رضى الله عنه – اشترى جارية كان قد هويها، فلما نظر إليها أعتقها، وزوجها رجلا، وتلا قوله تعالى ﴿لن تَنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾.

﴿وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ أى: يعلمه، أى: يجازى عليه.

قوله تعالى: ﴿كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل﴾ سبب نزول الآية: أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: إنك تزعم أنك على ملة إبراهيم، وكان لايأكل لحوم الإبل وألبانها وأنت تأكلها، فلست على ملة إبراهيم؟. فنزلت الآية ﴿كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة﴾ يعنى: ليس الأمر على ما قالوا من حرمة لحوم الإبل وألبانها على إبراهيم، بل كان (الكل)(٣)

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود، رواه البخارى (١٠/٥٢٣ رقم ٦٠٩٤) ومسلم (١٦/٢٤١ – ٢٤٣ رقم ٢٦٠٧).

(٢) متفق عليه من حديث أنس، رواه البخارى (٣/٣٨١رقم ١٤٦١، وأطرافه فى ٢٣١٨، ٢٧٥٢، ٢٧٥٨، ٢٧٦٩، ٤٥٥٤، ٤٥٥٥، ٥٦١١) ومسلم (٧/١١٦ – ١١٩ رقم ٩٩٨) مع اختلاف فى ألفاظه.

(٣) ليست فى «ك».

بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ

حلالا له ولبنى إسرائيل، وإنما حرمها يعقوب على نفسه قبل نزول التوراة، يعنى: أن حرمتها ليست فى التوراة، ولا فى شرع إبراهيم، وإنما هو شىء حرمه إسرائيل على نفسه، وسبب تحريمه ذلك على نفسه: أنه اشتكى عرق النسا، وكان له من ذلك زقاء - أى صياح - فقال: إن شفانى الله منه لأحرمن أحب الطعام إلىّ لحوم الإبل وألبانها، فشفاه الله؛ فحرمها على نفسه.

﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ طالبهم بالإتيان بالتوراة حجة على ما ادعوا فلم يأتوا بها؛ إذ لم يكن تحريمها فى التوراة، فعجزوا عن الإتيان بالتوراة وكان ذلك كالمعجزة للرسول عليهم.

قوله تعالى: ﴿فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾ وقد ذكرنا معنى الافتراء والظلم.

قوله تعالى: ﴿قل صدق الله﴾ يعنى: فيما أخبر وأنزل ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا﴾ وإنما دعاهم إلى اتباع ملة إبراهيم؛ لأن فى اتباع ملته اتباعه، وفى اتباعه اتباع ملته، ﴿وما كان من المشركين﴾.

قوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا﴾ روى أبو ذر: «أنه سأل رسول الله ﷺ أى المساجد وضع أولا؟ فقال: المسجد الحرام. (قلت)[1]: ثم أى؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون عاما، ثم قال: أينما أدركتك الصلاة، فصلّ؛ فإنه لك مسجد»[2].

وروى خالد بن عرعرة عن على - رضى الله عنه - أنه قال: أراد به: أن أول بيت وضع للناس مباركا مع الرحمة والبركة، والآيات البينات للذى ببكة.

وقيل: أول ما خلق الله تعالى من الأرض موضع البيت، ثم منه خلق جميع الأرض،

---

(١) فى «ك»: فقلت.

(٢) متفق عليه، رواه البخارى (٦/ ٤٦٩ رقم ٣٣٦٦، وطرفه فى ٣٤٢٥)، ومسلم (٥/ ٣-٤ رقم ٥٢٠).

وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ

وأول ما خلق من الجبال جبل أبى قبيس.

وفى القصص: أن الله تعالى أمر الملائكة ببناء البيت قبل خلق آدم بألفى عام، وكانت الملائكة يحجونه، فلما حجه آدم، قالت الملائكة: بَرَّ حَجُك، حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام. وأما بكة فالصحيح: أن بكة ومكة بمعنى واحد، وهو قول ابن عباس، ومثله: طين لازب ولازم، وسَمَّل رأسه وسَبَّل بمعنى واحد.

وقيل: (إنه)[1] موضع البيت، ومكة جميع القرية. وقيل: إنما سميت بكة؛ لأن الناس يتباكون فيها، أى: يزدحمون، ومنه قول الشاعر:

إذا الشَّريبُ أَخَذَتْه أكَّه فَخَلِّــه حتى يَبُكَّ بكَّه

وقوله: ﴿مباركا وهدى للعالمين﴾ أى: وضع ذلك البيت ذا بركة وهدى للعالمين.

﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ قرىء: «فيه آية بينة» على الوحدان، وهى مقام إبراهيم، والمعروف: ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾.

من تلك الآيات: مقام إبراهيم: وهو الحَجَر الذى فيه أثر أصابع قدم إبراهيم، وكان قد بقى أثره فيه، فاندرس من كثرة المسح بالأيدى، وقيل مقام إبراهيم: جميع الحرم.

ومن الآيات فى البيت أيضا: أن الطير يطير فلا يعلو فوقه، كذا قيل، ومنها: أن الجارحة إذا قصدت صيدا، فإذا دخل الصيد الحرم كفت عنه، ومنها: أنه ما قصده جبار إلا قصمه الله – تعالى –، ومنها: أن المطر إذا أصاب الركن اليمانى؛ (كان الخصب باليمن، وإن أصاب جانب الشام)[2]؛ كان الخصب بالشام، وإن أصاب جميع الجوانب كان الخصب جميع الجوانب.

وسبب هذا أن اليهود قالوا: قبلتنا أولى من قبلتكم؛ فَبَيَّن الله تعالى للمسلمين شرف قبلتهم؛ فإنها خصت بأشياء ليست تلك لقبلتهم، وأن بيت المقدس قد حرق وهدم، وأما الكعبة فما قصدها جبار إلا قصمه الله تعالى. ﴿ومن دخله كان آمنا﴾ قال ابن عباس: هو (الجانى)[3] يدخله، فيصير آمنا عن القتل فيه، ولكنه لايؤاكل

(١) فى «ك»: إن بكة.

(٢) ليست فى «ك».

(٣) فى «ك»: الخائف.

ولايشارب، ولايباع ولايشارى حتى يخرج فيقتل.

وقال الحسن وقتادة وعامة المفسرين - وهو الأصح -: إنه أراد الأمن عن تخطف الكفار بالقتل والغارة. وقيل: أراد به: ومن دخله كان آمنا فى القيامة من العذاب.

قوله - تعالى -: ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ قد ذكرنا معنى الحج.

﴿من استطاع إليه سبيلا﴾ روى الحسن مرسلا عن النبى ﷺ «أنه سئل عن الاستطاعة، فقال: الزاد والراحلة»،[1]، وروى ابن عمر «أنه ﷺ سئل أىُّ الحاج أفضل[2]؟ فقال: الشعث، التفل. فقيل: أى الحج أفضل؟ فقال: العج، والثج. قيل: ما السبيل؟ قال: الزاد والراحلة»[3].

وقال مالك: الاستطاعة بقوة البدن، فمتى وجد الزاد، وقوى على المشى لزمه الحج، والأصح أن الاستطاعة: هى القدرة على ما يوصله إلى الحج، فمنها: الزاد، والراحلة، ومنها: أمن الطريق، ونفقة الأهل، ونحو ذلك.

﴿ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين﴾ الأصح: أنه أراد بالكفر: إنكار وجوب الحج، وقيل: «إنه لما نزل (قوله: ﴿ولله)[4] على الناس حج البيت﴾ جمع رسول الله

(١) رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه (٤/٩٠)، وابن جرير فى تفسيره (٤/١٢)، وسعيد بن منصور فى سننه (٣/١٠٧٦ رقم ٥١٨)، والدارقطنى فى سننه (٢/٢١٨)، والبيهقى (٤/٣٢٧).

(٢) ليست فى «الأصل»، ولا «ك».

(٣) رواه الترمذى (٣/١٧٧ رقم ٨١٣ مختصراً، و٥/٢٠٩-٢١٠ رقم ٢٩٩٨) بأتم مما هاهنا) وابن ماجة (٢/٩٦٧ رقم ٢٨٩٦)، والشافعى فى مسنده (١/٢٨٤) وابن أبى شيبة (٤/٩٠) والدارقطنى (٢/٢١٧)، والبيهقى (٤/٣٣٠). وقال الترمذى فى الموضع الأول: هذا حديث حسن، والعمل عليه عند أهل العلم: أن الرجل إذا ملك زادا وراحلة وجب عليه الحج.

وقال فى الموضع الثانى: هذا حديث لا نعرفه من حديث ابن عمر إلا من حديث إبراهيم بن يزيد الخوزى المكى، وقد تكلم بعض أهل الحديث فى إبراهيم بن يزيد من قبل حفظه.

وقال ابن جرير الطبرى فى تفسيره (٤/١٣): فأما الأخبار التى رويت عن رسول الله ﷺ في ذلك بأنه الزاد والراحلة، فإنها أخبار فى أسانيدها نظر، ولا يجوز الاحتجاج بمثلها فى الدين.

(٤) فى «ك»: قول الله.

﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

ﷺ من جميع الأديان، وقال: إن الله كتب عليكم الحج أيها الناس فحجوا، فصدقه المؤمنون، وكذبه الكافرون؛ فنزل قوله: ﴿ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين﴾»[1].

قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون﴾ أى: لايخفى عليه ما تعملون، ويجازيكم عليه.

قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن﴾ أى: (لم تمنعون من آمن عن سبيل الله)[2] بكتمان نعت محمد ﴿تبغونها عوجا﴾ أى: تطلبون الزيغ عن السبيل، والعدول عنها بتغيير صفة محمد ﷺ ﴿وأنتم شهداء﴾ يعنى: أنتم عالمون أنه حق؛ على ما ورد نعته وصفته ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ يعنى: يردونكم إلى اليهودية والنصرانية.

قوله تعالى: ﴿وكيف تكفرون﴾ قال الأخفش سعيد بن مسعدة: على أى حال تكفرون؟!، وقال غيره: لم تكفرون؟! ﴿وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾.

فإن قال قائل: منعه إياهم عن الكفر؛ يكون الرسول فيهم، يوهم إباحة الكفر فى حال لايكون الرسول فيهم، قيل: ولايخلو حال من كون الرسول فيهم، فإنه اليوم وإن كان خارجا من بينهم، فشرعه قائم بينهم، فيكون كأنه فيهم.

﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾ أى: ومن يمتنع بالله، قيل: ومن يثق بالله، فقد أرشد إلى طريق مستقيم.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾ قال ابن مسعود: هو أن

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٧/٤٩–٥٠)، وسعيد بن منصور (٣/١٠٧٤ رقم ٥١٥). وزاد السيوطى فعزاه فى الدر (٢/٦٣) لعبد بن حميد، وابن المنذر. كلهم عن الضحاك مرسلاً.

(٢) فى «ك»: لم تمنعون عن سبيل الله من آمن.

يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر. وقال قتادة: (الآية)[1] منسوخة بقوله: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾[2] قال أهل المعانى: لايستقيم النسخ فيه، وقوله ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾[2] تفسير لهذه الآية؛ لأن من أطاع الله فى وقت وجوب الطاعة، وذكره فى وقت وجوب الذكر، وشكره فى موضع وجوب الشكر، فقد اتقى الله حق تقاته.

وهذا لم يصر منسوخا، وقوله: ﴿ فاتقوا الله ماستطعتم ﴾[2] موافق له؛ لأن التقوى إن كان فى موضع الأمر والوجوب، والأوامر والواجبات على قدر الاستطاعة، فتكون إحدى الآيتين موافقة للأخرى، فلا يستقيم فيه النسخ.

﴿ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾، فإن قال قائل: كيف نهاهم عن الموت على الكفر، والموت لايدخل تحت الأمر والنهى؟! قيل: معناه: دوموا على الإسلام، حتى إذا وافاكم الموت ألفاكم على الإسلام، هذا كما يقول الرجل لغيره: لا أريتك تفعل كذا. معناه: لاتفعل كذا، حتى إذا رأيتك (لا)[3] أراك على فعله.

قوله تعالى: ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ﴾ قال ابن عباس: حبل الله: هو العهد. وقال قتادة (والسدى)[4]: حبل الله: القرآن. وفى الخبر «القرآن: حبل ممدود (طرف)[5] بيد الله وطرف بأيديكم»[6] وقيل: الحبل: الطريق، حبل الله: طريق الله، وأنشدوا فى ذكر الناقة قول الشاعر:

---

(١) فى الأصل و «ك»: الآباية، وهو خطأ. (٢) التغابن: ١٦.

(٣) ليست فى «ك». (٤) ليست فى «ك». (٥) فى «ك»: طرفه.

(٦) رواه ابن أبى شيبة (١٠/ ٤٨١ رقم ١٠٠٥٥)، وعبد بن حميد، كما فى المنتخب (ص١٧٥ رقم ٤٨٣)، والطبرانى فى الكبير (٢٢/ ١٨٨ رقم ٤٩١)، وابن حبان - الإحسان - (١/ ٣٢٩ - ٣٣٠ رقم ١٢٢) والبيهقى فى الشعب (٤/ ٥٠١ رقم ١٧٩٢) كلهم من حديث أبى شريح الخزاعى، وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ١٩٧): رجاله رجال الصحيح. وقال البيهقى فى الشعب: ورواه الليث بن سعد، عن سعبد المقبرى، عن نافع بن جبير، عن النبى ﷺ مرسلا. قال البخارى هذا أصح. وانظر علل ابن أبى حاتم (٢/ ٥٦ رقم ١٦٥٣). وروى بنحوه عن على بن أبى طالب مرفوعًا نسبه الحافظ ابن حجر فى المطالب لإسحاق بن راهويه وقال: هذا إسناد صحيح - المطالب (٤/ ٦٥ رقم ٣٩٧٢) - وفى الباب عن جماعة من الصحابة.

حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن

وإذا أُجَوِّزُها حِبَـــالَ قبيلةٍ نزلتْ من الأخْرَى إليكَ حُبالهُا[١]

أى: طريقها. وأصل الحبل كل ما يوصلك إلى الشىء، فتفوز به، والعهد: حبل، والقرآن: حبل، (ومنه)[٢] الحبل المعروف؛ لأنه يوصل إلى المقصود.

﴿ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم﴾ سبب نزول الآية ما روى «أن رجلين: أحدهما من الأوس، والآخر من الخزرج تسابا، فدعا كل واحد منهما قبيلته؛ فثار الحيان، وضربوا بأيديهم إلى السيوف، وكاد يكون بينهم قتال، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج عليهم وهو على حمار، وقام بينهم؛ فنزلت الآية، وتلا عليهم، فبكوا، ومشى كل واحد إلى صاحبه وتعانقوا، واصطلحوا وكفوا عن القتال»[٣]، قال جابر: ما كان يوم أقبح أولا من ذلك اليوم، ولا أحسن آخرا من ذلك اليوم. فقوله: ﴿ولاتفرقوا﴾ الخطاب معهم ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ يعنى: بالإسلام وبعث الرسول وإنزال الكتاب.

﴿إذ كنتم أعداء﴾ لأن الأوس والخزرج كان بينهم قتال [دام][٤] مائة وعشرين سنة ﴿فألف بين قلوبكم﴾ يعنى: بالإسلام ﴿فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ (أى: فى الدين)[٥].

﴿وكنتم على شفا حفرة﴾ أى: طرف حفرة ﴿من النار فأنقذكم منها﴾.

وقيل: نزلت الآية فى مشركى العرب، والأول [أصح وهو][٦] قول عكرمة. ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ أى: ترشدون، وتسلكون طريق الحق.

---

(١) وقع البيت فى لسان العرب (مادة: حبل) كما يأتى:

وإذا تجـوِّزها حبـــال قبيلـــة أخذت من الأخرى إليك حبَالَها.

(٢) فى «ك»: فمنه.

(٣) رواه ابن جرير عن عكرمة مرسلا.

(٤) فى «الأصل»، و«ك»: دائم.

(٥) فى «ك»: يعنى بالدين.

(٦) ما بين المعكوفين تكرر بالأصل، وك.

مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ

قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة﴾ أى: كونوا أمة، وكلمة «من» - فيه - للجنس، لا للتبعيض، وهو مثل قوله: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾[1] والمراد به الاجتناب من جنس الأوثان كلها لا من بعض الأوثان، كذلك قوله: ﴿ولتكن منكم أمة﴾ أى: كونوا أمة ﴿يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ أى: وأنتم المفلحون.

قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا﴾ يعنى: اليهود والنصارى.

﴿من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه﴾ يعنى: وأولئك لهم عذاب عظيم يوم القيامة، ثم وصف ذلك اليوم، فقال: ﴿يوم تبيض وجوه﴾ يعنى: بالتوحيد ﴿وتسود وجوه﴾ بالشرك. وقيل: تبيض وجوه بالسنة، وتسود وجوه بالبدعة. وقيل: أراد به: فى الدنيا تبيض وجوه بالقناعة، وتسود وجوه بالطمع. والأول أصح، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة...﴾[2] الآية.

وفى رواية أبى أمامة عن النبى ﷺ «تسود وجوه الخوارج»[3]. ﴿فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾ أى: يقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟! فإن قال قائل: كيف كفروا بعد الإيمان ولم يكونوا مؤمنين قط؟ قيل أراد به إيمان يوم الميثاق، وكفروا بعده.

---

(١) الحج: ٣٠.

(٢) عبس: ٣٨-٣٩.

(٣) رواه الترمذى (٥/٢١٠ رقم ٣٠٠٠) بطوله، وقال: حسن، وابن ماجه (١/٦٢ رقم ١٧٦)، وأحمد (٥/٢٦٢)، وعبد الرزاق فى مصنفه (١٠/١٥٢ رقم ١٨٦٦٣)، وابن أبى شيبة (١٥/٣٠٧ - ٣٠٨ رقم ١٩٧٣٨)، وابن أبى حاتم فى تفسير «آل عمران» (١/٤٦٥ رقم ١١٤٤)، والطبرانى فى الكبير (٨/٢٦٧ رقم ٨٠٣٣) وأعاده فى غير موضع من كتابه، كلهم من حديث أبى أمامة مرفوعا.

إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

وقيل: أراد به: اليهود؛ آمنوا بما كان فى التوراة من نعت محمد، ثم كفروا، وغيروا. ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله ﴾ أى: فى ثواب الله ﴿ هم فيها خالدون ﴾.

﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين ﴾ لأنه يعاقب من يعاقب عن استحقاق بالعدل ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور ﴾.

قوله تعالى: ﴿ كنتم خير أمة ﴾ فإن قال قائل: ما معنى قوله: ﴿ كنتم خير أمة ﴾ ومتى كانوا بتلك الصفة؟ قيل: أراد به: كنتم خير أمة فى اللوح المحفوظ. وقيل: أراد به صرتم خير أمة إذا آمنتم. وقيل: يقال لهم يوم القيامة: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ فالمعروف: ما عرفه الشرع، والمنكر: ما أنكره الشرع. وفى الحديث: «لتأمرون بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو يوشك أن يعمكم الله بعقابه»[1]، وقال ﷺ: «أفضل الشهداء بعد شهداء أحد: رجل قام إلى إمام جائر، فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله عليه»[2]

قوله: ﴿ وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم ﴾ وهذا لاشك فيه. ﴿ منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ لأنه آمن بعضهم، وكفر أكثرهم.

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ١٢١ – ١٢٢ رقم ٤٣٣٦، ٤٣٣٧)، والترمذى (٥/ ٢٣٥ رقم ٣٠٤٧)، وابن ماجة (٢/ ١٣٢٨ رقم ٤٠٠٦)، وأحمد (١/ ٣٩١) والطبرانى فى الكبير (١٠/ ١٤٥ – ١٤٦ رقم ١٠٢٦٤، ١٠٢٦٨)، والبيهقى فى الكبرى (١٠/ ٩٣) كلهم من حديث ابن مسعود، بعضهم اختصره، وبعضهم ذكره بطوله، وقد اختلف فى أسانيده انظر علل الدارقطنى (٥/ ٢٨٥ – ٢٨٨ رقم ٨٨٩) والسلسلة الضعيفة رقم (١١٠٤).

(٢) سبق تخريجه فى أول هذه السورة.

لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾ يعنى: لايضرونكم بأكثر من أذى وهو إضرار يسير، وأذى توقيعه باللسان.

﴿ وإن يقاتلونكم يولوكم الأدبار ثم لاينصرون ﴾ أى: يهزمون وتكون النصرة لكم عليهم.

قوله تعالى: ﴿ ضربت عليهم الذلة ﴾ يعنى: ذل الكفر: بالقتل، والسبى، والاغتنام ﴿ أين ما ثقفوا ﴾ أى: وجدوا.

﴿ إلا بحبل من الله ﴾ يعنى: عهد الذمة ﴿ وحبل من الناس ﴾ وهو عهد الأمان، يعنى: أنهم يقتلون، ويؤسرون، إلا أن تكون لهم ذمة أو أمان.

﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾ رجعوا واحتملوا غضب الله، (وقيل: لزمهم غضب الله)[1] من قولهم تبوأ مكان كذا أى: لزمه ﴿ وضربت عليهم المسكنة ﴾ أى: ذل الكفر، بزى الفقر، وذلك على اليهود، حتى لايرى يهودى إلا على زى الفقر، وإن كان غنيا ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾.

﴿ ليسوا سواء ﴾ يعنى: (المؤمنين والكافرين)[2] ليسوا سواء، وهذا وقف تام، ثم ابتداء ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ أى: عادلة، وقيل: قائمة: مستقيمة على الحق، وقيل: الأمة: الطريقة المستقيمة، وهى طريقة الحق، وتقديره: من أهل الكتاب ذو أمة قائمة، ومنه قول النابغة:

أَكَلَّفْتَنِى ذنبَ امرئٍ وتركتَهُ[3] وهلْ يأثَمَنْ ذو أمةٍ وهوَ طائعُ

---

(١) ليست فى «ك». (٢) فى «ك»: الكافرين والمؤمنين.

(٣) كذا جاء الشطر من البيت فى «الأصل»، و«ك»، وفى لسان العرب (مادة: أمم):
حَلَفْتُ! فلم أترك لنفسك ريبةً

أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ

أى: ذو دين وطريقة. ﴿ يتلون آيات الله آناء الليل ﴾: ساعات الليل، واحدها: إنًا، وأنًا ﴿ وهم يسجدون ﴾ قال ابن مسعود: يعنى: يصلون صلاة العتمة، وقيل: أراد به الصلاة ما بين المغرب العشاء وهو فى آناء الليل.

﴿ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ وصفهم الله تعالى وشكرهم ﴿ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ﴾ أى يجازون عليه. والله تعالى إذا جازى العبد على صنيعه، فقد شكره ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ﴾ أى: لا تدفع أموالهم بالفدية، ولا أولادهم بالنصرة من عذاب الله؛ وذلك أن الإنسان يدفع عن نفسه بفداء المال، وتارة بالاستعانة بالأولاد ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾.

(قوله)[1]: ﴿ مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر ﴾ الصرُّ فى الريح: البرد، وقول الشاعر:

أَوْقِدْ فإنَّ الليلَ ليلٌ قرٌّ	والرِّيحُ يا واقِدُ ريحٌ صِرٌّ
عَسَى [ما][2] نرى نارًا لمن يمرّ	إنْ جَلَبتْ ضيفًا فأنت حرٌّ

﴿ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ﴾ شبه إنفاقهم بزرع اجتاحته جائحة أو أصابته ريح باردة فأهلكته.

واختلفوا فى تلك النفقة: قال بعضهم: أراد به: إنفاق أبى سفيان يوم بدر وأحد على المشركين فى قتال المسلمين، وقيل: أراد به: إنفاق المرء الذى ينفق ماله رياء

---

(١) ليست فى «ك».

(٢) ليست فى الأصل.

أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ

وسمعة، لايبتغى وجه الله ﴿ وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾.

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم ﴾ أى: خواص من غير أهل ملتكم، وبطانة الرجل: خاصته، والذين يستنبطون أمره، ومنه: البطانة فى الثوب؛ لأنه يلى البطن والباطن، وهذا فى النهى عن موالاة الكفار ﴿ لايألونكم خبالا ﴾ أى: يقصرون فى (أمركم)[1]، فيفسدون عليكم أمركم، والخبال: الفساد ﴿ ودوا ما عنتم ﴾ أى: يودون ما يشق عليكم، والعَنَت: المشقة، ومنه الأَكَمه العنوت وهى الشاقة الصعود، قال السدى: أراد به: أنهم يوَدُّون ردَّكم إلى الكفر والضلالة.

﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم ﴾ يعنى: الوقيعة باللسان، ﴿ وما تخفى صدورهم أكبر ﴾ (يعنى: الذى فى صدورهم)[2] من الغيظ أعظم من الوقيعة باللسان ﴿ قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ها أنتم أولاء ﴾ يعنى: أنتم ياهؤلاء، ﴿ تحبونهم ﴾ أى: تحبون إيمانهم، ﴿ ولايحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا ﴾ يعنى: باللسان.

﴿ وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ﴾ وهو عبارة عن شدة الغيظ ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إن تمسسكم حسنة ﴾ أى: خصب ونصرة ﴿ تسؤهم ﴾ ﴿ وإن تصبكم سيئة ﴾ أى: قحط وبلاء ﴿ يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا ﴾ يعنى: على

---

(١) فى «ك»: أموركم.

(٢) ليست فى «ك».

كُلِّه وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ

الشدة والبلاء ﴿لايضركم كيدهم شيئا﴾ ويقرأ «لايَضِرْكُمْ» بكسر الضاد مخففا(١)، والمعنى واحد ﴿إن الله بما يعملون محيط﴾.

قوله تعالى: ﴿وإذ غدوت من أهلك﴾ يعني: واذكر إذ غدوت، ومعناه: خرجت غدوة من أهلك)(٢)، أى: من بيت عائشة ﴿تبوئ المؤمنين﴾ أى: تنزل المؤمنين ﴿مقاعد للقتال﴾ يعني: تنزلهم في مواضع القتال ومراكزه، يقال: بوأ فلانا مكان كذا، إذا أنزله فيه، قال ابن عباس: كان النبي ﷺ يسمى لكل واحد من المسلمين مكانا من [القتال](٣)، ويقيمه».

وهذا كان في حرب أحد، وهذه الآية إلى قريب من آخر السورة في حرب أحد ﴿والله سميع عليم﴾ أى: سميع بما قاله المنافقون، عليم بما أضمروا؛ فيكون على وجه التهديد، وقيل: معناه: ﴿والله سميع﴾ بما قاله المؤمنون، عليم بما أضمروا؛ فيكون على وجه المدح.

قوله تعالى: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ يعنى: أرادت، وقصدت، والهمُّ: القصد، وأما الطائفتان، فقد صح عن جابر أنه قال: أراد به: بني سلمة، وبني حارثة. والقصة في ذلك:ما روى «أن رسول الله ﷺ شاور أصحابه في الخروج إلى حرب أحد، فأشار بعضهم بالخروج، وبعضهم بالمكث بالمدينة، فاختار الخروج، وكان جيش المسلمين ألفا، فانخذل عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الجيش فهمت هاتان

---

(١) قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، وحمزة، والكسائي، وعاصم بضم الضاد، ورفع الراء وتشديدها، وقرأ الباقون بكسرالضاد، وجزم الراء المخففة.

انظر النشر (٢/٢٤٢).

(٢) في «ك» خرجت من غدوة أهلك.

(٣) في «الأصل»، و«ك»: القتل.

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ

الطائفتان بنو سلمة وبنو حارثة أن يرجعوا[1] معهم، فثبتهما الله تعالى على المضى معه، فلم يرجعوا»[2]، فهذا معنى قوله: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ أى: أن تضعفا: وتجبنا ﴿والله وليهما﴾ أى: ناصرهما ومثبتهما على الحرب.

قال جابر: ماوددنا أن تفشلا، وقال الله: ﴿والله وليهما[3] وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

قوله تعالى: ﴿ولقد نصركم الله ببدر﴾ يذكر عليهم منته بالنصرة يوم بدر، وهو موضع بين مكة والمدينة، وسمى بدرا باسم الموضع، وقيل: سمى بدرا باسم رجل، وقيل باسم بئر ﴿وأنتم أذلة﴾ أى: قليل العدد؛ لأنهم كانوا يوم بدر ثلثمائة وثلاثة عشر نفرا، قال على: ولم يكن فينا فارس إلا المقداد، وكان منهم سبعة وسبعون من المهاجرين والباقون من الأنصار، وكان صاحب راية المهاجرين أمير المؤمنين على - رضى الله عنه -، وصاحب راية الأنصار قيس بن سعد بن عبادة.

وكان لهم يومئذ قليل سلاح، فمنَّ الله عليهم بالنصرة لهم؛ مع قلة عددهم وعدتهم، ﴿فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾.

قوله تعالى: ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم﴾ قيل: أراد به: فى يوم بدر، وقيل: فى يوم أحد، قال ابن عباس: ما قاتلت الملائكة فى المعركة إلا يوم بدر.

أى: يكفيكم ﴿أن يمدكم ربكم﴾ الإمداد: هو إعانة الجيش بالجيش، ومنه: المدد ﴿بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾.

قوله تعالى: ﴿بلى إن تصبروا﴾ يعنى: بلى وعدكم إنْ تصبروا على لقاء العدو، ﴿وتتقوا﴾ أى: وتحذروا مخالفة الرسول ﴿ويأتوكم من فورهم هذا﴾ قال ابن عباس والحسن وأكثر المفسرين: معناه: ويأتوكم من وجوههم هذا، وقيل: معناه: من غضبهم هذا؛ لأنهم إنما رجعوا للحرب يوم أحد من غضبهم ليوم بدر.

(١) فى «ك»: يرجعا.

(٢) رواه ابن جرير بطوله عن السدى مرسلا.

(٣) ليست فى «ك».

آلاف مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا

﴿ يمددكم ربكم بخمسة آلاف ﴾ لم يرد به خمسة آلاف سوى ما ذكر من ثلاثة آلاف؛ لأنهم أجمعوا على أن عدد الملائكة يومئذ خمسة آلاف، فكأنه جعل ما وعدهم من ثلاثة آلاف خمسة آلاف، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ بالذى خلق الأرض فى يومين ﴾[1]، ثم قال بعده: ﴿ وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام ﴾[2] ولم يرد به أربعة أيام سوى ذلك اليومين؛ لأنه قال بعده: ﴿ فقضاهن سبع سموات فى يومين ﴾[3] وأجمعوا على أن خلق الكل كان فى ستة أيام لا فى ثمانية أيام، بل أراد به أربعة أيام مع ذلك اليومين كذا هذا.

﴿ من الملائكة مسومين ﴾ يقرأ بفتح الواو، والمراد به المُعَلَّمِينَ، ويقرأ: بكسر الواو[4] فيكون فعل التسويم: من الملائكة، والتسويم الإعلام بالعلامة، وهو من السومة، والسماء: وهو العلامة، واختلفوا فى علامة الملائكة يومئذ كيف كانت؟ قال عروة بن الزبير: كانت الملائكة على خيل يُلقْ عليهم عمائم صُفْر.

وقال الحسن: كانت عمائم بيض مرسلة خلف الظهور. وقال مجاهد: كانوا قد أعلموا من الصوف على أذناب الخيل ونواصيها؛ وذلك سنة فى خلق الشجعان، وقد قال ﷺ: « سوموا فإن الملائكة قد سومت ».[5]

قوله تعالى: ﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ﴾ أى: بشارة لكم ﴿ ولتطمئن قلوبكم به ﴾ أى: بوعد النصرة ﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ يعنى: (لا)[6] تختلوا بالنصر عن الملائكة والجند، واعرفوا [أن][7] النصر من عند الله.

(١) فصلت: ٩.

(٢) فصلت: ١٠

(٣) فصلت: ١٢

(٤) قرأ ابن كثير، وعاصم، ويعقوب، وأبو عمرو بكسر الواو، وقرأالباقون بفتحها.

(٥) رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه (١٢ / ٢٦١ رقم ١٢٧٦٨، ١٤ / ٣٥٨ رقم ١٨٥١٥)، وسعيد بن منصور فى سننه (٢٨٦١)، وابن جرير فى تفسيره (٤ / ٥٤) جميعهم عن عمير بن إسحاق مرسلا.

(٦) ليست فى «ك».

(٧) ليست فى «الأصل» ولا «ك».

خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ

﴿ليقطع طرفا من الذين كفروا﴾ أى: قطعة منهم، ومنه أطراف الإنسان؛ لأنها قطع النفس، ثم من حمل الآية على حرب بدر، فقد كان ذلك القطع منهم يوم بدر؛ فإنه قتل منهم سبعون وأسر سبعون؛ أكثرهم رؤساؤهم، ومن حمل الآية على حرب أحد، فقد قتل منهم ستة عشر فيهم أصحاب الرايات، فكانت النصرة للمسلمين مالم يخالفوا أمر رسول الله، فلما خالفوا أمره ذهبت النصرة عنهم.

قوله: ﴿أو يكبتهم﴾ قال أبو عبيدة: أى: يهلكهم، وقيل: معناه: يخزيهم، وهو أصح، وقيل: معناه: أو يصرعنهم، والكب والكبت: الصرع على الوجه، وفيه قول رابع: يكبتهم بمعنى: يكبدهم، وذلك أن يحزنهم حتى وصل الحزن إلى أكبادهم؛ والعرب تسمى الحزين: أسود الكبد من تأثير الحزن فيه [ومنه](١) قول الشاعر:

الأعداءُ والأَكْبادُ سودُ

﴿فينقلبوا خائبين﴾ أى: لايدركون ما أمَّلوا، يقال: رجع فلان من الغيبة بالخيبة، إذا لم يدرك أمله.

قوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ روى الزهرى، عن سالم، عن أبيه عبد الله بن عمر: «أن رسول الله ﷺ كان يلعن فى القنوت قوما من المشركين مدة؛ فنزل قوله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ فترك اللعن فى القنوت»(٢)، وروى أنس «أنه ﷺ شُجَّ رأسه يوم أحد، وكُسرَت رباعيته، وأُدْمِىَ وجهه، وكان يأخذ الدم بكَفِّه ويقول: كيف يفلح قوم خضَّبوا وجه نبيِّهم؟! فنزل قوله: ﴿ليس لك من الأمر

---

(١) ليست فى «الأصل» ولا «ك».

(٢) رواه البخارى فى صحيحه (٧/ ٤٢٢ – ٤٢٣رقم ٤٠٦٩ وأطرافه فى٤٠٧٠، ٤٥٥٩، ٧٣٤٦). والترمذى (٥/ ٢١٢ رقم ٣٠٠٤، ٣٠٠٥)، والنسائى (٢/ ٢٠٣ رقم ١٠٧٨) وفى الكبرى (٦/ ٣١٤ رقم ١١٠٧٥، ١١٠٧٦)، وأحمد (٢/ ٩٣، ١٠٤، ١١٨، ١٤٧)، وابن خزيمة فى صحيحه (١/ ٣١٥ رقم ٦٢٢، ٦٢٣) وابن حبان – الإحسان – (٥/ ٣٢٥ – ٣٢٧ رقم ١٩٨٧، ١٩٨٨)

مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّار

شيء(١) ﴾»(٢) وقيل: أراد رسول الله ﷺ أن يدعوا عليهم بدعاء الاستئصال؛ فنزل قوله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ وذلك أنه تعالى علم أن فيهم من يسلم [أو يتوب](٣) ﴿أويتوب عليهم أو يعذبهم﴾ إنما نصبه على نصب قوله: ﴿ليقطع طرفا﴾ ومعناه: ليس لك من الأمر شيء؛ فإن تبتُ عليهم، أو عذَّبتُهم، فأمرك متابع لأمرى، أى: إن تبتُ عليهم، فبرحمتى، وإن عذَّبتُهم، فبظلمهم.

فإن قال قائل: أى اتصال لقوله: ﴿أو يتوب عليهم﴾ بقوله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾؟ قيل: معناه: ليس لك من الأمر شيء، حتى يتوب عليهم، أو إلى أن يتوب عليهم، ومثله قول امرئ القيس:

فقلتُ لهَا لاتَبْكِ عَينُكِ إنَّما ... نحاولُ مُلْكًا أو نموتَ فَنُعْذَرَا

أى: حتى نموت، فنعذرا، ويحتمل أنه على نسق قوله: ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ليس لك من الأمر شيء.

والأمر أمرى فى ذلك كله.

قوله تعالى: ﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافا مضاعفة﴾ قد ذكر الربا فى سورة البقرة، وأعاد ذكره هاهنا تأكيدا، والأضعاف المضاعفة: هو ما كانوا يفعلونه من تبعيد الأجل بزيادة الدين.

﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ أى: كونوا على رجاء الفلاح، يعنى: من ترك الربا

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه (١٢/ ٢٠٧رقم١٧٩١)، والبخارى تعليقا (٧/ ١٤٢٢)، والترمذى فى سننه (٥/ ٢١١-٢١٢ رقم ٣٠٠٢،٣٠٠٣)، وقال: حسن صحيح، والنسائى فى الكبرى كتاب التفسير (٦/ ٣١٤ رقم ١١٠٧٥، ١١٧٠٦)، وابن ماجة (٢/ ١٣٣٦ رقم ٤٠٢٧).

(٢) فى «ك» زيادة مقحمة؛ وهى: «وذلك أنه تعالى علم أن فيهم ولعله انتقال نظر من الناسخ لما سيأتى.

(٣) من «ك».

وفيه الفلاح، وفى إعطاء الربا الهلاك .

وعن ابن مسعود - رضى الله (عنه)(١) -: «ما هلك قوم إلا وقد فشا فيهم الربا والزنا»، [و](٢)عنه أيضا: «[كثير](٣) الربا إلى قلة».

قوله تعالى : ﴿ واتقوا النار التى أعدت للكافرين ﴾ وهى معدة للكافرين؛ فإنها دار الخلود لهم ﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾ أى: كونوا على رجاء الرحمة.

قوله تعالى :﴿ وسارعوا إلى مغفرة ﴾ أى: بادروا إلى مغفرة ﴿ من ربكم ﴾، قال ابن عباس: معناه: بادروا إلى التوبة التى هى سبب المغفرة. وقيل: أراد به: سؤال المغفرة. وفيه قول غريب أنه التكبيرة الأولى.

﴿ وجنة عرضها السموات والأرض ﴾ أى: سعتها كسعة السموات والأرض.

[وفى الخبر: «أن النبى ﷺ : سئل إذا كانت الجنة عرضها السموات والأرض](٤) فأين النار؟ قال - عليه الصلاة والسلام: فإذا جاء الليل، فأين يذهب النهار؟ [وإذ](٥) جاء النهار فأين يذهب الليل؟»(٦) ومعناه - والله أعلم - أنه حيث يشاء الله.

فإن قيل: قد قال الله تعالى : ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾(٧)، وأراد بالذى وَعَدَنَا الجنة، فإذا كانت فى السماء، فكيف يكون عرضها السموات والأرض؟ قيل: إن باب الجنة فى السماء وعرضها السموات و الأرض كما أخبر.

---

(١) فى «ك». عنهما، وهو خطأ.

(٢) من «ك».

(٣) فى «الأصل وك»: كثر.

(٤) ليست فى «ك».

(٥) فى «ك»: فإذا، وهو خطأ.

(٦) رواه البزار - كما فى مختصر الزوائد (٢/ ٧٦رقم ١٤٥٢)، والحاكم فى المستدرك (١/ ٣٦) من حديث أبى هريرة مرفوعًا، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين وابن حبان فى صحيحه - الإحسان (١/ ٣٠٦ - ٣٠٧ رقم ١٠٣) وقال الهيثمى فى المجتمع (٦/ ٣٣٠): رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح.

(٧) الذاريات: ٢٢.

مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ

وقيل: أراد به فى القيامة، فإن الله يزيد فيها، فيصير عرضها السموات والأرض إذا (وصلت السموات والأرض)[1] بعضها ببعض، وأما طولها [فلا يعلمه][2] إلا الله.

﴿أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء﴾ أى: فى (اليسر والعسر)[3] ﴿والكاظمين الغيظ﴾ كَظْمُ الغيظ: هو أن يمتلىء غيظا؛ فيمنع نفوذه، من قولهم: كَظَمَ البعيرُ بُجِرَّتَه[4] إذا ردها إلى جوفه، وفى الخبر: «من امتلأ غيظا، وكظمه خيَّره الله فى الحور العين»[5].

﴿والعافين عن الناس﴾ قيل: عن المماليك سوء الأدب، وقيل: على العموم عن كافة الناس، ﴿والله يحب المحسنين﴾.

قوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم﴾ مادون الزنا من القبلة، والمعانقة، واللمس، والضم، ونحوه ﴿ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ سبب نزول الآية ما روى: أن رجلا بالمدينة - يقال له: نبهان - كان تمَّارا فجاءته امرأة تشترى منه التمر، فأعجبه جمالها فقَبَّلَها، فذكر الله، وندم واستغفر؛ فنزلت الآية.

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله﴾ أى: ذكروا وعيد الله ﴿فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا﴾ الإصرار هو المقام على المعصية من غير توبة، فقوله: ﴿ولم يصروا﴾ أى: ولم يقيموا، ولم يمضوا ﴿على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ أن الله لايتعاظمه العفو عن الذنب، وإن كثر

---

(١) فى «ك»: إذا وصلت السماء بعضها ببعض. (٢) فى «الأصل»: فلا يعلم.

(٣) فى «ك»: العسر واليسر. (٤) فى «الأصل»: يجدته، وفى «ك»: لجدته.

(٥) رواه أبو داود (٤/٢٤٨ رقم ٤٧٧٧)، والترمذى (٤/٥٦٥ - ٥٦٦ رقم ٢٤٩٣) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (٢/١٤٠٠ رقم ٤١٨٦)، وأحمد (٣/٤٣٨، ٤٤٠)، والطبرانى فى الكبير (٢٠/١٨٨ - ١٨٩ رقم ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧) وفى الأوسط - كما فى مجمع البحرين (٤/١٥٩ - ١٦٠ رقم ٢٢٥٥)، وفى الصغير (٢/٢٥٠ رقم ١١١٢)، وأبو نعيم فى الحلية (٨/٤٧،٥٥)، والبيهقى فى الكبرى (٨/١٦١) كلهم من حديث معاذ بن أنس بمعناه.

الذنب، وقد روى عن معبد بن صبيحة أنه قال: صليت خلف عثمان، فلما انصرف من صلاته قال: إن الله تعالى يقول: ﴿ولم يصروا على ما فعلوا﴾ وأنا قد صليت من غير طهارة ناسيا، وها أنا أتوضأ، فذهب (وتوضأ)[1] وأعاد الصلاة.

﴿أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾ ذكر فى هذه الآية جزاء الذاكرين، والمستغفرين، وقد ورد فى الاستغفار أخبار: منها ما روى مرفوعا: «ما أصر من استغفر، وإن عاد فى اليوم سبعين مرة»[2].

وروى أسماء بن الحكم الفزارى عن علىّ أنه قال: إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثا، ينفعنى الله به ما شاء، وإذا سمعت من غيره (حلَّفته)[3] عليه، فإذا حلف صدقته وحدثنى أبو بكر - وهو صادق -: أن رسول الله ﷺ قال «ما من عبد يذنب ذنبا، فتوضأ، وصلى ركعتين واستغفر (الله)[4] إلا غفر الله له»[5].

واعلم أن الاستغفار تسهيل للأمر على هذه الأمة، فإن الذين قبلنا كان الواحد منهم إذا أذنب ذنبا يظهر على بابه (أن اقطع)[6] من نفسك عضو كذا، وكان لابد له منه، وقد أخرج الله - تعالى - هذه الأمة عن الذنوب بالاستغفار؛ كرامة لهم؛ وتيسيرا عليهم.

---

(١) فى «ك» القضاء، وهو تحريف.

(٢) رواه أبو داود (٢/٨٤ رقم ١٥١٤)، والترمذى (٥/٥٢١ رقم ٣٥٥٩) وقال: غريب؛ إنما نعرفه من حديث أبى نصيرة وليس إسناده بالقوى، والبزار فى مسنده (١/٢٠٥ رقم ٩٣)، وأبو يعلى فى مسنده (١/١٢٤-١٢٥ رقم ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩) والطبرى فى التفسير (٤/٦٤)، وابن أبى حاتم فى تفسير «آل عمران» (١/٥٥٤ - ٥٥٥) كلهم من حديث أبى بكر الصديق - رضى الله عنه -.

(٣) فى «ك»: فلقيه. وهو تحريف واضح.

(٤) لفظ الجلالة ليس فى «ك».

(٥) رواه أبو داود (٢/٨٦ رقم ١٥٢١) والترمذى (٢/٢٥٧ - ٢٥٨ رقم ٤٠٦، ٥/٢١٢ - ٢١٣ رقم ٣٠٠٦) وقال: حسن والنسائى فى الكبرى (٦/١٠٩-١١٠ رقم ١٠٢٤٧، ١٠٢٥٠)، و(٦/٣١٥ رقم ١١٠٧٨)، وابن ماجة (١/٤٤٦ رقم ١٣٩٦) وأحمد (١/٢، ٨-٩، ١٠) وابن أبى شيبة (٢/٣٨٧-٣٨٨)، والطيالسى (ص٢رقم١) والبزار (١/٦١-٦٤ رقم ٨-١١)، وأبو يعلى فى مسنده (١/١١ رقم ٢) و(١/٢٣-٢٦ رقم ١١ - ١٥) والطبرى فى التفسير (٤/٦٣)، وابن حبان (٢/٣٨٩ - ٣٩٠ رقم ٦٢٣).

(٦) فى «ك»: فإذا قطع.

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى

وسئل ابن المعتز: إذا كان الله – تعالى – واسع المغفرة، وسعتْ رحمتُه كلَّ شيء فما يمنعُهُ أن يرحم الكافر؟ فقال: إنَّ رَحْمَتَه لا تَغْلبُ حكمته. قوله تعالى: ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ قرأ ابن مسعود: «قد مضت»، وهو بمعنى خلت. السنة: هى الطريقة المتبعة فى الخير والشر.

وقد قال ﷺ فى المجوس: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»[1] وكانت شرا لهم.

وقال الشاعر:

وإنَّ الآلى بالطَّفِّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... تَأَسَّوْا فَسَنُّوا لِلْكِـرامِ التَأَسِّيَا

قال ابن عباس: سنن [الذين][2] من قبلكم، وهى وقائع الله على الكفار. وقال غيره: هى الأعلام والآثار التى كانت. وحقيقة المعنى: أنها طرائق الله فى الكفار، وبقتلهم، وسَبْيِهم وتخريب ديارهم، ونحوه، قال الزجاج: ﴿ قد خلت من قبلكم[3] سنن ﴾ أى: أهل سنن. ﴿ فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ قال الشعبى: بيان من العَمَى، و هدى من الضلالة، وموعظة من الجهل؛ فالبيان: هو إظهار معنى الكلام، والموعظة: هى الدعاء إلى الحق بالترغيب والترهيب.

قوله تعالى: ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا ﴾ أى: ولا تضعفوا، ولا تجبنوا، ولا تحزنوا، ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ أى: تكون لكم العاقبة والنُّصْرَة.

وقيل: إنما قال ﴿ وأنتم الأعلون ﴾؛ لأن المسلمين كانوا على الجبل، والمشركين فى

---

(١) رواه مالك فى الموطأ (١/٢٧٨)، والشافعى فى مسنده (ترتيب المسند ٢/١٣٠رقم ٤٣٠)، وعبد الرزاق فى مصنفه (٦/٦٨-٦٩ رقم ١٠٠٢٥)، وابن أبى شيبة (٣/٢٢٤)، و(١٢/٢٤٣)، وأبو عبيد فى الأموال (ص٤٠ رقم ٧٨)، وأبو يعلى (٢/١٦٨ رقم ٨٦٢)، والبزار (٣/٢٦٤ - ٢٦٥ رقم ١٠٥٦) والدارقطنى فى العلل (٤/٣٠٠ رقم ٥٧٨)، والبيهقى فى سننه (٩/١٨٩-١٩٠) كلهم من حديث عبد الرحمن بن عوف – رضى الله عنه – مرفوعا.

(٢) من «ك». (٣) فى «ك»: قبلهم.

وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ

أسفل الجبل، وقوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أى: لاتهنوا إن كنتم مؤمنين؛ لأن الإيمان يزيد القوة فلا يُورث الوَهَن.

قوله - تعالى -: ﴿إن يمسسكم قرح﴾ تقرأ: بفتح القاف، وضمها[1]، وقال الفراء: القَرْحُ - بالفتح -: الجِرَاحة، والقُرْح: الألم، وقال الكسائى: هما عبارتان عن معنى واحد. والأكثرون على القول الأول، وقوله: ﴿إن يمسسكم قرح﴾ خطاب للمسلمين فيما مسَّهم يوم أحد ﴿فقد مس القوم قرح مثله﴾ أى: مسَّ الكفار يوم بدر(قَرْحَ)[2] مثل ما مسَّكم يوم أحد.

﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ فتارة تكون الدولة للمسلمين على الكفار، وتارة للكفار على المسلمين، قال الزجاج: الدولة تكون للمسلمين على الكفار، وقد كانت الدولة للكفار على المسلمين؛ لما خالفوا أمر الرسول، فإن لم يخالفوا أمره كانت الدولة للمسلمين أبدا؛ لقوله تعالى: ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾[3]؛ وقوله تعالى: ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾[4].

﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ قرأ ابن مسعود: «وليبلى الله الذين آمنوا»، والقراءة المعروفة: ﴿وليعلم﴾، فإن قال قائل: ما معنى قوله: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾، وهو عالم بهم أبدا؟ قيل: معناه: وليعلم الصابرين على الجهاد فى مواطن الجهاد ليعاملهم معاملة من يبتليهم؛ فيعلمهم، والعلم بالجهاد فى مواطن الجهاد إنما يقع بعد وقوع الجهاد، وقيل: العلم الأول: علم الغيب، وقوله: ﴿وليعلم﴾ يعنى: علم المشاهدة، والوقوع والمجازاة على علم الوقوع لا على علم الغيب.

﴿ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين﴾ يعنى: أنه ماجعل اليد للكفار يوم أحد لحبه إياهم؛ ولكن ليبتليكم، ويجعلكم شهداء.

---

(١) قرأ حمزة، والكسائى، وخلف، وأبو بكر بضم القاف، وقرأ الباقون بفتحها.

(٢) ليست فى «ك».

(٣) الصافات: ١٧٣

(٤) المائدة: ٥٦.

الَّذين آمَنُوا ويَتَّخذَ منكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحبُّ الظَّالمينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذين آمَنُوا ويَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ولَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذين جَاهَدُوا

قوله تعالى: ﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ﴾ وكل هذا على نسق قوله: ﴿ ليقطع طرفا ﴾[١] (وكذلك)[٢] قوله: ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ وأما التمحيص: قيل: هو [التخليص][٣] وهو قول الحسن، وقال مجاهد: هو بمعنى: الابتلاء، وحقيقة معنى التمحيص: التطهير من الذنوب، تقول العرب: محص عنا ذنوبنا أى: طهرنا من الذنوب.

﴿ ويمحق الكافرين ﴾ [معنى][٤] الآية: أنهم إن قتلوكم؛ فذلك تطهير لكم، وإن قتلتموهم فذلك محق لهم واستئصال.

قوله تعالى: ﴿ أم حسبتم ﴾ أى: [أحسبتم][٥] ﴿ أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴾ أى: ولم يعلم الله الذين وقع منهم الجهاد، ﴿ ويعلم الصابرين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت ﴾ سبب نزول الآية أن الذين تخلفوا من حرب بدر من المسلمين قالوا لما انقضت حرب بدر: لو كان لنا يوم مثله فنقاتل ونقتل ونستشهد، فلما كان يوم أحد انهزموا، وهربوا؛ فنزلت الآية.

﴿ ولقد كنتم تمنون الموت ﴾ أى: سبب الموت وهو الجهاد؛ إذ لايجوز أن يتمنى الموت بقتل الكافر إياه ﴿ من قبل أن تلقوه ﴾ أى: تلقون سببه من الجهاد ﴿ فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾، فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿ وأنتم تنظرون ﴾، وقد قال: ﴿ فقد رأيتموه ﴾؟ (قيل):[٦] يحتمل [أن تكون][٧] الرؤية بمعنى العلم؛ فقال:

(١) آل عمران: ١٢٧.
(٢) ليست فى «ك».
(٣) فى «الأصل وك»: التلخيص.
(٤) ليست فى «الأصل»، ولا «ك».
(٥) في «الأصل وك»: حسبتم.
(٦) ليست فى «ك».
(٧) ليست فى «الأصل»، ولا «ك».

مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ

﴿ وأنتم تنظرون ﴾ ليُعْلَم أن المراد بالرؤية هاهنا: التفكر، قاله الأخفش، وقيل: إنما قاله تأكيدا، وقيل: معناه: وأنتم تنظرون إلى محمد.

قوله تعالى: ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ سبب نزول الآية أن المسلمين يوم أحد لما وقعت الهزيمة عليهم، ووقع القتل فيهم؛ صاح الشيطان - عليه ما يستحق -: ألا إن محمدا [قد][1] قتل، فقال المسلمون: خذوا لنا الأمان من أبى سفيان، وقال من كان فى قلبه نفاق: ارجعوا إلى دينكم الأول، فإن محمدا قد قتل؛ فنزل قوله: ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ يعنى: هو على رسالته ونبوته مات أو قتل، فلمَ انقلبتم على أعقابكم؟! ﴿ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ﴾ أى: إنما ضر نفسه، ﴿ وسيجزى الله الشاكرين ﴾.

وروى: أن [أنس بن النضر][2] «لما سمع قول الشيطان: إن محمدا قتل، اخترط سيفه وتوجه إلى الكفار، وقال: إن قاتل محمد وقتل، ووصل إلى ما وصل، فأنا أقاتل حتى أقتل، وأصل إلى ما وصل إليه، فقاتل حتى قتل».

وقال كعب بن مالك: أنا أول من رأى رسول الله ﷺ يوم أحد بعد صياح الشيطان، عرفته بعينيه تحت المغفر، فقلت: هذا رسول الله ﷺ حى، فأشار إلىَّ أن اسكت»[3].

(١) من «ك».

(٢) فى «الأصل وك»: النضر بن أنس. وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه، وهو عم أنس بن مالك، انظر ترجمته فى الإصابة (١/ ٨٤).

(٣) ذكره ابن هشام فى سيرته (٣/ ٢٦): قال ابن إسحاق: ذكر لى ابن شهاب الزهرى، يعنى مرسلا.

مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي

قوله تعالى: ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ﴾ تقديره: وما كانت نفس لتموت إلا بإذن الله بقضائه وقدره ﴿ كتابا مؤجلا ﴾ تقديره: كتب كتابا مؤجلا.

﴿ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ﴾فإن قيل: نحن نرى من يريد الدنيا، فلا يؤتى؟ قيل: معناه: لايمنع عنه ما قدر له من ثواب الدنيا بسبب كفره.

﴿ ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ﴾ فإن قيل: وهل يؤتى ثواب الآخرة بمجرد الإرادة؟ قيل معناه: ومن يرد بالعمل، وهذا كما يقال: فلان يريد الجنة، أى: يعمل للجنة ﴿ وسنجزى الشاكرين ﴾ يعنى: المؤمنين، قال علىّ - رضى الله عنه -: أبو بكر إمام الشاكرين. أى: إمام المؤمنين، رضى الله عنه.

قوله تعالى: ﴿ وكأين من نبى [قاتل](1) معه ربيون كثير ﴾ أى: وكم من نبى قُتِلَ قال جرير:

وكأين بالأباطح من صديق يرانى إن أصبت هو المصابا

قال عكرمة: هذا وقف تام، ومعناه: كم نبى قُتِلَ ومعه أصحابه.

﴿ فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ﴾ أى: ما جبنوا ﴿ وما ضعفوا وما استكانوا ﴾ أى: ما ذلوا، وما خضعوا، وقال الحسن: ما قتل نبى فى معركة قط، وإنما معنى الآية: وكأين من نبى قُتِلَ معه ربيون كثير، وأما القراءة الأخرى: «قاتل معه ربيون كثير» فمعناه ظاهر، وأما الربيون قال ابن مسعود: هم ألوف، وقيل: هم عشرة آلاف. قال الحسن: الربيون من العلماء مأخوذ من الرّب؛ لأنهم على دين الرب وطريقه.

قوله تعالى: ﴿ والله يحب الصابرين وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا ﴾ أى الصغائر ﴿ وإسرافنا فى أمرنا ﴾ أى الكبائر، ﴿ وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾.

(1) فى «الأصل وك»: قتل، وهى قراءة نافع، وابن كثير، ويعقوب، وأبو عمرو. انظر النشر (٢ / ٢٤٢).

أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا

قوله تعالى: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا﴾ يعنى (النصرة)[1] والغنيمة.

﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ قال ابن عباس: هو أن الله ينزل النبى وأصحابه فى قباب من در وياقوت حتى يفصل بين الخلق، وقيل: حسن ثواب الآخرة: أن يجازيهم على عملهم ويزيدهم من فضله ﴿والله يحب المحسنين﴾.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا﴾ يعنى: اليهود والنصارى ﴿يردوكم على أعقابكم﴾ يعنى: إلى اليهودية والنصرانية.

وقيل: أراد به المنافقين الذين قالوا يوم أحد: ارجعوا إلى دينكم الأول؛ فإن محمدا قد قتل، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾ أى: مغبونين. ﴿بل الله مولاكم وهو خير الناصرين﴾.

قوله تعالى: ﴿سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب﴾ يعنى: الخوف، قال ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»[2] ﴿بما أشركوا بالله﴾ أى: بشركهم بالله ﴿ما لم ينزل به سلطانا﴾ أى: الذى لم يُنَزِّل به حجة، والسلطان: الحُجَّة، قال الله تعالى ﴿هلك عنى سلطانيه﴾[3] أى: حجتى.

﴿ومأواهم النار﴾ مكانهم النار ﴿وبئس مثوى الظالمين﴾ سبب نزول الآية: أن الهزيمة لما وقعت على المسلمين يوم أحد، ووقع القتل فيهم، تشاور المشركون فيما بينهم، وأجمعوا على أن يعودوا للقتال، فيستأصلوا محمدا وأصحابه فألقى الله تعالى الرعب فى قلوبهم، فمروا على وجوههم لايلوون على شىء حتى بلغوا مكة، فذلك قوله تعالى: ﴿سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب﴾.

---

(١) فى «ك»: النصر.

(٢) متفق عليه من حديث جابر، رواه البخارى فى صحيحه (١/٥١٩ رقم ٣٣٥)، ومسلم (٥/٥ رقم ٥٢١).

(٣) الحاقة: ٢٩

وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ

قوله تعالى: ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ أى: وعده صدقكم بالظفر والنصرة؛ وقد كانت النصرة فى الابتداء للمسلمين يوم أحد ﴿إذ تحسونهم بإذنه﴾ أى: تقتلونهم بقضاء الله وقدره، والحَسُّ: القتل، ومنه قول الشاعر:

تَحُسُّهُمُ السُّيوفُ كَمَا تَسَامَى ... لهيبُ النارِ فِى أَجَمِ الحَصِيدِ

﴿حتى إذا فشلتم﴾ أى: جَبُنتم، ﴿وتنازعتم فى الأمر﴾ تقديره: حتى إذا فشلتم، تنازعتم فى الأمر، و«الواو» زائدة قاله الفراء، وقيل: فيه تقديم وتأخير وتقديره: حتى إذا تنازعتم فى الأمر، فشلتم ﴿وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون﴾ يعنى: من الظفر والغنيمة.

﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾؛ لأنهم اختلفوا على ما سنذكر ﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ أى: [كف][1] أيديكم عنهم؛ ليمتحنكم، وقيل: لينزل البلاء عليكم، ﴿ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾، والقصة فى ذلك: «أن رسول الله ﷺ رأى فى منامه: أنه لبس درعا حصينة حين نزل المشركون بأحد؛ فأولها على المدينة، وشاور أصحابه فى الخروج إلى أحد، فقالوا: إن هذه بلدة ما دخل علينا فيها أحد، ولا تبع حتى قدم وحتى يخرج إليهم، فلبس رسول الله درعين، ووضع المغفر على رأسه، وخرج؛ فندموا وعلموا أنه كان مراده أن يقيم، فقالوا: يارسول الله، (إنا)[2] تبع لرأيك، وطلبوا منه أن يرجع إن شاء، فقال: ما كان لنبى إذا لبس لامته أن ينزعها حتى يقاتل، أو يحكم الله.

ومضى معه ألف نفر، فانخذل عبد الله بن أبى بن سلول [وأصحابه][3] بثلث الجيش ثلثمائة نفر، وبقى سبعمائة، فلما وصل إلى أحد بعث قوما من الرماة، وأجلسهم على موضع من جبل يخاف منه الكمين، وأمر عليهم عبد الله بن جبير الأنصارى.

---

(١) فى «الأصل وك»: كَيَّف.

(٢) ليست فى «ك».

(٣) من «ك».

الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ

ثم ابتدأ القتال مع المشركين، فظفر عليهم، وقتل جماعة من رؤسائهم، وانهزموا، ولاح الظفر للمسلمين، وساروا فى أثرهم للغنيمة، فلما رآه الرماة، فقالوا: إن المشركين قد انهزموا، ولاح الظفر حتى نسير على أثرهم؛ ونغنم، فقال عبد الله بن جبير: لاتفارقوا هذا المكان؛ فإن رسول الله ﷺ أمركم أن تلزموا هذا المكان، فالزموه، فاختلفوا عليه، وذهب أكثرهم، وبقى عبد الله بن جبير مع نفر قليل من أصحابه.

فلما عرى موضع الكمين عن الرماة، خرج عليهم خالد بن الوليد من الكمين، وحمل عليهم بالقتل، فاستشهد عبد الله بن جبير، ومن بقى معه، وعاد المشركون للقتال، ووقع القتل فى المسلمين، وقتل منهم سبعون نفرا، وانهزم الباقون، وبقى مع رسول الله ﷺ نفر قليل،فذلك قوله ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ أى: فى الابتداء بالظفر والنصرة ﴿إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر﴾ يعنى: أولئك الرماة الذين اختلفوا، ﴿وعصيتم﴾ يعنى: عصيتم الرسول، وخالفتم أمره ﴿من بعد ما أراكم﴾ يعنى: من بعد أن أراكم الله تعالى ﴿ما تحبون﴾ من الظفر ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ هم الذين ذهبوا للغنيمة، ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾: الذين صبروا مع عبد الله بن جبير»(1).

قال ابن مسعود: ما علمنا أن أحدا منا يريد الدنيا حتى أنزل الله هذه الآية.

﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ يعنى: فى الوقعة الثانية حين عاد المشركون، وهذا دليل لأهل السنة على: أن أفعال العباد مخلوقة؛ حيث نسب الله تعالى هزيمة المسلمين إلى نفسه مع وقوع الفعل منهم، فقال: ﴿ثم صرفكم عنهم﴾.

قوله تعالى: ﴿إذ تصعدون﴾ ويقرأ: بفتح التاء والعين(2). فالإصعاد: هو المشى فى مستوٍ من الأرض، والصعود: المشى فى مرتفع من الأرض.

---

(1) أورده السيوطى فى الدر مطولا (2/75 - 76) وعزاه لابن إسحاق وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر عن جمع، كل قد حدث ببعض الحديث عن يوم أحد وانظر ابن جرير (4/ 81 - 85).

(2) هى قراءة أبى رجاء العطاردى، وأبى عبد الرحمن السلمى، والحسن، وقتادة بفتح التاء، والعين، يعنى تَصْعَدون الجبل. انظر تفسير القرطبى (4/239).

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

والخطاب مع المسلمين الذين انهزموا، بقوله: ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد﴾ أى: لاتعرجون، ولاتلتفتون إلى أحد، ثم منهم من قال: (أراد بالأحد)[١]: الرسول، ومنهم من قال: معناه: لاتلوون على أحد من الناس.

﴿والرسول يدعوكم فى أخراكم﴾ يعنى: فى آخر الجيش، وكان يدعوهم: «عباد الله، إلىّ إلىّ، أنا رسول الله، فلم يلتفتوا إليه، ومضوا»[٢].

﴿فأثابكم غما بغم﴾ أى: جازاكم، ثم اختلفوا، منهم من قال: الغم الأول: هو القتل، والهزيمة التى وقعت على المسلمين، والغم الثانى: هو الإرجاف من قول الشيطان: إن محمدا قد قتل. وقيل: [إن][٣] الغم الأول: هو القتل والهزيمة، والغم الثانى: هو فوات الظفر على العدو.

وقال الزجاج: معناه: أنهم غموا الرسول بمخالفة أمره؛ فجازاهم الله تعالى بذلك الغم غم القتل والهزيمة؛ وإنما سمَّاه ثوابًا؛ لأنه وضعه موضع الثواب، كما قال: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾[٤] سمى العذاب: بشارة؛ لأنه وضعه موضع البشارة ﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم﴾ من القتل والهزيمة، منعهم الله تعالى من الحزن على شىء ابتلاهم الله به، ووعد الثواب عليه ﴿والله خبير بما تعملون﴾.

قوله تعالى: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة﴾ قيل: الأمن والأمنة[٥] بمعنى

---

(١) فى «ك»: أن الأحد.

(٢) رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١/ ٦١٠رقم ١٦٦٣) عن الحسن مرسلا بنحوه، ورواه ابن جرير (٤/ ٨٧ - ٨٨) عن ابن عباس، وليس فيه «فلم يلتفتوا ومضوا». وعزاه السيوطى فى الدر (٢/ ٩٧) أيضا لابن المنذر عن ابن عباس. ورواه ابن جرير أيضا عن قتادة، وعطية العوفى، والسدى بنحو رواية ابن عباس.

(٣) من «ك».

(٤) آل عمران: ٢١، والتوبة: ٣٤، والإنشقاق: ٢٤.

(٥) وقع سقط كبير من الأصل مقداره (٤ ورقات) من هذا الموضع، واعتمدنا على النسخة «ك» فقط فى ضبط النص. وسننبه على آخر السقط فى موضعه إن شاء الله تعالى.

﴿١٥٣﴾ **ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ**

واحد، وقيل: يكون مع (زوال سبب الخوف)[1]، فأما ها هنا فقال: ﴿أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم﴾ قيل: فيه تقديم وتأخير، وتقديره: نعاسا أمنة، وقيل: هو على نظمه مستقيم، ومعنى الآية: أن الله تعالى أراد تميز المؤمنين من المنافقين، فأوقع النعاس على المؤمنين أمنة لهم، حتى أَمِنُوا، ولم يوقع على المنافقين فبقوا على الخوف.

قال أبو طلحة: أوقع الله تعالى علينا النعاس ونحن تحت الحجر.

وقيل: أوقع النعاس عليهم حتى كان يُسْقط السيوف من أيديهم، وكذلك عبد الرحمن بن عوف والزبير أخبرا عن ذلك النعاس، كما أخبر أبو طلحة.

وعن الزبير أنه قال: لما أوقع الله النعاس علينا، سمعنا معتب بن قشير يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا، وكنت كأنى فى النوم أسمع، فذلك قوله: ﴿يغشى طائفة منكم﴾ يعنى: المؤمنين ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾ يعنى: المنافقين ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء﴾ قال: ﴿قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك﴾.

ثم فسر ذلك فقال: ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾.

أى: خرج الذين كتب عليهم القتل إلى مصارعهم للموت، وفى هذا دليل على أن الأجل فى القتل والموت واحد، كما قال أهل السنة.

قوله تعالى: ﴿وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾.

(١) فى «ك»: سبب زوال الخوف، وما أثبتناه هو الصواب.

اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا

قوله تعالى: ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان﴾. يعني: الذين انهزموا من المسلمين يوم أحد؛ فإنه لما وقعت الهزيمة على المسلمين انهزم أكثرهم، ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا أربعة عشر نفرا: سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار، وقيل: ثلاثة عشر، ستة من المهاجرين وهم أبو بكر، وعمر، وعلى، وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص.

وفى الرواية الأولى: كان السابع الزبير، وكان طلحة أشد نكاية فى الكفار يومئذ.

وقيل: إن يوم أحد لطلحة، وقيل: إنه كان وقاية رسول الله ﷺ وكان قد ضُرِبَ على يده فشُلَّت وبقيت كذلك.

وأما سعد وهو راميه، وكان يرمى بين يديه، ويقول له الرسول: «ارم، فداك أبى وأمى»[(١)]

وأما الذين انهزموا، فقد لحق بعضهم بالمدينة منهم عثمان، ورجع بعضهم على الطريق منهم عمر؛ فذلك قوله: ﴿إنما استزلهم الشيطان﴾ أى: طلب زلتهم، يقال: استعجل فلانا، أى: طلب عجلته، ومعناه: أن الشيطان استزلهم حتى انهزموا.

وقوله ﴿ببعض ما كسبوا﴾ يعنى: من مخالفة الرسول ﴿ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾ قال الزجاج: كان سبب انهزامهم: أن الشيطان وسوس إليهم: إن عليكم ذنوبا؛ فكرهوا القتل قبل أن يتوبوا من الذنوب؛ فذلك قوله: ﴿إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾.

---

(١) متفق عليه من حديث سعد بن أبى وقاص، وعلى بن أبى طالب – رضى الله عنهما –. فرواه البخارى (٦/ ١١٠رقم ٢٩٠٥ وأطرافه فى ٤٠٥٨، ٤٠٥٩، ٦١٨٤)، ومسلم (١٥/ ٢٦١ – ٢٦٢ رقم، ٢٤١١) من حديث على.

وروله البخارى (٧/ ١٠٤ رقم ٣٧٢٥، وأطرافه فى ٤٠٥٥، ٤٠٥٦، ٤٠٥٧)، ومسلم (١٥/ ٢٦٣ رقم ٢٤١٢) من حديث سعد بن أبى وقاص.

اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ

روى: «أن رجلا جاء إلى ابن عمر – وقيل: إلى ابن عباس، [و][(١)] الأصح إلى ابن عباس[(٢)]، وقال: أليس عثمان لم يشهد بدرا؟ قال: نعم. فقال: أليس لم يشهد بيعة الرضوان؟ قال: نعم، قال: أليس انهزم يوم أحد؟ قال: نعم.

فقال الرجل: الله أكبر.

فعرف ابن عباس أنه أراد النقص؛ فدعاه، قال: أما يوم بدر؛ فإن النبى ﷺ كان قد خلفه على ابنته، وكانت مريضة وقال له: لك أجر واحد ممن شهد، وسهم واحد ممن شهد، وهو بدرى بقول الرسول.

وأما بيعة الرضوان، فقد كان الرسول ﷺ بعث عثمان إلى مكة رسولا، ولو كان بينهم فى الوادى أعز منه لبعثه، ولما بايعهم ضرب رسول الله ﷺ بشماله على يمينه، وقال: هذه يد عثمان، وهذه يدى، أما انهزامه يوم أحد، فقد عفا الله عنه، ولاعيب فى شىء عفا الله عنه»[(٣)]

فصل

«وأما ما أصاب رسول الله ﷺ يوم أحد، فإنه كان قد هشمت البيضة التى كانت على رأسه، وأُدْمى وجهه، وكسر [ثنيته][(٤)]؛ فجاء إلى المدينة فكانت فاطمة تغسل وجهه، وعلى – رضى الله عنه – يأتى بالماء فى المجن، وكان يغلب الدم، حتى أحرقت حصيرا، فلما صار رمادا، جعلوه فى الجراحة فاستمسك الدم».[(٥)]

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ﴾ يعنى: المنافقين

(١) ليست فى «ك»، والسياق يقتضيها.

(٢) بل الصحيح أنه جاء إلى ابن عمر كما سيأتى تخريجه عند البخارى فى صحيحه.

(٣) رواه البخارى (٦/ ٢٧١ رقم ٣١٣٠)، والترمذى (٥/ ٥٨٧ – ٥٨٨ رقم ٣٧٠٦) وأحمد (٢/ ١٠١، ١٢٠)، والطيالسى (ص ٢٦٤ رقم ١٩٥٨) كلهم من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

(٤) فى «ك»: جبينه، وهو تصحيف.

(٥) متفق عليه من حديث سهل بن سعد، رواه البخارى فى صحيحه (١/ ٤٢٢رقم ٢٤٣، وأطرافه فى ٢٩٠٣، ٢٩١١، ٤٠٧٥، ٥٧٢٢)، ومسلم (١٢/ ٢٠٥ – ٢٠٧ رقم ١٧٩٠).

اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ

﴿ وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض ﴾ أراد: إخوانهم فى النسب، لا فى الدين ﴿ ضربوا فى الأرض ﴾ أى: سافروا ﴿ أو كانوا غزى ﴾ جمع غاز ﴿ لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ﴾ وهذا قول المعتب بن قشير، وعبد الله بن أبى بن سلول، وجد بن قيس؛ ﴿ ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم ﴾ أى: لئن خرجتم، فقتلتم، أو لم تخرجوا، فمتم ﴿ لمغفرة من الله ورحمة خيرٌ مما يجمعون ﴾ من الدنيا ويطلبون الحياة لأجله.

قوله تعالى: ﴿ ولئن مُتم أو قتُلتم لإلى الله تحشرون ﴾ يعنى: كيفما خرجتم من الدنيا، فحشركم إلى الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ فبما رحمة من الله ﴾ أى: فبرحمة، و«ما» للصلة، ﴿ لنت لهم ﴾ وهذه صفة المؤمنين، وقد قال ﷺ: «المؤمنون هينون لينون، كالجمل الأنف، إن قيد انقاد، وإن أُنِخَّ على صخرة استناخ» (١).

﴿ ولو كنت فظا ﴾ وهو الجافى ﴿ غليظ القلب ﴾ أى: قاسى القلب ﴿ لانفضوا ﴾ لتفرقوا ﴿ من حولك ﴾.

(١) رواه العقيلى فى الضعفاء (٢ / ٢٧٩) والقضاعى فى الشهاب (١ / ١١٤ – ١١٥ رقم ١٣٩) من حديث عبد الله بن عمر. وقد ساقه العقيلى فى ترجمة عبد الله بن عبد العزيز بن أبى رواد عن أبيه، وقال: أحاديثه عن أبيه مناكير غير محفوظة أ.هـ.

ورواه ابن المبارك فى الزهد (ص ١٣٠رقم ٣٨٧) والقضاعى فى الشهاب (١ / رقم ١٤٠) عن مكحول مرسلا.

ورواه أحمد فى الزهد (٣٨٦ – ٣٨٧)، وأبو نعيم فى الحلية (٥ / ١٨٠) عن مكحول قوله.

وللحديث شاهد من حديث العرباض بن سارية، رواه ابن ماجة (١ / ١٦ رقم ٢٤٣)، وأحمد (٤ / ١٢٦) وغيرهما.

عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ

﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ﴾ المشاورة هى استخراج الرأى، وكانت المشاورة جائزة للنبى ﷺ فى أمور الدنيا، فأما فى أمور الدين فعلى التفصيل إن كان فى شيئين يجوز كلاهما، جازت المشاورة، كما شاورهم فى أسارى بدر، حيث كان يجوز القتل والفداء.

والثانى: فى أمور ثبتت نصا، كالصوم والصلاة، لاتجوز فيها المشاورة.

الثالث: فى شيء لانص فيه، فهو بناء على أن اجتهاده هل كان سائغا أم لا؟ فإن ساغ اجتهاده، جازت مشاورته، وإلا فلا.

ولأى كان يشاور؟ قال الضحاك: ليقتدى به، وليستن بسنته، وهو قول سفيان الثورى، وقال قتادة: تطييبًا لقلوبهم.

﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ أى: لا تتوكل على المشاورة، وإنما توكل على الله ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾.

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ﴾ الخذلان: الامتناع عن النصرة عند الحاجة ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وما كان لنبى أن يغل ﴾ يقرأ بقراءتين[1]، فمن قرأه: بفتح الياء وضم الغين، فمعناه: أن يخون.

قال ابن عباس: سبب نزول الآية: أنه يوم بدر فقدت قطيفة حمراء، فقال بعض أصحاب رسول الله ﷺ: الرسول أخذها؛ فنزل قوله: ﴿ وما كان لنبى أن يغل ﴾.

وقال محمد بن كعب القرظى: معناه: وما كان لنبى أن يكتم شيئا من الوحى، ويخون فيه.

وفيه قول ثالث: «أن النبى ﷺ كان قد بعث طلائع، فهمَّ ألا يعطيهم من الغنائم

(١) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم بفتح الياء وضم الغين، وقرأ الباقون بضم الياء، وفتح الغين. انظر النشر (٢/٢٤٣).

﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

شيئا؛ فنزل قوله: ﴿ وما كان لنبى أن يغل ﴾ »(١) قال قتادة: أن يخان منه، أى: لاتخونوه، وقيل معناه: أن ينسب إلى الغلول، وقيل معناه: أن يلقى غلاً، وهذا غريب من معنى القراءة الأولى. والغُلُول: الخيانة، والغِلّ: الحقد، والغَلَل: الماء الذى يجرى بين الشجر، ومنه قول الشاعر:

لَعِبَ [السُّيولُ](٢) به فأصبح ماؤه غَـلَلاً [يخلل](٣) فى أصول الخِرْوَع

وفى الخبر: أن النبى ﷺ قال: « ثلاث لايغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، ونصيحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم »(٤).

﴿ ومن يغلل ﴾ أى: ومن يخن ﴿ يأت بما غل يوم القيامة ﴾ قيل: يأتى ما غل بعينه يوم القيامة، وذلك معنى قوله ﷺ فيما روى عنه: « لألقين أحدكم يوم القيامة، وعلى رقبته فرس له حمحمة قد غله، فيقول: يا محمد، يا محمد، فأقول: لا أغنى عنك من الله شيئًا، ألا قد بلغت، ولألقين أحدكم يأتى يوم القيامة، وعلى رقبته شاة لها ثُغاء، قد غلها، فيقول يا محمد، يا محمد، فأقول: لا أغنى عنك من الله شيئا، ألا قد بلغت، ولألقين أحدكم يوم القيامة وعلى رقبته بعير له رغاءٌ، قد غله، فيقول: يامحمد، يامحمد، فأقول: لاأغنى عنك من الله شيئًا ألا قد بلغت »(٥).

---

(١) رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه (١٢ / ٤١٣ رقم ١٥٠٧٨)، وابن جرير (٤ / ١٠٣) عن الضحاك مرسلا إلا أنه قرأ: « وما كان لنبى أن يغل ».

(٢) فى « الأصل وك »: السيوف، وما أثبتناه من لسان العرب (مادة: غلل) وفيه أيضًا: يُقَطِّع فى أصول الخروع بدلاً من يُخلل.

(٣) كذا فى « الأصل وك » وفى لسان العرب.

(٤) رواه ابن ماجة (١ / ٨٤ رقم ٢٣٠)، وأحمد (٥ / ١٨٣)، والدارمى (١ / ٨٦ - ٨٧ رقم ٢٢٩)، وابن أبى عاصم فى السنة (٥ / ٤٥ رقم ٩٤)، والطبرانى فى الكبير (٥ / ١٤٣ رقم ٤٨٩٠)، و (١٥٤ - ١٥٥ رقم ٤٩٢٥) وابن حبان فى صحيحه (١ / ٢٧٠ رقم ٦٧)، وابن عبد البر فى جامع بيان العلم (١ / ٣٨-٣٩) كلهم من حديث زيد بن ثابت.

قال ابن أبى عاصم: وفيه عن جبير بن مطعم، وابن مسعود، ومعاذ، وأنس.

(٥) متفق عليه من حديث أبى هريرة. رواه البخارى (٦ / ٢١٤ - ٢١٥ رقم ٣٠٧٣)، ومسلم (١٢ / ٢٩٩ - ٣٠٠ رقم ١٨٣١).

والقول الثانى : أنه أراد به : يأتى بإثم ما غل يوم القيامة، وفى الخبر : «أن رجلا كان على ثَقَلِ[1] رسول الله ﷺ، فاستشهد فقال الناس هو فى الجنة، فقال النبى ﷺ : هو فى النار؛ فَطُلِبَ، فإذا هو قد غلَّ عباءة من المغنم». [2]

﴿ ثم توفَّى كل نفس ما كسبت ﴾ أى : جزاء ما كسبت، فالجزاء مضمر فيه ﴿ وهم لايظلمون ﴾.

قوله تعالى : ﴿ أفمن اتبع رضوان الله ﴾ يعنى : ترك الغلول ﴿ كمن باء بسخط من الله ﴾ يعنى : بالغلول، وقيل معناه : أفمن اتبع رضوان الله بموافقة الرسول، كمن باء بسخط من الله بمخالفة الرسول ﴿ ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾.

قوله تعالى : ﴿ هم درجات عند الله ﴾ قال مجاهد : لهم درجات عند الله، يعنى : المؤمنين، وقال غيره : تقديره : هم ذَوُوا درجات عند الله، يعنى : المؤمنين والمنافقين، فالمؤمنون ذَوُوا الدرجات الرفيعة، والمنافقون ذَوُوا الدرجات الخسيسة، ومثله قول الشاعر :

أَنُصْبٌ للمنيِّة تعتريهم   رجالى، أم هُمُو دَرَجُ السيول[3]

أى : ذووا درج السيول. ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾

قوله – تعالى –: ﴿ لقد منَّ الله على المؤمنين ﴾ أى : أنعم، والمنة : النعمة، والمن : القطع؛ ومنه قوله – تعالى –: ﴿ لهم أجر غير ممنون ﴾[4] أى : غير مقطوع، وسُميت النعمة منة، لأنها مقطوعة عن المحن والشدائد.

وقوله تعالى : ﴿ إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ﴾ قيل : هذا فى العرب خاصة؛

---

(١) قال ابن الأثير هو : متاع السفر. انظر النهاية (مادة : ثقل).

(٢) رواه البخارى فى صحيحه (٦/٢١٦ رقم ٣٠٧٤)، وابن ماجه (٢/٩٥٠ رقم ٢٨٤٩) وابن أبى شيبة (١٢/١٥٣٧٣)، وسعيد بن منصور فى سننه (٢/٣/ رقم ٢٧٢٠) جميعهم من حديث عبد الله بن عمرو، ووقع عند ابن أبى شيبة : عبد الله بن عمر، وهو تصحيف.

(٣) فصلت : ٨

(٤) كذا وقع البيت فى لسان العرب «مادة : درج» وعزاه ابن منظور لسيبويه. وفى «ك» وقع تحريف كثير فى البيت.

بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى

لأن الرسول بُعث من بنى إسماعيل إلى العرب، وقيل: هو على العموم فى حق الكافة؛ فإنه بعث بَشَرٌ مثلهم.

وموضع المنة فى بعثه من أنفسهم للعرب: أنه كان شرفا لهم، حيث بعث الرسول منهم، وأيضا فإن القرآن نزل بلسان العرب؛ إذ كان الرسول عربيا، وكان التعلم أسهل عليهم؛ لكونه أقرب إلى أفهامهم، فالمنة فى السهولة عليهم، ولأنه لما نشأ فيهم، وعرفوا صدقه وأمانته، وكان أميا مثلهم ما كان يحسن الخط، ولا يعلم شيئا، ولا سافر، ثم أتى بكتاب يخبر عن القرون الماضية وقصص الأولين، ووافق الكتب المنزلة قبله، كان أقرب إلى قلوبهم، فكان يسهل طريق الإيمان عليهم.

وقوله: ﴿ يتلو عليهم آياته ويزكيهم ﴾ أى: يشهد بتزكية سائر الأمم، ويجعلهم أزكياء، وقيل: يطهرهم من الذنوب ﴿ ويعلمهم الكتاب ﴾ يعنى: القرآن ﴿ والحكمة ﴾، قال ابن عباس: الفقه والشرائع، وقال غيره: الحكمة: السنة.

﴿ و إن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ أى: ما كانوا من قبل إلا فى ضلال مبين.

قوله تعالى: ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة ﴾ يعنى: يوم أحد ﴿ قد أصبتم مثليها ﴾ يعنى: يوم بدر: نزلت الآية فى تسلية المؤمنين، وذلك: أن يوم أحد قتل من المسلمين سبعون، وقد أصاب المسلمون منهم يوم بدر سبعين بالقتل، وسبعين بالأسر، فذلك مثليهم، فجعل الأسر مثل القتل؛ حيث جعل القتلى والأسرى يوم بدر مثلى قتلى أحد.

﴿ قلتم أنى هذا ﴾ من أين هذا؟ ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ أى: بمخالفة الرسول منكم». وعن عمر – رضى الله عنه – أنه قال فى تفسير قوله تعالى: ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ أى: باختياركم الفداء؛ وذلك أن النبى ﷺ خير المسلمين يوم [بدر] (١) فى الأسارى بين القتل والفداء، وقال لهم: «إن اخترتم الفداء أصيب

(١) سقطت من الناسخ.

الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ

منكم بعدتهم فى العام القابل، فاختاروا الفداء، وقالوا: نتقوى به على العدو، ويستشهد منا»[١] فذلك قوله: ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ أى: باختياركم، وهو قول على - رضى الله عنه - ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان ﴾ يعنى: يوم أحد ﴿ فبإذن الله ﴾ أى: بعلم الله، وروى «أنه ﷺ - لما نزل المشركون بأحد رأى فى منامه أن بقراً ينحر[٢]، فأوله على أن يستشهد بعض أصحابه. ورأى أن سيفه ذا الفقار انقصم فأوله على قتل حمزة، ورأى كأن كبشا أغبر قتل فأوله على قتل مبارز الكفار، فقتل يوم أحد مبارزهم عثمان بن طلحة العبدرى من بنى عبد الدار»[٣].

﴿ وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا ﴾ يعنى: علم المشاهدة، وإن كان علمهم علم الغيب.

﴿ وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ﴾ قائل ذلك القول: عبد الله بن حرام أبو جابر، قال للمنافقين: قاتلوا فى سبيل الله، وإن لم تقاتلوا لأجل الدين، فادفعوا عن الأهل والحريم.

﴿ قالو لو نعلم قتالا لاتبعناكم ﴾ فرجعوا وهم يقولون: لاقتال، لا قتال؛ حتى يفشل المسلمون ﴿ هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ﴾ يعنى: بعد رجوعهم ومقالتهم تلك؛ لأنهم كانوا من قبل من المؤمنين فى الظاهر؛ وإن كانوا منافقين فى الباطن، فلما فارقو ا المؤمنين صاروا أقرب إلى الكفر منهم للإيمان.

---

(١) رواه الترمذى (٤/١١٤ - ١١٥ رقم ٥٦٧)، والنسائى فى الكبرى (٥/٢٠٠ رقم ٨٦٦٢) والطبرى فى التفسير (٤/١١٠)، والبزار فى مسنده (٢/١٧٦ رقم ٥٥١)، والدارقطنى فى العلل (٤/٣١-٣٣) كلهم من طريق عبيدة السلمانى عن على. ورواه ابن أبى شيبة (١٤/٣٦٨ رقم ١٨٥٣٣)، والطبرى (٤/١٨٠) عن عبيدة مرسلاً، وقال الدارقطنى فى العلل: والمرسل أشبه بالصواب.

(٢) هذا آخر موضع السقط الكبير الذى وقع فى النسخة «الأصل» والذى استدركناه من النسخة «ك».

(٣) متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى بنحوه رواه البخارى (٦/٧٥ رقم ٣٦٢٢، وأطرافه فى ٣٩٨٧، ٤٠٨١، ٧٠٣٥، ٧٠٤١) ومسلم (١٥/٤٥ - ٤٦ رقم ٢٢٧٢)، وفى الباب عن ابن عباس وأنس وجابر.

يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿ يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ الذين قالوا لإخوانهم ﴾ يعنى : فى النسب لا فى الدين، وهم المنافقون، قالوا للمسلمين : لو قعدوا (كما قعدنا لما قتلوا)(١)، كما لم نقتل، فذلك قوله : ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ يعنى : إن قدرتم على دفع القتل، وتقدرون على دفع الموت، فادفعوا الموت عن أنفسكم . والدرء : الدفع، ومنه قول الشاعر :

أقولُ وَقَدْ دَرأتُ لها وَضِينى ... أَهَـذا دينُكم أبداً ودِينى(٢)؟

قوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ﴾ سبب نزول الآية : أن أصحاب رسول الله ﷺ لما استشهدوا يوم أحد، كان الناس يقولون : مات فلان؛ ومات فلان، فنزل قوله تعالى : ﴿ ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم ﴾ قيل معناه : يؤولون أحياء يوم القيامة . إلا أن هذا ضعيف؛ لأنه لايبقى لهم فيه تخصيص، والأصح : أنه على معنى ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تعلف من ثمار الجنة - وفى رواية : تأكل، وفى رواية : تسرح فى الجنة فترد مياهها - ثم تأوى إلى قناديل من ذهب معلقة من العرش» ورواه مسلم فى صحيحه، وزاد «إن الله تعالى اطلع عليهم اطلاعة، فيقول : تمنوا علىَّ، فيقولون : ماذا نتمنى وقد أعطيتنا هذا؟! فيقول : تمنوا على، فيقولون : وماذا نتمنى وقد أعطيتنا هذا؟! فيقول : تمنوا على، فيقولون : نتمنى أن نرد إلى الدنيا ونقتل فى سبيلك ثانيا» الحديث(٣) .

---

(١) فى «ك» : كما قعدوا لقتلنا .

(٢) هكذا وقع البيت فى «الأصل وك»،، وفى لسان العرب (مادة : وضن) :

تقول إذا درأتُ وضينى ... أهذا دأبه أبداً ودينى؟

وعزاه للمثقب العبدى .

(٣)تقدم تخريجه .

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ

وفى رواية ثالثة: «أن النبى ﷺ رأى جابرا حزينا، وقتل أبوه عبد الله بن حرام يوم أحد، فقال: ما لى أراك حزينا، إن الله تعالى لم يكلم أحدا، إلا من وراء حجاب، وقد كلم أباك كفاحا، فقال: تمن على ..»[1] الحديث.

وروى: «أن شهداء أحد قالوا: من يبلغ نبينا وإخواننا ما وصلنا إليه؟ فقال الله تعالى: أنا أبلغهم – وفى رواية: أنا رسولكم – وأنزل هذه الآية»[2].

﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ قيل معناه: أنه يُدْفَع إليهم كتاب فيه أسماء إخوانهم الذين يستشهدون من بعدهم، فيستبشرون بهم.

وقوله: ﴿ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ وقُدِّرَ عليهم أن يلحقوا بهم. فيه قول آخر، أن الشهداء يقولون: ياليت إخواننا أُصيبوا مثل ما أُصِبْنَا؛ فيصلون إلى ما وصلنا؛ فذلك قوله: ﴿ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم﴾ أى: بأن لاخوف عليهم ﴿ولاهم يحزنون﴾.

﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل﴾ وقيل: أراد بالنعمة: قدر الكفاية، وبالفضل: مازاد على الكفاية، ومعناه: لايُضَيِّقُ عليهم، بل يوسِّع فى العطاء، وقيل: ذَكَرَ الفضلَ تأكيدا للنعمة، ﴿وأن الله لايضيع أجر المؤمنين﴾ قرأ ابن مسعود: «والله لايضيع أجر المؤمنين».

قوله تعالى: ﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾ قيل: سبب نزول الآية: أن أبا سفيان

(١) رواه الترمذى (٥/٢١٤ – ٢١٥ رقم ٣٠١٠) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (١/٦٨ رقم ١٩٠)، و (٢/٩٣٦ رقم ٢٨٠٠)، وأحمد (٣/٢٦١) وابن أبى عاصم فى السنة (١/٢٦٧ رقم ٦٠٢) وابن خزيمة فى التوحيد (ص٣٧٩) والحميدى فى مسنده (٢/رقم ١٢٦٥)، وأبو يعلى (٤/٢٠٠٢)، والحاكم (٣/٢٠٤ – ٢٠٥) وصححه وتعقبه الذهبى بأن فيه المفصل بن صدقة، قال النسائى: متروك وابن حبان فى صحيحه (١٥/٤٩٠ – ٤٩١ رقم ٧٠٢٢)، والبيهقى فى الدلائل (٣/٢٩٨) كلهم من حديث جابر، رضى الله عنه.

(٢) رواه أبو داود (٣/١٥ رقم ٢٥٢٠)، وابن جرير (٤/١١٣) من حديث ابن عباس مرفوعا مطولا.

ورواه ابن جرير أيضا عن قتادة، والربيع، والضحاك جميعهم مرسلا، وعن قيس بن مخرمة مرفوعا. وعزاه السيوطى فى الدر (٢/١٠٦) لابن المنذر، عن محمد بن قيس بن مخرمة مرسلا.

الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ

لما رجع إلى مكة يوم أحد، قال الكفار بعضهم لبعض فى الطريق: نرجع؛ فنستأصل محمدا وأصحابه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: من ينتدب إلى الخروج، فانتدب سبعون نفرا فيهم أبو بكر والزبير.

وقد قالت عائشة لعروة: إن أبويك من الذين استجابوا لله والرسول، وأرادت أن أبا بكر والزبير كانا فى السبعين، فخرجوا إلى حمراء الأسد [وهم][1] على ثمانية أميال من المدينة، فلما وصلوا (فإذا الله كان قد ألقى)[2] الرعب فى قلوب المشركين، وكانوا مضوا إلى مكة»[3].

وقال ابن عباس (قولا آخر)[4]: أن أبا سفيان لما أراد أن يرجع يوم أحد، قال: موعدنا وموعدكم العام القابل ببدر، ثم لم يتفق له الخروج فى العام القابل، وخرج رسول الله ﷺ لموعده إلى بدر مع أصحابه، فأولئك الذين استجابوا لله والرسول»[5].

﴿من بعد ما أصابهم القرح﴾ يعنى: الألم يوم أحد، ﴿للذين أحسنوا منهم﴾ باستجابة الرسول، ﴿واتقوا﴾ يعنى مخالفة الرسول ﴿أجر عظيم﴾.

قوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ هذا قول نعيم بن مسعود الأشجعى، والقصة فى ذلك: «أن أبا سفيان لما لم يتفق له الخروج لموعده ببدر بعث بنعيم بن مسعود الأشجعى إلى المدينة، وقال له: ثبط

---

(١) كذا فى «ك»، وفى «الأصل»: وهو.

(٢) كذا فى «الأصل»، وفى «ك»: كان الله قد ألقى.

(٣) رواه البخارى بنحوه من حديث عائشة (٦/ ٤٣٢ رقم ٤٠٧٧)، وبدون ذكره: «فخرجوا إلى حمراء الأسد ... إلخ».
ورواه مسلم فى صحيحه (١٥/ ٢٧٢ رقم ٢٤١٨) مختصراً.

(٤) فى «ك»: قول آخر، وهو خطأ.

(٥) رواه النسائى فى الكبرى (٦/ ٣١٧ رقم ١١٠٨٣)، والطبرانى فى الكبير (١١/ ٢٤٧ رقم ١١٦٣٢) من طريق عكرمة، عن ابن عباس. قال الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٢٤): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور وهو ثقة.
ورواه ابن جرير (٤/ ١٢٠)، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم - كما فى الدر (٢/ ١١٥) - جميعهم عن مجاهد مرسلا.

فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ

أصحاب محمد عن الخروج؛ كيلا يظنوا أن بنا فشلا ولك عشر من الإبل، فجاء إليهم، وكان النبى ﷺ وصحابته يتهيئون للخروج، فقال لهم: تخرجون إليهم! قد خرجوا إليكم فى العام الماضى، وفعلوا بكم ما فعلوا فى بيوتكم، والله لو خرجتم إليهم لايعود أحد منكم، فقال ﷺ وأصحابه: حسبنا الله ونعم الوكيل، ولم يمتنعوا من الخروج»[1].

فقوله: ﴿ الذين قال لهم الناس ﴾ هو نعيم بن مسعود وحده، هذا قول عكرمة ومجاهد ومقاتل والكلبى، وقال ابن عباس: هو قول نفر قليل من عبد القيس، وقوله: ﴿ فزادهم إيمانا ﴾ منهم من قال معناه: زادهم إيمانا بتفويضهم، وقولهم: حسبنا الله ونعم الوكيل، وقيل معناه: زادهم يقينا بما وعدهم الله من النصر، ﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾، قال ابن عباس: وهذا قول إبراهيم حين ألقى فى النار، فإنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

قوله تعالى: ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ﴾ معنى الآية: «أن النبى ﷺ وأصحابه خرجوا لموعد أبى سفيان إلى بدر، وهو مجمع سوق العرب، فلم يلقوا هنالك (أحدا)[2] إذ لم يتفق (خروجهم)[3]، فاتجروا هنالك، وربحوا، وانصرفوا»[4] فذلك قوله: ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ﴾ فالنعمة: العافية، والفضل: ربح التجارة ﴿ لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ﴾ فالشيطان: كل عاتٍ متمرد من الجن والإنس، والمراد بالشيطان هاهنا: نعيم بن مسعود، وقيل: هو الشيطان

---

(١) رواه الطبرى (٤/ ١٢٠) بمعناه، عن ابن عباس. وانظر الدر المنثور (٢/ ١١٢ - ١١٦).

(٢) فى «ك»: أحد، وهو خطأ.

(٣) ليست فى «ك».

(٤) تقدم تخريجه فى الحديث الذى قبله.

يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ

المعروف؛ فإنه وسوس إليهم: أن لاتخرجوا لذلك الوعد.

وقوله: ﴿ يخوف أولياءه ﴾ قال إبراهيم النخعي: تقديره: يخوفكم أولياءه أي: من أوليائه، وهم الكفار، وقال أهل المعاني: هو قول حسن.

وقال الفراء: معناه: يخوفكم بأوليائه، وكذا قرأ أُبيٌّ بن كعب. (ومثله)[1] قوله تعالى: ﴿ لينذر بأسا شديدا ﴾[2] أي: ببأس شديد، وقال الشاعر:

أمرتُكَ الخيرَ فافعلْ ما أُمرت به ... فقد تركتُكَ ذا مال وذا نسبِ

أي: أمرتك بالخير، فنزع الباء ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولايحزنك ﴾ ويقرأ: «ولايُحزنك» بضم الياء[3]، ومعناهما واحد.

﴿ الذين يسارعون فى الكفر ﴾ يعنى: قول الذين يسارعون فى الكفر.

﴿ إنهم لن يضروا الله شيئا ﴾ أي: لن ينقصوا الله شيئا ﴿ يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة ﴾ أي: نصيبا فى الآخرة ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان ﴾ أي: استبدلوا وكل شراء استبدال، وليس كل استبدال شراء ﴿ لن يضروا الله شيئا ﴾ أي: لن ينقصوا الله شيئا ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا ﴾ أي: لا يظنن، من الحسبان: الظن ﴿ أنما نملى لهم خير لأنفسهم ﴾ الإملاء: إطالة العُمُر، والإمهال: التأخير، ويقال لليل والنهار: ملوان.

---

(١) ليست فى «ك».

(٢) الكهف: ٢.

(٣) قرأ نافع بضم الياء، وكسر الزاى، وقرأ الباقون بفتح الياء، وضم الزاى، انظر النشر (٢ / ٢٤٤).

لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا

﴿إنما نملى لهم ليزدادوا إثما﴾ أى: إنما نطيل عمرهم ليزدادوا إثما. روى الأسود عن ابن مسعود: «ما من أحد إلا والموت خير له؛ برا كان أو فاجرا: أما البر، لقوله تعالى -: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾[(١)] وأما الفاجر؛ لقوله تعالى: ﴿إنما نملى لهم ليزدادوا إثما﴾؛ وذلك أنه إذا ازداد إثما اشتدت عقوبته» ﴿ولهم عذاب مهين﴾.

قوله تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه﴾ يعنى: على اختلاط المنافقين بكم؛ فإنهم كانوا مختلطين بالمؤمنين ﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ قال مجاهد: حتى يميز الكافر من المؤمن، وقال قتادة: حتى يميز المنافق من المؤمن، ويُقرأ: حتى «يميّز» مشددا[(٢)] يقال: ماز يَميزُ، ومَيَّز يُميِّز، بمعنى واحد. وفى الحديث: «من ماز أذى من الطريق، فهو له صدقة» ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ سبب نزوله: أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يارسول الله، أخبرنا بمن يموت على الإيمان، ومن يموت على الكفر؛ فنزل قوله: ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء﴾ يعنى: فيطلعه على الغيب بما شاء، وهذا كما قال فى آخر سورة الجن: ﴿فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول﴾[(٣)] ﴿فآمنوا بالله ورسوله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم﴾.

قوله تعالى: ﴿ولاتحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم﴾ يعنى: هو يكون خيراً لهم ﴿بل هو شر لهم﴾ فى معنى الآية قولان: أحدهما: أنه فى اليهود، حيث كتموا نعت محمد، وبخلوا به؛ فعلى هذا معنى قوله: ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ أى: إثم ما بخلوا به يوم القيامة، والقول الثانى: أن الآية فى

---

(١) آل عمران: ١٩٨.

(٢) قرأ يعقوب، وحمزة، والكسائى، وخلف بضم الياء الأولى، وتشديد الياء الأخرى وقرأ الباقون بالفتح، والتخفيف. انظر النشر (٢/٢٤٤).

(٣) الجن: ٢٦ – ٢٧.

به يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ

مانعي الزكاة، وقوله: ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ على حقيقته، وهو معنى ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من منع الزكاة جاء يوم القيامة، فيمثل له ماله شجاعا أقرع فيطوق فى رقبته، [فينهسه][(١)] من قرنه إلى قدميه ثم قرأ هذه الآية»[(٢)].

﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾ فإن قال قائل: كيف يكون له ميراث السموات والأرض؟ قيل: العرب تسمى كل ما انتقل من أحد إلى غيره ميراثا بأى سبب كان، فلما خلصت السموات و الأرض لله تعالى بعد هلاك العباد، سماه ميراثا، كأنه انتقل منهم إليه ﴿والله بما تعملون خبير﴾.

قوله تعالى: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ قيل: سبب نزول الآية: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا﴾[(٣)] قالت اليهود: إن الله يستقرض منا أموالنا؛ فإذن هو فقير ونحن أغنياء وما قالوا ذلك عن اعتقاد، ولكن تمويها على المسلمين، وتشكيكا لهم فيما جاء به محمد رسول الله ﷺ، فنزل قوله: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ وفيه قول آخر: أنه عليه [الصلاة و][(٤)] السلام لما استعان بيهود بنى قينقاع فى الحرب، قالوا: إن الله فقير إذن؛ حيث يستعين بنا فى نصرة دينه، ونحن أغنياء؛ فنزلت الآية.

﴿سنكتب ماقالوا﴾: هو الكتابة فى صحائف الأعمال،وقيل: معناه: نحصى ماقالوا نجازى عليه، ويقرأ: «سيُكتب ما قالوا» بضم الياء[(٥)]. ﴿وقتلُهم الأنبياء﴾ بالرفع[(٦)] أى: ويكتب قتلهم الأنبياء ﴿بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ أى:

---

(١) فى «ك»: فينهشه بالشين المعجمة وكلاهما بمعنى واحد.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه (٣/٣١٥رقم ١٤٠٣، ٤٥٦٥، ٤٦٥٩، ٦٩٥٧)، والنسائي (٥/٣٩ رقم ٢٤٨٤)، وأحمد (٢/٢٧٩، ٣١٦، ٣٥٥، ٣٧٩، ٤٨٩، ٥٣٠) وابن حبان فى صحيحه (٨/٥٠ رقم ٣٢٥٨) جميعهم من حديث أبى هريرة مرفوعا بنحوه.
وفى الباب عن ابن مسعود، وابن عمر، وغيرهم.

(٣) البقرة: ٢٤٥.

(٤) من «ك».

(٥) قرأ حمزة بالياء وضمها، وفتح التاء، وقرأ الباقون بالنون وفتحها، وضم التاء انظر النشر (٢/٢٤٥).

(٦) هى قراءة حمزة – برفع اللام – وقرأ الباقونْ بفتح اللام على النصب. انظر المصدر السابق.

وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ

بعذاب النار؛ لأن عذاب النار محرق.

﴿ ذلك بما قدمت أيديكم ﴾ يعنى: بما قدمتم، وذكر أيديكم تأكيدا.

﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ يعنى: أنه يفعل ما يفعل بهم؛ مجازاة لهم على أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿ الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ﴾ الآية فى اليهود، قال السدى: كان الله تعالى عهد إلى اليهود: أن لايؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار سوى عيسى ومحمد ﷺ، فإنه أمرهم أن يؤمنوا بهما من غير هذه الشريطة.

وقال غيره: كانوا يتقربون بالقربان، ثم يأخذون أطايب لحمه، فيضعونها فى بيت، ثم يقوم نبيهم فى ذلك البيت يناجى ربه، فتأتى نار بيضاء لها حفيف من السماء، فتأكله، ويكون ذلك علامة قبول القربان.

﴿ قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات ﴾ أى: بالدلالات والمعجزات ﴿ وبالذى قلتم ﴾ يعنى: من الإتيان بقربان تأكله النار.

﴿ فلم قتلتموهم ﴾ أى: فلم كذبتموهم، وقتلتموهم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فى دعوتكم ذلك العهد.

قوله تعالى: ﴿ فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات ﴾ أى: بالدلالات والمعجزات ﴿ والزبر ﴾: جمع الزبور وهو كتاب فيه الحكمة، وبه سمى كتاب داود: زبورا، وفى مصحف أهل الشام «وبالزبر»(١).

فإن قال قائل: أى فرق بين الزبر والكتاب؟ وقد قال: ﴿ والزبر والكتاب المنير ﴾

(١) هى قراءة ابن عامر بزيادة باء بعد الواو انظر النشر (٢ / ٢٤٥).

نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا

قيل: الكتاب اسم لما كتب، وضُمَّ بعض الكلمات فيه إلى بعض من الكَتْب (وهو)[١] الضم، وأما الزبر: مأخوذ من الزَبْر وهو الزجر، فالزبور: كتاب فيه مزاجر.

قوله تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ والذوق فى الموت مجاز، وحقيقة الذوق: هو الإحساس بالشيء؛ فلما كان يحسّ بالموت، سماه ذوقا مجازا، قال الشاعر:

من لم يمت عَبْطَةً يمت هَـرَمًا ... الموت كأس وكل الناس ذائقها[٢]

فإن قال قائل: لايخفى أن كل نفس تموت، فأيْش الفائدة فى قوله: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾؟ قيل: أراد به: التزهيد فى الدنيا، يعنى: أن النفوس إلى الفناء؛ فتزهّدوا فى الدنيا، ﴿وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾.

﴿فمن زحزح عن النار﴾ أى: نجى، وبعد عن النار ﴿وأدخل الجنة فقد فاز﴾ أى: نجا ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ لأنها تغرّ الإنسان، وهى إلى الانقطاع.

قوله تعالى: ﴿لتبلون﴾ أى: لتختبرن، وقيل: لتصابن ﴿فى أموالكم وأنفسكم﴾ فى أموالكم بالإنفاق، وأنفسكم بالجهاد، وقيل: فى أموالكم (وأنفسكم بالمصائب والأمراض، وقال بعض أصحاب الخواطر: فى أموالكم)[٣] بالمنع عن الحق، وأنفسكم باتباع الهوى.

﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا﴾ قال الزهرى: هذا فى كعب بن الأشرف، كان يهجو النبى ويُسمع المسلمين هجاه»، وقيل: هو قول اليهود: عزير ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن الله، وقيل: هو قول أولئك الذين قالوا: إن الله فقير.

(١) فى «ك»: إلى. وهو خطأ.

(٢) كذا وقع الشطر الثانى فى «الأصل، وك».

وفى لسان العرب (مادة: عبط): للموت كاس والمرء ذائقها.

وعزا البيت لأمية بن أبى الصلت. وفسر «عبطة»: أى: شابًا، وقيل شابًا صحيحًا.

(٣) ليست فى «ك».

فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

﴿ وإن تصبروا ﴾ يعنى: على الأذى ﴿ وتتقوا ﴾ يعنى: من مخالفة الرسول ﴿ فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ أى: من حقائق الأمور، وشدائدها.

قوله تعالى: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولاتكتمونه ﴾ قيل: أراد به: اليهود، أخذ الله ميثاقهم أن يبينوا نعت محمد للناس ولايكتمونه. وقيل: هو فى جميع العلماء، أخذ الله ميثاق العلماء: أن يبينوا العلم للناس ولايكتمونه، وفى الحديث: «من سئل عن علم، فكتمه، ألجم بلجام من نار»(١).

﴿ فنبذوه وراء ظهورهم ﴾ أى: تركوه وراء ظهورهم ﴿ واشتروا به ثمنا قليلا ﴾ يعنى: الرشاء ﴿ فبئس مايشترون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا ﴾ يعنى: اليهود، بما أوتوا أى: العلم والكتاب، ولم يقوموا بموجبه وما يقتضيه، وقيل: هو فى المنافقين يفرحون بما أتوا من التخلف عن رسول الله ﷺ(٢).

﴿ ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ﴾ (يعنى):(٣) بالأعذار الكاذبة، ﴿ فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ﴾ أى: بمنجاة من العذاب ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾.

وروى أن مروان بعث إلى عائشة: هلكنا إذن؛ فإنا نفرح بما نأتى، ونحب أن نحمد بما لم نفعل؛ والله تعالى يقول: ﴿ فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ﴾ فذكرت عائشة أن الآية فى اليهود.

---

(١) رواه أبو داود (٣/ ٣٢١ رقم ٣٦٥٨)، والترمذى (٥/ ٢٩ رقم ٢٦٤٩) وقال: حسن، و ابن ماجة (١/ ٩٦ رقم ٢٦١)، وأحمد (٢/ ٢٦٣، ٣٠٥، ٣٤٤، ٣٥٣، ٤٩٥)، والطيالسى (رقم ٢٥٣٤)، وابن أبى شيبة (٩/ ٥٥) وابن حبان فى صحيحه (١/ ٢٩٧ رقم ٩٥)، والحاكم فى مستدركه (١/ ١٠١) وصححه، جميعهم من حديث أبى هريرة مرفوعا. وقال الزيلعى فى تخريجه للكشاف (١/ ٢٥٥ رقم ٢٦٨)، روى من حديث أبى هريرة وأنس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وابن عباس، وابن مسعود، وطلق بن على، وابن عمر، وأبى سعيد الخدرى، وجابر، وعائشة.

(٢) من «ك».

(٣) فى «ك»: أى.

قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ

قوله تعالى: ﴿ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير﴾ ذكر هذا ردا لقولهم: إن الله فقير ونحن أغنياء.

قوله تعالى: ﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب﴾ يعنى: أن فيها دلالات على وحدانيته لذوى العقول.

قوله تعالى: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ روى ابن مسعود وعمران بن الحصين أن النبى ﷺ قال: «صلّ قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنبك تومئ إيماء»[(1)] فهذا معنى الآية.

وقيل: معناه: الذين يوحدون الله على كل حال.

﴿ويتفكرون فى خلق السموات والأرض﴾ فيستدلون به على وحدانيته، وفى الحديث: «تفكروا فى الخلق، ولا تتفكروا فى الخالق»[(2)].

﴿ربنا ما خلقت هذا باطلا﴾ أى: عبثا، وقيل: (باطلا)[(3)] أى: بباطل.

﴿سبحانك﴾: هو للتنزيه عن كل سوء ﴿فقنا عذاب النار﴾ روى عن ابن عباس: أنه قال: «بت عند خالتى ميمونة، فنام رسول الله ﷺ وأهله على عرض الوسادة، وأنا

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه (٢ / ٦٨٠ - ٦٨١ رقم ١١١٥، ١١١٦، ١١١٧)، وأبو داود (١ / ٢٥٠ رقم ٩٥٢) والترمذى (٢ / ٢٠٨ رقم ٣٧٢) وقال: حسن صحيح. وابن ماجة (١ / ٣٨٦ رقم ١٢٢٣)، وأحمد (٤ / ٤٢٦)، وابن خزيمة فى صحيحه (٢ / رقم ٩٧٩)، والحاكم (١ / ٣١٥) وصححه على شرط الشيخين، جميعهم من حديث عمران ابن حصين.

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط - مجمع البحرين (١ / ١٠٨ رقم ٧١) - وابن حبان فى المجروحين (٣ / ٨٣ - ٨٤)، وابن عدى فى الكامل (٧ / ٩٥)، وأبو الشيخ فى العظمة (صـ١٧ رقم ١) كلهم من حديث ابن عمر، وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ٨٤): وفيه الوازع بن نافع وهو متروك.

وفى الباب عن: عبد الله بن سلام، وابن عباس، وأبى ذر، وأبى هريرة، وعمرو بن مرة.

وقال السخاوى فى المقاصد (صـ٢٦١): وأسانيده ضعيفة لكن اجتماعها يكتسب قوة. وانظر السلسلة الصحيحة (١٧٧٨).

(٣) ليست فى «ك».

مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ

على طولها، ثم قام من الليل، وقرأ هذه الآيات العشر»[1] وفى رواية قال: «سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح، وقرأ هذه الآيات العشر إلى آخر السورة».

قوله تعالى: ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ أى: أهلكته. فإن قال قائل: ألستم تقولون: إن المؤمنين يدخلون النار، ولايخلدون فيها، فكيف يكون ذلك إهلاكا؟ قيل: قال قتادة: معنى الآية: إنك من تدخل النار للخلود فقد أخزيته أى: أهلكته، وقال الضحاك: معنى الآية ﴿إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ أى: فضحته، وهتكت ستره؛ فعلى هذا يستوى فيه كل من دخل النار وإن لم يخلد فيها ﴿وما للظالمين من أنصار﴾.

﴿ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا﴾ أكثر المفسرين على أن المنادى: هو الرسول، وقيل: هو القرآن قاله محمد بن كعب القرظى. لأن كثيرا من الناس لم ير الرسول ولم يسمعه.

﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا﴾ أى: كبائرنا ﴿وكفر عنا سيئاتنا﴾ أى: صغائرنا، وقيل: الذنوب: المعاصى، والسيئات: التقصير فى الطاعات.

﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ البَرُّ المطيع، وفى الآثار: إن البَرَّ لا يؤذى الذر. يعنى: النمل الصغار الحمر.

﴿ربنا وآتنا ماعدتنا على رسلك﴾ أى: على ألسنة رسلك ﴿ولاتخزنا يوم القيامة﴾ أى: لاتفضحنا، ولاتهلكنا.

﴿إنك لاتخلف الميعاد﴾ وهو على سبيل المدح له؛ لأنا على القطع نعلم أنك لاتخلف الميعاد.

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس، رواه البخارى فى صحيحه (١/ ٣٤٤ - ٣٤٥ رقم ١٨٣وأطرافه فى ٤٥٦٩، ١١٩٨٢. ٤٥٧٠، ٤٥٧١، ٤٥٧٢، ٧٤٥٢)، ومسلم (٦/ ٦٤ - ٧٦ رقم ٧٦٣).

﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ

قوله تعالى: ﴿فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ روى أن أم سلمة قالت لرسول الله ﷺ: إنى أرى الله لايذكر النساء فى القرآن، فنزل قوله: ﴿من ذكر أو أنثى﴾.

﴿بعضكم من بعض﴾ أى: كلكم كنفس واحدة، فلا أضيع عمل واحد منكم.

﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا﴾ وقرأ حمزة والكسائى: «وقتلوا وقاتلوا»(١) ﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله﴾ أى: جزاء من عند الله، ﴿والله عنده حسن الثواب﴾.

قوله تعالى: ﴿لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد﴾ يعنى: على مرادهم، فإن مصيرهم إلى النار ﴿متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ وفيه دليل على أن أقل القليل من الجنة خير من الدنيا، وفى الحديث: «لموضع سوط من الجنة خير من الدنيا وما فيها»(٢).

قوله تعالى: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله﴾ النُّزُل هو ما يعد للضيف من النعمة؛ فسمى الله تعالى ما

(١) وهى قراءة خلف أيضًا، وقرأ ابن كثير، وعامر بتشديد التاء من «قُتِّلوا»، وقرأ الباقون بالتخفيف. انظر النشر (٢/٢٤٣، ٢٤٦).

(٢) رواه البخارى فى صحيحه (٦/١٠٠ رقم ٢٨٩٢، وأطرافه فى ٢٧٩٤، ٣٢٥٠، ٦٤١٥)، والترمذى (٤/١٥٤ – ١٥٥ رقم ١٦٤٨) وقال: حسن صحيح، وابن ماجة (٢/١٤٤٨ رقم ٤٣٣٠)، وأحمد (٣/٤٣٣) و(٥/٣٣٠، ٣٣٧، ٣٣٩) جميعهم من حديث سهل بن سعد الساعدى، وفى الباب عن أنس، وأبى هريرة.

الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

أعده للمؤمنين من نعيم الجنة: نزلا من عند الله ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ﴾ قيل: أراد النجاشى، وروى أنه لما مات قال النبى ﷺ لأصحابه: «صلوا على أخ لكم مات، وهو أصحمة النجاشى»(١) فقال المنافقون: انظروا يصلى على علج من النصارى ويدعو له؛ فنزلت الآية.

وقيل: هو فى عبد الله بن سلام، ومن أسلم معه؛ فذلك قوله: ﴿ لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله ﴾ أى: متواضعين لله ﴿ لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا ﴾ يعنى: على الجهاد، ﴿ وصابروا ﴾ أى: مع الأعداء ﴿ ورابطوا ﴾ أى: فى الثغور بالملازمة، وقيل: اصبروا على دينكم، وصابروا مع الأعداء، ورابطوا بالمحافظة على الصلوات، وفى الحديث: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به السيئات، ويرفع الله به الدرجات، قيل: بلى يارسول الله، قال: إسباغ الوضوء فى السَّبْرَات(٢)، ونقل الأقدام إلى الجماعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم، الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»(٣).

﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ أى: كونوا على رجاء الفلاح.

(١) متفق عليه بنحوه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى فى صحيحه (٣/١٣٩رقم ١٢٤٥، ١٣١٨، ١٣٢٧، ١٣٢٨، ١٣٣٣، ٣٨٨٠، ٣٨٨١) ومسلم فى صحيحه (٧/٣٥ - ٣١/رقم٩٥١). وفى الباب عن أبى حذيفة بن أسيد ومجمع وعن جابر وعن عمران ابن حصين، ومجمع بن جارية، وراجع الإرواء (رقم ٧٢٧).

(٢) السبرات: جمع سبرة بسكون الباء، وهى شدة البرد. النهاية (٢/٣٣٣).

(٣) رواه مسلم فى صحيحه (٣/١٧٩ - ١٨٠ رقم ٢٥١)، والترمذى (١/٧٢-٧٤ رقم ٥١، ٥٢) وقال: حسن صحيح، والنسائى (١/٨٩-٩٠ رقم ١٤٣)، وأحمد فى مسنده (٢/٢٧٧، ٣٠٣) جميعهم من حديث أبى هريرة مرفوعا.

تفسير سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

قال: اعلم أن هذه السورة تسمى: سورة النساء، وتسمى سورة الأحكام، وهى مدنية على قول أكثر المفسرين، إلا قوله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾(١)؛ فإن هذه الآية نزلت بمكة فى مفاتيح الكعبة، وأورد النحاس أن السورة مكية.

وفى الحديث: «من قرأ سورة البقرة، وآل عمران(٢)، والنساء فى ليلة؛ كتب من القانتين»(٣)، وعن عمر - رضى الله عنه - قال: تعلموا سورة البقرة، والنساء، والمائدة، وسورة النور، والأحزاب؛ فإن فيهن الفرائض.

---

(١) النساء: ٥٨.

(٢) ليست فى «ك».

(٣) رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن (١٦٨ رقم ٤٣٣)، وسعيد بن منصور فى سننه (التفسير ٣/ ١٠٢٣رقم ٤٨٥)، ومن طريقه البيهقى فى الشعب (٥/ ٣٥٩ - ٣٦٠رقم ٢٢٠١)، ولكن فيهما: «كان من الحكماء»، جميعهم من طريق سعيد بن جبير، عن عمر موقوفا. قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٤): فيه انقطاع.

يـا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً

قوله - تعالى -: ﴿يا أيها الناس﴾ قال علقمة: كل ما نزل فى القرآن: ﴿يا أيها الناس﴾ فإنما نزل بمكة، وكل ما ورد فى القرآن: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فإنما نزل بالمدينة.

وقوله: ﴿يا أيها﴾ «يا» للنداء، و«أى» للإشارة، و«ها» للتنبيه ﴿اتقوا ربكم﴾ وقرأ ابن مسعود: «اتقوا (الله)[1] ربكم».

بدأ من السورة بالوعظ والتحذير، فقال: ﴿اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة﴾، وأراد بالنفس الواحدة آدم - صلوات الله عليه - وإنما قال: ﴿واحدة﴾ على التأنيث؛ لأجل اللفظ؛ لأن النفس مؤنثة، وهذا مثل قول الشاعر:

أبوك خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال

وإنما قال: ولدته للفظ الخليفة، وإن كان معناه الذكر ﴿وخلق منها زوجها﴾ يعنى: حواء، وسميت حواء؛ لأنها خلقت من حى، وفى القصص: أن الله تعالى خلق حواء من ضلع لآدم فى جنبه الأيسر يسمى: «القصيراء» وفى الخبر المعروف «أن المرأة خلقت من ضلع أعوج، فإن أردت أن تقيمها كسرتها، وإن تركتها استمتعت بها على اعوجاج»[2] وقيل: إن حواء خلقت من التراب.

وقوله: ﴿وخلق منها زوجها﴾ معناه: وخلق من جنسها زوجها، يعنى: التراب، والأصح الأول. وفى الخبر: أن الله تعالى لما خلق آدم ألقى عليه النوم، ثم أخذ ضلعا من أضلاعه، وخلق منه حواء، فجلست بجنبه، فلما انتبه رآها جالسة بجنبه، وقيل: إنه لم يؤذه أخذ الضلع شيئا، ولو آذاه لما عطف رجل على امرأة أبداً.

وعن ابن عباس: أن الله تعالى خلق الرجل من التراب؛ فهمُّه فى التراب، وخلق

(١) لفظ الجلالة ليس فى «ك».

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى (٩/ ١٦٠ - ١٦١ رقم ٥١٨٤، وأطرافه فى ٣٣٣١، ٥١٨٦)، ومسلم (١٠/ ٨٣ - ٨٤ رقم ١٤٦٨) بنحوه.

وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ

المرأة من الرجل، فهمُّها في الرجل؛ فاحبسوا نساءكم.

﴿ وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً ﴾ ذكر هذا كله لبيان القدرة؛ وإظهار المنة ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به ﴾ أى: تسألون به، وذلك مثل قول الرجل: أسألك بالله، ونشدتك بالله، وقيل: معناه: واتقوا الله الذى تعاهدون به، وذلك أن تقول: عليك عهد الله، وعلى عهد الله، ونحو ذلك.

وأما قوله: ﴿ والأرحام ﴾ قرأ حمزة: «الأرحام» بكسر الميم(١) وتقديره: تساءلون به وبالأرحام، قال إبراهيم النخعى: تقول العرب: نشدتك بالله وبالرحم. وضعَّفوا هذه القراءة، والقراءة المعروفة: بنصب الميم، وتقديره: واتقوا الأرحام أن تقطعوها.

وفى الخبر: يقول الله – تعالى –: «أنا الرحمن، وخلقت الرحم، واشتققت لها اسما من اسمى، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»(٢).

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى يعمر الكفار، ويكثر أموالهم، ولم ينظر إليهم منذ خلقهم؛ بغضا لهم، فقيل: م ذاك يارسول الله؟ قال: بصلة الأرحام»(٣).

﴿ إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ أى: حفيظا.

قوله تعالى: ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾ أراد به: دفع المال إليهم بعد البلوغ،

(١) انظر النشر (٢/٢٤٧).

(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد (ص ٢٥ رقم ٥٣)، وأبو داود (٢/٣٣ رقم ١٦٩٤، ١٦٩٥)، والترمذى (٤/٢٧٨ رقم ١٩٠٧) وقال: صحيح، والإمام أحمد (١/١٩٤)، وابن حبان فى صحيحه (٢/١٨٦-١٨٧ رقم ٤٤٣)، والحاكم فى المستدرك (٤/١٥٧) جميعهم من حديث عبد الرحمن بن عوف مرفوعا.

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير (١٢/٨٥ – ٨٦ رقم ١٢٥٥٦)، والحاكم فى المستدرك (٤/١٦١) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا بنحوه.

وقال الحاكم: عمران الرملى من زهاد المسلمين وعبادهم [فإن] كان حفظ هذا الحديث، فإنه غريب صحيح.

وقال الهيثمى فى المجمع (٨/١٥٥): إسناده حسن.

وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا

وسماهم بعد البلوغ يتامى؛ لقرب عهدهم باليتم، وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ يتيم أبى طالب لذلك.

﴿ ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ﴾ وفى قراءة شاذة: «ولا تشتروا الخبيث بالطيب» فالخبيث: الحرام، والطيب الحلال، ومعنى الكلام: ولا تأكلوا أموال اليتامى حراما، وتَدَعُوا أموالَكم الحلالَ، وقال مجاهد: معناه: لاتستعجلوا أكل الحرام؛ فإن الحلال يأتيكم.

﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ قال الفرّاء: معناه: مع أموالكم، وقال غيره: «إلى» لاتكون بمعنى «مع»، وهى على حقيقتها، ومعناه: ولا تأكلوا أموالهم مضافة إلى أموالكم.

﴿ إنه كان حوبًا كبيرًا ﴾ فالحوب: الإثم، وفى الخبر: «أن أبا أيوب الأنصارى أراد أن يطلق امرأته أم أيوب، فقال النبى ﷺ: إن طلاق أم أيوب لحوب»(١)

قوله تعالى: ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى ﴾ أى: ألا تعدلوا، يقال: أقسط، إذا عدل، وقسط، إذا جار، وفى معنى الآية قولان: أحدهما أورده البخارى فى الصحيح، وهو ماروى الزهرى عن عروة أنه سأل عائشة عن شأن هذه الآية، فقالت: يا ابن أختى، نزلت الآية فى يتيمة تكون فى حجر وليها، ويرغب فى مالها وجمالها، ولايقسط فى صداقها؛ فنهوا عن نكاحهن، وأمروا أن ينكحوا غيرهن»

فعلى هذا تقدير الآية: وإن خفتم ألا تقسطوا فى نكاح اليتامى؛ ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾.

وقال ابن عباس: قصر نكاح النساء على الأربع من أجل أموال اليتامى، فإن قيل:

(١) رواه الطبرانى فى الكبير (١٢/ ١٩٥-١٩٦ رقم ١٢٨٧٦) عن ابن عباس مرفوعاً، وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٢٦٥): فيه يحيى بن عبد الحميد الحمانى، وهو ضعيف.

فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا ﴿٣﴾

وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ وَلا تُؤْتُوا

كيف يعرف هذا، وكيف يلتئم بذاك هذا؟ قيل: معناه: أن الله تعالى لما شدد فى أموال اليتامى، تحرج المسلمون عنها غاية التحرج، وشرعوا فى نكاح النساء، واستهانوا به؛ فنزلت الآية، وأراد: إنكم كما تحرجتم عن أموال اليتامى؛ خوفا من الجور، فتحرجوا عن الزيادة على الأربع أيضا؛ خوفا من الجور والميل، فهذا معنى قوله: ﴿فانكحوا ماطاب لكم﴾ أى: ما حل لكم ﴿من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ أى: لاتجاوزوا الأربع.

وذهب بعض الناس إلى أن نكاح التسع جائز بظاهر هذه الآية؛ لأن الاثنين والثلاث والأربع يكون تسعا ليس بصحيح، بل فيه قولان: أحدهما: قال الزجاج: مثنى مثنى، ثلاث ثلاث، رباع رباع، يعنى: لكل الناس، وقيل: «الواو» بمعنى: «أو» يعنى: مثنى، أو ثلاث، أو رباع؛ ولأن – على التقدير الذى ذكروا – [عىٌّ][(1)] فى الكلام؛ لأن من أراد أن يذكر التسع فيقول: مثنى وثلاث ورباع، عد ذلك عيبا فى الكلام وقد قال: ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾؛ لأنه أخف مؤنة ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾ لأن حقوق ملك اليمين أدنى من حقوق ملك النكاح، وهو معنى قوله: ﴿ذلك أدنى ألا تعولوا﴾ أى: ذلك أقرب أن لا تجوروا، يقال: عال، يعول إذا جار، وأعال يعيل إذا كثر عياله، قال الشاعر:

إنا اتبعنا الرسولَ واطَّرحوا ... أَمر الرسولِ وعَالُوا فى الموازين[(2)]

أى: جاروا، وروى: أن أهل الكوفة عتبوا على عثمان فى شىء، فقال: لست بقسطاء، فلا أعول، أى لست بقسطاس؛ فلا أجور.

وقال الشافعى: معناه: ذلك أدنى ألا تكثر عيالكم. وحكى الأزهرى عن الكسائى

(١) فى «الأصل و ك»: عيًّا.

(٢) وقع البيت فى لسان العرب (مادة: عول) كما يأتى:

إنا تَبِعْنَا رسولَ الله واطَّرحوا ... قول الرسول وعالوا فى الموازين

السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا

أنه حكى عن العرب: عال يعول: إذا كثر عياله، وهذا يؤيد قول الشافعى.

﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ﴾ الصدقة والصداق واحد ﴿ نحلة ﴾ أى: تَدَيُّنًا، وقال ابن عباس: معناه: فريضة، والخطاب مع الأزواج - على الأصح - وقيل: هو خطاب مع الأولياء، وكان أهل الجاهلية لايعطون المرأة صداقها، وإنما يأخذ الأولياء؛ فخاطب الأولياء بإعطاء المرأة صداقها نحلة، أى: هو عطية لها من الله.

﴿ فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا ﴾ أى: فإن أَعْطَيْنَ عن طيب نفس من الصداق شيئًا. و«من» للتخيير هاهنا، لا للتبعيض؛ حتى يجوز للمرأة هبة كل الصداق، ﴿ فكلوه هنيئًا مريئًا ﴾ الهنىء: ما أكلت من غير تنغيص، والمرىء: هو المحمود العاقبة؛ وذلك ألا يورث تخمة. وعن على - رضى الله عنه - أنه قال: إذا مرض أحدكم، فليستقرض من امرأته ثلاثة دراهم من صداقها، وليشترى بها عسلا، وليخلطه بماء السماء، ثم ليأكل؛ فإنه الشفاء المبارك والهنىء المرىء.

قوله - تعالى -: ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد بالسفهاء: الصبيان والنساء ها هنا، وقال الشعبى: المرأة أسفه من كل سفيه.

قال سعيد بن جبير: معنى الآية: أن لاتجعلوا المرأة قَيِّمَة البيت فى المعاش، بل كونوا أنتم قوامين على النساء فى المعاش، وقوله: ﴿ التى جعل الله لكم قياما ﴾ فالقيام والقَوَام واحد، يعنى: أموالكم التى جعلها الله قواما لمعاشكم، وقال الزجاج: تقديره: الأموال التى تقيمكم فتقومون به قياما ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم ﴾ قيل: معناه: وارزقوهم منها، وقيل كلمة فى حقيقتهما، ومعناه: اجعلوا وظائفهم من الرزق والكسوة فيها.

﴿ وقولوا لهم قولاً معروفًا ﴾ قيل: معناه: تعليم الدين والشرائع، وقيل: أراد به: وعد الجميل؛ وذلك أن تقول لهم: إن سافرت وربحت، أعطيكم كذا، وإن غزوت

إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

فغنمت، أعطيكم كذا، فهذا هو القول المعروف.

قوله - تعالى -: ﴿ وابتلوا اليتامى ﴾ يعنى: واختبروا اليتامى، ثم منهم من قال: إنما نختبرهم بعد البلوغ، وسماهم يتامى؛ لقرب عهدهم باليتم، والصحيح أنه أراد به: الاختبار قبل البلوغ، ثم اختلفوا، فأما الفقهاء قالوا: يدفع إليه شيئا يسيرا، ويبعثه إلى السوق، حتى يستام السلعة، ثم إذا آل الأمر إلى العقد يعقد الولى، ومنهم من قال: يعقد الصبى، ويجوز ذلك فى الشيء اليسير؛ لأجل الاختبار.

وأما الذى قاله المفسرون: أنه يَدْفع إليه مالاً، ويجعل إليه نفقة البيت، ويختبره فيها، ﴿ حتى إذا بلغوا النكاح ﴾ أى: أَوَانَ الحلم ﴿ فإن آنستم ﴾ أى: أحسستم، ووجدتم ﴿ منهم رشدا ﴾ قال مجاهد: عقلا، وقال سفيان الثورى: عقلاً وإصلاحًا فى المال. ومذهب الشافعى: أن الرشد: هو الصلاح فى الدين، والإصلاح فى المال.

﴿ فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ أمر الأولياء بدفع المال إليهم عند البلوغ والرشد. ﴿ ولا تأكلوها إسرافا ﴾ أى: لاتأكلوها مسرفين ﴿ وبدارا أن يكبروا ﴾ أى: لاتبادروا إلى أكل أموال اليتامى، خوفا من أن يكبروا؛ فيأخذوا أموالهم.

﴿ ومن كان غنيا فليستعفف ﴾ أى: فليستعفف بماله عن مال اليتيم ﴿ ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ﴾ قال عمر - رضى الله عنه -: إذا كان الولى فقيرا، يأكل من مال اليتيم بقدر الحاجة، وقال أيضا: أنا فى هذا المال: كولى اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن احتجت أكلت. وإلى هذا ذهب قوم من العلماء، أن له أن يأكل بقدر ما يسد به الخلة، وقال بعضهم: عباءاً غليظا، وخبز الشعير، وقال الشعبى وجماعة: يأكل من مال اليتيم على سبيل القرض، وقال مجاهد: لايأكل أصلا، لا قرضا، ولا غير قرض، قال: والآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل،

والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا ﴿٧﴾ وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا ﴿٨﴾

إلا أن تكون تجارة عن تراض ﴾[1] وإلى هذا ذهب أكثر العلماء، وعليه الفتوى، أنه لايأكل أصلا، ومن قال: إنه يأكل، يقول: يأخذ بقدر أجرته على القيام، وقد روى أن رجلا (جاء)[2] إلى ابن عباس، وقال: [إنَّ][3] لى يتيما وله إبل، فماذا أصيب منها؟ فقال: أتلوط حوضها وتهنأ جرباها؟ قال: نعم، فقال ابن عباس: أصب من رسلها غير مضر بنسل، ولا ناهك فى حلب.

وفيه قول رابع: أن معنى قوله: ﴿ فليأكل بالمعروف ﴾ يعنى: يأكل الفقير من قوت نفسه بالمعروف، ولايستكثر منه حتى ينفد ماله؛ فيحتاج إلى مال اليتيم.

﴿ فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ﴾ ندب إلى الإشهاد؛ كيلا يجحدوا.

﴿ وكفى بالله حسيبا ﴾ أى: شهيدا. قوله - تعالى -: ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ سبب نزول الآية أن أوس بن ثابت الأنصارى مات وخلّف ثلاث بنات وامرأة - يقال لها: أم كجَّة - وابنى عم: عرفجة، وسويد، فجاء ابنا عمه وأخذا جميع المال، وكان أهل الجاهلية لايورثون النساء من الميت، ويقولون: لايرث أموالنا إلا من طاعن بالرماح، وضارب بالسيوف؛ فنزلت الآية، وهذه أول آية نزلت فى توريث النساء المال.

﴿ مما قلّ منه أو كثر نصيبا مفروضا ﴾ وقد بيَّن الأنصبة المفروضة فى آيات المواريث.

قوله تعالى: ﴿ وإذا حضر القسمة أولوا القربى و اليتامى والمساكين فارزقوهم منه ﴾ يعنى: قسمة التركة فى مواريث إذا حضرها من لايرث الميت من أقاربه، أو اليتامى، والمساكين ﴿ فارزقوهم منه ﴾ فأعطوهم شيئا ﴿ وقولوا لهم قولاً معروفًا ﴾ أى: قولوا لهم: بورك فيكم.

---

(١) النساء: ٢٩.

(٢) فى «ك»: أتى.

(٣) فى «الأصل»: إنى، وما أثبتناه من «ك».

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ

ثم اختلفوا، فقال بعضهم: الآية منسوخة، فيجوز أن يعطوا، ويجوز أن لايعطوا، وقيل: هو على الندب، ويستحب أن يعطيهم شيئا، ومنهم من قال: إن قسموا العين والورق ونحوه يوضح لهم، وإن قسموا الدور والعقار، والعبيد، والثياب، ونحوها، يقول لهم: بورك فيكم.

قوله - تعالى -: ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله﴾ سبب نزول الآية: أن أصحاب رسول الله ﷺ كان الرجل منهم إذا حضره الموت، يأتون إليه، ويقولون له: انظر لنفسك أيها الرجل، وأوصى بمالك، وإن ورثتك لايغنون عنك من الله شيئا، وربما يحملونه على أن يوصى بجميع المال فنزلت الآية ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم﴾ أى: إن تركوا من خلفهم ﴿ذرية ضعافا﴾ أى: أولادا صغارا ﴿خافوا عليهم﴾ أو على أولادهم؛ فليخافوا على أولاد الناس كما يخافون على أولادهم؛ فإن أولاد الميت أحق بماله من الأجانب، فهذا معنى قوله: ﴿فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا﴾ أى: عدلا.

قوله - تعالى -: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما﴾ نزلت الآية في حنظلة ابن الشمردل، كان قد ولى يتيما، فأكل جميع ماله، وقيل: الآية نزلت ابتداءً فى حق الكافر ﴿إنما يأكلون فى بطونهم نارا﴾ لأنه لما كان أكلهم ذلك يؤدى إلى النار، سماهم آكلين للنار، وهذا كقول النبى ﷺ: «الذى يشرب فى آنية الذهب والفضة، إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم».[1] وفى الحديث: «يخرج لهيب النار من جوفهم يوم القيامة».[2] وفى رواية: «أن الملك يأتيهم، فيفتح أفواههم، ويلقمهم الجمر،

(١) متفق عليه من حديث أم سلمة، رواه البخارى (١٠/ ٩٨ رقم ٥٦٣٤)، ومسلم (١٤/ ٣٨ - ٣٩ رقم ٢٠٦٥).

(٢) رواه أبو يعلى فى مسنده (١٣/ ٤٣٤رقم ٧٤٤٠)، ومن طريقه ابن حبان فى صحيحه (١٢/ ٣٧٧ رقم ٥٥٦٦) وابن عدى فى الكامل (٣/ ١٨٧) حديث أبى برزة.

قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٥): رواه أبو يعلى والطبرانى، وفيه زياد بن المنذر، وهو كذاب.

اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ

ويقول: هذا بأكلكم مال اليتيم »[1]

وقال ﷺ: « من أبكى يتيما، فحق على الله أن يبكى عينيه يوم القيامة ».

﴿ وسيصلون سعيرا ﴾ أى: سيدخلون جهنم، وقيل: يعاينون سعيرا، والسعير: النار المستعرة، وهو اسم من أسماء جهنم.

قوله - تعالى -: ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم ﴾ معناه: يفرض الله عليكم فى أولادكم، وذلك مثل قوله - تعالى -: ﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به ﴾[2] أى: فرض عليكم ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾.

سبب نزول الآية: « أن سعد بن الربيع لما استشهد يوم أحد خلّف ابنتين وامرأة وأخا، فجاء الأخ وأخذ جميع المال، فجاءت المرأة تشكو إلى رسول الله ﷺ؛ فنزلت الآية». فدعا رسول الله ﷺ الأخ، وقال: اعط الابنتين الثلثين والمرأة الثُمُن، وخذ الباقى »[3].

وقوله: ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ يعنى: إذا خلّف ابنا وابنة، فالمال من ثلاثة أسهم: سهمان للإبن، وسهم للبنت ﴿ فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ﴾ أكثر الصحابة والعلماء على أن للابنتين، والثلاث: الثلثين.

وقال ابن عباس: للابنتين النصف، وإنما الثلثان للثلاث وما زاد؛ تمسكا بظاهر الآية. والأول أصح.

---

(١) رواه ابن جرير (٤ / ١٨٤) من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعاً بنحوه.

(٢) الأنعام: ١٥١.

(٣) رواه أبو داود (٣ / ١٢١ رقم ٢٨٩٢)، والترمذى (٤ / ٣٠٦١ رقم ٢٠٩٢) وقال: حديث صحيح، وابن ماجه (٢ / ٩٠٨ - ٩٠٩ رقم ٢٧٢٠)، وأحمد (٣ / ٣٥٢)، والدارقطنى (٤ / ٧٨-٧٩)، والحاكم (٤ / ٣٣٣ - ٣٣٤) وصححه، جميعهم من حديث جابر به.

وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ

ومعنى قوله: ﴿ فإن كن نساء فوق اثنتين ﴾ يعنى: كن نساء اثنتين فما فوقهما، وهذا كقوله: ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾[1] أى: فاضربوا الأعناق فما فوقها، وقيل: «فوق» فيه صلة، وتقديره: فإن كن نساء اثنتين، واسم الجمع ينطلق على الاثنين؛ لأن الجمع عبارة عن جمع الشيء، ويستوى فيه الاثنان والثلاث، ولأنا أجمعنا على أن الأختين ترثان الثلثين، وهما ابنتا أب الميت، فالابنتان لأَنْ يرثا الثلثين أولى، وهما ابنتاه للصلب.

﴿ وإن كانت واحدة فلها النصف ﴾ وفيه إجماع ﴿ ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك وإن كان له ولد ﴾ يعنى: للميت، ﴿ فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ﴾ وهذا لاخلاف فيه.

﴿ فإن كان له إخوة فلأمه السدس ﴾ أكثر الصحابة والعلماء على أن الأخوين والثلاثة يردون الأم من الثلث إلى السدس.

وقال ابن عباس: الثلاثة يردون، فأما الأخوان فلايردان؛ لأنه ذكر بلفظ الجمع وأقله ثلاثة.

وقد بينا أن اسم الجمع ينطلق على اثنين والثلاثة.

وقرأ حمزة والكسائى : «فلإمه السدس» بكسر الهمزة، وهو لغة فى الأم، والمعروف بالضم[2] ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ يقرأ بقرآتين «يوصِى» بكسر الصاد على معنى: يوصيها الموصى، ويقرأ: يوصَى» بفتح الصاد، على مالم يسم فاعله[3].

(١) الأنفال: ١٢.

(٢) انظر النشر (٢/ ٢٤٨).

(٣) قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو بكر: بفتح الصاد، وقرأ الباقون بكسرها. انظر المصدر السابق.

نصفُ ما تركَ أزْواجُكُمْ إن لَّمْ يكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فإن كانَ لهُنَّ ولَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ ممَّا تَرَكْنَ منْ بَعْد وَصيَّةٍ يُوصينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ولَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ ممَّا

وعن على – رضى الله عنه – أنه قال: إنكم تقرءون الوصية قبل الدين، والدين قبل الوصية، يعنى: فى القضاء، ثم اختلفوا، منهم من قال: «أو» بمعنى «الواو» والمراد الجمع بينهما، وبيان أن الإرث مؤخر عنهما جميعا، ومنهم من قال «أو» على حقيقته، ومعناه: من بعد وصية، إن كانت وصية، أو دين إن كان دين، فالإرث مؤخر عن كل واحد منهما؛ من ذلك عرف تأخيره عنهما إذا اجتمعا بطريق الأولى.

وقوله: ﴿آباؤكم وأبناؤكم﴾ يعنى: الذين يرثونكم آباؤكم وأبناؤكم ﴿لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا﴾ أى: لاتعلمون أيهم أنفع لكم فى الدين والدنيا.

فمنهم من يظن أن الآباء تنفع فتكون الأبناء أنفع، ومنهم من يظن أن الأبناء أنفع، فتكون الأباء أنفع، وأنتم لاتعلمون، وأنا أعلم بمن هو أنفع لكم؛ وقد دبرت أمركم على ما فيه الحكمة والمصلحة، فخذوه، واتبعوه. وفى الأخبار «أن فى الجنة يكون الأب على الدرجة العالية، والابن فى الدرجة السافلة؛ فيسأل الأبن الله تعالى فيرفعه إلى درجة أبيه. ويكون الابن على الدرجة العالية، والأب فى الدرجة السافلة، فيسأل الأب الله – تعالى – فيرفعه إلى درجة الابن»(١) فهذا معنى الآية لاتدرون أيهم أنفع لكم فى الآخرة، وأرفع درجة، فتصلون إلى درجته.

﴿فريضة من الله﴾ يعنى: ما قدر من المواريث ﴿إن الله كان عليما﴾ بأمر العباد ﴿حكيما﴾ بنصب الأحكام.

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير (١١/ ٢٤٠–٢٤١ رقم ١٢٢٤٨)، وفى الصغير (١/ ٣٨٢ رقم ٦٤٠) من حديث ابن عباس مرفوعًا ولفظه: «إذا دخل بالرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول: يارب، قد عملت لى ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به ... الحديث.

وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١١٧): وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان وهو ضعيف.

ورواه ابن جرير (٤/ ١٩٠)، وابن المنذر وابن أبي حاتم – كما فى الدر (٢/ ١٤٠) – عن ابن عباس موقوفا مختصراً.

تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ

قوله تعالى: ﴿ ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ﴾ هذا فى ميراث الأزواج، وفيه إجماع ﴿ ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ﴾ وهذا فى ميراث الزوجات، ولاخلاف فيه.

قوله تعالى: ﴿ وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة ﴾ يعنى: أو امرأة تورث كلالة، قال بعض العلماء: الكَلاَلَة لايُعْلَمُ معناها، وعن عمر - رضى الله عنه - قال: خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يبين لنا ثلاثة: الكلالة، والخلافة، والربا.

والصحيح أنها معلومة المعنى، ثم اختلفوا، قال ابن عباس فى رواية - وهى إحدى الروايتين عن عمر -: إن الكَلاَلَة اسم لميت لا ولد له، وورث الإخوة مع الأب.

وقال الحكم بن عتيبة: والكلالة: اسم لميت لا ولد له، وورث الإخوة مع الوالد، وهما قولان فى شواذ الخلاف، والصحيح فيه قولان:

أحدهما - قول لأهل المدينة والكوفة - أن الكلالة اسم لورثة ليس فيهم ولد ولا والد؛ مأخوذ من الإكليل، وهو الذى على جانبى الوجه، فالكلالة اسم لمن يحيط بجانبى الميت من الإخوة والأخوات، والأعمام، ونحوهم، ولم يكن أعلى ولا أسفل.

واستدلوا عليه بحديث جابر «كان مريضا؛ فدخل عليه رسول الله ﷺ يعوده، فقال: إنما يرثنى كلالة». [1] ولم يكن فى ورثته ولد ولا والد، وجعل الكلالة اسما للوارث، ويشهد لهذا ما قرئ فى الشواذ: «وإن كان رجل يورِّث كلالة» مشدداً بكسر الراء.

(١) متفق عليه، رواه البخارى (١٢/٢٦ رقم ٦٧٤٣ وأطرافه فى ١٩٤، ٤٥٧٧، ٥٦٥١، ٥٦٦٤، ٥٦٧٦، ٦٧٢٣، ٧٣٠٩)، ومسلم (١١/٧٨-٨١ رقم ١٦١٦).

غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ

وقال البصريون: وهو قول أبى بكر، وعلى، وابن مسعود، وزيد، وفى أصح الروايتين عن ابن عباس: أن الكلالة: اسم للميت الذى ليس له ولد ولا والد، وهو ظاهر الآية، وتشهد له القراءة الأخرى فى الشواذ: «وإن كان رجل يورِّث كلالة» مشدداً بفتح الراء. قال الشاعر:

وإن أَبَا المرء أَحمى له[1] ومولى الكلالة لايغضب

فجعل الكلالة اسما للميت.

وفيه قول آخر: أن الكلالة اسم للتركة، قاله عطاء. وقوله: ﴿وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس﴾ أجمعوا على أن المراد بالأخ والأخت ها هنا أولاد الأم، وفرض لكل واحد منهم السدس ذكرا كان أو أنثى.

﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث﴾ وفيه إجماع، أن فرضهم الثلث إذا تعددوا، وإن كثروا ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار﴾ يعنى: الموصى لايضر بالورثة بمجاوزة الثلث، ونحوه ﴿وصية من الله﴾ أى: فريضة من الله ﴿والله عليم حليم﴾ ﴿تلك حدود الله﴾ يعنى: ما ذكر من الفروض المحدودة، ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم﴾ ذكر ثواب من أطاعه، ولم يجاوز حدوده ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين﴾ ذكر عقاب من عصاه، وجاوز حدوده.

قوله - تعالى -: ﴿واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم﴾ اللاتى، والتى،

(١) وقع هذا الشطر من البيت فى الأصل كما يأتى:

وإن أبى المراء حمى له

وما أثبتناه من لسان العرب (مادة: كلل). وفسره بقوله: أراد أن أبا المرء أغضب له إذا ظلم، وموالى الكلالة وهم: الإخوة، والأعمام، وبنو الأعمام وسائر القرابات لايغضبون للمرء غَضَبَ الأب.

حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾ وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ

واللواتى: اسم لجماعة النساء، قال الشاعر:

هن اللواتى والتى واللاتى زعمن أنى قد كبرت لِداتى

ومثله: اللائى أيضًا، قال الشاعر:

من اللائى لم يحججن تبغين حسبة ولكن ليقتلن البرىء المغفلا

وقوله: ﴿ يأتين الفاحشة ﴾ أراد بالفاحشة هاهنا الزنا: ﴿ فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ﴾ هو خطاب للحكام، يعنى: فاطلبوا عليهن أربعة من الشهود، وهذه الآية هى الحجة على أن شهود الزنا أربعة ﴿ فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ﴾ وكان هذا هو الحكم فى ابتداء الإسلام، وأن المرأة إذا زنت حبست فى البيت إلى أن تموت. ثم نسخ ذلك فى حق البكر بالجلد و التغريب، وفى حق الثيب بالجلد والرجم، وهو بيان السبيل المذكور فى الآية، والحجة عليه: حديث عبادة: « خذوا عنى خذوا عنى، قد جعل الله لهن سبيلا: البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة »[1].

ثم نسخ الجلد فى حق الثيب، واستقر أمرها على الرجم.

وقال بعض العلماء: الجلد مع الرجم باق على الحكم، والأول أصح.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: التغريب أيضا منسوخ فى حق البكر، والخلاف مذكور فى الفقه.

واختلفوا فى أن ذلك الإمساك فى البيت كان على سبيل الحدّ أَمْ كان حبسا؛ ليظهر الحد؟ على قولين: أحدهما: أنه كان حدا، والثانى: أنه كان حبسا ليظهر الحد.

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه (١١/ ٢٧٠ - ٢٧٣ رقم ١٦٩٠)، وأبو داود (٤/ ١١٤ رقم ٤٤١٥ ، ٤٤١٦)، والترمذى (٤/ ٣٢ رقم ١٤٣٤)، وقال: حسن صحيح، والنسائى فى الكبرى (٦/ ٣٢٠ رقم ١١٠٩٣)، وابن ماجه (٢/ ٨٥٢ رقم ٢٥٥٠) جميعهم عن عبادة مرفوعًا.

لَهُنَّ سَبِيلاً ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ

قوله تعالى: ﴿ واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ﴾ اختلفوا فى المراد من الآيتين، قال مجاهد: الآية الأولى فى النساء، وهذه الآية فى الرجال إذا زنوا.

وقال غيره: الأولى فى الثيب، وهذه الآية فى الأبكار.

وفيه قول ثالث: أن الآية الأولى فى المرأة إذا أتت المرأة سحقًا، والآية الثانية فى الرجل إذا أتى الرجل.

وقد قال ﷺ: «إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان، وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان»[1].

والمراد بالإيذاء فى هذه الآية: هو السب باللسان، وإسماع المكروه، والتعيير، والضرب بالنعال.

فإن قيل: ذكر الحبس فى الآية الأولى، والإيذاء فى الآية الثانية، فكيف وجه الجمع؟ قيل: أما على قول من قال: إن الآية الأولى فى صنف، والآية الثانية فى صنف آخر، يستقيم الكلام.

وقال بعضهم: أراد به: الجمع بين الإيذاء والحبس فى حق الزانى فيؤذى أولا، ثم

---

(١) الحديث شطره الأول: «إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان». رواه الآجرى فى ذم اللواط (٥١)، والبيهقى فى سننه (٨/٢٣٣) من حديث أبى موسى مرفوعًا، وقال البيهقى: هو منكر بهذا الإسناد.

وقال الحافظ فى التلخيص (٤/١٠٣): رواه البيهقى من حديث أبى موسى، وفيه محمد بن عبد الرحمن القشيرى، كذبه أبو حاتم. ورواه أبو الفتح الأزدى فى الضعفاء، والطبرانى من وجه آخر عن أبى موسى، وفيه بشر بن الفضل البجلى، وهو مجهول، وقد أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده عنه.

وشطره الثانى جاء بلفظ: «سحاق النساء زنا بينهن» رواه أبو يعلى (١٣/٤٧٦رقم ٧٤٩١)، والطبرانى فى الكبير (٢٢/٦٣ رقم ١٥٣)، والآجرى فى ذم اللواط (ص٥٤)، وابن عدى فى الكامل (٥/١٧٤)، والخطيب فى التاريخ (٩/٢٩ – ٣٠) جميعهم من حديث واثلة، وزاد الخطيب أنسًا مع واثلة.

يحبس، والآية الثانية وإن كانت فى التلاوة متأخرة، فهى فى المعنى متقدمة، كأنه قال: واللذان يأتيان الفاحشة منكم فآذوهما وأمسكوهما فى البيت ﴿فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما﴾ أى: أعرضوا عن الإيذاء ﴿إن الله كان توابا رحيما﴾.

قوله – تعالى –: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة﴾ قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن من عصى الله فهو جاهل، وقيل: أراد به: الجهّال بكنه عقوبة الله، وقيل: الجهالة فى المعصية: أنه اختار اللذة الفانية على اللذة الباقية.

﴿ثم يتوبون من قريب﴾ يعنى: قبل الموت، قال الضحاك: كل ما بينك وبين الموت فهو قريب، وقيل: أراد به: التوبة قبل أن يعاين ملك الموت، وقيل: أراد به: ثم يتوبون قبل أن يغرغروا.

وفى الخبر:أن النبى قال: «من تاب قبل موته بسنة تاب الله عليه، ثم قال: إن السنة (لكثيرة)[1]، ثم قال: من تاب قبل موته بشهر تاب الله عليه، ثم قال: إن الشهر لكثير، ثم قال: من تاب قبل موته بجمعة، تاب الله عليه، ثم قال: إن الجمعة (لكثيرة)[1]، ثم قال: من تاب قبل موته بيوم، تاب الله عليه، ثم قال: إن اليوم لكثير، (من تاب قبل موته بنصف يوم تاب الله عليه، ثم قال: إن نصف اليوم لكثير)[2] من تاب قبل موته بساعة تاب الله عليه، ثم قال: إن الساعة لكثيرة[1]، من تاب قبل أن يغرغر تاب الله عليه».[3] رواه عبادة بن الصامت، فهذا معنى قوله: ﴿ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيماً﴾.

قوله – تعالى –: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات﴾ قيل: أراد

(١) فى «ك»: لكثير. (٢) ليس فى «ك».

(٣) رواه الطبرى (٤/٢٠٥) باختصار من حديث عبادة بن الصامت. وبنحوه رواه أحمد فى مسنده (٢/٢٠٦)، والطيالسى (ص٣٠١ رقم ٢٢٨٤)، والطبرى فى تفسيره (٤/٢٠٦)، والحاكم (٤/٢٥٨-٢٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٠٠): رواه أحمد، وفيه راوٍ لم يسم، وبقية رجاله ثقات. ورواه أحمد فى مسنده (٣/٤٢٥)، والحاكم (٤/٢٥٧-٢٥٨) عن نفر من الصحابة بنحوه مطولا. وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٠٠): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير عبد الرحمن، وهو ثقة.

اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ

بالسيئات: الشرك، وقال ابن عباس: هو النفاق، وقيل: كل المعاصى.

﴿ حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ﴾ يعنى: حالة الموت، يتوب حين يساق، ووجه ذلك: مثل توبة فرعون حين أدركه الغرق، قال: آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل، يقول الله - تعالى -: ليس لهؤلاء توبة.

﴿ ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ يعنى: ولا الذين يموتون كفارا لهم توبة ﴿ أولئك أعتدنا لهم ﴾ أى: أعددنا لهم ﴿ عذابا أليمًا ﴾.

﴿ يا أيها الذين آمنوا لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها ﴾ نزلت الآية فى الأنصار، كان الرجل منهم إذا مات أبوه؛ ورث امرأة أبيه، ثم إن شاء أمسكها لنفسه زوجة، وإن شاء زوجها من غيره، وأخذ صداقها، وإن شاء عضلها عن الأزواج، حتى تضجر [فتفدى][1] نفسها بمال، حتى مات أبو قيس بن الأسلت الأنصارى عن امرأته كبيشة بنت معن الأنصارى، فجاء [ابنه][2] حصن وورث المرأة؛ فجاءت المرأة تشكو إلى النبى ﷺ فنزل قوله - تعالى -: ﴿ لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها ﴾ ويقرأ: «كُرْها»[3] بضم الكاف، فالكَرَه بالفتح: الإكراه، والكُرْه بالضم المشقة. ﴿ ولاتعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ﴾ أى: تمنعوهن من الأزواج حتى يضجرن؛ فيفتدين ببعض مالهن، فيكون خطابا لأولياء الميت.

والصحيح أنه خطاب للأزواج، يعنى: إذا لم تكن الزوجة بموافقة، فلا تمسكها

(١) ليست فى «الأصل» ولا «ك».

(٢) فى «الأصل»: أبوه، وفى «ك»: أبو، وكلاهما خطأ، والصواب: ابنه، واسمه حصن، له ترجمة فى الإصابة (١/٣٣٥)، وذكر الحافظ أن الثعلبى ذكره فى تفسيره بنحو ما هنا، وكذا الواقدى، لكن بلا إسناد، وصوب أن اسمه قيس بن أبى قيس بن الأسلت، وترجم له فى الإصابة (٣/٢٥١ - ٢٥٢).

(٣) قرأ حمزة، والكسائى، وخلف بضم الكاف، وقرأ الباقون بفتحها. انظر النشر (٢/٢٤٨).

ضرارا؛ لتفتدى ببعض مالها ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ قال ابن عباس: هو النشوز، وقيل: هو الزنا، يعنى: إذا نشزت أو زنت، فحينئذ يحل أن يفاديها، ويأخذ مالها، وكان فى ابتداء الإسلام إذا زنت المرأة أخذ الزوج جميع صداقها منها ثم نسخ ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ أى: الإجمال فى المبيت، والقول، والنفقة ﴿ فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ﴾ أراد بالزوج هاهنا: الزوجة، وهو اسم للرجل والمرأة ﴿ وآتيتم إحداهن قنطارا ﴾ يعنى: من الصداق، ﴿ فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا ﴾ أى: ظلما ﴿ وإثما مبينا ﴾.

﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾ أى: وصل بعضكم إلى بعض بالدخول، وحكى عن الزجاج: أنه الخلوة، والأول أصح.

﴿ وأخذن منكم ميثاقا غليظا ﴾ هو قول الولى: زوجتكها على أن تمسكها بمعروف، أو تسرحها بإحسان، وقيل: هو معنى ما روى: «اتقوا الله فى النساء؛ فإنهن عندكم عوان، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»[(١)] فهذا هو الميثاق الغليظ.

قوله - تعالى -: ﴿ ولاتنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ﴾ كان أهل الجاهلية ينكحون أزواج آبائهم؛ فورد الشرع بالنهى عنه ﴿ إلا ما قد سلف ﴾ يعنى: بعدما سلف، وقال المبّرد: ومعناه: لكن ما سلف فى الجاهلية؛ فهو مغفور.

﴿ إنه كان فاحشةً ومقتًا ﴾ قيل «كان»: فيه صلة، وتقديره: إنه فاحشة، وهذا كما

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه (٨/٢٥٢ رقم ١٢١٨)، وأبو داود (٢/١٨٢ - ١٨٧ رقم ١٩٠٥، ١٩٠٩)، وابن ماجة (٢/١٠٢٢ رقم ٣٠٧٤) من حديث جابر فى حجة الوداع.

يقول الشاعر:

فكيف إذا رأيت ديار قومى[1] وجـيران لنا كـانوا كـرامِ

وقيل: «كان» فى موضعه، ومعناه: أنه كان فى الجاهلية يعدونه فاحشة ومقتا، وكانوا يسمون ولد امرأة الأب: مقيتا، والفاحشة: أقبح معصية، وأما المقت: قال أبو عبيدة هو المبغضة من الله، وقال ابن عباس: أراد به المقت من الملائكة ﴿وساء سبيلا﴾ أى: بئس المسلك.

قوله - تعالى -: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ قال ابن عباس: حرم الله - تعالى - سبعا بالنسب، وسبعا بالمهر، وقال الفقهاء: سبعًا بالنسب، وسبعًا بالسبب.

أما السبع بالنسب: منهن الأمهات: وهى كل امرأة تنسب إليها بالولادة، سواء قربت أو بعدت، سواء كان بينك وبينها ذكر أو أنثى، أو لم يكن أحد، فالكل حرام.

قال: ﴿وبناتكم﴾ ومنها البنات: وهى كل امرأة تنسب إليكم بالولادة، سواء قربت أو سفلت، سواء كان بينك وبينها ذكر أو أنثى، أو لم يكن أحد، فالكل حرام.

قال ﴿وأخواتكم﴾ ومنها الأخوات: وهى كل امرأة تنسب إلى من تنسب إليه بالولادة، فالكل حرام. قال: ﴿وعماتكم﴾ ومنها العمات، والعمة: أخت كل ذكر تنسب إليه بالولادة، فالكل حرام، قرب أم بعد، قال: ﴿وخالاتكم﴾ ومنها الخالات، والخالة: أخت كل امرأة تنسب إليها بالولادة، قربت أم بعدت.

(١) وقع هذا الشطر من البيت فى لسان العرب (مادة: كون) كما يأتى.

فكيف إذا مررت بدار قومٍ

وفى (مادة: كنن):

فكيف ولو مررت بدارِ قومٍ

أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا

قال: ﴿ وبنات الأخ وبنات الأخت ﴾ ومنها بنات الأخ وبنات الأخت: وهى بنت كل من تنسب إلى من تنسب إليه، فهذه السبعة بالنسب.

وأما السبع بالسبب: فإحداهن مذكورة قبل هذه الآية فى قوله: ﴿ ولاتنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ﴾، والثانية فى قوله: ﴿ وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم ﴾، والثالثة: ﴿ وأخواتكم من الرضاعة ﴾، ولا خلاف أن الأم والأخت من الرضاعة حرام على الرجل نكاحها، فأما ما عدا الأمهات والأخوات من الرضاعة حرام أيضا عند أكثر العلماء؛ لقوله ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»[1].

قال داود، وأهل الظاهر: لايحرم ما عدا الأمهات والأخوات بالرضاع؛ تمسكا بظاهر القرآن.

قال ﴿ وأمهات نسائكم ﴾ الرابعة: أم الزوجة، تحرم على الإطلاق بنفس العقد على قول الأكثرين، وحكى خلاس عن على – رضى الله عنه – أنه قال: «لاتحرم أم الزوجة إلا بعد الدخول بالزوجة لقوله – تعالى –: ﴿ وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ﴾ قال: فقوله: ﴿ من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ﴾ ينصرف إليهما جميعًا. والأول أصح.

قال ابن عباس: أبهموا ما أبهمه الله، أى: أطلقوا ما أطلقه الله؛ ولأن قوله: ﴿ وأمهات نسائكم ﴾ مستقل بنفسه، معتد بحكمه، فيستغنى عن الإظهار؛ ولأن قوله: وأمهات نسائكم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن على هذا التقدير يكون عيًّا فى الكلام، فلا يليق بكلام الله – تعالى – الذى هو أفصح أنواع الكلام.

قال: ﴿ وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ﴾.

(١) متفق عليه من حديث عائشة. رواه البخارى (٩/ ٤٣ رقم ٥٠٩٩)، ومسلم (١٠/ ٢٨ – ٢٩ رقم ١٤٤٢).

أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ منكم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا

الخامسة: الربيبة؛ وهى ابنة الزوجة، وسميت ربيبة؛ لأن الزوج يربها فى حجره على الأغلب، فهى حرام بعد الدخول بالزوجة، وسواء كانت فى حجره، أو فى حجر غيره.

وقال داود: يختص التحريم بالتى فى حجره؛ لقوله: ﴿وربائبكم اللاتى فى حجوركم﴾. وهذا لايصح؛ لأن الكلام خرج على الأغلب.

﴿فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾ يعنى: فى نكاحهن.

وقال: ﴿وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾ السادسة: حليلة الابن، وهى حرام، وسميت حليلة؛ لأنها مع الابن يحلاّن فراشاً واحداً، وقيل: لأنها تحل إزار الابن، والابن يحل إزارها، وقيل: سميت حليلة؛ لأنها تحل له.

وقوله ﴿الذين من أصلابكم﴾ إنما قيد بالصلب، وإن كان حليلة ولد الولد حراما؛ ليبين أن حليلة ولد التبنى حلال. وقد تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش امرأة زيد بن حارثة، وكان قد تبنى زيدا، حتى قال عبد الله بن أبى بن سلول: انظروا إلى هذا الرجل، كيف وثب على امرأة ابنه وتزوجها: فقال الله تعالى: ﴿وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾ بذلك السبب.

﴿وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف﴾ السابعة: الجمع بين الأختين بالنكاح، وكذلك بالوطء فى ملك اليمين، وقال أهل الظاهر: لايحرم الجمع بينهما فى النكاح؛ لأن الآية فى التحريم بالنكاح، قال عثمان: حرمتها آية وأحلتها آية: التحريم هذه؛ وآية التحليل قوله: ﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾[1] ﴿إلا ما قد سلف﴾ أى: بعدما سلف وقد [بينا لك][2] ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾.

قوله تعالى: ﴿والمحصنات من النساء﴾ أراد به: ذوات الأزواج ﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾ اختلفوا فيه، فقال على، وابن عباس: أراد به: إلا ما ملكت أ

---

(١) النساء: ٢٤.

(٢) فى «الأصل وك»: بيناك.

وَسَاءَ سَبِيلاً (٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ

سبايا أوطاس، وفيه نزلت الآية، قال أبو سعيد الخدرى: «لما سبا رسول الله ﷺ سبايا أوطاس، هرب الرجال؛ فتحرج المسلمون من وطء النساء بمكان الأزواج؛ فنزلت الآية، وأذن رسول الله ﷺ فى وطئهن»(١).

وقال ابن مسعود، وأبى بن كعب: إن قوله: ﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾ هو أن يبيع الجارية المزوجة، فتقع الفرقة بينها وبين زوجها، ويحل للمشترى وطأها، ويكون بيعها طلاقا لها.

وقيل: معنى الآية ﴿والمحصنات من النساء﴾ يعنى: ذوات الأزواج يحرم الاستمتاع بهن، ﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾ من مهرهن، فيحل الاستمتاع به، فكأنه حرم الاستمتاع ببضعهن وأباح الاستمتاع بمهرهن.

﴿كتاب الله عليكم﴾ أى: فرض الله عليكم، ويقرأ: «كتب الله عليكم» أى: ... الله عليكم ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ يعنى: أحل الله لكم، ويقرأ: «أحل ...» – بضم الألف – على نظم قوله: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾(٢).

... أن تبتغوا بأموالكم﴾ قيل: الإحلال: بالابتغاء بالأموال، وفيه دليل على أن ...ل البضع لايخلو عن عِوَض ﴿محصنين﴾ أى: متزوجين متعففين ﴿غير ...ن﴾ غير زانين، مأخوذ من سفح الماء، وهو الصب، ومنه قول امرئ القيس:

فهل عندَ رسمٍ دارسٍ من مُعَوَّلِ ... شفائى عَبْرةٌ إن سفحتها(٣)

(١) ...لم (١١/ ٥١ – ٥٤ رقم ١٤٥٦)، وأبو داود (٢/ ٢٤٧ رقم ٢١٥٥) والترمذى (٣/ ٤٣٨ رقم: ...ال: حسن، والنسائى (٦/ ١١٠ رقم ٣٣٣٣)، وأحمد (٣/ ٧٢، ٨٤) والطبرى (٥/ ٢).

(٢) ...ر، وحمزة، والكسائى، وخلف، وحفص: بضم الهمزة وكسر الحاء، وقرأ الباقون بفتحهما. وانظر

(٣) ...ر من البيت فى لسان العرب (مادة: عول، هلل) كما يأتى:

وإن شفائى عبرة مهراقة

أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ

أى: صببتها ﴿ فما استمتعتم به منهن ﴾ قيل: أراد به: فما استمتعتم به بالنكاح منهن، ﴿ فآتوهن أجورهن فريضة ﴾ أى: مهورهن، وقال ابن عباس: هو المتعة المعروفة.

وكانت المتعة حلالاً فى ابتداء الإسلام، وصورتها: أن يقول الرجل للمرأة: أجرتك - أو عقدت عليك - لأستمتع بك عشرة أيام بكذا، وكان هذا حلالا، ثم نسخ، وكان ابن عباس يفتى بإباحتها، والصحيح أنه منسوخ.

وروى على، والربيع عن سبرة، عن النبى ﷺ: «أنه نهى عن نكاح المتعة»(١)

وقال على لابن عباس: إنك رجل تائه نهى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة. وقيل: إن ابن عباس رجع عن إباحة المتعة، وتاب. وقال بعض السلف: لولا أن عمر نهى عن المتعة؛ مازنى أحد فى العالم.

﴿ ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ﴾ فمن حمل ما قبله على المتعة، قال: المراد بهذا: أن يزيد الرجل فى المهر، وتزيد المرأة فى الأجل، ومن حمل ذلك على الاستمتاع بالنكاح؛ فالمراد بقوله: ﴿ ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به ﴾ يعنى: من الإبراء، والاعتياض عن المهر ﴿ إن الله كان عليمًا حكيمًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ و من لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ﴾ قال مجاهد: الطَوْل: السعة، والغنى.

وأصل الطَوْل الفضل، ومنه الطول؛ لفضل القامة، ويقال: لاطائل تحته؛ أى: لامعنى تحته.

(١) حديث على: متفق عليه، رواه البخارى فى صحيحه (٩/ ٧١ رقم ٥١١٥)، ومسلم (٩/ ٢٦٩ - ٢٧١ رقم ١٤٠٧).

وحديث سبرة الجهنى، رواه مسلم (٩/ ٢٦٢ - ٢٦٩ رقم ١٤٠٦)، وأبو داود (٢/ ٢٢٦ - ٢٢٧ رقم ٢٠٧٢، ٢٠٧٣)، والنسائى (٦/ ١٢٦ - ١٢٧ رقم ٣٣٦٨)، وابن ماجة (١/ ٦٣١ رقم ١٩٦٢).

فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ

ومعنى الآية: ومن لم يقدر على مهر الحرة المؤمنة؛ فليتزوج بالأمة المؤمنة، وفيه دليل على أن نكاح الأمة الكتابية باطل.

قال الشعبى: نكاح الأمة مع القدرة على مهر الحرة حرام، كالميتة والدم، وقال عطاء: الطَوْل الهوى، ومعنى الآية: ومن لم يستطع من هواه أن ينكح الحرة؛ بأن كان يهوى الأمة دون الحرة، فليتزوج بالأمة؛ فعلى هذا يجوز نكاح الأمة، وإن كان قادرا على مهر الحرة، والفتى: العبد، والفتاة الجارية، فمعنى قوله – تعالى –: ﴿من فتياتكم المؤمنات﴾ أى: من جواريكم.

﴿والله أعلم بإيمانكم﴾ أى: لاتتعرضوا للباطن فى الإيمان، وخذوا بالإيمان الظاهر؛ فإن الله أعلم بإيمانكم ﴿بعضكم من بعض﴾ أى: كلكم من نفس واحدة؛ فلا تستنكفوا من نكاح الإماء، وقيل: معناه بعضكم أخوة لبعض.

﴿فانكحوهن﴾ أى: الإماء ﴿بإذن أهلهن﴾ أى: بإذن مواليهن ﴿وآتوهن أجورهن﴾ أى: مهورهن ﴿بالمعروف محصنات﴾ يعنى: عفائف بالتزويج ﴿غير مسافحات﴾ أى: غير زانيات ﴿ولا متخذات أخدان﴾ فالمسافحة: هى أن تمكن منها كل أحدٍ، قال الحسن: المسافِحَة: هى امرأة كل من أوى إليها تبعته، و ذات الخدن: هى أن تختص بصديق، والعرب كانت تحرم الأولى وتستبيح الثانية.

قوله تعالى: ﴿فإذا أَحْصَنَّ﴾ قال ابن مسعود: فإذا أسلمن. وقال ابن عباس: فإذا تزوجن، ويقرأ فإذا «أُحْصِنَّ» بضم الألف، ومعناه: زوجن(1).

﴿فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ ومعنى الآية – على قول ابن عباس، وهو الأصح –: أن الإماء إذا تزوجن وصرن ثُيَّبًا ﴿فعليهن نصف

(1) قرأ حمزة، والكسائى، وخلف، وأبو بكر: بفتح الهمزة، والصاد، وقرأ الباقون بضم الهمزة، وكسر الصاد. انظر النشر (٢/ ٢٤٩).

الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ

ما على المحصنات ﴾ يعنى: الحرائر ﴿ من العذاب ﴾ أى: من عذاب الحد، وحدّ الحرائر: يكون بالجلد؛ ويكون بالرجم، والرجم لاينتصف؛ فكان المراد تنصيف الجلد. وذهب بعض العلماء إلى أن الأمة البكر إذا زنت، لاحد عليها؛ لظاهر هذه الآية، وهذا لايصح.

قال الزهرى: حد الأمة الثيب ثابت بهذه الآية، وحد الأمة البكر ثابت بالسنة، والسنة المعروفة فيه: قوله ﷺ: «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها»[1] ﴿ ذلك لمن خشى العنت منكم ﴾ العنت: الزنا، وقد يكون بمعنى المشقة، كما بيّنا ﴿ وأن تصبروا ﴾ يعنى: عن نكاح الإماء ﴿ خير لكم ﴾ كيلا يخلق الولد رقيقا ﴿ والله غفور رحيم ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ يعنى: أن يبين لكم، ومثله قول الشاعر:

أريدُ لأَنْسَى ذِكرَهَا فكأنما تَمَثَّل لى ليلى بكل سبيل

يعنى: أريد أن أنسى ذكرها.

قوله: ﴿ ليبين لكم ﴾ أى: يوضح لكم الأحكام ﴿ ويهديكم ﴾ أى: يرشدكم ﴿ سنن الذين من قبلكم ﴾ أى: طرائق الذين من قبلكم من النبيين، والصالحين، وقيل: من قوم موسى، وعيسى، الذين هدوا بالحق؛ وذلك أنه حرم عليهم ما حرم على المسلمين من المحارم المذكورات، وقيل: معناه: ويهديكم إلى[2] الملة الحنيفية، ملة إبراهيم، ﴿ ويتوب عليكم ﴾ قال ابن عباس: بداء من الله ، ومعناه: يوفقكم للتوبة، وقيل: يرشدكم إلى السبيل الذى يدعوكم إلى التوبة ﴿ والله عليم ﴾ بمصالح أمركم

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة وزيد بن خالد، رواه البخارى (١٢/ ١٦٨ رقم ٦٨٣٧ وأطرافه فى ٢١٥٣، ٢١٥٤، ٢٢٣٢، ٢٢٣٣، ٢٥٥٥، ٢٥٥٦، ٦٨٣٨)، ومسلم (١١/ ٣٠٣ رقم ١٧٠٤).

(٢) من «ك».

أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ

﴿ حكيم ﴾ فيما دبر .

قوله تعالى : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ﴾ هو ما ذكرنا . ﴿ ويريد الذين يتبعون الشهوات ﴾ قال مجاهد : هم الزناة، وقيل : أراد به : اليهود، والنصارى، قال مقاتل بن حيان : اليهود خاصة؛ لأنهم استحلوا نكاح الأخت من الأب ﴿ أن تميلوا ميلا عظيما ﴾ الميل العظيم : هو أن يفعل فعلا لايخاف الله فيه، ولا يرقب الناس، وقيل : الميل العظيم باتباع الشهوات .

قوله – تعالى –: ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ أى : يسهل عليكم، وقد سهل هذا الدين؛ قال ﷺ : « بعثت بالسمحة السهلة الحنيفية »، وروى : « بالحنيفية السمحة السهلة »[1] وقال الله – تعالى –: ﴿ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ﴾[2] .

﴿ وخلق الإنسان ضعيفًا ﴾ قال طاوس، ومجاهد : وخلق ضعيفًا فى أمر النساء؛ لايصبر عنهن، وقال وكيع : يذهب عقله عندهن؛ فهو ضعيف، وقال الزجاج : يستميله هواه وشهوته .

قوله – تعالى –: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ قال السدى : هو القمار، والربا، ونحوه، وقال غيره : كل العقود الباطلة ﴿ إلا أن تكون تجارة ﴾ يقرأ : بالضم والفتح، وقد ذكرنا وجه القراءتين فى سورة البقرة .

﴿ عن تراض منكم ﴾ أى : بطيبة نفس منكم ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ أى : لايقتل بعضكم بعضًا، وقرأ الحسن : ﴿ ولاتقتلوا أنفسكم ﴾ – مشددا – على التكثير .

(١) رواه أحمد (٥ / ٢٦٦) عن أبى أمامة، والخطيب فى تاريخه (٧ / ٢٠٩) عن جابر بن عبد الله مرفوعاً .

ورواه أحمد (٦ / ١١٦) عن عائشة، وفيه « لتعلم يهود أن فى ديننا فسحة، إنى أرسلت بحنيفية سمحة » .

وقال السخاوى فى المقاصد (ص١٨٦) : وسنده حسن، وفى الباب عن أبى بن كعب، وأسعد بن عبد الله الخزاعى، وجابر، وابن عمر، وأبى هريرة وغيرهم .

(٢) الأعراف : ١٥٧ .

وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ

وقيل: معناه: ولاتقتلوا أنفسكم بأكل المال الباطل، وقيل: أراد به: قتل الرجل نفسه على الحقيقة ﴿إن الله كان بكم رحيما﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ يعنى: ما سبق من الحرام ﴿عدوانا وظلما﴾ فالعدوان: مجاوزة الحد، والظلم: وضع الشىء فى غير موضعه.

﴿فسوف نصليه نارا﴾: ندخله نارا، يصلى بها ﴿وكان ذلك على الله يسيرا﴾ أى: هيّنا، وروى عن ابن عمر أنه قال: كنا نشهد لمن ارتكب الكبائر بالنار بهذه الآيات؛ حتى نزل قوله - تعالى -: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[1] فتوقفنا.

قوله - تعالى -: ﴿إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه﴾ سئل رسول الله ﷺ فقيل له: «أى الكبائر أكبر؟ فقال: أن تدعو لله ندا وهو خلقك، قيل: ثم أى؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يأكل معك، قيل: ثم أى؟ قال: أن تزنى بحليلة جارك، ثم قرأ ﴿والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولايقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولايزنون﴾[2]»[3] وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف، وكان متكئا فاستوى جالسا، وقال: وشهادة الزور، وشهادة الزور، فمازال يردده حتى قلنا: ليته سكت»[4].

وقال ابن مسعود: الكبائر: ما ذكر الله - تعالى - فى هذه السورة إلى هذه الآية: ﴿إن تجتنبوا كبائر﴾.

---

(١) النساء: ٤٨، ١١٦.

(٢) الفرقان: ٦٨.

(٣) متفق عليه من حديث ابن مسعود، فرواه البخارى (١٢/١١٦ رقم ٦٨١١ وأطرافه فى ٤٧٦١، ٦٠٠١، ٦٨٦١، ٧٥٢٠، ٧٥٣٢)، ومسلم (٢/١٠٥ - ١٠٦ رقم ١٤١).

(٤) متفق عليه من حديث أبى بكرة، فرواه البخارى (١٠/٤١٩/ رقم ٥٩٧٦ وأطرافه فى ٢٦٥٤، ٦٢٧٣، ٦٢٧٤، ٦٩١٩) ومسلم (٢/١٠٨/ رقم ١٤٣) وليس عندهما «الفرار من الزحف».

وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ

وعن ابن مسعود أيضا أنه قال: الكبائر أربعة: الإشراك بالله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله.

وقال ابن عباس: الكبائر سبع: الإشراك بالله، وقتل النفس بغير نفس، وقذف المحصنة، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، و الفرار من الزحف، والتعرّب بعد الهجرة، يعنى: إلى دار الحرب.

وقال ابن عمر: الكبائر تسع فذكر هذه السبع وزاد شيئين أحدهما: السحر ، والثانى: الإلحاد فى الحرم بالميل والظلم .

وسئل ابن عباس، فقيل له: الكبائر سبع؟ فقال: هى إلى السبعين أقرب منها إلى السبع، وقال المغيرة بن مقسم الضبى: شتم أبى بكر، وعمر من الكبائر.

والجملة أن الكبائر: كل جريمة أَوْعَدَ الله – تعالى – عليها النار، وقال أبو صالح: الكبيرة كل ما أوجب الحد؛ غير أنه لاكبيرة مع الاستغفار، ولاصغيرة مع الإصرار.

وقوله: ﴿نكفر عنكم سيئاتكم﴾ قال السدى: أراد بالسيئات: الصغائر ﴿نكفر عنكم سيئاتكم﴾ إن شئت؛ فالمشيئة مضمرة فيه، وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الجمعة إلى الجمعة، والصلوات الخمس، كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»(١).

وروى أبو سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يصيبه وصب، أو نصب، إلا كفر عنه خطاياه حتى الشوكة يشاكها»(٢)

(١) رواه مسلم فى صحيحه (٣/١٤٧ – ١٤٨ رقم ٢٣٣)، والترمذى (١/٤١٨/ رقم ٢١٤)، وأحمد (٢/٣٥٩) من حديث أبى هريرة.

وقال الترمذى حسن صحيح، وفى الباب عن جابر، وأنس، وحنظلة الأسدى.

(٢) متفق عليه من حديث أبى سعيد، وأبى هريرة، رواه البخارى (١٠/١٠٧/ رقم ٥٦٤١) ومسلم (١٦/١٩٦/ رقم ٢٥٧٣).

عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ

وقيل: باجتناب الكبائر، تقع الصغائر مكفرة، ومذهب أهل السنة: أن تكفير الصغائر معلقة بالمشيئة؛ فيجوز أن يعفو الله عن الكبائر، ويأخذ بالصغائر، ويجوز أن يجتنب الرجل الكبائر، فيؤخذ بالصغائر.

﴿ وندخلكم مدخلا كريما ﴾ وتقرأ: «مدخلا»[1] - بفتح الميم - فالمدخل: الجنة والمُدخل - بضم الميم -: الإدخال، يعني: إدخالاً كريمًا.

قوله - تعالى -: ﴿ ولاتتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ سبب نزول الآية: ماروى عن أم سلمة، قالت: يارسول الله: إن الرجال يغزون ولا نغزوا، ولهم ضعف مالنا من الميراث، فلو كنا رجالا غزونا كما غزوا، وأخذنا من الميراث مثل ما أخذوا؛ فنزل قوله: ﴿ ولاتتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ وقيل: سبب نزول الآية: أن أهل الجاهلية كانوا لايُورِّثون النساء؛ فلما نزلت الآية بتوريث النساء، وجُعل للذكر مثل حظ الأنثيين، قالت النساء: لو كنا رجالا لأخذنا من الميراث مثل ما أخذوا، وقال الرجال: كما فضلنا عليكن فى الدنيا، نفضل عليكن فى الآخرة؛ فنزلت الآية.

قال الفراء: هذا نهى تأديب وتهذيب، وقال غيره: إنه نهى تحريم ﴿ للرجال نصيب مما اكتسبوا ﴾ يعنى: من الأجر ﴿ وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾ يعنى: من الأجر، ومعنى الآية: أن الرجال والنساء فى الأجر فى الآخرة سواء، وإن فُضِّلَ الرجال على النساء فى الدنيا، فالحسنة بعشر أمثالها يستوى فيها الرجل والمرأة، وقيل: معناه: للرجال نصيب مما اكتسبوا من أمر الجهاد، وللنساء نصيب مما اكتسبن من طاعة الأزواج، وحفظ الفروج، يعنى: إن كان للرجل فضل الجهاد، فللنساء فضل طاعة الأزواج، وحفظ الفروج.

(١) قرأ نافع، وأبو جعفر المدنيان: بفتح الميم، وقرأ الباقون بالضم. انظر النشر (٢/ ٢٤٩).

عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ

﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ وفى هذا دليل على أن الحسد حرام، والحسد: هو أن يتمنى زوال النعمة عن صاحبه، ويتمناها لنفسه، والغبطة: هو أن يتمنى لنفسه مثل ما لصاحبه، فالحسد حرام، والغبطة لابأس بها، ثم اختلفوا فى معنى الفضل هاهنا، قال ابن عباس: واسألوا الله من فضله، أى: من رزقه.

وقال سعيد بن جبير: معناه: ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ أى: من عبادته، وقيل: هو سؤال التوفيق على الطاعة ﴿ إن الله كان بكل شىء عليما ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ ولكل جعلنا موالى ﴾ ولكل من الرجال والنساء جعلنا ورثة، قال مجاهد: الموالى ها هنا: بنو الأعمام، وقال الشاعر:

مهلا بنى عمنا مهلا موالينا ... لاتنشبوا بيننا ما كان مدفونا

وقيل: هم جميع الأقارب، ومعنى الآية: ولكل جعلنا موالى يعطون ﴿ مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ ﴿ والذين عاقدت[١] أيمانكم فآتوهم نصيبهم ﴾ عاقدت، وعقدت، وحالفت بمعنى واحد، وهو من الحلف والعهد: وهو أن يقول الرجل لصاحبه: دمى دمك، ومالى مالك، وترثنى وأرثك، وكان فى الجاهلية يورّث بالحلف، وأقر عليه فى الإسلام، وكان للحليف السدس، ثم نسخ ذلك بقوله - تعالى -: ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾[٢] وقيل: هذا فى التوريث بالتبنى، وكان ثابتا، ثم نسخ ﴿ إن الله كان على كل شىء شهيدا ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ﴾ سبب نزول الآية: أن امرأة سعد بن الربيع جاءت إلى النبى ﷺ وقالت: «إن زوجى

(١) كذا بالأصل، و«ك» وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم «عقدت» بغير ألف، وقرأ الباقون بالألف. انظر النشر (٢٤٩/٢).

(٢) الأنفال: ٧٥.

عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ

لطمنى على وجهى، وهذا أثره، فقال ﷺ : اذهبى فاقتصى منه؛ فنزل قوله – تعالى –: ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله ﴾»[(١)] يعنى: بالتأديب.

قال الحسن: لما قال ﷺ لها: اذهبى فاقتصى منه؛ نزل قوله: ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾[(٢)] أى: لاتحكم قبل أن ينزل حكم الله.

والقَوَّام والقَيِّم بمعنى واحد، والقَوَّام أبلغ: وهو القائم بالمصالح والتدبير، قال الشاعر:

الله بينى وبين قيمها   يفــر منــى وأتبــع

﴿ بما فضل الله بعضهم على بعض ﴾ يعنى: الرجال على النساء بالعقل، والعلم، والحلم. ﴿ وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ يعنى: بإعطاء المهر، والنفقة.

﴿ فالصالحات قانتات ﴾ يعنى: مطيعات، وقيل: مصلِّيات ﴿ حافظات للغيب ﴾ أى: حافظات للفروج فى غيبة الأزواج ﴿ بما حفظ الله ﴾ يعنى: بما حفظهن الله من إيصاء[(٣)] الأزواج بأداء حقهن من المهر والنفقة، وقيل: معناه: حافظات للغيب بحفظ الله، وقرأ أبو جعفر المدنى «بما حفظ الله» بفتح الهاء[(٤)] يعنى: بما حفظ الله من طاعتهن وعبادتهن.

﴿ واللاتى تخافون نشوزهن ﴾ النشوز: هو الشقاق ﴿ فعظوهن ﴾ أى: بالتخويف من الله، والوعظ بالقول، ﴿ واهجروهن فى المضاجع ﴾ قال ابن عباس: ومعناه: ولّوهنّ ظهوركم فى المضاجع؛ وذلك بأن يوليها ظهره فى الفراش، ولا يكلمها، وقيل: معناه: أن يعتزل عنها فى فراش آخر.

---

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص١١١).

(٢) طه: ١١٤.

(٣) فى «الأصل، وك»: إيصال، آخره لام. والصواب ما أثبتناه، انظر تفسير البغوى (١/ ٤٢٢).

(٤) انظر المصدر السابق، والنشر (٢/ ٢٤٩).

لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا

﴿ واضربوهن ﴾ يعنى: ضربا غير مبرح، وذلك ضرب، ليس فيه جرح ولا كسر، قال عطاء: ضرب بالسواك ونحوه.

﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ﴾ يعنى: بالتعلل، والتجنى، وقيل: فلا تكلفوهن محبتكم؛ فإن القلب ليس بأيديهن ﴿ إن الله كان عليا كبيرا ﴾ أى: متعاليا عن أن يكلف العباد ما لايطيقونه، وفى الخبر: «لو جاز أن يسجد أحد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها؛ لما له عليها من الحقوق»[1].

وروى مرفوعا: «خير النساء من إذا دخلت عليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك وإن غبت عنها حفظتك»[2].

﴿ وإن خفتم شقاق بينهما ﴾: هو النشوز، قال أبو عبيدة: أراد به: إن تيقنتم شقاق بينهما، فالخوف بمعنى: اليقين، ومنه قول الشاعر:

إذا مت فارمينى إلى جنب كرمة ... أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها[3]

أى: أتيقن.

(١) رواه الترمذى (٣/٤٦٥/ رقم ١١٥٩) وقال: حسن غريب، وابن حبان فى صحيحه - الإحسان - (٩/٤٧٠/رقم ٤١٦٢)، والبيهقى (٧/٢٩١) كلهم من حديث أبى هريرة.

ورواه الحاكم (٤/١٧١-١٧٢) بإسناد آخر، وصححه، وتعقبه الذهبي في التخليص بقوله: بل سليمان هو اليمامى، ضعفوه. وفى الباب عن غير واحد من الصحابة.

(٢) رواه النسائى (٦/٦٨/رقم ٣٢٣١)، والطيالسى (ص٣٠٦/رقم ٢٣٢٥)، وأحمد فى مسنده (٢/٢٥١)، والحاكم (٢/١٦١) وصححه على شرط مسلم، كلهم من حديث أبى هريرة وروى هذا الحديث من حديث ابن عباس، وأبى أمامة، وعبد الله بن سلام، وغيرهم، انظر تخريج الكشاف للزيلعى (١/٣١٣ - ٣١٥).

(٣) هذا البيت ملفق، فالشطر الثانى منه هو الشطر الثانى من البيت الذى يليه. وصواب الأبيات كما يأتى:

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة ... تروى عظامى بعد موتى عروقها

ولا تَدْفِنَـــــىٌّ بالفلاة فإننـــى ... أخـاف إذا مامـت أن لا أذوقها

انظر لسان العرب (مادة: كرم، عرق)، وتفسير القرطبى (٢/٥٤).

فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ

وأنكر الزجاج ذلك عليه، وقال: إذا تيقن الشقاق، فلا معنى لبعث الحكمين، بل الخوف بمعنى الظن، يعنى: إن ظننتم شقاق بينهما ﴿فابعثوا حكما من أهله﴾ يعنى من أهل الزوج، ﴿وحكما من أهلها﴾ يعنى: من أهل الزوجة. ﴿إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا﴾ وهل يجوز للحكمين التفريق؟ فللسلف فيه قولان: أحدهما: أنه يجوز التفريق، كما يجوز الجمع من غير رضا الزوج، وروى عن على: أنه بعث الحكمين، فقال الزوج: أما الفرقة فلا، فقال على: لا حتى ترضى بكتاب الله تعالى؛ فعلى هذا معنى قوله: ﴿يوفق الله بينهما﴾ يعنى: يوفق الله بين الحكمين بما فيه الصلاح من الفرقة أو الجمع، والصحيح - وعليه الفتوى -: أنه لايجوز التفريق، وهو ظاهر الآية.

قوله - تعالى -: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا﴾ روى عن معاذ أنه قال: «كنت رديف رسول الله ﷺ، فقال لى: يامعاذ. فقلت: لبيك وسعديك. فقال: أتدرى ما حق الله على العباد؟ قلت: الله ورسوله أعلم. فقال: حق الله على العباد: أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئا، ثم قال: يامعاذ، قلت: لبيك وسعديك، قال: أتدرى ما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. فقال: حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن يدخلهم الجنة، ولايعذبهم»[1].

﴿وبالوالدين إحسانا﴾ أى: وأحسنوا بالوالدين إحسانا، ومن الإحسان بالوالدين: لين الجانب، وألا يرفع صوته فوق صوتهما، ولا يجبه بالرد[2]، ويكون لهما كالعبد الذليل لسيده ﴿وبذى القربى﴾ أى: أحسنوا بذى القربى ﴿واليتامى والمساكين

(١) متفق عليه، فرواه البخارى (١٣-٣٥٩ - ٣٦٠ رقم ٧٣٧٣) وأطرافه فى ٥٩٦٧، ٦٢٦٧، ٦٥٠٠) ومسلم (١/٣١٥ - ٣٢٠ رقم ٣٠).

(٢) جَبَهَ الرجل يجبهه جَبْهًا. أى: رده عن حاجته، واستقبله بما يكره. انظر لسان العرب (مادة: جبه).

أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

والجار ذى القربى ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الجار الذى له قرابة. والثانى: أنه الجار الذى بقرب داره، وهو الملاصق، ﴿ والجار الجنب ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الجار الغريب الأجنبى، والثانى: أنه الجار الذى يبعد داره.

وقد ورد فى حق الجار أخبار، منها: ما روى عن النبى ﷺ أنه قال: «ما زال جبريل يوصينى بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه»(١) وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره»(٢)، وقال ﷺ لمناديه حتى نادى: «ألا إن الجيران أربعون دارا، ولم يؤمن بالله من آذى جاره»(٣).

وقالت عائشة لرسول الله ﷺ: «إن لى جارين، فإلى إيهما أهدى؟ فقال: إلى أقربهما بابا»(٤) فحق الجار القريب المسلم ثلاثة حقوق: حق القرابة، وحق الإسلام، وحق الجوار، وللجار الغريب المسلم حقان: حق الإسلام، وحق الجوار، وللجار الذمى حق واحد، وهو حق الجوار.

قوله – تعالى –: ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ قال على، وابن مسعود: هى المرأة، وقال الحسن، ومجاهد، وقتادة، وجماعة: هو الرفيق فى السفر، ﴿ وابن السبيل ﴾ فيه

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة، فرواه البخارى (١٠/٤٥٥/ رقم ٦٠١٤)، ومسلم (١٦/٢٦٩/ رقم ٢٦٢).

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة، فرواه البخارى (١٠/٤٦٠/ رقم ٦٠١٨)، ومسلم (٢/٢٣ – ٢٦/ رقم ٤٧).

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير (١٩/٧٣/ رقم ١٤٣) عن كعب بن مالك مرفوعًا بنحوه. وقال الهيثمى فى المجمع (٨/١٧٢): وفيه يوسف بن السفر، وهو متروك. ورواه أبو داود فى المراسيل (ص٢٥٧/ رقم ٣٥٠) عن الزهرى مرسلا، ورواه أبو يعلى فى مسنده (١٠/ ٣٨٥ رقم ٥٩٨٢) عن أبى هريرة مرفوعًا بنحو شطره الأول وقال الهيثمى فى المجمع (٨/١٧١): رواه أبو يعلى عن شيخه محمد بن جامع العطار، وهو ضعيف.

(٤) رواه البخارى (١٠/٤٦١/ رقم ٦٠٢٠)، وأبو داود (٤/٣٣٩/ رقم ٥١٥٥)، وأحمد فى مسنده (٦/١٧٥)، والطيالسى فى مسنده (٢١٥ رقم ١٥٢٩)

رئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾

قولان: أحدهما: أنه الملازم للطريق، قاله ابن عباس، وقال غيره: هو الضيف، وقال ﷺ «من كان يؤمن بالله واليوم والآخر فليكرم ضيفه»(١) وقال ﷺ «الضيافة ثلاثة أيام، فما زاد فهو صدقة»(٢).

﴿وما ملكت أيمانكم﴾ يعني: أحسنوا إلى المماليك، وآخر ما حفظ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الصلاة، وما ملكت أيمانكم»(٣) أي: الزموا الصلاة، وحق ما ملكت أيمانكم.

﴿إن الله لايحب من كان مختالا فخورا﴾ المختال: المتكبر، والفخور: الذي يفخر بنفسه تكبرا، قال الشاعر:

وإن كنت سيدنا سُدْتَنَا ... وإن كنت للخَالِ فاذهب فَخَلْ

يعني: إن كنت للخيلاء فاذهب فخل، فإن قيل: أي معنى لهذا بعد هذه الأحكام؟ قيل: لأن الآدمي قد يُقَصِّر في أداء الحقوق تكبرا؛ فنهى عنه، وفي الخبر: «أن رجلا كان يتبختر في حلة له، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»(٤).

قوله – تعالى –: ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ قيل: هو عام في كل

(١) تقدم تخريجه قبل حديثين تحت حديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره.

(٢) متفق عليه من حديث أبي شريح، فرواه البخاري (١٠/٤٦٠/رقم٦٠١٩) ومسلم (٢/٢٧/ رقم ٤٨)، و (١٢/٤٥ – ٤٧).

(٣) رواه أبو داود (٤/٣٣٩ – ٣٤٠/ رقم ٥١٥٦)، وابن ماجة (٢/٩٠١/ رقم ٦٩٨) وأحمد (١/٧٨) والبيهقي (٨/١١) كلهم من حديث علي بن أبي طالب.

وروى من حديث أنس بن مالك، رواه ابن ماجة (٢/٩٠١/ رقم ٢٦٩٧) وأحمد (٣/١١٧)، وابن حبان في صحيحه الإحسان (١٤/٥٧١/ رقم ٦٦٠٥)، والحاكم (٣/٥٧).

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة، فرواه البخاري (١٠/٢٦٩/ رقم ٥٧٨٩)، ومسلم (١٤/٨٩ – ٩٠/ رقم ٢٠٨٨).

وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴿٤٠﴾ ﴿ فَكَيْفَ

بخيل فى العالم، وقيل أراد به: اليهود والنصارى بخلوا بنعت محمد، وأمروا سفلتهم بذلك، ﴿ ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا ﴾ أى: أعددنا ﴿ للكافرين عذابا مهينا ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ قال إبراهيم النخعى: هم اليهود والنصارى، وقال غيره: هم المنافقون.

﴿ ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا ﴾ أى: فبئس القرين، قال الشاعر:

عن المرء لاتسأل وبصر قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدى

قوله - تعالى -: ﴿ وماذا عليهم ﴾ أى: وأى شىء عليهم ﴿ لو آمنوا بالله ﴾ وهو مثل ما يحاسب الرجل نفسه، فينظر فيما له، وفيما عليه؛ يقول الله - تعالى - أى: شىء عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر ﴿ وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ إن الله لايظلم مثقال ذرة ﴾ قرأ ابن مسعود: «مثقال نملة» والذرة: هى النملة الحمراء، ﴿ وإن تك حسنة يضاعفها ﴾ وقرئ: «يضعفها»[1] وهما فى المعنى سواء. ﴿ ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ معناه: فكيف الحال إذا جئنا من كل أمة بشهيد؟ وأراد بالشهيد من كل أمة نَبِيَّها، وشهيد هذه الأمة: نبينا ﷺ.

واختلفوا على أن شهادتهم على ماذا؟ منهم من قال: يشهدون على تبليغ الرسالة، ومنهم من قال: يشهدون على الأمة بالأعمال.

(١) قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب: بتشديد العين مع حذف الألف، وقرأ الباقون بإثبات الألف، والتخفيف. انظر النشر (٢/ ٢٢٨).

إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا

واختلفوا فى أن النبى ﷺ هل يشهد على من لم يره؟ منهم من قال: إنما يشهد على من رآه، والصحيح: أنه يشهد على الكل، على من رأى، وعلى من لم ير.

وروى عن ابن مسعود: «أن النبى ﷺ قال لى: «اقرأ علىّ القرآن» فقلت: كيف أقرأ عليك القرآن، وعليك أنزل؟! فقال: أريد أن أسمعه من غيرى. قال ابن مسعود: فافتتحت سورة النساء، فلما بلغت قوله: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ غمزنى رسول الله ﷺ بيده، وقال: حسبك، فنظرت إليه، فإذا عيناه تذرفان»[(١)]، وفى رواية: «لما قرأت هذه الآية، قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم﴾[(٢)]»[(٣)] وفى رواية ثالثة: «هذا يارب فيمن رأيته، فكيف بمن لم أره؟»[(٤)] وأصل الحديث صحيح.

قوله تعالى: ﴿يومئذ﴾ يعنى: يوم القيامة ﴿يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض﴾ ويقرأ: «لو تَسَوَّى بهم الأرض»[(٥)] أى: تستوى، يعنى: يودون أن يصيروا ترابا، وهذا مثل قوله - تعالى -: ﴿ويقول الكافر ياليتى كنت ترابا﴾[(٦)]، وذلك حين تحشر البهائم ثم يقول الله - تعالى - لهم: كونوا ترابا، فيكونون ترابا؛ فيود الكفار هنالك أن يصيروا مثل البهائم ترابا، وقيل: يودون أن

(١) متفق عليه، فرواه البخارى (٨/٩٨-٩٩/رقم ٤٥٨٢) ومسلم (٨/١٢٤-١٢٦/رقم ٨٠٠).

(٢) المائدة: ١١٧.

(٣) رواه الطبرى (٥/٥٩) عن ابن مسعود.

(٤) عزاه السيوطى فى الدر (٢/٨٠) لابن أبى حاتم، والبغوى فى معجمه، والطبرانى بسند حسن، عن محمد ابن فضالة الأنصارى، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/٧): رجاله ثقات.

(٥) قرأ حمزة، والكسائى، وخلف بفتح التاء، وتخفيف السين، وقرأ نافع وأبو جعفر، وابن عامر بفتح التاء وتشديد السين، وقرأ الباقون بضم التاء وتخفيف السين. انظر النشر (٢/٢٤٩).

(٦) النبأ: ٤٠.

تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً

تنخرق الأرض؛ فساخوا فيها وهلكوا، وتسوى بهم الأرض، أى: عليهم الأرض.

﴿ ولايكتمون الله حديثا ﴾ فإن قيل: قد أخبر هاهنا أنهم لايكتمون الله حديثا، وذكر فى موضع آخر قولهم: ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾(١) فقد كتموا، فكيف وجه الجمع؟ قيل: قال الحسن البصرى: وهذا فى موطن وذاك فى موطن، آخر، وفى القيامة مواطن، وهذا جواب معروف أورده القتيبى فى مشكل القرآن. وقيل: معناه: يودون أن لايكتمون الله حديثا، وذلك أنهم يقولون: ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾(١) ونحو ذلك، فيختم الله على أفواههم، ويُنطِق جوارحهم؛ فيودون أنهم لم يكتموا الله حديثا فهو راجع إلى قوله: ﴿ يود الذين كفروا ﴾ وقيل: معناه: لايقدرون أن يكتموا الله حديثا.

قوله - تعالى -: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ يعنى: لاتقربوا موضع الصلاة، ﴿ وأنتم سكارى ﴾ فالأصح - وعليه أكثر المفسرين - أنه أراد به: السكر من الشراب، وهو قول ابن عباس.

وقال الضحاك(٢): أراد به: السكر من النوم.

والسكر من السَكَر فهو أشد، فالسكر يسد العقل والمعرفة، والصحيح أنه فى السكر من الشراب.

وسبب نزول الآية ما روى: أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاما، واتخذ شرابا، ودعا رهطا من أصحاب رسول الله ﷺ، فأكلوا، وشربوا حتى ثملوا، فدخل وقت المغرب، فقاموا إلى الصلاة، وقدَّموا واحدا منهم ، فقرأ سورة ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وقرأ: أعبد ما تعبدون، وأنتم عابدون ما أعبد، قرأ هكذا إلى آخر السورة بطرح «لا»؛

---

(١) الأنعام: ٢٣.

(٢) فى «ك»: ابن عباس، وهو خطأ.

فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

فنزل قوله: ﴿لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾» أى: حتى تميزوا، وتعرفوا ما تقولون.

فإن قيل: كيف خاطب السكارى، والسكران لايخاطب؟ قيل: أراد به لاتتعرضوا للسكر فى أوقات الصلاة، فكانوا يشربون بعد ذلك بعد صلاة الصبح، ويصحون عند الظهر، ويشربون بعد العشاء الآخرة، ويصحون عند الصبح.

﴿ولاجنبا إلا عابرى سبيل﴾ يعنى: ولاتقربوا المسجد موضع الصلاة جنبا، إلا عابرى سبيل، اختلفوا فيه: قال جماعة من التابعين – وهو قول الشافعى –: إنه أراد به عبور: الجنب فى المسجد من غير أن يجلس؛ فرخص فيه، وقال بعضهم إنه يتيمم للعبور، ثم يعبر إذا لم يكن له بد من العبور، والآية فى قوم من الأنصار كانت أبواب بيوتهم فى المسجد: فرخص لهم فى العبور بالتيمم، فهذا معنى قوله: ﴿ولا جنبا إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا﴾.

﴿وإن كنتم مرضى﴾ أراد به: المرضى من القروح والجروح، وفيه تفاصيل تذكر فى الفقه، ﴿أو على سفر﴾ وَحَدٌّ السفر: مسيرة يوم وليلة، وقال أصحاب الرأى: مسيرة ثلاثة أيام ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ قال الفراء: معناه: وجاء أحد منكم من الغائط؛ حتى يستقيم الكلام، و الغائط: اسم للمطمئن من الأرض؛ فلما جرت عادة العرب بإتيان الغائط للحدث؛ سمى الحدث غائطا باسم المكان.

﴿أو لمستم النساء﴾ ويقرأ: «أو لامستم النساء»[1] قال على، وابن عباس: أراد به الجماع، قال ابن عباس: إن الله حيى كريم، يكنى بالحسن عن القبيح؛ فكنى باللمس عن الجماع، وقال ابن مسعود، وابن عمر: هو اللمس باليد، وهو قول الشافعى، فمن قال بالأول قال: إن التيمم للجنب ثابت بنص الكتاب، ومن قال

(١) قرأ حمزة، والكسائى، وخلف بغير ألف، وقرأ الباقون بالألف. انظر النشر (٢ / ٢٥٠).

بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ

بالثانى قال: إن التيمم للمحدث ثابت بالكتاب، وللجنب ثابت بالسنة.

وقال عمر، وابن مسعود: ليس للجنب أن يتيمم أصلا، وحملوا الآية على اللمس باليد، وتمسكوا بظاهر الآية.

والأصح أن اللمس والملامسة واحد، وقال بعضهم: من قرأ: ﴿أو لامستم﴾ ففيه دليل على انتقاض طهارة اللامس والملموس جميعا. ومن قرأ ﴿أو لمستم﴾ ففيه دلالة على انتقاض طهارة اللامس فحسب.

﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا﴾ أى: اقصدوا، وتعمدوا، والتيمم: القصد، قال الشاعر:

تيممت قيسا وكم دونه ... من الأرض من مَهْمَهٍ ذى شَزَنْ

﴿صعيدا﴾ قال أبو عبيدة: الصعيد: التراب، وهو قول الشافعى، وقال ابن الأعرابى: الصعيد: ما يصعد من وجه الأرض، وهو اختيار الزجاج، وقال الزجاج: لو ضرب يده على صخرة صماء حصل التيمم، وإن لم يعلق به شىء، واستدلوا بقوله: ﴿صعيدا زلقا﴾[1] وأراد به: وجه الأرض، والأول أصح؛ لأنه قال فى آية أخرى: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾[2] يعنى: من الصعيد؛ فدل أنه التراب حتى يكون التيمم منه وقوله: ﴿طيبا﴾ أى: طاهرا، وقال بعضهم: حلالا ﴿فامسحوا بوجهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا﴾ فالعَفُوّ المسهِّل والغفور: الساتر.

قوله – تعالى –: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب﴾ فإن قال قائل: كيف يسمى اليهود والنصارى: «أهل الكتاب»، وهو اسم مدح، وهم يستحقون الذم؟

قيل: قال ذلك لإلزام الحجة، وقيل: سماهم بذلك على زعمهم أنهم أهل الكتاب.

(١) الكهف: ٤٠. (٢) المائدة: ٥٦

أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن

﴿ يشترون الضلالة ﴾ لأنهم لما استبدلوا الضلالة بالهدى، فكأنهم اشتروا الضلالة بالهدى، وكل مشتر مستبدل.

﴿ ويريدون أن تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا ﴾ قال الزجاج: معناه: اكتفوا بالله وليا واكتفوا به نصيرا؛ لتكون «الباء» فى موضعها، وقال غيره: الباء صلة، وتقديره: وكفى الله وليا وكفى الله نصيرا.

قوله - تعالى -: ﴿ من الذين هادوا يحرفون ﴾ قيل تقديره: ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب من الذين هادوا يحرفون، وقيل معناه: من الذين هادوا فريق يحرفون ﴿ الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا ﴾ لأنهم لما سمعوا ولم يطيعوا، فكأنهم قالوا: سمعنا وعصينا.

﴿ واسمع غير مسمع ﴾ قال ابن عباس: كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: اسمع، ثم يقولون فى أنفسهم: لاسمعت، فهذا معناه، وقال الحسن: اسمع غير مسمع منك، يعنى: اسمع منا، ولا نسمع منك ﴿ وراعنا ﴾ كانوا يقولون ذلك، ويريدون به: النسبة إلى الرعونة، فذلك معنى قوله: ﴿ ليًا بألسنتهم وطعنا فى الدين ﴾؛ لأن قولهم: راعنا من المراعاة، فلما حرفوه إلى الرعونة، فذلك معنى قوله: ﴿ ليا بألسنتهم ﴾.

﴿ ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا ﴾ أى: انظر إلينا ﴿ لكان خيرا لهم وأقوم ﴾ أى: أعدل ﴿ ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ فيه قولان: أحدهما فلا يؤمنون إلا إيمانا قليلا، لايستحقون به اسم الإيمان؛ وذلك أنهم يؤمنون بالله، والآخرة، وموسى، وقيل: معناه: فلا يؤمنون إلا نفر قليل منهم، وأراد به: عبد الله بن سلام، وقوما منهم أسلموا.

﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا ﴾ يعنى: من القرآن ﴿ مصدقا لما

نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ

معكم ﴾ من التوراة والإنجيل ﴿ من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها ﴾ الطمس: المحو، ومعناه: من قبل أن نطمس الوجه، ونرده إلى القفا، وقيل: معناه: نبات الشعر عليه، حتى يصير كالقردة، وقيل: يجعل عينيه على القفا ليمشى بقهقرى، وروى: أن عبد الله بن سلام لما سمع هذه الآية، جاء إلى النبى ﷺ ويده على وجهه، فأسلم، وقال: خفت أن يطمس وجهى قبل أن أصل إليك، وكذلك كعب الأحبار لما سمع هذه الآية أسلم فى زمن عمر رضى الله عنه .

فإن قال قائل: قد أوعد اليهود بالطمس إن لم يسلموا، ولم يطمس وجوههم، فكيف ذلك؟ قيل: هذا كان فى قوم معدودين أسلموا، وذلك: عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعيد، وأوس بن سعيد، والمحيريق، وجماعة، ولو لم يسلموا لطمسوا.

وقيل: أراد به: الطمس فى القيامة، قال مجاهد: أراد بقوله ﴿ نطمس وجوها ﴾ أى: نتركهم فى الضلالة؛ فيكون المراد طمس القلب ﴿ أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت ﴾ أى: نجعلهم قردة كما جعلنا أصحاب السبت قردة ﴿ وكان أمر الله مفعولا ﴾.

قوله – تعالى – :﴿ إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ قيل: هذه أرجى آية فى القرآن، قال ابن عمر: كنا نطلق القول فيمن ارتكب الكبائر بالخلود فى النار، حتى نزلت هذه الآية، فتوقفنا ﴿ ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾ أى: اختلق إثما عظيما، فإن قال قائل: قد قال الله – تعالى –: ﴿ إن الله لايغفر أن يشرك به ﴾ وقال فى موضع آخر: ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾[1] فكيف وجه الجمع؟

قيل أراد به: يغفر الذنوب جميعا سوى الشرك.

---

(١) الزمر: ٥٣ .

إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا

وفى الخبر: «أنه ﷺ لما قرأ قوله - تعالى -: ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعا﴾[1] فقال رجل: والشرك يارسول الله؟ فنزل قوله - تعالى -: ﴿إن الله لايغفر أن يشرك به﴾»[2].

قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ نزلت الآية فى رحبى بن عمرو، ومرحب بن زيد، جاءا إلى النبى ﷺ بأطفالهما، وقالا: هل على هؤلاء ذنب؟، فقال: لا. فقالا: نحن مثلهم؛ ما فعلنا بالليل يكفر عنا بالنهار، وما فعلنا بالنهار يكفر عنا بالليل، فنزل قوله: ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾.

﴿بل الله يزكى من يشاء﴾» يطهر من يشاء.

﴿ولايظلمون فتيلا﴾ أى: لايُنْقَصُ من أجورهم شىء إن أسلموا، ولا من أوزارهم إن لم يسلموا. والفتيل والقطمير والنقير: ثلاثة أسامى مذكورة فى القرآن فالفتيل: اسم لما يكون فى شق النواة، والقطمير: اسم للقشرة التى تكون على النواة، والنقير: اسم للنقطة التى تكون على ظهر النواة، هذا قول ابن عباس، وقال غيره: الفتيل من الفتل، وهو اسم لما يحصل من الوسخ بين الإصبعين عند الفتل، قال الشاعر:

تجمع الجيش ذا الألوف وتغزو   ثـم لا ترزأ العـدو فتيـلا

قاله النابغة، وأنشده الأزهرى.

قوله - تعالى -: ﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به﴾ أى: بالكذب ﴿إثما مبينا﴾.

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ قال عمر - رضى الله عنه -: الجبت: السحر والطاغوت: الشيطان، وبه قال الشعبى، وقال

(١) الزمر: ٥٣.

(٢) رواه الطبري عن ابن عمر (٥/ ٨٠)، وعزاه السيوطي في الدر (٢/ ١٨٧) لابن أبي حاتم، وابن المنذر.

نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ

قتادة: الجبت: الشيطان والطاغوت: الكاهن، وعن ابن عباس - فى رواية الكلبى عنه أنه قال: هما اسما رجلين من اليهود، فالجبت: حيى بن أخطب والطاغوت: كعب بن الأشرف، وفى رواية أخرى عن ابن عباس: أن الجبت: الساحر بلغة الحبشة فعرب، وذكر عبد الله بن وهب، عن مالك بن أنس - رحمه الله - أنه قال: الطاغوت: كل ما يعبد من دون الله، وقرأ قوله - تعالى -: ﴿واجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها﴾[1] فقيل له: ما «الجبت»؟، فقال: سمعت أنه الكاهن.

﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾ هذا قول جماعة من اليهود وحضروا موسم الحج، فقال لهم المشركون: نحن أحسن طريقة أم محمد وأصحابه؟ فقالوا: أنتم. وهذا دليل على شدة معاندة اليهود؛ حيث فضلوا المشركين على المسلمين، مع علمهم أنهم لم يؤمنوا بشىء من الكتب، وأن المسلمين آمنوا بالكتب المتقدمة.

﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ هم اليهود ﴿ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا﴾.

قوله تعالى: ﴿أم لهم نصيب من الملك فإذا لايؤتون الناس نقيرا﴾ فالنقير: اسم تلك النقطة على ظهر النواة، ومنها تنبت النخلة، وفى الآية قولان: أحدهما: أنه: استفهام بمعنى الإنكار والنفى، يعنى: ليس لهم نصيب من الملك؛ إذ لو كان الملك لهم، فإذا لايؤتون الناس نقيرا، وقد ذكرنا نزع الملك من اليهود، والقول الثانى: إنه بمعنى الإثبات، يعنى: لهم نصيب من الملك: وأراد بالملك المال، ثم هم إذا لايؤتون الناس نقيرا، وصفهم بشدة البخل، وهذا على طريق ضرب المثل؛ إذ من اليهود من يؤتى المال.

قوله - تعالى -: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ أى: بل يحسدون، واختلفوا فى الناس هاهنا، من المراد به؟ قال ابن عباس، والحسن،

(١) الزمر: ١٧.

نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ

ومجاهد، وجماعة: أراد به: محمدا ﷺ وحده، وقال قتادة: أراد به: العرب؛ حسدهم اليهود ببعث النبى منهم، وفيه قول ثالث: أراد به: محمداً وأصحابه، وقال أبو جعفر محمد بن على الباقر: نحن الناس؛ وذلك أنهم حسدوا، فإذا قلنا بالقول الأول: أنه محمد وحده؛ فاختلفوا فى الفضل المذكور فى الآية ما هو؟ قال بعضهم: هو النبوة حُسدَ الرسول بها، وقال بعضهم: هو تحليل الزوجات فيما زاد على الأربع، حسده اليهود عليه؛ فقالوا: ما بال هذا الرجل همه فى النكاح، ينكح، وينكح. ﴿ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ﴾ أراد بآل إبراهيم: داود، وسليمان، والكتاب: هو الكتاب الذى أنزل عليهم، وأما الحكمة: قيل: هى النبوة، وقيل: هى السنة.

ومعنى الآية: أنهم إن حسدوا الرسول بما أوتى من الفضل، فليحسدوا آل إبراهيم؛ فإنهم قد أوتوا الكتاب والحكمة ﴿ وآتيناهم ملكا عظيما ﴾ اختلفوا فى الملك العظيم: فمن فسر الفضل بتحليل الزوجات، فسر الملك العظيم به أيضا، وقد كان لدواد تسع وتسعون امرأة، ولسليمان مائة امرأة، وقيل: كان لسليمان سبعمائة امرأة، وثلثمائة سرية، وقيل: أعطى- نبينا صلوات الله عليه - قوة سبعين شابا فى المباضعة[1]

وقيل: الملك العظيم: ملك سليمان، وقيل: المراد به: تأييدهم بالجنود من الملائكة.

قوله - تعالى -: ﴿ فمنهم من آمن به ﴾ يعنى: بالكتاب ﴿ ومنهم من صد عنه ﴾ أى: أعرض عنه، وقيل: معناه: فمنهم من آمن بمحمد، ومنهم من صد عنه ﴿ وكفى بجهنم سعيرا ﴾ والسعير: هى النار المسعرة.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ٤٥٠) تحت حديث أنس: «كنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين» أي: في الجماع.ا ووقع في رواية الإسماعيلي من طريق أبو موسى، عن معاذ بن هشام «أربعين» بدل ثلاثين، وهي شاذة من هذا الوجه، لكن في مراسيل طاووس مثل ذلك، وزاد: «في الجماع». وفي صفة الجنة لأبي نعيم، من طريق مجاهد مثله، وزاد: من رجال أهل الجنة، ومن حديث عبد الله بن عمرو، ورفعه: «أعطيت قوة أربعين في البطش والجماع»...الخ.

وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً

قوله – تعالى –: ﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا﴾ أى نلقيهم فى النار، ويقال: صلى النار، إذا قرب منها، قال الشاعر يصف امرأة:

تجعل المسك واليَلَنْجُوجَ[1] والنَّدّ   صـلاءً لها على الكانون

﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب﴾ قيل: قرئت هذه الآية عند عمر – رضى الله عنه – وكان عنده معاذ بن جبل، فقال: تبدل جلودهم فى كل ساعة سبعين مرة، قال عمر: كذا سمعت رسول الله ﷺ»[2].

وقال الحسن: فى كل يوم سبعين ألف مرة.

فإن قيل: إذا بدلت جلودهم، فكيف يعذب غير الجلد الذى كان فى الدنيا؟ قيل: إنما يعذب الشخص فى الجلد دون الجلد، وقيل: يعاد الجلد الأول فى كل مرة، إلا أنه[3] سماه جلدا غيره، ومثله جائز، تقول العرب: صغت من خاتمى خاتما غيره، وإن كان الثانى إعادة للأول، وفى الخبر: «أنَّ بُصْر جلد الكافر فى النار أربعون ذراعا – يعنى: غلظه –وضرسه مثل جبل أحد، وما بين منكبيه مسيرة ثلاثة آيام»[4].

(١) كذا في لسان العرب (مادة: خصر)، وفى «الأصل، وك»: والألوَّة.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط، كما في مجمع البحرين (٦/ ١٥ – ١٦/ رقم٣٣٠٧)، وابن عدي في الكامل (٧/ ٥٠) في ترجمة نافع السلمي مولى يوسف. كلاهما من حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – وفيه: مائة مرة. وقال ابن عدي: وعامة ما يرويه غير محفوظ، والضعف على روايته بيّن. أي: نافع. وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٩): وفيه نافع مولى يوسف السلمي، وهو متروك وعزاه السيوطي في الدر (٢/ ١٩٢) لابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٣) ليست فى «الأصل»، ولا «ك».

(٤) رواه الترمذى (٤/ ٦٠٦ رقم ٢٥٧٧)، وقال: حسن صحيح غريب. وأحمد (٢/ ٣٣٤، ٥٣٧) وابن أبى عاصم فى السنة (١/ ٢٧١ رقم ٦١٠، ٦١١)، وابن حبان فى صحيحه (١٦/ ٥٣١ رقم ٧٤٨٦) والحاكم (٤/ ٥٩٥) وقال: صحيح على شرط الشيخين، والبيهقى فى البعث (٣١٠ رقم ٦٢١) من حديث أبى هريرة بنحوه، وأعله الدارقطنى فى العلل (١٠/ ١٥٠) بالوقف وأصل الحديث عند مسلم مختصراً (١٧/ ٢٧١ رقم ٢٧٥١) و(١٧/ ٢٧٢ رقم ٢٨٥٢).

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ

وفى الأخبار: «يكون عليه مائة جلد، بين كل جلدين لون من العذاب» ﴿إن الله كان عزيزا حكيما﴾ عزيزا: غالبا. حكيما: فيما دبر، قوله: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة﴾ وقد ذكرنا معنى الجميع، ﴿وندخلهم ظلاً ظليلا﴾ وهو الكَنُّ الذى يقى من الحر والبرد.

قوله - تعالى -: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ فيه ثلاثة أقاويل: أحدها: أن المراد منه: جميع الأمانات، وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال: يجاء بالذى خان فى الأمانة يوم القيامة، فيقال له: رد الأمانة. فيقول: ذهبت الدنيا أنىّ لى الأمانة، فتمثل له الأمانة فى النار، ويقال له: خذ الأمانة وردها، فيأتى ليأخذ الأمانة؛ فيهوى فى النار، ثم يعود ليأخذ فيهوى فيها أبدا.

وفى الخبر أنه ﷺ قال: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولاتخن من خانك»[(1)]. وروى عن ابن عباس، عن النبى ﷺ أنه قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لاعهد له»[(2)].

---

(١) رواه أبو داود (٣/ ٢٩٠/ رقم ٣٥٣٤، ٣٥٣٥) والترمذي (٣/ ٥٦٤/ رقم ١٢٦٤) وقال: حسن غريب، والحاكم (٢/ ٢٦٤) وصححه على شرط مسلم، والدارقطني (٣/ ٣٥/ رقم ١٤٢) كلهم من حديث أبي هريرة.
وقد روى من حديث أنس، وأُبيّ ابن كعب وغيرهم، انظر تلخيص الحبير (٣/ ٢٠٩ - ٢١٠/ رقم ١٤٥٤).
وقال ابن الجوزي في العلل (٢/ ٥٩٢): هذا الحديث من جميع طرقه لا يصح، ونقل عن أحمد أنه قال: هذا حديث باطل. وتعقبه الذهبي في تلخيص العلل (٢٠٧/ رقم ٥٨١) بتحقيقنا: بأن إسناد الترمذي جيد.

(٢) رواه أبو يعلى (٤/ ٣٤٣/ رقم ٢٤٥٨)، والطبراني في الكبير (١١/ ٢١٣ رقم ١١٥٣٢) وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ١٧٧): وفيه حسين بن قيس الملقب بحنش، وهو متروك.
وله شاهد من حديث أنس، رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١١/ ١١) وأحمد في مسنده (٣/ ١٣٥، ١٥٤، ٢١٠) وأبو يعلى (٥/ ٢٤٦ - ٢٤٧/ رقم ٢٨٦٣) وابن حبان في صحيحه - الإحسان - (١/ ٤٢٢ - ٤٢٣/ رقم ١٩٤)، والبيهقي (٦/ ٢٨٨) و(٩/ ٢٣١) وغيرهم.
وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٠١): رواه أحمد وأبو يعلى، والبزار، والطبراني في الأوسط، وفيه أبو هلال، وثقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره

أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ

والقول الثانى: أنه أراد به: تفويض الأمر إلى الولاة بالطاعة لهم، والقول الثالث – وهو قول عامة المفسرين –: أن المراد منه ردّ مفاتيح الكعبة.

وسبب نزول الآية ما روى: «أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة، أخذ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة، وفتح الباب، ودخل الكعبة، فلما خرج، قال العباس: بأبى أنت وأمى يارسول الله، اجمع لى بين السدانة والسقاية فهمّ رسول الله ﷺ أن يدفع المفتاح إليه؛ فنزل قولهتعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن طلحة، ودفع إليه المفتاح، وقال: خذوها يا بنى طلحة، خالدة تالدة، لاينزعها عنكم إلا ظالم»[1] وكان مع عثمان حياته، فلما توفى دفعه إلى أخيه شيبة، فهو فى بنى شيبة إلى قيام الساعة.

﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ أى: بالقسط ﴿إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا﴾.

قوله – تعالى –: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ اختلفوا فى أولى الأمر، قال ابن عباس، وجابر – وهو قول جماعة –: هم العلماء والفقهاء، وقال أبو هريرة: هم الولاة والسلاطين، وقيل: هم أمراء السرايا الذين بعثهم رسول الله ﷺ فى الحروب، وقد صح أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من عصى أميرى فقد عصانى، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى، ومن أطاعنى فقد أطاع الله»[2].

(١) رواه الطبري في التفسير (٥/ ٩٢) عن ابن جريج، وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص١١٦ – ١١٧) عن مجاهد، وعزه السيوطي في الدر (٢/ ١٩٣) لابن مردويه من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة، فرواه البخاري (١٣/ ١١٩/ رقم ٧١٣٧)، ومسلم (١٢/ ٣٠٨ – ٣٠٩/ رقم ١٨٣٥).

فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ

وقال عكرمة: أراد به: أبا بكر وعمر.

﴿فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول﴾ التنازع: هو التشاجر، سمى تنازعا؛ لأن كل واحد من الخصمين ينزع بحجة وآية.

وقوله: ﴿فردوه إلى الله﴾ يعنى: إلى الكتاب، وإلى الرسول إن كان حيا، وإلى سنته إن كان ميتا.

والرد [إلى][1] الكتاب والسنة واجب، مادام فى الحادثة شىء من الكتاب والسنة، فإن لم يكن فالسبيل فيه الاجتهاد، وروى أن مسلمة بن عبد الملك قال لرجل: إنكم أمرتم أن تطيعونا، فقال الرجل: قد نزعها الله منكم؛ حيث قال: ﴿فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول﴾ وقد تنازعتم، فقال مسلمة: أين الله؟، فقال: الكتاب، وقال: أين الرسول؟ فقال: السنة.

وقيل: الرد إلى الله والرسول: أن يقول الرجل فيما لايدرى: الله ورسوله أعلم، وهذا قول حسن ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾ أى: أحسن مآل وعاقبة.

قوله - تعالى -: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا﴾.

فى الآية قولان: أحدهما: أنه فى جماعة من المنافقين منهم خلاس بن الصامت، كانت لهم خصومة مع جماعة من المسلمين، فقال المسلمون: نتحاكم إلى الرسول، وقال المنافقون: نتحاكم إلى الكهنة.

والقول الثانى - وهو الأصح -: «أن رجلا من اليهود خاصم رجلا من المنافقين،

(١) في «الأصل» و«ك»: في.

أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ

فقال اليهودى: نتحاكم إلى أبى القاسم – إذ عرف أنه لايأخذ الرشوة على الحكم – فيحكم بالحق، وقال المنافق: نتحاكم إلى كعب بن الأشرف، فتحاكما إلى النبى ﷺ فحكم لليهودى، وكان الحكم له، فقال المنافق: لا أرضى بحكمه، نتحاكم إلى أبى بكر، فتحاكما إلى أبى بكر، فحكم لليهودى بمثل ما حكم رسول الله ﷺ فقال المنافق: لا أرضى بحكمه، نتحاكم إلى عمر، فتحاكما إلى عمر، فقال عمر: هل تحاكمتما إلى أحد؟ فقال اليهودى: نعم إلى أبى القاسم، وإلى أبى بكر، وقد حكما لى، وهو لايرضى، فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما، فدخل البيت، واشتمل على السيف، ثم خرج، وضرب عنق المنافق، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: أنت الفاروق»[1].

قوله – تعالى –: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا﴾ هو ما ذكرنا، أن المنافقين دعوا إلى التحاكم إلى الرسول، فأعرضوا عنه، وتحاكموا إلى الطاغوت.

قوله – تعالى –: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ قيل: هذا فى المنافقين الذين تحاكموا إلى الطاغوت، وقوله: ﴿أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ قيل: هو قتل عمر – رضى الله عنه – ذلك المنافق؛ فإنهم جاءوا يطلبون دمه، وقيل: هو فى جميع المنافقين، والمصيبة: كل مصيبة تصيبهم فى الدنيا والعقبى.

يقول الله – تعالى –: فكيف الحال إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ﴿ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا﴾ قيل: هو إحسان بعضهم إلى بعض، وقيل أرادوا بالإحسان: تقريب الأمر من الحق، لا القضاء على مُرِّ الحكم.

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص١٢٠) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. والبغوى فى تفسيره (١/٤٤٦) عن الشعبى قوله.

أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾

وأما التوفيق: موافقة الحق، وقيل: هو التأليف والجمع بين الخصمين. ومعنى الآية: أن المنافقين يحلفون ما أردنا بالتحاكم إلى غيرك إلا إحسانا وتوفيقا.

وفى الآية قول آخر: أنها فى المنافقين، حلفوا فى المسجد الذى بنوا ضرارا – على ما هو مذكور فى سورة التوبة – ﴿ وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ﴾[1].

قوله – تعالى –: ﴿ أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ﴾ خلاف ما على ألسنتهم ﴿ فأعرض عنهم وعظهم ﴾ فإن قال قائل: كيف يتصور الجمع بين الإعراض والوعظ وقد أمر الله تعالى بهما؟

قيل معناه: فأعرض عن عقوبتهم، وعظهم.

وقيل: معناه: فأعرض عن قبول عذرهم، وعظهم ﴿ وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا ﴾ القول البليغ: هو ما يُبَلِّغ الإنسان بلسانه كنه ما فى قلبه، وقيل: هو التخويف بالله – تعالى – وقيل: هو أن يقول: إن رجعتم إلى هذا، فأمركم القتل.

قوله – تعالى –: ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾ قال أهل المعانى: قوله ﴿ إلا ليطاع ﴾ كلام كافٍ مفيد بنفسه، وقوله: ﴿ بإذن الله ﴾ كلام آخر ومعناه بعلم الله وقضاء الله يعنى: أن طاعته تقع بإذن الله.

﴿ ولو أنهم ﴾ يعنى: المنافقين ﴿ إذ ظلموا أنفسهم ﴾ يعنى: بالتحاكم إلى الطاغوت ﴿ جاءوك فاستغفروا الله ﴾ لأنهم ما جاءوا مستغفرين، وإنما جاءوا معتذرين بالأعذار الكاذبة.

قوله: ﴿ فاستغفروا الله ﴾ أى: سألوا مغفرة الله، ﴿ واستغفر لهم الرسول ﴾ أى: دعا لهم الرسول بالاستغفار ﴿ لوجدوا الله توابا رحيما ﴾.

---

(١) التوبة: ١٠٧.

فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم

قوله – تعالى –: ﴿فلا وربك لايؤمنون﴾ قوله: ﴿فلا﴾: رد لقول المنافقين وعذرهم، ثم ابتدأ بقوله: ﴿وربك لايؤمنون﴾ والمراد به: الإيمان الكامل، أى: لايكمل إيمانهم، ﴿حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ أى: اختلف، والاشتجار: الاختلاف، ومنه الشجر لالتفاف أغصانه بعضها على بعض، قال الشاعر:

هم الحكام أرباب الندى وسراة الناس إذ الأمر شجر

أى: اختلف، ﴿ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت﴾ أى: ضيقا، ومنه الحَرَجَة، روى أن عمر – رضى الله عنه – قال لبعض العرب: ما الحَرَجَة عندكم؟ قال: هى شجرة ملتفة، لايصل الماء إليها.

ومن ذلك قوله – تعالى –: ﴿يجعل صدره ضيقا حرجا﴾[1] أى: يضيق مسلكه بحيث لاتصل إليه الهداية ﴿ويسلموا تسليما﴾ ومعنى الآية: لايكمل إيمانهم حتى يرضوا بحكمك، وينقادوا لك، قيل: هذه أبلغ آية فى كتاب الله – تعالى – فى الوعيد.

واختلفوا فى سبب نزول الآية، قال عطاء، ومجاهد: الآية فى المنافقين الذين تحاكموا إلى الطاغوت، وقال عبد الله بن الزبير، وعروة بن الزبير، وجماعة: «الآية نزلت فى رجل من الأنصار يقال له: حاطب بن أبى بلتعة – وكان من أهل بدر – خاصم الزبير بن العوام فى ماء أرض عند النبى ﷺ، فقال – عليه الصلاة السلام – للزبير: اسق أرضك الماء ثم أرسله إلى جارك، وكانت أرض الأنصارى دون أرضه؛ فقال الأنصارى: أن كان ابن عمتك، فَتَلَوَّنَ وجه النبى ﷺ، وقال للزبير: اسق أرضك، واحبس الماء حتى يبلغ الجدر» – وفى رواية – حتى يبلغ الكعبين ثم سرحه يمر»[2]

(١) الأنعام: ١٢٥.

(٢) متفق عليه فرواه البخاري (٥/ ٤٢ – ٤٣/ رقم ٢٣٥٩ وأطرافه فى ٢٣٦٩، ٢٦٧٢، ٢٧١٢، ٧٤٤٦)، ومسلم (١٥/ ١٥٧/ رقم ٥٤١٦)، وليس فيهما ولا في السنن تسمية هذا الانصاري، وإنما جاء هذا عن سعيد ابن المسيب مرسلا.

مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ

كأن النبي ﷺ ساهل في حق الزبير في ابتداء الأمر، فلما أغضبه الأنصاري استوعب جميع حقه، وكلا الحُكْمَين كان حقا، وفي الخبر: قال الزبير: «احسب أن قوله: ﴿ فلا وربك لايؤمنون ﴾ نزل في هذا.

وروى أن اليهود لما بلغهم ذلك، قالوا: انظروا إلى أصحاب محمد كيف يخالفونه، وإن موسى عتب علينا، فَأُمِرْنَا بقتل أنفسنا، فقتلنا أنفسنا حتى بلغ القتلى سبعين ألفا.

قوله – تعالى –: ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ﴾ معناه: لو كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم، أو اخرجوا من دياركم، بدل ما أمرناهم به من طاعة الرسول، والانقياد لحكمه ﴿ ما فعلوه إلا قليل منهم ﴾ قال ثابت بن قيس بن شماس: لو أمرني رسول الله ﷺ بقتل نفسي لقتلت، وفي الخبر: أن ابن مسعود وعمار بن ياسر، وثابت بن قيس بن شماس، من ذلك القليل، وروى أن النبي ﷺ أشار إلى عبد الله بن رواحة، فقال له: «أنت من ذلك القليل»[1].

ويقرأ «إلا قليلا منهم»[2] فمن قرأ بالرفع؛ فلأنه معطوف على قوله: ﴿ ما فعلوه ﴾ وذلك في محل الرفع، وتقديره: ما فعلوه إلا نفر قليل منهم فعلوه. ومن قرأ بالنصب، فعلى الاستثناء.

﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به ﴾ يعني: من طاعة الرسول، والرضا لحكمه ﴿ لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا ﴾ أي: تصديقا ﴿ وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيماً ﴾ هو الجنة ﴿ ولهديناهم صراطا مستقيما ﴾ قيل: هو القرآن، وقيل: الإسلام.

(١) عزاه السيوطي في الدر (٢/ ٢٠٠) لابن أبي حاتم، عن شريح بن عبيد.

(٢) وهى قراءة ابن عامر، وأهل الشام انظر النشر (٢/ ٢٥٠).

وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

قوله – تعالى –: ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم ﴾ سبب نزول الآية، ما روى: أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يارسول الله، كيف يكون الحال فى الجنة، وأنت فى الدرجات العلى، ونحن أسفل منك، وكيف نراك؟ فنزلت الآية. وذكر النقاش فى تفسيره: أن ذلك القائل كان عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصارى.

وروى: أن رجلا قال: لرسول الله ﷺ: أنت أحب إلى من أهلى ومالى وولدى، وإذا غبت عنى يصيبنى شبه الجنون، حبا لك، فكيف حالى معك فى الجنة؟ فنزلت الآية» ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ﴾ قيل: ذلك بأن ينزل إليهم النبيون؛ حتى يروهم، لا أن يرفعوا إلى درجاتهم، وقيل: معناه: أنهم لايفوتهم رؤية النبيين ومجالستهم، وقوله: ﴿ والصديقين ﴾ يعنى: أصحاب رسول الله ﷺ، والصدِّيق المبالغ فى الصدق، ﴿ والشهداء ﴾ الذين استشهدوا يوم أحد.

واختلفوا فى[(١)] أنهم لم سموا شهداء؟ قال بعضهم: لأنهم قاموا بشهادة الحق حتى قتلوا، وقيل: لأن أرواحهم تشهد الجنة عقيب القتل، ﴿ والصالحين ﴾ الصالح: من استوت[(٢)] سريرته وعلانيته ﴿ وحسن أولئك رفيقا ﴾ الرفيق: الواحد، وهو بمعنى الجمع هاهنا ﴿ ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ﴾ أى: عدتكم، والحذر: ما يتقى به من العدو، نحو العدة والسلاح، ﴿ فانفروا ثبات ﴾ جمع «ثُبَة» قال ابن عباس: «الثبة»: ما فوق العشرة، وقال أبو عمرو بن العلاء: «الثُبَة» النَفر، ومعناه: انفروا جماعات، نفرا نفرا ﴿ أو انفروا جميعا ﴾.

وهذا دليل على أن الجهاد فرض على الكفاية، وقيل إن الآية صارت منسوخة؛

(١) ليست فى «الأصل»، ولا«ك».

(٢) فى «الأصل، وك»: استوى.

خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ

لقوله – تعالى– : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾[1].

قوله – تعالى –: ﴿ وإن منكم لمن ليبطئن ﴾ أى: ليتأخرن، والبطء: التأخير.

وقيل: هذا فى عبد الله بن أبى بن سلول ﴿ فإن أصابتكم مصيبة ﴾ يعنى: بالقتل والجرح فى الجهاد ﴿ قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا ﴾ أى: حاضرا ﴿ ولئن أصابكم فضل من الله ﴾ أى: الغنيمة ﴿ ليقولن ﴾ – بنصب اللام – ويقرأ فى الشواذ: برفع اللام والمعنى واحد ﴿ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ﴾ قيل: فى الآية تقديم وتأخير، وتقديره: فإن أصابتكم مصيبة، قال: قد أنعم الله على؛ إذ لم أكن معهم شهيدا، كأن لم تكن بينكم وبينه مودة، أى: معاقدة ومعاهدة على الجهاد، وقيل: أراد به: مودة الصحبة. ثم ابتدأ ﴿ ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا ﴾ أى: يبيعون ﴿ بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما ﴾ وهو معنى قوله فى سورة التوبة: ﴿ فيقتلون ويقتلون ﴾[2].

قوله – تعالى –: ﴿ وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله ﴾ عتب على أصحاب رسول الله ﷺ بترك القتال ﴿ والمستضعفين ﴾ وهم الذين أسلموا بمكة وسكنوا بأعذار، وبعضهم منعوا من الهجرة، قال ابن عباس: كنت أنا وأمى من المستضعفين.

قال الأزهرى: معنى الآية: لاتقاتلون فى سبيل الله، وفى سبيل المستضعفين؛ بتخليصهم من أيدى المشركين ﴿ من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية ﴾ وهى مكة باتفاق المفسرين ﴿ الظالم أهلها ﴾ أى: المشرك أهلها ﴿ واجعل لنا من لدنك وليا ﴾ أى: من يلى أمرنا ﴿ واجعل لنا من لدنك

(١) التوبة: ١٢٢.

(٢) التوبة: ١١١.

لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ

نصيرا ﴾ أى: من يمنع العدو عنا؛ فاستجاب الله دعوتهم، حتى فتح رسول الله ﷺ مكة، وولَّى عليها عتَّاب بن أسيد، فكان ينصف المظلوم، وينتصف من الظالم.

قوله – تعالى –: ﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ﴾ قد بينا معنى الطاغوت ﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان ﴾ أى: الكفار ﴿ إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾ قيل كان ضعيفا بمعنى: أنه لايرد أحدا عن الإسلام والهداية، وقيل: أراد به أن كيده كان ضعيفًا يوم بدر، حين رأى الملائكة، وخاف أن يأخذوه، فهرب؛ فكيده ضعيف بأحد هذين المعنيين.

قوله – تعالى –: ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم ﴾ قيل: هذا فى قوم أسلموا بمكة فآذاهم المشركون؛ «فقالوا: يارسول الله، ائذن لنا نقاتلهم، فقال لهم: ﴿ كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾؛ فإنى لم أؤمر بالقتال، ثم لما هاجر إلى المدينة، فأمر بالقتال، فكرهوا القتال»[1] قيل: أولئك الذين أسلموا وقالوا ذلك، منهم: عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وقدامة بن مظعون، والمقداد بن الأسود الكندى، وجماعة.

﴿ فلما كتب عليهم القتال ﴾ يعنى: بعد الهجرة ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾ أى: يخشون الناس كخشيتهم من الله، أو أشد خشية، قال الحسن البصرى: ماكانوا يخشون أمر الله بالقتال، وإنما ذلك: خشية طبع البشرية.

﴿ وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ أى: هلا أخرتنا إلى أجل قريب؛ فنموت بآجالنا، قيل: هذا قول المنافقين، وقيل: كان ذلك قول بعض

---

(١) رواه النسائي (٦/ ٣/ رقم ٣٠٨٦) والطبري في التفسير (٥/ ١٠٨)، والحاكم (٢/ ٦٦، ٣٠٧) وصححه على شرط البخاري، والواحدي في أسباب النزول (ص١٢٤). كلهم من حديث ابن عباس.

فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ

أصحاب رسول الله ﷺ: قالوا ذلك خوفا و(جبنًا)(١) لا اعتقاداً. وقال بعضهم: هو قول طلحة بن عبيد الله؛ قال ذلك خوفا ثم تاب عنه.

﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ يعنى: أن ما تستمتعون به من الدنيا فهو قليل،وفى الخبر المعروف: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم المخيط فى البحر، فلينظر بم يرجع؟!»(٢) ﴿والآخرة خير لمن اتقى ولاتظلمون فتيلا﴾ أى: لايُنقص من أجرهم شيء، ولا مقدار الفتيل.

قوله – تعالى –: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة﴾ معناه: أينما كنتم يأتيكم الموت، وإن كنتم فى بروج مشيدة، والبروج: الحصون، قال السدى: وهى قصور بيض فى السماء، قوله: ﴿مشيدة﴾ قال ابن عباس – فى القول المعروف –: هى المعروفة المطولة، وقال عكرمة: المشيدة: المجصصة، والشيد: الجص. وقال بعضهم: المشيد: المجصص، والمشيدة: المرفوعة، وفيه قول آخر عن ابن عباس: أنه أراد: فى بروج من حديد.

﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾ فالحسنة: الخصب، والسيئة: الجدب، وقيل الحسنة: النصر، والظفر يوم بدر، والسيئة: الهزيمة والقتل يوم أحد، ومعنى الآية: أن المسلمين إذا أصابتهم حسنة، فقال الكفار: هذا من عند الله وإن تصبهم سيئة قالوا هذا من عندك أى: بشؤمك؛ وذلك أن النبى ﷺ لما قدم المدينة أصاب أهلها نوع سوء؛ فقالت اليهود: ما رأينا أشأم

(١) في «ك»: حنقا.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه (١٧ / ٢٧٩–٢٨٠ رقم ٢٨٥٨)، والترمذى (٤ / ٤٨٦ رقم ٢٣٢٣)، وابن ماجه (٢ / ١٣٧٦ رقم ٤١٠٨)، وأحمد (٤ / ٢٢٨ – ٢٢٩، ٢٣٠)، وابن المبارك فى زهده (ص ١٧٠ رقم ٤٩٦) والطبرانى فى الكبير (٢٠ / ٣٠١–٣٠٢ رقم ٧١٣ – ٧١٧) وابن حبان فى صحيحه (١٠ / ١٧٣ رقم ٤٣٣٠)، والحاكم (٣ / ٥٩٢)، و(٤ / ٣١٩) كلهم من حديث المستورد بن شداد – رضى الله عنه –.

وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ

من هذا الرجل؛ منذ دخل ديارنا، قد غلت أسعارنا، ونقصت ثمارنا؛ وذلك بلية للمسلمين، وهذا نحو ما قالوا لصالح - عليه السلام - ﴿ اطيرنا بك وبمن معك ﴾[1] وفى قصة موسى: ﴿ يطيروا بموسى ومن معه ﴾[2] وفى سورة «يس»: ﴿ إنا تطيرنا بكم ﴾[3].

﴿ قل كل من عند الله ﴾ أى: الخصب، والجدب، والنصر، والهزيمة، كل من عند الله، ﴿ فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا ﴾ أى: ما لهم لايعلمون حديثا. والحديث: القرآن ها هنا، أى: لايعلمون معانى القرآن.

قوله - تعالى -: ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ﴾ يعنى: ما أصابك من خصب، فمن فضل الله، ﴿ وما أصابك من سيئة ﴾ أى: من جدب ﴿ فمن نفسك ﴾ أى: بذنبك.

والخطاب وإن كان مع الرسول، فالمراد به: الأمة؛ وذلك معنى قوله - تعالى -: ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾[4] قيل معناه: وما أصابك من حسنة أيها الإنسان فمن الله، وما أصابك من سيئة، فمن نفسك؛ فيكون الخطاب مع كل أحد من الناس، وقيل: معناه ﴿ ما أصابك من حسنة ﴾ أى: من النصر، والظفر فمن فضل الله ﴿ وما أصابك من سيئة ﴾ أى: من هزيمة، وقتل يوم أحد ﴿ فمن نفسك ﴾ أى: بذنب نفسك من مخالفة النبى ﷺ كما سبق.

فإن قيل: كيف وجه الجمع بين الآيتين، فإنه قد قال - فى الآية الأولى -: ﴿ قل كل من عند الله ﴾ قيل: معنى الآية الأولى: أن الخصب والجدب والنصر والهزيمة

(١) النمل: ٤٧.

(٢) الأعراف: ١٣١.

(٣) يس: ١٨.

(٤) الشورى: ٣٠.

إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا

كلها تقع من عند الله، ومعنى الآية الثانية ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ أى: ما أصابك من سيئة من الله؛ فبذنب نفسك؛ عقوبة لك.

واعلم أنه ليس فى الآية متعلق لأهل القدر أصلا؛ فإن الآية فيما يصيب الناس من النعم والمحن، لافى الطاعات والمعاصى؛ إذ لو كان المراد ما توهموا، لقال: ما أصبت من حسنة، فمن الله وما أصبت من سيئة؛ فلما قال: ما أصابك من حسنة وما أصابك من سيئة؛ دل أنه أراد: ما يصيب العباد من النعم والمحن، لا فى الطاعات والمعاصى، وحكى عبد الوهاب بن مجاهد، عن مجاهد، أن ابن عباس قرأ: «وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأنا كتبتها عليك» وكذا حكى عن ابن مسعود أنه قرأ كذلك، وهو معروف عن ابن عباس، وهو يؤيد قولنا: إن المراد: بذنب نفسك.

وفى الآية قول آخر: مضمر فيه، وتقديره: فمال هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا؛ يقولون: ما أصابك من حسنة، فمن الله، وما أصابك من سيئة، فمن نفسك [فيكون](١) حكاية لقول الكفار ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ روى: «أن النبى ﷺ قال: «من أطاعنى فقد أطاع الله – تعالى – ومن أحبنى فقد أحب الله، فقالت اليهود: إن هذا الرجل يريد أن نتخذه ربا وحنّانا، كما اتخذت النصارى عيسى بن مريم؛ فأنزل الله – تعالى – هذه الآية على وفاق قول الرسول»(٢) ﴿ ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾ أى: كِلْ أمره إلىَّ.

قوله – تعالى –: ﴿ ويقولون طاعة ﴾ يعنى: المنافقين يقولون باللسان: مرنا، فإن أمرك طاعة ﴿ فإذا برزوا ﴾ أى: خرجوا ﴿ من عندك بيت طائفة منهم غير الذى

(١) فى «الأصل وك»: فيقول.

(٢) قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٣٣٦): غريب جداً. وقال الحافظ فى تلخيص الكشاف: لم أجده.

أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ

تقول ﴾ قال أبو رزين: بَيَّتَ أى: ألف. وقال غيره: بيت، أى: بدل؛ والأصح أنه من التبييت، وهو فعل الشيء ليلا، يقال: هذا أمر بُيِّتَ ليلاً، قيل: أى: فعل بالليل، ويجوز أن يقال لما فعل بالنهار: تبييتا؛ لأن الفعل بالليل إنما سمى تبييتا؛ لأن الإنسان بالليل يكون أفرغ لتدبير أمره، فعلى هذا المعنى يجوز أن يقال لما فعل بالنهار: تبييتا، قال الشاعر:

بَيَّتوا أمـــرهم بليـــل فلمـــا أصبحوا أصبحوا على[1] ضوضاء[2]

ومعنى ﴿ بيت طائفة منهم غير الذى تقول ﴾ أى: خالفوا بالليل ما قالوا بالنهار ﴿ والله يكتب ما يبيتون ﴾ أى: يحصى ويحفظ؛ ليجازى عليه، وقيل: يأمر الكتبة حتى يكتبوا ﴿ فأعرض عنهم ﴾ قال الضحاك: معناه: لاتخبر بأسمائهم، وكان - عليه الصلاة والسلام - يعرف المنافقين، وما كان يخبر بأسمائهم ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ أى: اتخذه وكيلا.

قوله - تعالى -: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ التدبر: النظر فى الأمر إلى آخره، وهو من دُبُر الشيء: آخره، وفى الخبر: «من أشراط الساعة: ولايأتون الصلاة إلا دُبُراً»[3] أى: آخراً ومنه قوله ﷺ: «لاتَدَابروا»[4] أى: لايولِّ بعضكم ظهره إلى بعض عدواة.

---

(١) ليست فى «ك».

(٢) وقع هذا البيت فى لسان العرب (مادة: ضوا)

أجمعـوا أمرهم عِشـاءً فلمَّا أصبحوا أصبحت لهم ضوضاءُ

وعزاه ابن منظور للحارث بن حلِّزة.

(٣) لم أجده مرفوعاً بهذا اللفظ، وروى أبو داود، وابن ماجه وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يقبل الله تعالى منهم صلاة - وذكر فيهم - والرجل لا يأتي الصلاة إلا دباراً» وروى عن ابن مسعود أنه قال: «ومن الناس من لا يأتي الصلاة إلا دبراً» انظر الزهد لأبي داود بتحقيقنا (رقم١٦١). وقال ابن الأثير في النهاية (٢/ ٩٧): ومنه الحديث: «لا يأتي الجمعة إلا دبراً».

(٤) متفق عليه من حديث أنس بن مالك، رواه البخاري (١٠/ ٥٠٧/ رقم ٦٠٧٦ وطرفه فى ٦٠٦٥)، ومسلم (١٦/ ١٧٤ - ١٧٥/ رقم ٢٥٥٩).

عند اللَّه وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِه مِنْ عِندكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِند اللَّه فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ

فقوله ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ أى: أفلا يتفكرون فى القرآن ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ قال ابن عباس: ليس فى القرآن تناقض ولا تفاوت؛ فهذا معنى الآية.

وقال الزجاج: ما أخبر عن الغيب فكله صدق، ليس بعضه صدقا، وبعضه كذبا، وقيل: معناه: أن كله بليغ صحيح، ليس فيه مرذول ولا فاسد.

قوله - تعالى -: ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ﴾ يعنى: المنافقين إذا جاءهم أمر وخبر من أمر السرايا الذين بعثهم رسول الله ﷺ، فإن كان بالأمن والنصر، كتموا، وقصروا فى الأخبار، وإن كان بالخوف والهزيمة أذاعوا به، وزادوا.

وفى الآية إضمار، وتقديرها: وإذا جاءهم أمر من الأمن قصروا فى الإخبار به، وكتموا، [وإذا][1] جاءهم أمر من الخوف أذاعوا به ﴿ ولو ردوه إلى الرسول ﴾ قيل أراد بقوله: ﴿ ولو ردوه ﴾ يعنى: ضعفة المسلمين الذين سمعوا تلك الأخبار من المنافقين قالوا مثل قولهم؛ فقال الله - تعالى -: ﴿ ولو ردوه إلى الرسول ﴾ ويحتمل أن يكون المراد به فى الكلام المؤمنين والمنافقين، لو[2] ردوه إلى الرسول.

﴿ وإلى أولى الأمر منهم ﴾ يعنى: إلى أمراء السرايا ﴿ لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ يعنى: لو طلبوا تلك الأخبار من عند أمراء السرايا، ووكلوا الإخبار بها إليهم؛ لعلمه الذين يحبون أن يعلموه على حقيقته كما هو، والاستنباط: هو استخراج العلم ومنه النبط، وهم قوم يستخرجون الماء، وقيل: أراد به العلماء، يعنى: ولو ردوه إلى الرسول، وإلى أولى الأمر منهم لعلم الذين يستنبطونه منهم ما ينبغى أن

(١) في «الأصل وك»: إذ.

(٢) في «الأصل و ك» أو، تحريف.

وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً ﴿٧٩﴾ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ

يكتم، ويعلمون ما ينبغى أن يفشى، يعنى: العلماء.

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا ﴾ فإن قال قائل: كيف استثنى القليل، ولولا فضله لاتبع الكل الشيطان؟ قيل: اختلفوا فيه، قال الفراء: هذا الاستثناء راجع إلى قوله: ﴿ أذاعوا به ﴾ إلا قليلا، وقوله: ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان ﴾، كلام تام، وقيل: هو راجع إلى قوله: ﴿ لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ ثم قال: ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان ﴾ وقيل: هو على نظمه، ومعناه: ولولا ما تفضل الله عليكم به من البيان لما ينبغى أن يفعل وما ينبغى أن يجتنب ﴿ لاتبعتم الشيطان إلا قليلا ﴾.

وفيه قول رابع: أنه أراد بالقليل: قوما اهتدوا بالحق قبل بعث الرسول، وإنزال القرآن، وأقروا بالتوحيد، وذلك مثل: زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وجماعة، وقد قال ﷺ فى زيد بن عمرو بن نفيل: «إنه يبعث أمة على حدة»[1].

قوله - تعالى -: ﴿ فقاتل فى سبيل الله ﴾ كذا يتصل بما سبق من قوله: ﴿ وما لكم لا تقاتلون ﴾ لما عاتبهم على ترك القتال، قال للرسول: إن لم يقاتل هؤلاء، فقاتل أنت وحدك ﴿ لاتكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ﴾ يعنى: عذاب الذين كفروا، وعسى من الله واجب، والمراد به: تطميع المؤمنين، ﴿ والله أشد بأسا ﴾ أى: أشد عذابا ﴿ وأشد تنكيلا ﴾ التنكيل من النكل، وهو المنع، ومنه النَكَال: وهو ما يفعل بالإنسان، فيمنع غيره عن فعله.

قوله - تعالى -: ﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده (١/١٨٩ - ١٩٠)، والحاكم فى المستدرك (٣/٤٣٩ - ٤٤٠)، والطبرانى فى الكبير (١/١٥١ - ١٥٢/ رقم ٣٥٠)، والبيهقى فى الدلائل (١/٤٧٥ - ٤٧٦) كلهم من حديث سعيد ابن زيد بن عمرو، وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٤٢٠): وفيه المسعودى، وقد اختلط، وبقية رجاله ثقات.

الَّذي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿٨١﴾ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ

شفاعة سيئة يكن له كفل منها﴾ قال ابن عباس: الشفاعة الحسنة: هى الإصلاح بين الناس، والشفاعة السيئة: هى المشى بالنميمة بين الناس، وقيل: هو فى كل الشفاعات، فالشفاعة الحسنة: هى أن يقول قولا حسنا؛ ينال به الخير، والشفاعة السيئة: هى أن يقول قولا قبيحا؛ يلحق به سوء.

قوله: ﴿يكن له نصيب منها﴾ أى: من أجرها، وقوله: ﴿يكن له كفل منها﴾ أى: من وزرها، والكفل: النصيب، قال الله - تعالى -: ﴿يؤتكم[1] كفلين من رحمته﴾[2] أى: نصيبين.

واعلم أن الإنسان يؤجر على الشفاعة، وإن لم يُشَفَّع؛ لأن الله - تعالى - يقول: ﴿من يشفع﴾، ولم يقل: من يُشَفَّع، وقد روى أبو موسى الأشعرى عن رسول اللهﷺ أنه قال: «اشفعوا تؤجروا، ويقضى الله على لسان نبيه ماشاء»[3].

واعلم أن الشفاعة مستحبة فى كل الحقوق إلا فى حدود الله - تعالى -؛ فإنه لايجوز فيها الشفاعة ليترك الحد، وقد قال ﷺ: «من شفع فى حد من حدود من الله - تعالى - فقد ضاد الله فى ملكه»[4] أى: نازعه فى ملكه.

﴿وكان الله على كل شيء مقيتا﴾ قال ابن عباس: المقيت: المقتدر، قال الشاعر:

وذى ضغن كففتُ النفسَ عنه ... وكنت على مساءَته مُقيتَا

والقول الثانى عن ابن عباس: المقيت: الحافظ، وفى الخبر: «كفى بالمرء إثما أن

(١) في «ك»: يكن لكم، وهو خطأ.

(٢) الحديد: ٢٨.

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٣/ ٣٥١/ رقم ١٤٣٢)، ومسلم (١٦/ ١٧٢/ رقم ٢٦٢٧).

(٤) رواه أبو داود (٣/ ٣٠٥/ رقم ٣٥٩٧)، وأحمد (٢/ ٧٠) والحاكم (٢/ ٢٧) والطبرانى فى الكبير (١٢/ ٢٧٠ - ٢٧١ رقم ١٣٠٨٤)، والبيهقى (٦/ ٨٢) وصحح الحاكم إسناده.

أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٣﴾ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ

يضيع من يقوته»[1] أى: من قوته، وفى رواية: «من يقيت» أى: من فى حفظه، وفيه قول ثالث: أن الله - تعالى - على كل حيوان مقيت، أى: يوصل القوت إليه؛ فهذا معنى قوله: ﴿وكان الله على كل شىء﴾ أى: حيوانٍ ﴿مقيتا﴾.

قوله - تعالى -: ﴿وإذا حييتم بتحية﴾ أكثر المفسرين على أن المراد بالتحية هاهنا: السلام، وأصل التحية: هو دعاء بالحياة، وهو فى الشريعة عبارة عن السلام، والسلام: دعاء السلامة، وقد تكون التحية بمعنى: الملك والبقاء، ومنه: التحيات لله، وقال الشاعر:

ولكل ما نال الفتى ... قـد نلته إلا التحيه

يعنى: إلا الملك، وعلى معنى السلام أنشدوا قول الشاعر:

إنا محيوك ياسلمى فحيينا ... وإن سقيت كرام الناس فاسقينا

﴿فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ أراد به: رد السلام بأحسن مما سلّم، أو ترد كما سلم، فإذا قال: السلام عليك، فالمستحب أن تقول: وعليك السلام ورحمة الله، وإذا قال: السلام عليك ورحمة الله، تقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وهو الأحسن.

وفى الخبر: «أن رجلا جاء، فسلّم على النبى ﷺ، فقال: وعليكم السلام ورحمة الله، فدخل آخر وقال: السلام عليك ورحمة الله، فقال: وعليكم السلام ورحمة الله

(١) رواه أبو داود (٢/١٣٢/ رقم ١٦٩٢)، والنسائي في الكبرى (٥/٣٧٤/ رقم ٩١٧٦، ٩١٧٧)، والحميدي في مسنده (٢/٢٧٣/ رقم ٥٩٩)، وأحمد (٢/١٩٣، ١٩٥)، والطيالسي (ص٣٠١/ رقم ٢٢٨١)، وابن حبان - الإحسان - (١٠/٥١ - ٥٢/ رقم ٤٢٤٠)، والحاكم (٤/٥٠٠) وقال صحيح الإسناد، والبيهقي في الكبرى (٧/٤٦٧)، وأبو نعيم في الحلية (٧/١٣٥) من حديث عبد الله بن عمرو. ورواه مسلم (٧/١١٤/ رقم ٩٩٦) بلفظ «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوتهم».

وبركاته، فدخل ثالث، وقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال: وعليكم؛ فقيل له فى ذلك، فقال – عليه السلام – إن الأول والثانى تركا من التحية شيئا؛ فأجبت بأحسن، وإن الثالث لم يترك من التحية شيئا فرددت عليه »[1].

واعلم أن السلام، سنة وردّ السلام فريضة، لكنه فرض على الكفاية، حتى إذا سُلِّم على جماعة فرد أحدهم؛ سقط الفرض عن الباقين، وكذلك السلام سنة على الكفاية، حتى إذا كانت جماعة، فسلّم أحدهم كفى فى السنة.

وروى الحسن مرسلا عن النبى ﷺ أنه قال: « السلام سنة ورده فريضة »[2].

وقال بعض المفسرين: أراد بالتحية: الهبات والهدايا، وقوله: ﴿ فحيوا بأحسن منها ﴾ أراد به: الثواب على الهدية، وهو سنة، « وكان – عليه السلام – يقبل الهدية، ويثيب عليها »[3]، والأصح هو القول الأول.

﴿ إن الله كان على شىء حسيبا ﴾ أى: محاسبا، وقيل كافيا، ومنه قوله –تعالى–: ﴿ جزاءً من ربك عطاءً حساباً ﴾[4] أى: كافيا.

(١) رواه الطبرى فى التفسير (٥ / ١٢٠) والطبرانى فى الكبير (٦ / ٢٤٦ – ٢٤٧ / رقم ٦١١٤) من حديث سلمان الفارسى، وقال الهيثمى فى المجمع (٨/٣٦١): وفيه هشام بن لاحق، قواه النسائى، وترك أحمد حديثه. وعزاه السيوطى فى الدر (٢ / ٢٠٧) لأحمد فى الزهد، وابن أبى حاتم وابن المنذر، وابن مردويه بسند حسن.

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٥ / ١٢٠) عن الحسن مرسلاً. وعزاه في كنز العمال (٩/٢١٥/ رقم ٢٥٧١٧) للديلمي في الفردوس من حديث الحسن مرسلاً.
وفي مسند الفردوس (٢/٣٤٠/ رقم ٣٥٣٨) جعله من مسند علي.
وقال العجلوني في كشف الخفاء (١/٥٤٨/ رقم ١٤٧٦): رواه الديلمي بسند ضعيف عن علي. قلت: ولفظه: « السلام تطوع، والرد فريضة ».

(٣) رواه البخارى (٥/٢٤٩)، وأبو داود (٣/٢٩٠ رقم ٣٥٣٦)، والترمذى (٤/٢٩٨ رقم ١٩٥٣)، وأحمد (٦/٩٠)، والبيهقى (٦/١٨٠)، والخطيب فى تاريخه (٤/٢٢٣)، وابن عدى فى الكامل (٢/٢٨١) كلهم من طريق عيسى بن يونس، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة.
ورواه ابن أبى شيبة فى مصنفه من طريق وكيع، عن هشام بن عروة من قوله.
وقال البخارى: لم يذكر وكيع، ومحاضر: عن هشام عن أبيه عن عائشة.

(٤) النبأ: ٣٦.

سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ

قوله – تعالى –: ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه﴾ «اللام» لام القسم، وتقديره: والله ليجمعنكم الله إلى يوم القيامة، واختلفوا: أنه فيم يجمعهم؟ قال بعضهم: يجمعهم فى الإهلاك والموت إلى القيامة، وقال بعضهم: يجمعهم فى القبور إلى القيامة.

واختلفوا: لِمَ سُمِّيت القيامة قيامة؟ قال بعضهم: لأن الناس يقومون فيها إلى رب العالمين، كما قال الله – تعالى –: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾[(١)] وقيل: إن الناس يقومون فيها إلى الحساب. ﴿ومن أصدق من الله حديثا﴾ أى: قولا وخبرا.

قوله – تعالى –: ﴿فما لكم فى المنافقين فئتين﴾ اختلفوا فى سبب نزول الآية على ثلاثة أقوال: قال زيد بن ثابت: هذا فى الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ يوم أحد، فقال بعض الصحابة لرسول الله: اعف عنهم؛ فإنهم تكلموا بالإسلام. وقال بعضهم: اقتلهم؛ فإنهم منافقون؛ فنزلت الآية ﴿فما لكم فى المنافقين فئتين﴾»[(٢)] أى: مالكم افترقتم فيهم فرقتين؟ عتب عليهم بالاختلاف بينهم، وحكم بنفاقهم.

وقال مجاهد: الآية فى جماعة من أهل مكة هاجروا إلى المدينة، وأسلموا، ثم استأذنوا رسول الله ﷺ فى الرجوع إلى مكة، بعلَّة أن لهم بها بضائع؛ فرجعوا، وارتدُّوا فقال بعض أصحابه: هم مسلمون؛ لأنهم تكلموا بالإسلام، وقال بعضهم: هم قد نافقوا؛ فنزل قوله تعالى: ﴿فما لكم فى المنافقين فئتين﴾ وحكى مجاهد هذا عن ابن عباس.

والقول الثالث – وهو الرواية الثانية عن ابن عباس –: أن الآية فى قوم من المشركين أسلموا بمكة، وكانوا يعاونون المشركين، ويظاهرونهم؛ فاختلف الصحابة فيهم

(١) المطففين: ٦.

(٢) متفق عليه من حديث زيد بن ثابت، فرواه البخاري (١٠/ ١٠٤ – ١٠٥/ رقم ٤٥٨٩) ومسلم (١٧/ ١٨٠/ رقم ٢٧٧٦).

الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴿٨٨﴾

فرقتين؛ فنزل قوله – تعالى –: ﴿ فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا ﴾ أركسهم وركسهم بمعنى واحد.

وقرأ ابن مسعود ﴿ والله ركَّسَهُم ﴾ قال الزجاج: معناه: نكسهم، وقال النضر بن شميل: معناه: أعادهم، يعنى: إلى الكفر بما كسبوا، ومنه: الركس؛ لأنه كان طعاما، فصار رجيعا.

﴿ أتريدون أن تهدوا من أضل الله ﴾ يعنى: أتريدون أن ترشدوا من أضله الله ﴿ ومن يضلل الله ﴾ يعنى: ومن يضلله ﴿ فلن تجد له سبيلا ﴾ أى: طريقا إلى الحق. قوله – تعالى –: ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا ﴾ يعنى: الذين عادوا إلى الكفر ودوا أن تعودوا إلى الكفر ﴿ فتكونون سواء ﴾ يعنى: فى الكفر.

﴿ فلا تتخذوا منهم أولياء ﴾ منعهم من الموالاة معهم ﴿ حتى يهاجروا فى سبيل الله ﴾ أى: حتى يسلموا ﴿ فإن تولوا ﴾ يعنى: فى الكفر ﴿ فخذوهم ﴾ أى: فأسروهم، والأخذ هاهنا: الأسر، ويقال للأسير: أخيذ ﴿ واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيراً ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ قال أبو عبيدة: معناه إلا الذين ينتسبون إلى قوم، وأنشد فيه قول الشاعر:

إذا اتصلت قالت لبكر بن وائل … وبكرٌ سبَاهَا[1] والأنوف رواغم

يعنى: إذا انتسبت تلك القبيلة.

وأنكر أهل المعانى هذا على أبى عبيدة، وقالوا: هذا لايستقيم فى معنى هذا الاستثناء المنع من القتل، وما كان المنع لأجل النسبة، فإن النبى ﷺ كان يقاتل المشركين من قريش، وإن كانوا من نسبه، بل معنى قوله: ﴿ إلا الذين يصلون ﴾ أى:

(١) فى لسان العرب (مادة: وصل): سبتها.

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾

يخالطون، ويتصلون بقوم كان بينهم وبين النبى ﷺ موادعة وعهد.

وذلك هلال بن عويمر الأسلمى، وقومه، وكان الله – تعالى – منع من قتل أولئك ممن اتصل بهم، وفى ذمامهم ﴿أو جاءوكم﴾ أو يصلون بقوم جاءوكم للمعاهدة والموادعة، ﴿حصرت صدورهم﴾ ضاقت، فضاقت صدورهم من القتال معكم، ومن معاونتكم على القتال مع قومهم؛ لأجل الرعب الذى ألقى الله – تعالى – فى قلوبهم، وقرأ الحسن – وهو قراءة يعقوب وسهل – «حَصِرةً صدورهم»[1] على الحال، أى: ضيقة صدورهم، قال المبرد: حصرت صدورهم على سبيل الدعاء، كقوله: ﴿قاتلهم الله﴾[2] كأن الله – تعالى – يقول: ﴿حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم﴾ على سبيل الدعاء.

﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم﴾ معنى هذا: أن الله – تعالى – هو الذى ألقى الرعب فى قلوبهم، وكفهم عن قتالكم، حتى جاءوا معاهدين، ولو شاء الله لسلطهم عليكم ﴿فلقاتلوكم﴾؛ فإذًا لاتقاتلوهم ومن اتصل بهم ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم﴾ يعنى: الصلح فانقادوا، واستسلموا ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلا﴾ أى: طريقا عليهم بالقتل والقتال.

قوله – تعالى –: ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾ قال ابن عباس: أراد به: أسد وغطفان، جاءوا إلى النبى ﷺ وأسلموا؛ فلما رجعوا إلى قومهم قالوا: إنا آمنا بالعقرب والخنفساء ورجعوا إلى الكفر.

وقال قتادة: أراد به: سراقة بن مالك بن جعشم، لما جاء إلى النبى ﷺ، وقال: أنا منكم، ثم رجع إلى قومه، فقال: أنا منكم.

(١) انظر النشر (٢/ ٢٥١).

(٢) التوبة: ٣٠، والمنافقون: ٤.

إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا

﴿ يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ﴾ أى: يريدون أن يأمنوا منكم، ومن قومهم. ﴿ كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها ﴾ أى كلما دعوا إلى الشرك دخلوا فيه.

﴿ فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ﴾ يعنى: القيادة والاستسلام ﴿ ويكفوا أيديهم فخذوهم ﴾ أى: فأسروهم ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ وجدتموهم، ﴿ وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا ﴾ حجة بينة بالقتل والقتال.

قوله - تعالى -: ﴿ وماكان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأً ﴾ سبب نزول الآية: ماروى أن عياش بن أبى ربيعة قتل الحارث بن يزيد، وكان الحارث يؤذى عياشا فى الجاهلية، حتى أسلم عياش؛ فنذر أن يقتله متى ظفر به، فظفر بالحارث وقد أسلم الحارث، ولم يعلم هو بإسلامه؛ فنزلت الآية: ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا ﴾ وهذا نهى عن قتل المؤمن على الإطلاق، وقوله: ﴿ إلا خطأً ﴾ استثناء منقطع، ومعناه: لكن إن وقع خطأ. وقال بعضهم: «إلا» بمعنى «ولا» يعنى: ولا خطأً، ولايعرف فى كلام العرب «إلا» بمعنى «ولا»؛ ولأنه يقتضى النهى عن قتل الخطأ، والخطأ لايدخل تحت النهى والأمر، والأول أصح، ثم ذكر حكم القتل الخطأ، فقال: ﴿ ومن قتل مؤمنا خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ أى: فاعتقوا رقبة مؤمنة، ثم اختلف العلماء، فقال الحسن، والشعبى، والنخعى: أراد به: رقبة بالغة ولاتجزئ الرقبة الصغيرة، وإن كانت مؤمنة، وقال عطاء - وهو الذى أخذ به الفقهاء -: إنه تجزئ الصغيرة.

﴿ ودية مسلمة إلى أهله ﴾ يعنى: سلموا الدية إلى أهله، وظاهر الآية يقتضى أن تكون الدية فى قتل الخطأ فى مال القاتل، كالكفارة، لكن عرفنا بالسنة أن الكفارة فى مال القاتل والدية على العاقلة.

وقوله: ﴿ إلا أن يصدقوا ﴾ يعنى: أن يتصدقوا، وقرأ أبى بن كعب كذلك، ومعنى التصدق: العفو عن الدية ﴿ فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة

إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ

مؤمنة ﴾ أكثر المفسرين – وهو قول الحسن، وقتادة، ومجاهد، وجماعة – : أن المراد به: وإن كان من [نَسَبِ][1] قوم عدو لكم وهو مؤمن، ومعناه المؤمن يكون فى دار الإسلام، وقرابته فى دار الحرب، فيقتل خطأ، فالواجب بقتله الكفارة، ولا دية؛ لأنها إذا سلمت إلى قرابته يقووا بها على المسلمين، والأصح والذى عرفه الفقهاء أن المراد به: المؤمن الذى أسلم فى دار الحرب، فيقتله من لم يعلم إسلامه، فالواجب فيه الكفارة، دون الدية.

﴿ وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ هذا فى أهل الذمة والمعاهدين ﴿ فدية مسلمة إلى أهله ﴾ يعنى: على القدر الذى اختلف فيه ﴿ وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ﴾ يعنى: ليتوبوا إلى الله ﴿ وكان الله عليما حكيما ﴾.

قوله – تعالى – : ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم ﴾ نزلت الآية فى مقيس بن ضبابة الليثى، أسلم وأخوه هشام، ثم وجد أخاه مقتولا فى بنى النجار؛ فجاء إلى النبى ﷺ فى ذلك، فبعث معه رجلا فهريًّا إلى بنى النجار، وأمرهم أن يدفعوا إليه قاتل أخيه، أو يسلموا الدية، فجاءا إليهم، وبلغا الرسالة، فقالوا: سمعا وطاعة لرسول الله، والله ما نعرف القاتل، وساقوا الدية إليه مائة من الإبل؛ فلما رجعا أقبل مقيس وقتل الفهرى، واستاق الإبل، ولحق بمكة وارتد، وقال الشعر:

قتلتُ به فهرا وحملت عَقْلَه ... سَرَاةَ بنى النجار أربابَ فارع

فأدركت ثأرى واضطجعت موسرا[2] ... وكنت إلى الأوثان أول راجعِ

فنزلت الآية فيه، وهو الذى أمر النبى ﷺ بقتله؛ فجاء الجماعة الذين عينهم

(١) فى «الأصل وك»: سبب، وهو تصحيف.

(٢) كذا «بالأصل»، و«ك»، وفى لسان العرب (مادة: فرع): مُوَسَّدًا، آخره دال.

وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَائِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ

للقتل يوم فتح مكة؛ فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة فقوله: ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا﴾ فالقتل المتعمد عند أكثر العلماء: هو الذى يحصل بكل ما يقصد به القتل، وقال سعيد بن المسيب، وطاوس: القتل العمد لايكون إلا بالحديد ﴿فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه﴾ أى: طرده عن الرحمة ﴿وأعد له عذابا عظيما﴾ وقال ابن عباس: الآية مدنية لم ينسخها شىء؛ فكان يقول: ليس لقاتل المؤمن توبة، وسئل عن توبته؛ فقال: أنى تكون له التوبة، فقيل له: أليس قد قال الله - تعالى -: ﴿ولايقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولايزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب﴾،[1] فقال ابن عباس: تلك آية مكية، وهذه آية مدنية لم تنسخ بشىء حتى قبض رسول الله ﷺ.

وقال زيد بن ثابت: الشديدة بعد الهينة بستة أشهر، يعنى بالهينة آية الفرقان، وبالشديدة هذه الآية.

وروى حميد، عن أنس، عن النبى ﷺ أنه قال: «أبى الله - تعالى - أن يكون لقاتل المؤمن توبة»[2] وفى الخبر عن النبى ﷺ: «لقتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا»[3].

والأصح، والذى عليه الأكثرون - وهو مذهب أهل السنة -: أن لقاتل المؤمن عمدا توبة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وإنى لغفار لمن تاب وآمن﴾[4] وقوله: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[5] ولأن القتل العمد ليس بأشد من الكفر، ومن

(١) الفرقان: ٦٨ - ٧٠.

(٢) الحديث صححه الشيخ الألبانى كما فى الصحيحة رقم [٦٨٩] وعزاه للواحدى فى الوسيط والضياء فى المختارة، وغيرهما.

(٣) روى من حديث بريدة، والبراء، وعبد الله بن عمرو، انظر تلخيص الحبير بتحقيقنا (٤/٢٨/رقم١٨٦٩).

(٤) طه: ٨٢ (٥) النساء: ٤٨.

مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ

الكفر توبة؛ فمن القتل أولى، وأما الذى روى عن ابن عباس، فعلى سبيل التشديد والمبالغة فى الزجر عن القتل، وهو مثل ما روى عن سفيان بن عيينة أنه قال: إن لم يقتل يقال له: لاتوبة لك، منعاً له عن القتل، وإن قتل يقال له: لك توبة، حتى يتوب. وروى أن رجلا جاء إلى ابن عباس وسأله: هل لقاتل المؤمن توبة، قال: لا، فجاءه آخر، وسأله عن ذلك، فقال: نعم، له توبة، فقيل له فى ذلك، فقال: إن الأول لم يكن قتل؛ فمنعته عن القتل، وإن الثانى قتل؛ فأرشدته إلى التوبة.

واعلم أن لامتعلق فى هذه الآية لمن يقول بالتخليد فى النار لأهل الكبائر من المسلمين؛ لأنا إن نظرنا إلى سبب نزول الآية، فالآية نزلت فى قاتلٍ كافرٍ كما بينا، وقيل: إنه فيمن يَقْتُل مستحلا، والأولى أن نقول فيه ما قاله أبو صالح: إن معنى قوله: ﴿ فجزاؤه جهنم خالدا فيها ﴾ إن جازى، وبه نقول: إن الله تعالى إن جازاه ذلك خالدا، فهو جزاؤه، ولكنه ربما لايجازى، وقد وعد أن لايجازى ويغفر لمن يشاء، وهو لايخلف الميعاد، وحكى عن قريش بن أنس – رحمه الله – أنه قال: كنت فى مجلس فيه عمرو بن عبيد، فقال: لو قال الله لى يوم القيامة: لم قلت بتخليد القاتل المتعمد فى النار؟ فأقول له: أنت الذى قلت: ﴿ فجزاؤه جهنم خالدا فيها ﴾ قال قريش: وكنت أصغر القوم، فقلت له: أرأيت لو قال الله – تعالى – لك: ألست قلت ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾(١) فمن أين علمت أنى لم أشأ مغفرة القاتل؟ فسكت ولم يستطع الجواب.

وحكى أن عمرو بن عبيد جاء إلى أبى عمرو بن العلاء – رحمه الله – وقال له: هل يخلف الله وعده؟ فقال: لا، فقال: أليس قد قال الله – تعالى – : ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ﴾ فأنا على هذا؛ لأنه لايخلف وعده، فقال أبو عمرو: ومن العجمة أُتِيتَ يا أبا عثمان؛ إن العرب لاتعد الإخلاف فى الوعيد خلفا

(١) النساء: ٤٨، ١١٦.

فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

وذما، وإنما ذلك فى الخلف فى الوعد، وأنشد له قول القائل فيه:

وإنى إذا أو عدته (و)[1] وعدته ... لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

فقد تمدح بالخلف فى الوعيد، وقال آخر:

وإذا وعد السراء أنجز وعده ... وإن وعد الضراء فالعفو مانعه

فالله - تعالى - يجوز أن يخلف فى الوعيد، وإنما لايخلف الميعاد.

قوله - تعالى -: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله ﴾ أى: سافرتم فى سبيل الله، يعنى: الغزو، ﴿ فتبينوا ﴾ ويقرأ: «فتثبتوا»[2] ومعناهما: ترك العجلة.

وفى الخبر: «التأنى من الله، والعجلة من الشيطان»[3] ﴿ فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا ﴾ يقرأ: «إليكم السلام» ويقرأ: «إليكم السلم»[4]، فالسلام: هو التسليم المعهود، والسلم: المقادة والاستسلام، والسلم: الصلح، وقرأ أبو جعفر المدنى يزيد بن القعقاع: «لست مؤمنا»[5] من الأمان ﴿ تبتغون عرض الحياة الدنيا ﴾ يعنى: تبتغون الدنيا، وفى الآثار: «الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر والفاجر، والآخرة وعد صادق، يقضى فيها ملك قادر»[6].

(١) فى «ك»: أو.

(٢) وهى قراءة حمزة، والكسائى، وخلف. انظر النشر (٢/ ٢٥١).

(٣) رواه أبو يعلى (٧/ ٢٤٨ رقم ٤٢٥٦)، والبيهقى فى الكبرى (١٠/ ١٠٤)، من حديث أنس به.
وقال المنذرى فى الترغيب (٢/ ٢٥١)، والهيثمى فى المجمع (٨/ ٢٢): رجاله رجال الصحيح.

(٤) قرأ نافع، وأبو جعفر، وحمزة، وابن عامر، وخلف: بحذف الألف، وقرأ الباقون بإثباتها.

(٥) انظر المصدر السابق.

(٦) رواه الشافعى فى مسنده (٢/ ١٨٨ - ١٨٩/ رقم ٦٧٢) من طريق إبراهيم بن محمد قال أخبرنى عمرو «أن النبى ﷺ خطب ...» وعزاه فى كنز العمال رقم [٢/ ٤٣٦٠] للشافعى، والبيهقى فى المعرفة، عن عمرو مرسلاً. ورواه الطبرانى فى الكبير (٧/ ٢٨٨/ رقم ٧١٥٨)، وعنه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٢٦٤ - ٢٦٥)، عن شداد بن أوس مرفوعاً.
وقال الهيثمى فى المجمع (٢/ ١٩٢): وفيه أ بو مهدى سعيد بن سنان وهو ضعيف جداً.

آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ

﴿ فعند الله مغانم كثيرة ﴾ أى: غنائم كثيرة. ﴿ كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم ﴾ أى: تفضل الله عليكم، وفيه قولان: قال سعيد بن جبير: معناه كذلك كنتم من قبل تكتمون الإيمان، فمن الله عليكم بالإظهار، وقال قتادة: معناه: كذلك كنتم من قبل ضلالا، فمن الله عليكم بالهداية ﴿ فتبينوا ﴾ إعادة تأكيد ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ وسبب نزول الآية ما روى: «أن النبى ﷺ بعث سرية، فلقوا رجلا يقال له: مرداس بن عمرو من فدك، له غنيمات، فانحاز بها إلى الجبل لما أحس بالسرية، ثم تقدم إليهم، فقال: السلام عليكم أنا مؤمن، فبادر إليه أسامة بن زيد وهو يقول: لا إله إلا الله، وقتله، وأخذ سلبه، والغنيمات التى له، فلما رجعوا إلى النبى ﷺ قال لأسامة: أقتلت رجلا يقول: لا إله إلا الله، فقال: إنه إنما أسلم متعوذا، وقال: إنما أسلم، ليحرز نفسه وماله، فقال – عليه الصلاة والسلام –: هلاً شققت عن قلبه؟ فقال أسامة: استغفر لى يارسول الله، فقال: كيف لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟، فقال: استغفر لى يارسول الله، فقال – عليه الصلاة السلام –: كيف بلا إله إلا الله يوم القيامة؟ هكذا حتى أعاده ثلاثا – فنزلت الآية فيه. ﴿ ولاتقولوا لمن ألقى إليكم السلام ﴾»[1] ولأن ذلك الرجل كان قد سلم عليهم، وأسلم لهم ﴿ لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا ﴾ يعنى: تبتغون بقتله غنيمات كانت له.

وفى رواية أن النبى ﷺ استغفر لأسامة، وأمره بإعتاق رقبة وكان أسامة من علية الصحابة، وعاش إلى زمان على – رضى الله عنه – فدعاه علىّ إلى المقاتلة معه فى الحروب، فقال لعلى: أنت أعز على من كل أحد، ولو قاتلت المسلمين مع أحد لقاتلت معك، ولكنى منذ سمعت رسول الله ﷺ قال لى: كيف بلا إله إلا الله يوم القيامة، امتنعت من القتال، فإن أعطيتنى سيفا يميز المسلم من الكافر حتى أقاتل فتركه على.

(١) هذه الحادثة ثابتة فى الصحيحين، رواها البخارى فى صحيحه (٧ / ٥٩٠ رقم ٤٢٦٩) ومسلم (٢ / ١٣١ – ١٣٢ رقم ٩٦) من حديث أسامة. وليس فيهما أن هذه الحادثة هى سبب نزول الآية.

كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى

وكان ممن اعتزل الفريقين هو وسعد بن أبى وقاص، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم أجمعين.

وقيل: إن قَاتِلَ صاحِبِ الغنيمات، كان المقداد بن عمرو الكندى - هو ابن الأسود[١] - هذا هو القول المعروف فى سبب نزول الآية، وفى الآية قول آخر: «أنها نزلت فى محلم بن جثامة الليثى، قتل رجلا وهو يقول: لا إله إلا الله، ثم جاء إلى النبى ﷺ، وقال: يارسول الله، استغفر لى، فقال: لاغفر الله لك، فقام يبكى، وانصرف، فلما مات دفن فى الأرض، فلفظته الأرض، ثم دفن فلفظته الأرض، ثم دفن فلفظته الأرض - هكذا ثلاثا - فأمر النبى ﷺ حتى ألقى عليه الحجارة، وقال: إن الأرض لتنطبق على من هو شر منه - يعنى من محلم -، ولكن الله - تعالى - أراد أن يريكم آية»[٢].

قوله - تعالى -: ﴿لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر﴾ اعلم أن الذى نزل فى الابتداء من هذه الآية قوله: «لايستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم» قال زيد بن ثابت: «كان النبى ﷺ يملى علىّ هذه الآية، وفخذه على فخذى، فدخل عبد الله بن أم مكتوم، وقال: يارسول الله، أنا رجل ضرير، ولو استطعت أن أقاتل لقاتلت معك؛ فتغشى رسول الله ﷺ الوحى؛ فثقل فخذه على فخذى حتى كاد يرضه؛ فلما سرى عنه، قال لى: اكتب ﴿غير أولى الضرر﴾»[٣] فنزل هذا القدر فى ابن أم مكتوم، وكان ضريرا من أولى الضرر، وقوله:

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير (١٢/ ٣٠/ رقم ١٢٣٧٩)، والبزار - مختصر الزوائد - (٢/ ٧٨/ رقم ١٤٥٨) كلاهما من حديث ابن عباس.

وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٢): وإسناده جيد.

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٥/ ١٤٠) عن ابن عمر.

(٣) رواه البخارى (٨/ ١٠٨/رقم ٤٥٩٢)، وأبو داود (٣/ ١١/ رقم ٢٥٠٧)، والترمذى (٥/ ٢٢٦/رقم ٣٠٣٣)، والنسائى (٦/ ٩-١٠/ رقم ٣٠٩٩، ٣١٠٠). وأحمد (٥/ ١٨٤، ١٩١) وغيرهم.

الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ

﴿ غير أولى الضرر ﴾ يقرأ على وجوه: «غيرُ» - برفع الراء - وتقديره: لايستوى القاعدون الذين هم غير أولى الضرر، ويقرأ: بفتح الراء، على الاستثناء[1]، يعنى: إلا أولى الضرر، وقيل: هو نصب على الحال، يعنى: فى حال الصحة، وانتفاء الضرر، كأنه قال: لايستوى القاعدون من المؤمنين أصحاء، وهذا أشهر القراءتين، وكذلك قرأ النبى ﷺ «غيرِ أولى الضرر» - بكسر الراء يعنى -، من المؤمنين غير أولى الضرر، ﴿ فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ﴾ أراد بالقاعدين هاهنا: أولى الضرر، فضل المجاهدين عليهم بدرجة؛ لأن المجاهدين باشروا الجهاد مع النية، وأولو الضرر كانت لهم نية الجهاد، ولكن لم يباشروا؛ فنزلوا عنهم بدرجة ﴿ وكلا وعد الله الحسنى ﴾ يعنى: الجنة ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ﴾ وأراد بالقاعدين هنا: غير أولى الضرر، فضل الله المجاهدين عليهم أجرا عظيما ﴿ درجات منه ومغفرة ورحمة ﴾ قال ابن محيريز: هى سبعون درجة، ما بين كل درجتين حُضْرُ الفرس المُضَمَّر سبعين سنة، وفى الخبر: «فى الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين مابين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين فى سبيله»[2]، وقيل: أراد بالدرجات: الإسلام، والهجرة، والجهاد، والشهادة فى الجهاد، وفاز بتلك الدرجات المجاهدون ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ﴾ قرأ عيسى بن عمر النحوى: «تتوفاهم» - بالتائين - والمعروف «توفاهم» وأصله: تتوفاهم، فادغمت إحدى التائين تخفيفا، على القراءة المشهورة، فإن قال قائل: لم قال: تتوفاهم الملائكة والمتوفى ملك واحد، كما قال: ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾؟[3] قيل: ذكره بلفظ

(١) قرأ نافع، وأبو جعفر، وابن عامر، والكسائى، وخلف، بنصب الراء، وقرأ الباقون برفعها. انظر النشر (٢ / ٢٥١).

(٢) رواه البخارى (٦ / ١٤ / رقم ٢٧٩٠)، وأحمد (٢ / ٣٣٥ ٣٣٩)، والحاكم (١ / ٨٠)، وابن أبى عاصم فى الجهاد (٢ / ٥٤٤ رقم ٢١٢) وابن حبان - الاحسان - (١٠ / ٤٧١ - ٤٧٢)، والبيهقى فى الكبرى (٩ / ١٥ - ١٦). وأبو نعيم فى صفة الجنة (ص٧٩ رقم ٢٢٤).

(٣) السجدة: ١١

ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ

الجمع، والمراد به الواحد، ومثله شائع فى كلام العرب، وقيل: إن لملك الموت أعوانا، فلعله أراده مع أعوانه؛ فلذلك ذكر بلفظ الجمع.

قال عكرمة والضحاك: الآية فى قوم أسلموا بمكة قبل الهجرة، فلما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة، تخلفوا عن الهجرة، فلما كان يوم بدر حملهم الكفار مع أنفسهم إلى بدر كرها، فقتلوا بين الكفار.

وقوله ﴿ ظالمى أنفسهم ﴾ يعنى: بالشرك؛ فإنهم قتلوا مشركين؛ إذ ماكان يقبل الإسلام بعد هجرة النبى ﷺ إلا بالهجرة، ثم أُبيح ذلك بقوله – عليه الصلاة السلام: «لاهجرة بعد الفتح»[1] .

﴿ قالوا فيم كنتم ﴾ يعنى: الملائكة قالوا لأولئك الذين أسلموا ولم يهاجروا: ﴿ فيم كنتم ﴾ يعنى: فى أى الفريقين كنتم، فى المسلمين أم المشركين؟ وهذا سؤال توبيخ، لاسؤال استعلام ﴿ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ﴾ يعنى: كنا بمكة مستضعفين بين المشركين ﴿ قالوا ﴾ يعنى: الملائكة ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ يعنى: إلى المدينة ﴿ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ﴾ حكم لهم بالنار؛ لأنهم ماتوا مشركين ﴿ إلا المستضعفين ﴾ وهم أصحاب الأعذار ﴿ من الرجال والنساء والولدان ﴾ منهم الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبى ربيعة.

قال ابن عباس: كنت أنا وأمى من المستضعفين بمكة. وهم الذين دعا لهم النبى ﷺ فى القنوت، فقال: «اللهم انج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام، وعياش بن أبى ربيعة والمستضعفين بمكة، واشدد وطأتك على مضر، هكذا كان يدعو لهم

(١) متفق عليه، فرواه البخارى (٤/٥٦/ رقم ١٨٣٤)، ومسلم (٩/١٧٥/ رقم ١٣٥٣) من حديث ابن عباس ورواه البخارى (٦/٢٢٠/ رقم ٣٠٨٠)، ومسلم (١٣/١٣/ رقم ١٨٦٤) من حديث عائشة.

وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا

شهرا، حتى نجوا، وقدموا؛ فترك ذلك الدعاء، فقيل له فى ذلك فقال: ألا ترونهم قد قدموا»(١).

﴿ لايستطيعون حيلة ﴾ يعنى: للخروج ﴿ ولايهتدون سبيلا ﴾ أى: طريقا إلى المدينة ﴿ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ﴾ «وعسى» من الله واجب؛ لأنه للإطماع، والله – تعالى – إذا أطمع عبدا أوجب له وأوصله إليه.

﴿ وكان الله عفوا غفورا ﴾ روى: أنه لما نزلت هذه الآية، كتب بها أصحاب رسول الله ﷺ إلى المستضعفين بمكة، وكان فيهم شيخ كبير يقال له: جندع بن ضمرة – ويقال له حبيب بن ضمرة – فقال: لست من المستضعفين، وأنا أعرف طريق المدينة، وقال لبنيه: احملونى إلى المدينة، فحملوه يأتون به، فلما بلغ التنعيم؛ أدركه الموت، فبلغ ذلك أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: لو وصل إلى المدينة، لأتم الله أجره؛ فنزل قوله – تعالى –: ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ يعنى: تم أجره.

وقوله: ﴿ ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ﴾ المراغم: المهاجر، والمراغمة: المَهاجرة، قال أبو عمر بن العلاء: وإنما سميت المهاجرة مراغمة؛ لأنه من هاجر مراغم قومه وقرابته، وقال الشاعر:

كطود يلوذ(٢) بأركانه　　　عزيز المراغم والمهرب

وقال ابن عباس: مراغما، أى: متحولا يتحول إليه، وقال مجاهد: مراغما، أى: متزحزحا، وقوله: ﴿ وسعة ﴾ قال ابن عباس: معناه: وسعة فى الرزق، قال قتادة:

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة، فرواه البخارى (٢/٣٣٩ رقم ٨٠٤، وأطرافه فى ٧٩٧، ١٠٠٦، ٢٩٣٣، ٣٣٨٦، ٤٥٦٠، ٤٥٩٨، ٦٢٠٠، ٦٣٩٣، ٦٩٤٠) ومسلم (٥/٢٤٧ – ٢٥٠ رقم ٦٧٥).

(٢) فى لسان العرب: يلاذ، مادة (رغم).

وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ

ومعناه: وسعة من الضلالة إلى الهدى.

﴿ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾ قد ذكرنا أنه فيم نزل ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾.

قوله – تعالى –: ﴿وإذا ضربتم فى الأرض﴾ أى: سافرتم ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾.

قصر الصلاة فى السفر لاخلاف فى جوازه فى حال الخوف، وأما فى حال الأمن: قال سعد بن أبى وقاص: إنه لايجوز، وبه قال داود، وأهل الظاهر؛ تمسكًا بظاهر القرآن، وقال جمهور العلماء وهو قول أكثر الأمة –: إنه يجوز القصر فى حال الأمن؛ لما روى عن يعلى بن أمية أنه قال لعمر – رضى الله عنه –: «ما بالنا نقصر، وقد أمنا، والله – تعالى – يقول فى كتابه: ﴿أن تقصروا من الصلاة إن خفتم﴾ قال عمر: عجبت مما تعجبت أنت، فسألت النبى ﷺ، فقال: صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته»[(1)] وروى «أن رسول الله ﷺ سافر من مكة إلى المدينة – لايخاف إلا الله – وقصر الصلاة»[(2)] وكان – عليه السلام – يقصرالصلاة فى جميع أسفاره، ولم ينقل أنه أتم فى سفر ما؛ ولذلك قال الشافعى: القصر أولى؛ وإن جاز الإتمام.

وروى عن جابر، والحسن – وهو قول ابن عباس –: أن صلاة الحضر أربع ركعات، وصلاة السفر ركعتان، وصلاة الخوف ركعة، وروى عن ابن عباس أنه قال: «فرض الله – تعالى – الصلاة على لسان نبيه فى الحضر أربع ركعات، وفى السفر ركعتين، وفى

---

(١) رواه مسلم (٥/٢٧٣ – ٢٧٤/ رقم ٦٨٦)، وأبو داود (٢/٣/رقم ١١٩٩)، والترمذى (٥/٢٢٧/ رقم ٣٠٣٤)، والنسائى (٣/١١٦ – ١١٧/ رقم ١٤٣٣)، وابن ماجة (١/٣٣٩/ رقم ١٠٦٥) وأحمد (١/٢٥، ٣٦).

(٢) رواه الترمذى (٢/٤٣١/رقم ٤٥٧) وقال: حسن صحيح، والنسائي (٣/١١٧ – ١١٨/ رقم ١٤٣٦، ١٤٣٧) وأحمد (١/٢١٥) كلهم من حديث ابن عباس.

الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا

الخوف ركعة »(١) وأكثر الأمة على أن القصر فى الخوف ركعتان، مثل قصر السفر، ثم اختلفوا فى القصر على قولين :أنه إباحة، أم واجب، قال بعضهم :هو إباحة، وهو اختيار الشافعى، وهو أصح؛ لقوله عزّ ذكره: ﴿ فليس عليكم جناح ﴾ وهو مثل قوله: ﴿ فلا جناح عليهما أن يتراجعا ﴾(٢).

وقال بعضهم: هو واجب. والخلاف بين السلف مشهور فيه.

وقوله: ﴿ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ أى: يقتلكم، والفتنة بمعنى: القتل هاهنا، وقرأ أبى بن كعب: « أن تقصروا من الصلاة أن يفتنكم الذين كفروا » – من غير قوله: ﴿ إن خفتم ﴾ – ويروى عن أبى أيوب الأنصارى أنه قال: نزل قوله: ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ هذا القدر فحسب، ثم مضى حول، ولم ينزل شيء؛ فسئل رسول الله ﷺ عن صلاة الخوف، ثم نزل قوله: ﴿ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا ﴾ ».

﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ﴾ فأشار إلى أنه راجع إلى صلاةالخوف، لا إلى صلاة السفر.

قوله – تعالى –: ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ﴾ بَيَّنَ في هذه الآية كيفية صلاة الخوف، واعلم أن صلاة الخوف جائزة بعد رسول الله ﷺ على قول أكثر العلماء، وقال بعضهم: صلاة الخوف لاتجوز لأحد بعده، وهو قول أبى يوسف؛ تمسكا بظاهر الآية ، قوله :﴿ وإذا كنت فيهم ﴾ فشرط كونه فيهم، والأصح هو الأول. وقوله: ﴿ وإذا كنتم فيهم ﴾ ليس علي سبيل الشرط، وإنما خرج الكلام على وفق الحال، وقد ورد أن أصحاب رسول الله ﷺ صلوا بعده صلاة الخوف.

(١) رواه مسلم (٥/٢٧٥/ رقم ٦٨٧)، وأبو داود (٢/١٧/ رقم ١٢٤٧)، والنسائى (١/٢٢٦/رقم ٤٥٦)، وابن ماجة (١/٣٣٩/ رقم ١٠٦٨).

(٢) البقرة: ٢٣٠.

مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ

﴿ فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ﴾ وسبب نزول الآية: ما روى أبو عياش الزرقى: «أن رسول الله ﷺ نزل بعسفان، وكان على خيل المشركين خالد بن الوليد، فصلى النبى ﷺ مع أصحابه صلاة الظهر، فقال المشركون: قد وجدنا منهم غرة إن قصدناهم، وحملنا عليهم، فقال بعضهم: ستأتيهم صلاة هى أحب إليهم من أولادهم، وأهاليهم - يعنون صلاة العصر - فنزل جبريل، وأخبره بمقالتهم، وأمر بصلاة الخوف»[1].

وقد روى عن رسول الله ﷺ صلاة الخوف بروايات شتى، وأخذ الشافعى برواية صالح بن خوات بن جبير عن أبيه عن النبى ﷺ: «أنه صلى صلاة الخوف، فجعل أصحابه فرقتين، وصلى بإحدى الطائفتين ركعة، فقاموا، وأتموا ركعتين، وذهبوا إلى وجه العدو، وجاءت الطائفة الثانية والنبى ﷺ ينتظرهم، فصلى بهم الركعة الثانية وانتظرهم جالسا حتى قاموا وأتموا ركعتين، ثم سلم بهم»[2] فهذا معنى قوله: ﴿ فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ﴾.

واختلفوا فى أنهم متى يأخذون أسلحتهم؟ قال بعضهم: يأخذونه فى الصلاة؛ ليكونوا أهيب فى عين العدو؛ فعلى هذا يأخذون من السلاح ما لايمنعهم من الإتيان بأركان الصلاة، وقال آخرون: يأخذون السلاح إذا ذهبوا إلى وجه العدو.

﴿ فإذا سجدوا ﴾ يعنى: فإذا صلوا ﴿ فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم

(١) رواه أبو داود (٢/ ١١ - ١٢/ رقم ١٢٣٦)، والنسائي (٣/ ١٧٦ - ١٧٧/ رقم ١٥٤٩)، وأحمد (٤/ ٥٩ - ٦٠) وابن حبان - الإحسان (٧/ ١٢٨ - ١٢٩/ رقم ٢٨٧٦)، والحاكم في المستدركم (١/ ٣٣٧ - ٣٣٨) وصححه على شرط الشيخين، والبيهقي (٣/ ٢٥٤ - ٢٥٥)، والدارقطني وصححه (٢/ ٥٩ - ٦٠)، والواحدى فى أسباب النزول ص ١٣٣.

(٢) متفق عليه، فرواه البخاري (٧/ ٤٨٦/ رقم ٤١٢٩)، ومسلم (٦/ ١٨٣ رقم ٨٤٢). عن صالح عمن شهد مع رسول الله ﷺ غزوة ذات الرقاع،ب ورجح الحافظ فى الفتح (٧/ ٤٨٧) أنه عن صالح بن خوات عن أبيه خوات بن جبير

إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا

يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ﴾ والحِذْر: ما يتقى به للحذر من العدو ﴿ ود الذين كفروا لو تغفلون ﴾ لو وجدوكم غافلين ﴿ عن أسلحتكم وأمتعتكم ﴾ يعنى: بالصلاة ﴿ فيميلون عليكم ميلة واحدة ﴾ أى: فيحملون عليكم حملة واحدة.

﴿ ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم ﴾ رخص لهم فى وضع السلاح فى حال المطر، والمرض؛ لأن السلاح يثقل حمله فى هاتين الحالتين. ﴿ وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ فإذا قضيتم الصلاة ﴾ يعنى: صلاة الخوف، ﴿ فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ﴾ يعنى: الذكر بالتسبيح والتهليل، والتحميد، والتمجيد. ﴿ فإذا اطمأننتم ﴾ يعنى: فإذا سكنتم وأقمتم وأمنتم ﴿ فأقيموا الصلاة ﴾ يعنى على أركانها وهيئتها كما عرفتم ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ﴾ قال مجاهد: أى: فرضا مؤقتا يؤدى (فى)[1] أوقاته، وقال زيد بن أسلم: أراد به: فرضا مُنَجَّمًا يأتى نجم بعد نجم.

قوله - تعالى -: ﴿ ولاتهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ﴾ سبب نزول الآية: «أن الكفار يوم أحد لما انهزموا، بعث النبى ﷺ طائفة من أصحابه على إثرهم، فشكوا ألم الجراحات؛ فنزلت الآية»[2] ﴿ ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ﴾ أى: لاتضعفوا فى طلب القوم. ﴿ إن تكونوا تألمون ﴾ أى: توجعون وتشكون الألم، فإنهم يألمون، أى: يوجعون ويشكون الألم كما تألمون، قال الشاعر فى معناه:

قاتل القوم ياخزاع ولايدخلنكم

---

(١) في «ك»: إلى.

(٢) رواه بنحوه الطبري في التفسير (٥/ ١٦٩) عن عكرمة.

اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ

من قتالهم، فشد القوم أمثالكم لهم   شعر فى الرأس لاينشرون إن قتلوا[1]

﴿ وترجون من الله ما لايرجون ﴾ أى: وتأملون من الله ما لا يأملون، من الظفر فى الدنيا، والثواب فى الآخرة، وقال الفراء والكسائى: الرجاء بمعنى الخوف، وكل راج خائف؛ لأنه يخاف ألا يدرك المأمول، ومنه قوله تعالى: ﴿ ما لكم لاترجون لله وقارا ﴾[2] وأجمعوا على أن معناه: لاتخافون لله عظمة، قال الشاعر:

لاتَرْتَجِى إذا تلاقى الزائدا   أسبعة تلقى معا أم واحدا[3]

﴿ وكان الله عليما حكيما ﴾

قوله – تعالى –: ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ سبب نزول الآية: ما روى «أن طعمة بن أبيرق – من بنى ظفر بن الحارث – سرق درعا، فلما أتاهم به ألقاه فى دار يهودى، وقال: إنه سرق – وفى رواية: أودعه عند يهودى – فلما ظهر، قال: إن اليهودى سرقه؛ فجاء قومه إلى النبى ﷺ وهم بنو ظفر بن الحارث؛ ليدافعوا عنه، وهمّ النبى ﷺ بدفع السرقة عنه، وقطع يد اليهودى، وكان عند قومه أنه السارق؛ فنزل قوله: ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾»[4] أى: لتحكم بالحق. ﴿ لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ أى: بما علمك ،وحكى عن ابن عباس أنه قال: إياك والرأى فإن

---

(١) كذا وقعت هذه الأبيات «بالأصل، وك».

(٢) نوح: ١٣.

(٣) وقع هذا الرجز فى لسان العرب مادة: (رجا) كما يأتى:

لاترتجى حين تُلاقى الذائدَا   أسبعةً لاقَتْ معًا أو واحدا

(٤) رواه الترمذي (٥/٢٢٨ – ٢٣٠/ رقم ٣٠٣٦)، وقال: هذا حديث غريب، لا نعلم أحداً أسنده غير محمد ابن سلمة الحراني، وروى يونس بن بكير، وغير واحد هذا الحديث، عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر ابن قتادة مرسل، لم يذكروا فيه عن أبيه، عن جده.

ورواه الحاكم (٤/٣٨٥ – ٣٨٨) وصححه على شرط مسلم، والطبري في التفسير (٥/١٦٩ – ١٧١) كلهم من حديث قتادة بن النعمان.

وزاد السيوطي في الدر (٢/ ٢٣٧) فعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

اللَّهُ عليماً حكيماً ﴿١٠٤﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴿١٠٦﴾ وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيماً ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا

الله – تعالى – يقول: ﴿بما أراك الله﴾ ولم يقل: بما رأيت، ﴿ولا تكن للخائنين خصيما﴾ يعنى: طعمة من الخائنين، فلا تكن مدافعا عنه ﴿واستغفر الله﴾ أمره بالاستغفار؛ لأنه كان قد هم أن يدافع عنه ﴿إن الله كان غفورا رحيما﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾ أى: يخونون أنفسهم والاختيان: افتعال من الخيانة ﴿إن الله لايحب﴾ قال أهل التفسير: معناه: إن الله لايقرب ﴿من كان خوّانا أثيما﴾ الخوان: الخائن والأثيم: ذو الإثم.

قوله – تعالى –: ﴿يستخفون من الناس ولايستخفون من الله وهو معهم﴾ بشكوى بنى ظفر بن الحارث، معناه: يستترون من الناس، ولايستترون من الله، وهو معهم ﴿إذ يبيتون ما لا يرضى من القول﴾ قد بينا أن التبييت: تدبير الفعل ليلا؛ وذلك التبييت منهم أن قوم طعمة قالوا: ندفع أمره إلى النبى ﷺ؛ فإنه يسمع يمينه، وقوله؛ لأنه مسلم، ولايسمع من اليهودى؛ لأنه كافر، فلم يرض الله – تعالى – قولهم ﴿وكان الله بما تعملون محيطا﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ يعنى: أنتم يا هؤلاء، قال الزجاج: معناه: ها أنتم الذين ﴿جادلتهم عنهم فى الحياة الدنيا﴾ أى: خاصمتم، وأصل الجدال: الجدل، وهو الفتل، ويقال: شخص أجدل، إذا كان وثيق الخلق، ويقال للصقر: أجدل؛ لأنه أقوى الطيور على الصيد.

﴿فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا﴾ يعنى: من الذى يتولى أمرهم، ويذب عنهم يوم القيامة؟

قوله – تعالى –: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما﴾ عرض التوبة على طعمة وقومه فى هذه الآية، وأمرهم بالاستغفار.

﴿١٠٨﴾ هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ

قوله – تعالى –: ﴿ومن يكسب إثمًا فإنما يكسبه على نفسه﴾ سبب هذا أن قومه قالوا له: تب إلى الله، فحلف أنى ما سرقته، وإنما سرقه اليهودى؛ فذلك الذى يقول الله – تعالى – ومن كسبه الإثم ﴿وكان الله عليمًا حكيمًا﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثما﴾ هو سرقته التى ذكرنا، ﴿ثم يرم به بريئًا﴾ هو نسبته السرقة إلى اليهودى الذى كان بريئا عنها ﴿فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا﴾ فالبهتان: الكذب الذى يتحير منه الإنسان، وهو البهت، وأراد بالإثم المبين: اليمين الفاجرة.

قوله – تعالى –: ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته﴾ هذا خطاب للرسول ﷺ ﴿لهمت طائفة منهم أن يضلوك﴾ يعنى: قوم طعمة، هموا أن يُلَبِّسُوا عليك؛ لتدافع عنه ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ أى: يرجع وباله عليهم ﴿وما يضرونك من شىء﴾ يعنى: ضرره عائد عليهم، ولايضرك؛ لأنك معصوم ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ قيل: أراد به: وأنزل الله عليك الكتاب بالحكمة، وقيل: أراد بالكتاب: القرآن، وبالحكمة: السنة ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾ يعنى: من أحكام القرآن، وقيل: من علم الغيب، وقيل: علمك قدرك، ولم تكن تعلمه ﴿وكان فضل الله عليك عظيما﴾.

قوله – تعالى –: ﴿لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة﴾. النجوى: السرائر فى التدبير، قال الزجاج: كل ما انفرد بتدبيره قوم يخوضون فيه؛ فهو نجوى: سرا كان أو علانية، وأراد ها هنا: نجوى قوم طعمة وتدبيرهم، وقيل: هو فى جميع الحوادث.

﴿إلا من أمر بصدقة﴾ قيل: أراد به إلا نجوى من أمر بصدقة، وقيل: هو استثناء منقطع، يعنى: لكن من أمر بصدقة ﴿أو معروف﴾ وهو كل ما عرفه الشرع ﴿أو

عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ

إصلاح بين الناس ﴾ وفى الخبر: «كل كلام ابن آدم عليه إلا ثلاثة: أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، أو ذكر الله»[1] وقيل لسفيان بن عيينة - حين روى هذا الحديث؛ فقالوا -: ما أشد هذا الحديث؟! فقال: اقرءوا قوله - تعالى -: ﴿لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة﴾ الآية.

وروى: أن رسول الله ﷺ قال لأبى أيوب الأنصارى: «ألا أدلك على صدقة هى خير لك من حمر النعم - أى: من الصدقة بحمر النعم؟ - قال: بلى يارسول الله، فقال ﷺ: أن تصلح بين الناس إذا تفاسدوا، وأن تقرب بينهم إذا تباعدوا»[2].

﴿ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ أراد به: طعمة، جادل النبى ﷺ، ثم لحق بمكة، وارتد حين ظهر عليه الحكم بالقطع.

قال سعيد بن جبير: إنه لما لحق بمكة سرق هنالك، فوجد فى نقب يسرق؛ فقتل.

---

(١) رواه الترمذي (٤/٥٢٥ - ٥٢٦/ رقم ٣٩٧٤)، وقال حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن يزيد ابن خنيس، وابن ماجه (٢/١٣١٥/ رقم ١٩٧٤)، وأحمد فى الزهد (ص٢٢-٢٣)، وأبو يعلى (١٣/٥٦ رقم ٧١٣٢)، والطبرانى فى الكبير (٢٣/٢٤٣ رقم ٤٨٤)، والحاكم (٢/٥١٢ - ٥١٣)، وأبو يعلى (١٣/٥٦/ رقم ٧١٣٢)، والطبراني في الكبير (٢٣/٢٤٣/ رقم ٤٨٤)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص١٢ - ١٣/ رقم٥) من حديث أم حبيبة.

(٢) رواه البزار - مختصر الزوائد - (٢/٢٢٢/ رقم ١٧٤١)، وقال: لا نعلمه يروى عن أنس إلا من هذا الوجه، ولا نعلم حدث به عن حميد إلا عبد الله بن عمر، ولا عنه إلا ابنه عبد الرحمن، وهو لين الحديث، حدث بأحاديث لم يتابع عليها.

قلت: ولفظه: «ألا أدلك على تجارة...».

وقال الهيثمي في المجمع (٨/٨٣): وفيه عبد الرحمن بن عبد الله العمري، وهو متروك.

مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ

وفى بعض القصص: أنه حين لحق بمكة نزل على الحجاج بن غلاط الأسلمى، فقام فى بعض الليل يسرق، فأحسوا به، فأخذوه، واجتمعوا عليه، و قالوا: إنه ضيف، وتركوه؛ فلحق بحرة بنى سليم، وكان يعبد الأصنام، ومات عليه؛ ففيه نزلت الآية ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ لأنه لما ارتد، فقد اتبع غير سبيل المؤمنين.

واستدل أهل العلم بهذه الآية على أن الإجماع حجة.

قوله: ﴿نوله ما تولى﴾ أى: نوله ما اختاره، وقيل: نَكِلْهُ إلى (من)[1] تولاه ﴿ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾.

قوله - تعالى -: ﴿إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وقد ذكرنا معنى الآية فيما سبق ﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ روى أبو عيسى الترمذى بإسناده عن على - رضى الله عنه - أنه قال: هذه أحب آية إلىّ فى القرآن.

قوله - تعالى -: ﴿إن يدعون من دونه﴾ أى: ما يدعون من دونه ﴿إلا إناثا﴾ قيل: معناه: الأوثان، وإنما سميت الأوثان إناثا؛ لأنهم كانوا يسمونها باسم الإناث، فيقولون: اللات، والعزى، ومناة، وكانوا يقولون لصنم كل قبيلة: أنثى بنى فلان، قال أبى بن كعب: كان مع كل صنم جنِّية من الشياطين، وقيل: معناه: الموات وإنما سمى الموات إناثا؛ لأن الإناث أرذل الجنسين، وأدونهما، فكذلك الموات أرذل من الحيوان، وكانت أصنامهم من الموات والجماد.

قال الضحاك: أراد به: الملائكة، وكانوا يقولون: الملائكة إناث، وكان بعضهم

(١) في «ك»: ما.

لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا

يعبدون الملائكة، ويصورون الأصنام على صور الملائكة، وقرأ ابن عباس: «إلا أُثُنًا» جمع الأوثان، وقرئ في الشواذ أيضا «إلا أُنُثًا» جمع الإناث؛ فيكون على جمع الجمع كالمُثُل. ﴿وإن يدعون إلا شيطانا مريدا﴾؛ لأنهم إذا عبدوا الأصنام، فقد أطاعوا الشيطان، وأراد به: إبليس، والمَريد العاتى المتمرد، وحقيقته: العارى من كل خير، ومنه الأمرد، ويقال: شجرة مرداء، إذا تساقطت أغصانها.

﴿لعنه الله﴾ أى: أبعده الله من الرحمة؛ معاقبة، ولذلك لايجوز لعن البهائم؛ لأنها لاتستوجب العقوبة، والطرد عن الرحمة. ﴿وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا﴾ أى: مقدارا معلوما، قيل فى التفسير: من كل ألف تسعمائة وتسعة و تسعون للشيطان وواحد لله. وأصل الفَرْض: الحزّ والقطع، ومنه فرض القوس: وهو الشق الذى يجعل فيه الوَتَر. ومنه فَرْض السواك: وهو الموضع الذى يجعل فيه الخيط، ومنه فُرْضة البحر: وهو المشرع الذى توقف إليه السفينة، والفرض: نوع من التمر يكون بعمان، قال الشاعر:

إذا أكلت سمكا وفرضًا ... ذهبت طولاً وذهبت عرضًا

قوله – تعالى –: ﴿ولأضلنهم﴾ أى: لأغوينهم، فإن قال قائل: كيف نسب إليه الإضلال، وليس إليه الضلالة؟ قلنا: معناه: التزيين والدعوة إلى الضلالة، وقد قال ﷺ: «بعثت داعيا، وليس إلى من الهداية شيء، وبعث الشيطان مزيِّنًا، وليس إليه من الضلالة شيء»(1). ﴿ولأمنينهم﴾ قيل: معناه: أمنينهم ركوب الأهواء، وقيل

(1) رواه العقيلي (٢/ ٨ – ٩) في ترجمة خالد بن عبد الرحمن أبي الهيثم وقال: ليس بمعروف بالنقل، وحديثه غير محفوظ، ولا يعرف له أصل.

ورواه ابن عدي في الكامل (٣/ ٣٩)، وابن حبان فى المجروحين (١/ ٢٧٧)، والدولابى فى الكنى (٢/ ١٥٧)، والسهمى فى تاريخ جرجان (ص٣٩٥)، وابن بطة فى الإبانة – كتاب القدر – (٢/ ١/ ٧١ رقم ١٢٨٣)، وابن الجوزى فى الموضوعات (١/ ٢٧٢-٢٧٣).

وقال الدارقطنى فى تعليقه على المجروحين (ص٨٨) عن خالد بن عبد الرحمن العبدى أبى الهيثم، رجل مجهول، لا أعلمه روى شيئا من الحديث غير هذا الحديث الباطل.

مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن

معناه: أمنينهم طول العمر فى النعيم؛ ليؤثروا الدنيا على الآخرة، وقال الزجاج: معناه: أمنيهم إدراك الآخرة مع ركوب المعاصى.

﴿ ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ﴾ أراد به: البحيرة التى تأتى فى سورة المائدة، والبَتْك: القطع، والمراد به: شق الآذان، ﴿ ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ﴾ قال ابن عباس - فى إحدى الروايتين، وهو قول مجاهد -: معناه: فليغيرن دين الله، أى: وضع الله فى الدين: بتحليل الحرام، وتحريم الحلال، ونحو ذلك، والرواية الثانية عن ابن عباس - وهو قول أنس، وعكرمة -: أراد به: إخصاء الأنعام، وكان أنس يكره إخصاء البهائم من أجل هذا، وكان يجيزه الحسن، وقال ابن مسعود: أراد به الوشم، ويحتمل أن يكون المراد به تغيير الأنساب؛ وذلك أن ينتقل من نسب إلى نسب، ويحتمل أن يكون المراد به: الخضاب بالسواد، وهو منهى عنه، وإنما الخضاب المباح بالحمرة، والصفرة ﴿ ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله ﴾ أى: يواليه باتباعه ﴿ فقد خسر خسرانا مبينا ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ يعدهم ﴾ وعده قد يكون بالتخويف[1] كما قال الله - تعالى - ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ﴾[2] وقيل: إنه يتمثل فى صورة الآدمى، فيعد، ويمنى، وكان قد ظهر يوم بدر فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم وظهر فى اليوم الذى اجتمعت فيه قريش، وتشاوروا فى إخراج النبى ﷺ، فى صورة شيخ من نجد.

وقوله ﴿ ويمنيهم ﴾ قد ذكرنا، ومن ذلك تمنى الإنسان قضاء الشهوات.

واعلم أن الإنسان لا يؤاخذ بغلبة الشهوة، واشتهاء الشهوات؛ لأن ذلك شىء جُبِلَ عليه، ويؤاخذ بالتمنى، وذلك أن يتمنى خمراً ليشربه، أو امرأة؛ ليزنى بها، فذلك من المعصية، ويؤاخذ به ﴿ وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ الغرور: إيهام الوصول إلى النفع من موضع الضر ﴿ أولئك مأواهم جهنم ولايجدون عنها محيصا ﴾ أى: معدلا.

(١) في «ك» بالتحريف خطأ.

(٢) البقرة: ٢٦٨.

تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴿١٢٢﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ

قوله – تعالى –: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا﴾ فإن قيل: ما الفائدة فى تكرار الوعد والوعيد فى القرآن؟ قيل: فائدته: التوكيد، قطعا من سواء التأويل، وقيل: إنما كرر الوعد على تفاصيل الإيمان، وكرر الوعيد على تفاصيل الكفر، ﴿ومن أصدق من الله قيلا﴾ أى: قولا.

قوله – تعالى –: ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب﴾ قال مسروق – هو أبو عائشة مسروق بن الأجدع الهمدانى –: أراد به: ليس بأمانيكم أيها المسلمون، ولا أمانى أهل الكتاب، وهم اليهود، والنصارى.

وقال مجاهد: أراد بقوله: ﴿ليس بأمانيكم﴾ مشركى العرب، ﴿ولا أمانى أهل الكتاب﴾ يعنى: اليهود، والنصارى، فعلى القول الأول معنى الآية: أن اليهود قالوا: نحن أولى؛ لأن ديننا أقدم وكتابنا أقدم.

وقالت النصارى: نحن أولى؛ لأنا على دين عيسى، وهو روح الله، وكلمته، وكان يحيى الموتى.

وقال المسلمون: نحن أولى؛ لأن نبينا خاتم النبيين، وكتابنا ناسخ للكتب، وقد آمنا بكتابكم، ولم تؤمنوا بكتابنا؛ قال الله – تعالى –: ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب﴾ يعنى: ليس الأمر بالأمانى، وإنما الأمر بالعمل الصالح، وقد قال ﷺ: «ليس الدين بالتمنى، ولا بالتحلى .. (١)» الخبر.

وأما على القول الثانى: معنى الآية: أن اليهود والنصارى قالوا: نحن أهل الجنة،

---

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٣/ ٤٥٠)، وابن النجار في الذيل (١٧/ ٤٨)، وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٨٨ – ٢٨٩) وحكم عليه الشيخ الألباني في الضعيفة رقم [١٠٩٨] بالوضع، وانظر كلام الشيخ محمد عمرو بن عبد اللطيف في كتابه «تبيض الصحيفة» (ص٩٩ – ١٠٢/رقم ٣٣)، وهو عندهم بلفظ: «ليس الإيمان ...».

وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ

وذلك قول الله – تعالى –: ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ﴾[1] وقال المشركون: لاجنة، ولا نار، ولا بعث؛ قال الله – تعالى –: ﴿ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ﴾ أى: ليس كما قال المشركون، ولا كما قال اليهود والنصارى.

﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتاده، وجماعة المفسرين: إن الآية على العموم فى حق كل عامل. وقال الحسن: أراد به: أهل الشرك.

وفى حديث أبى هريرة: «أن هذه الآية لما نزلت، قالت الصحابة: أينا لم يعمل سوءاً؟! وشقت عليهم الآية، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فى ذلك، فقال: ما منكم من أحد تصيبه مصيبة، إلا كفر عنه، حتى الشوكة يشاكها، والنكبة ينكبها»[2].

وروى: «أن أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «ألا أقرئك آية أنزلت علىّ؟ قال: بلى[3] فقرأ: ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ قال أبو بكر: فوجدت انقصاما فى ظهرى، فقال – عليه السلام –: مالك يا أبا بكر؟ فقلت: كيف النجاة بعد هذه الآية، هلكنا، وأينا لم يعمل سوءا؟! فقال ﷺ: أما أنت يا أبا بكر، والمؤمنون تجزون به فى الدنيا، فتلقون الله – تعالى – وما عليكم ذنب، وأما الكافرون يجمع عليهم، ثم يجزون به فى الآخرة»[4] وفى رواية قال له – عليه السلام –:

(١) البقرة: ١١١.

(٢) رواه مسلم (١٦/١٩٦ – ١٩٧/ رقم ٢٥٧٤)، والترمذي (٥/٢٣١/ رقم ٣٠٣٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٢٨/ رقم ١١١٢٢).

(٣) فى «الأصل وك»: نعم، وله وجه انظر مغنى اللبيت (٢/٣٤٦) وما أثبتناه من مصادر تخريج الحديث، وهو الأشهر.

(٤) رواه الترمذي (٥/٢٣١ – ٢٣٢/ رقم ٣٠٣٩)، وعبد بن حميد – المنتخب – (ص٣١/ رقم٧)، وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وفي إسناده مقال، موسى بن عبيدة يضعف في الحديث، ضعفه يحيى بن سعيد، وأحمد بن حنبل، ابن سباع مجهول، وقد روى هذا الحديث من غير هذا الوجه عن أبي بكر، وليس له إسناد صحيح أيضا.

نَقِيراً ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ

«ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تمرض؟ أليس تصيبك اللأواء؟ فذلك الذى تجزون به»(١) فهذا معنى قوله – تعالى –: ﴿من يعمل سوءا يجز به ولايجد له من دون الله وليا ولا نصيرا﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولايظلمون نقيرا﴾ أى: مقدرا النقير، وذلك أن الله – تعالى – لما أحال الخلق على العمل بَيَّنَ العمل فى هذه الآيات، وجزاء العمل.

قوله – تعالى –: ﴿ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله﴾ أى: أخلص عبادته لله، وقيل: توجه بعبادته إلى الله، والوجه يذكر بمعنى: الدين والعبادة، ومنه قول المصلى: وجهت وجهى، أى: دينى وهو الصلاة.

﴿وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا﴾ وإنما خص إبراهيم؛ لأنه كان مقبول الأمم أجمع، وقيل: لأنه ﷺ بُعثَ على ملة إبراهيم، وزيد له أشياء.

﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ يعنى: حبيبا، لاخلل فى حبه، والخلة: صفاوة المودة، فمعناه: أنه اتخذه حبيبا، وجعله صفيه، وخاص نفسه، كما يكون الحبيب مع الحبيب، قال الشاعر:

قد تخللت مسلك الروح منى ... وبذا سمى الخليل خليـــلا

وقيل: المحتاج من الخَلَّة، وهى الحاجة، يعنى: جعل حاجته إلى نفسه دون غيره، وقال الشاعر:

وإن أتاه خليل يوم مسألة ... فقال(٢) لاغائب مالى ولاحَرِمُ

(١) رواه أحمد (١/١١)، والطبري (٥/١٨٩)، وأبو يعلى (١/٩٧ – ٩٨/ رقم ٩٧ – ١٠١)، وهناد في زهده (١/٢٤٨/ رقم ٤٢٩)، وابن حبان – الإحسان – (٧/ ١٧٠ – ١٧١/ رقم ٢٩١٠)، والحاكم (٣/ ٧٤ – ٧٥) وصححه، والبيهقي (٣/٣٧٣).

(٢) فى لسان العرب (مادة: حرم): يقول، وانظر (مادة: خلل).

مُحيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ

يعنى: وإن أتاه محتاج، والأول أصح؛ لأن قوله ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ يقتضى الخلة من الجانبين، ولايتصور الحاجة من الجانبين. وفى الخبر قال ﷺ: «إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، ولو كنت متخذا خليلا، لاتخذت أبا بكر؛ ولكن ود وإخاء إيمان، وإن صاحبكم خليل الله»[1].

قوله – تعالى –: ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله بكل شىء محيطا ﴾ المحيط: هو العالم بالشىء بجميع ما يتصور العلم به.

قوله – تعالى –: ﴿ ويستفتونك فى النساء ﴾ أى: يطلبون فتواك فى النساء، قيل: هذا فى أم كُجَّة وقد بينا قصتها، وأن أهل الجاهلية كانوا لايورثون النساء والصبيان.

﴿ قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب ﴾ قال الزجاج: يعنى: ويفتيكم كما يتلى عليكم فى الكتاب ﴿ فى يتامى النساء ﴾ هذا إضافة الشىء إلى نفسه؛ لأنه أراد باليتامى: النساء ﴿ اللاتى لاتؤتونهن ما كتب لهن ﴾ قال الحسن، وجماعة: أراد به: لا تؤتونهن حقهن من الميراث ﴿ وترغبون أن تنكحوهن ﴾ به، بمعنى: عن أن تنكحوهن لدمامتهن، وحملوا الآية على الميراث.

وقالت عائشة: أراد به: لا تؤتونهن ما كتب لهن من الصداق. وقوله: ﴿ وترغبون أن تنكحوهن ﴾ يعنى: فى أن تنكحوهن، ﴿ والمستضعفين من الولدان ﴾ يعنى:

(١) رواه الترمذى (٥/٥٦٧–٥٦٨ رقم ٣٦٥٩)، وقال حسن غريب، وأحمد (٣/٤٧٨)، والطبرانى فى الكبير (١٢/٣٢٨ رقم ٨٢٥)، والدولابى فى الكنى (١/٥٥–٥٦)، والبيهقى فى الدلائل (٧/١٧٥) كلهم من حديث أبى المعلى الأنصارى.

ورواه بنحوه مسلم في صحيحه (٦/١٨ – ١٩/ رقم ٥٣٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٢٨/ رقم ١١١٢٣)، وأبو عوانة في صحيحه (١/٤٠١) كلهم من حديث جندب – رضي الله عنه –.

وأخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص١٣٦) من طريق عبد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، وقد تقدم أن هذا الإسناد تالف.

امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن

ويفتيكم فى المستضعفين من الوالدان، وهم الصغار ﴿وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ أى: بالعدل ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما﴾.

قوله - تعالى -: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا﴾ النشوز: هو الارتفاع، والمراد به، ارتفاع الزوج، والتكبر بنفسه على الزوجة، ومنه النشز. ﴿أو إعراضا﴾ يعنى: أو خافت إعراضا من الزوج ﴿فلا جناح عليهما أن يصلحا﴾ وقرئ: «أن يصالحا[1] بينهما صلحا» يعنى: بين الزوجين، واختلفوا فيمن نزلت الآية، قال بعضهم: نزلت فى امرأة رافع بن خديج؛ فإنها كبرت، وتزوج رافع عليها شابة وخافت أن يعرض عنها؛ فنزلت الآية.

وقوله: ﴿أن يصلحا بينهما صلحا﴾ يعنى: أن يترك شيئا من القسم، وترضى بأن يكون القسم للشابة أكثر، وقيل: هو الصلح عن المهر بالإبراء، ونحوه، والقول الثانى: أن الآية نزلت فى سودة بنت زمعة؛ أراد النبى ﷺ أن يطلقها؛ فقالت: لا تطلقنى، قد وهبت ليلتى لعائشة، فلا تطلقنى حتى[2] أحشر يوم القيامة فى زمرة نسائك[3].

﴿والصلح خير﴾ قيل: أراد به: الصلح خير من الفرقة، وقيل: أراد به: الصلح خير من النشوز، والإعراض ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ والشح: البخل، وقيل: هو أقبح البخل، وحقيقته: الحرص على منع الخير، وأراد به: شح الزوجين على حقيهما ﴿وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾.

---

(١) قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: يُصْلِحا، بضم الياء، وإسكان الصاد وكسر اللام من غير ألف.
وقرأ الباقون: بفتح الياء، والصاد واللام، وتشديد الصاد، وألف بعدها: انظر النشر (٢ / ٣٥٢).

(٢) فى «الأصل»: فلما تطلقنى حتى، وفى «ك»: لأجل أن.

(٣) رواه الترمذي (٥ / ٢٣٢ / رقم ٣٠٤٠)، وقال: حسن غريب، والطبري في التفسير (٥ / ١٩٩)، وأبو داود الطيالسي (ص٣٤٩ / رقم ٢٦٨٣)، والطبراني في الكبير (١١ / ٢٨٤ / رقم ١١٧٤٦)، والبيهقي (٧ / ٢٩٧) كلهم من حديث ابن عباس.
وروي من حديث عائشة، رواه أبو داود (٢ / ٢٤٣ / رقم ٢١٣٥)، والحاكم (٢ / ١٨٢) وصحح إسناده.

تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

قوله – تعالى –: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ قال عمر، وعلى، وابن عباس، أراد بالعدل: المحبة فى القلب ﴿فلا تميلوا كل الميل﴾ يعنى: إن ملتم فى المحبة، فلا تميلوا فى القَسْم، وقد قال ﷺ: «اللهم هذا قَسْمى فيما أملك، فلا تؤخذانى فيما لا أملك»(١) ﴿فتذروها كالمعلقة﴾ يعنى لا أيِّمًا ولا ذات بعل، وقيل: كالمحبوسة ﴿وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما﴾.

قوله – تعالى –: ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته﴾ يعنى: الزوجين إذا تفرقا، فالزوج يجد الزوجة، والزوجة تجد الزوج ﴿وكان الله واسعا حكيما﴾ أى: واسع الفضل والرحمة والقدرة.

قوله – تعالى –: ﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾ هذه وصية الله العباد بالتقوى، ﴿وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غنيا حميدا﴾.

﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا﴾ فإن قيل: أى فائدة فى تكرار قوله: ﴿ولله ما فى السموات ومافى الأرض﴾ قيل: لكل واحد منها وجه:

أما الأول: فمعناه: ولله ما فى السموات وما فى الأرض، وهو يوصيكم بالتقوى، فاتقوه، واقبلوا وصيته.

---

(١) رواه أبو داود (٢/ ٢٤٢/ رقم ٢١٣٤)، والترمذي (٣/ ٤٤٦/ رقم ١١٤٠)، والنسائي (٧/ ٦٤/ رقم ٣٩٤٣)، وابن ماجه (١/ ٦٣٤/ رقم ١٩٧١)، وأحمد (٦/ ١٤٤)، والدارمي (٢/ ١٩٣/ ٢٢٠٧) والحاكم (٢/ ١٨٧) وصححه على شرط مسلم، وابن حبان – الإحسان (١٠/ ٥/ رقم ٤٢٠٥)، وابن أبي حاتم في العلل (١/ ٤٢٥/ رقم ١٢٧٩) وقال سمعت أبا زرعة يقول: لا أعلم أحداً تابع حماداً على هذا. قلت: روى ابن علية، عن أيوب، عن أبي قلابة، قال: «كان النبي ﷺ يقسم بين نسائه...» الحديث مرسل. وكذا قال النسائي: أرسله حماد بن زيد. ورجح الترمذي رواية حماد بن زيد المرسلة على رواية حماد بن سلمة المتصلة.

مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ

وأما الثانى: يقول: فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض، وكان الله غنيا حميدا؛ فاطلبوا منه ما تطلبون.

وأما الثالث يقول: ولله ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا، أى: اتخذوه وكيلا ولا تتكلوا على غيره.

قوله - تعالى -: ﴿إن يشاء يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين﴾ روى: «أن النبى ﷺ كان يضرب بيده كتف سلمان، ويقرأ: ﴿ويأت بآخرين﴾ ويقول: سلمان وأصحابه»(١) ﴿وكان الله على ذلك قديرا﴾.

قوله - تعالى -: ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ أراد به: الكفار؛ فإنهم يعملون(٢) ابتغاء ثواب الدنيا، وطلبا لنعيمها، ولايطلبون ثواب الآخرة، ولايؤمنون بها؛ فقال الله - تعالى -: ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعًا بصيرا﴾.

قوله - تعالى -: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾ القوَّام: مبالغة من القائم، والقسط: العدل، ومعناه: كونوا قائلين بالعدل ﴿شهداء لله﴾ لأنهم إذا شهدوا بالحق وقاموا بالعدل، كانوا شهداء لله ﴿ولو على أنفسكم﴾ فإن قيل: كيف يشهد على نفسه؟ قيل: شهادته على نفسه: هو الإقرار، وهو معنى ما روى عن ابن عباس: «قولوا الحق ولو على أنفسكم».

﴿أو الوالدين والأقربين﴾ أى: قولوا الحق، ولو على الوالدين والأقربين، قيل: نزلت الآية فى رجل كانت عنده شهادة على أبيه، فهم أن يمتنع عنها؛ فنزل قوله:

(١) أخرجه الطبرى فى التفسير (٥/٢٠٥) من حديث أبى هريرة، وقال الزيلعى فى تخريج الكشاف (١/٣٦٤/ رقم ٣٨٠): وفيه انقطاع؛ فإن الطبرى لم يسمع من شيخه.

(٢) فى «الأصل، وك»: يعلمون، وهو تصحيف.

الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا

﴿ أو الوالدين والأقربين ﴾، ﴿ إن يكن غنيا أو فقيرا ﴾ قال السدى: نزل ذلك فى رجلين اختصما إلى النبى ﷺ، أحدهما غنى، والآخر فقير، وكان ضلع النبى – عليه السلام – إلى الفقير، وكان عنده أن الفقير لايخاصم بالباطل، وكان الحق للغنى فى الباطن؛ فنزلت الآية ﴿ إن يكن غنيًا أو فقيرًا ﴾[1].

قال ابن عباس: معناه: لاتحابوا الغنى لغناه، ولاترحموا الفقير لفقره، وقال عطاء: لاتحيفوا على الفقير، ولا تعظموا الغنى؛ فهذا معنى الآية، وحقيقة المعنى: قوموا بالشهادة، سواء كان المشهود عليه غنيا أو فقيرا، وسواء كان المشهود له غنيا أو فقيرا، ولاتمتنعوا عن الشهادة للغنى لغناه، ولا عن الشهادة على الفقير لفقره.

وقوله: ﴿ إن يكن غنيا أو فقيرا ﴾ يعنى: إن يكن المشهود عليه غنيا، أو فقيرا ﴿ فالله أولى بهما ﴾ أى: كلوا أمرهما إلى الله، قال الحسن: معناه: فالله أعلم بهما. ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ قيل: معناه: فلا تتبعوا الهوى بأن تعدلوا، أى: لتكونوا عادلين، كما يقال: لا تعص فَتُرضِى ربك، وقيل: معناه: لا تتبعوا الهوى لتميلوا من الحق إلى الباطل ﴿ وإن تلووا ﴾ وهى من اللَّىّ قال الشاعر:

وكنت داينت به حسانا ... مخافة الإفلاس والليانا

وفى معناه قولان: أحدهما: أنه خطاب للحكام، ومعنى ﴿ وإن تلووا ﴾ أى: تميلوا إلى أحد الخصمين، أو تعرضوا عنه.

والثانى – وهو قول أكثر المفسرين – أنه خطاب للشهود، واللَّىّ منهم: تحريف الشهادة» والإعراض: كتمان الشهادة والأول: قول ابن عباس، وأما القراءة الثانية: «وإن تَلُوْا[2]» فيه قولان: أحدهما: أن أصله: «وإن تلووا» فإدخلت إحدى الواوين

(١) انظر أسباب النزول للواحدى (ص ١٣٨)
والضَّلْعُ: الميل. انظر لسان العرب (مادة: ضلع).
(٢) هى قراءة: ابن عامر، وحمزة، بضم اللام، وواو ساكنة بعدها انظر النشر (٢ / ٣٥٢).

﴿١٣٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ

فى الأخرى تخفيفًا، والمعنى ما بينا، والثانى: أنه من الولاية، يعنى: وإن تلوا القيام بأداء الشهادة ﴿أو تعرضوا﴾ فتتركوا أداء الشهادة ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾.

قول - تعالى -: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله﴾ أكثر المفسرين على أنه فى المؤمنين، ومعناه: يا أيها الذين آمنوا آمنوا، أى: اثبتوا على الإيمان، كما يقال: قف حتى أرجع إليك - للرجل الواقف - أى: اثبت واقفا.

وقال مجاهد: هو خطاب للمنافقين، ومعناه: يا أيها الذين آمنوا باللسان آمنوا بالقلب، وقال الضحاك - وهو رواية الكلبى عن ابن عباس -: هو خطاب لأهل الكتاب، ومعناه: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد ﴿والكتاب الذى نزل على رسوله﴾ يعنى: القرآن ﴿والكتاب الذى أنزل من قبل﴾ يعنى: الكُتب المنزلة من قبل القرآن.

﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ أى: بعيدا عن الحق.

قوله - تعالى -: ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا﴾ قال قتادة: هذا فى اليهود، آمنوا بموسى، ثم كفروا به بعبادة العجل، ثم آمنوا بموسى بالتوبة، ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفرا بمحمد، وقيل: هو فى جميع أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ آمنوا بنبيهم، ثم كفروا به، وآمنوا بكتابهم، ثم كفروا به ثم ازدادوا كفرًا بمحمد. وقال مجاهد: هو فى قوم مرتدين آمنوا، ثم ارتدوا، ثم آمنوا، ثم ارتدوا.

ومثل هذا هل تقبل توبته؟

قال على: لاتقبل توبته؛ فإنه إذا آمن، ثم كفر، ثم آمن، ثم كفر، فلو أراد أن يؤمن

وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي

لايقبل منه، ويقتل؛ لقوله – تعالى –: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾.

وأكثر أهل العلم على أنه: تقبل توبته، ويحتمل أن تكون الآية فى المنافقين، وقوم من أهل الكتاب، كانوا يؤمنون باللسان، ثم يرجعون إلى الكفر، ثم يأتون، فيؤمنون، ثم يرجعون إلى الكفر.

﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ فإن قيل: أيش معنى قوله – تعالى –: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾، ومعلوم أن الله لايغفر الكفر؟ قيل: أجاب النقاش فى تفسيره أن معناه: أن الكافر إذا أسلم، يغفر له كفره السابق، فهذا الذى أسلم، ثم كفر ثم أسلم، ثم كفر، لايغفر كفره السابق الذى كان يغفر لو ثبت على الإسلام ﴿ولا ليهديهم سبيلا﴾ أى: طريقا إلى الحق.

قوله – تعالى –: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما﴾ فإن قيل: ما معنى البشارة بالعذاب الأليم؟ قيل: أصل البشارة: كل خبر تتغير به بشرة الوجه، ساراً كان أم مكروها، لكنه فى الغالب إنما يستعمل فى الخبر السار، فإذا استعمل فى الخبر السيء كان على الأصل، وقيل: أراد به: ضع هذا موضع البشارة، كما تقول العرب: تحيتك السوط، وعقابك السيف.

يعنى: وضعت السوط مع التحية، قال الشاعر:

وخيل قد دلفت بها لخيل ... تحية بَيْنِهم ضربٌ وجيعُ

قوله – تعالى –: ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ هذا فى المنافقين، كانوا يوالون الكفار، ويظنون أن النصرة والغلبة لهم ﴿أيبتغون عندهم العزة﴾ يعنى: أيطلبون عندهم القوة والغلبة ﴿فإن العزة لله جميعا﴾ أى: القوة والغلبة كلها لله – تعالى –.

الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا

فإن قال قائل: قد نرى فى[1] بعض الأحوال الغلبة للكفار؛ فما معنى قوله: ﴿فإن العزة لله جميعا﴾؟ قيل: معناه: أن المقوى هو الله – تعالى – فى الأحوال كلها.

وقيل: معناه: الغلبة بالحجة لله جميعا[2].

قوله – تعالى –: ﴿وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾.

هذا إشارة إلى ما أنزل فى سورة الأنعام ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم...﴾[3] الآية. نهَىَ عن القعود معهم، وما حكم القعود معهم؟ أما إذا قعد معهم... ورضى بما يخوضون فيه، فهو كافر مثلهم، وهو معنى قوله: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾. وإن قعد، ولم يرض بما يخوضون فيه، فالأولى أن لا يقعد، ولكن لو قعد كارها، فلا يكفر، وهذا هو الحكم فى كل بدعة يخاض فيها، فلو تركوا الخوض فيه وخاضوا فى حديث غيره، فلا بأس بالقعود معهم وإن كره؛ لقوله ﴿حتى يخوضوا فى حديث غيره﴾ قال الحسن: وإن خاضوا فى حديث غيره لايجوز القعود معهم؛ لقوله فى سورة الأنعام: ﴿وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾[3] والأكثرون على أنه يجوز، وآية الأنعام مكية وهذه الآية مدنية، والمتأخر أولى.

﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا الذين يتربصون بكم﴾ يعنى: المنافقين ينتظرون أمركم ﴿فإن كان لكم فتح من الله﴾ يعنى: ظفر ﴿قالوا ألم نكن معكم﴾ يعنى: كنا معكم، فاجعلوا لنا نصيبًا من الغنيمة ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ يعنى: وإن كانت القوة للكافرين ﴿قالوا ألم نستحوذ عليكم

(١) فى «الأصل وك»: عن.

(٢) فى «ك»: تعالى.

(٣) الأنعام: ٦٨.

أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٤٢﴾ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ

ونمنعكم من المؤمنين﴾ الاستحواذ: الاستيلاء والغلبة ومنه قوله - تعالى -: ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾[1] قال المبرد: معنى هذا: قالوا: ألم نغلبكم على رأيكم، ونمنعكم من المؤمنين، والدخول فى جملتهم، وتخذيل المؤمنين عنكم.

وقال غيره: معناه: ألم نستول عليكم بالنصرة لكم من جهة مراسلتنا إياكم بأخبار المؤمنين، وأمورهم، وتخذيلنا إياهم عنكم. ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾.

﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ قال على، وابن عباس: أراد به: فى القيامة، وقيل: هو سبيل الحجة، أى: لاتكون الحجة للكافرين على المؤمنين أبدا.

قوله - تعالى -: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾ يخادعون الله، أى: يعاملون الله معاملة المخادعين حيث أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر، وهو خادعهم، أى: يعاملهم معاملة المخادعين، وذلك على وجهين: أحدهما: أنه حكم بإيمانهم فى الظاهر، وكفرهم فى الباطن، كما فعلوا هم والثانى: أنه فى القيامة يعطيهم نورا، كما يعطى المؤمنين، ثم إذا كانوا على الصراط طُفئ نورهم، وذهب المؤمنون بنورهم، وهذا معنى قوله: ﴿وهو خادعهم﴾ وقيل: معناه: يخادعون رسول الله، وهو خادعهم، أى: يجازيهم على مخادعتهم الرسول، وسمى الثانى خداعا على الازدواج، كما قال: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾[2] وفى حديث عدى بن حاتم أن النبى ﷺ قال: «يؤتى بناس من الناس يوم القيامة إلى الجنة، حتى إذا دنوا منها، واستنشقوا رائحتها، ورأوا فيها من النعيم، يأمر الله - تعالى - بصرفهم عنها، فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها، فيقولون: يارب، لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا كان أهون علينا، فيقول الله - تعالى -: ذاك أردت لكم،

(١) المجادلة: ١٠٩.

(٢) الشورى: ٤٠.

هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴿١٤٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ

وكنتم إذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم، وإذا لقيتم الناس، لقيتموهم مخبتين، هبتم الناس ولم تهابونى، أجللتم الناس، ولم تجلّونى، تركتم للناس، ولم تتركوا لى؛ فاليوم أذيقكم العذاب، مع ما حُرمتم من الثواب»[1].

وقوله: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾ يعنى: متثاقلين، وهذا دأب المنافقين؛ لقلة الدواعى لهم، وأما المؤمنون ينشطون إلى القيام إلى الصلاة؛ لكثرة الدواعى لهم، ﴿يراءون الناس﴾ أى: يعملون ما يعملون، مراءة للناس، لا اتباعا لأمر الله.

واعلم أن الرياء لايوجب الكفر، وهو عيب عظيم، وأما النفاق كفر محض.

﴿ولا يذكرون الله إلا قليلا﴾ قال الحسن: لأنه لما لم يتقبل عملهم، كان قليلا ﴿مذبذبين بين ذلك﴾ أى: متذبذبين وكذلك قرأ أبى بن كعب، ومعناه: مضطربين متحيرين ﴿لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾، يعنى: لا إلى الكفار بالتصريح بالشرك، ولا إلى المؤمنين باعتقاد الإيمان.

وروى ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين ربيضين، إن جاءت إلى هذه، نطحتها، وإن جاءت إلى هذه نطحتها»[2] ﴿ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾ أى: ومن يضلله الله، فلن تجد له طريقا إلى الحق.

قوله – تعالى –: ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون

(١) رواه الطبرانى فى الكبير (١٧/ ٨٦/ رقم ١٩٩، ٢٠٠)، وفى الأوسط – مجمع البحرين – (٨/ ١٩٣ – ١٩٤/ رقم ٤٩٤٧) وابن حبان فى المجروحين (٣/ ١٥٥ – ١٥٦)، والبيهقى فى البعث (ص٣١٦/ رقم ٦٥٨)، وأبو نعيم فى الحلية (٤/ ١٢٤ – ١٢٥) وابن الجوزى فى الموضوعات (٣/ ١٦٢).

وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٢٣): وفيه أبو جنادة وهو ضعيف.

(٢) رواه مسلم (١٧/ ١٨٧ رقم ٢٧٨٤)، والنسائى (٨/ ١٢٤/ رقم ٥٠٣٧)، وأحمد (٢/ ٣٢) والطبرى (٥/ ٢١٥) والطيالسى (ص٢٤٩)/ رقم ١٨٠٢) كلهم من حديث ابن عمر.

الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا

المؤمنين ﴾ فى الآية نهى عن موالاة المؤمنين مع الكفار ﴿ أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ﴾ السلطان: الحُجة، ومنه يقال: للأمير سلطان؛ لأنه ذو الحجة، ومعناه: أتريدون أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة فى عذابكم، بحيث لايبقى لكم عذر عنده؟!.

قوله – تعالى –: ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾ ويقرأ: «فى الدرْك» بجزم الراء –(١) قال أبو عبيدة، والأخفش: النار دركات، والجنة درجات، قال أهل العلم: يجوز أن يكون فرعون وهامان أشد عذابا من المنافقين، وإن كان المنافقون فى الدرك الأسفل. قال ابن مسعود: الدرك الأسفل: تابوت من حديد مقفل عليهم، وقيل: تابوت من النار. قال أبو هريرة: والدرك الأسفل: بيت مطبق عليهم، تتوقد النار فيه من فوقهم، ومن تحتهم ﴿ ولن تجد لهم نصيرا ﴾ مانعا من العذاب.

قوله – تعالى –: ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ أى: أسلموا ﴿ وأصلحوا ﴾ أى: داموا على التوبة ﴿ واعتصموا بالله ﴾ الاعتصام: هو الامتناع بالشىء مما يخاف، فالاعتصام بالله: هو الامتناع بطاعته من كل ما يخاف عاجلا، وآجلا ﴿ وأخلصوا دينهم لله ﴾ شَرَطَ الإخلاص بالقلب؛ لأن الآية فى المنافقين، والنفاق: كفر القلب، فزواله بالإخلاص ﴿ فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما ﴾، وإنما لم يقل: فأولئك هم المؤمنون، وسوف يؤتيهم الله أجرًا عظيمًا؛ غيظا على المنافقين.

قوله – تعالى –: ﴿ مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ هذا استفهام بمعنى التقرير، ومعناه: لايعذب الله [المؤمن](٢) الشاكر، وتقدير قوله: ﴿ إن شكرتم وآمنتم ﴾ أى: إن آمنتم وشكرتم، والشكر ضد الكفر، والكفر: ستر النعمة والشكر: إظهار النعمة ﴿ وكان الله شاكرًا عليمًا ﴾ الشكر من الله قبول العمل، ومعناه: وكان

(١) قرأ حمزة، والكسائى، وعاصم: بإسكان الراء، وقرأ الباقون بفتحها. انظر النشر (٢/٢٥٣).

(٢) فى «الأصل»: المؤمنين.

عَظِيماً ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً ﴿١٤٧﴾ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا خَيْراً أَوْ

الله قابلا للطاعات، عليما بالنيات.

قوله - تعالى -: ﴿لايحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾ قال ابن عباس: معناه: إلا من ظلم، فيجوز له أن يجهر بالسوء بالإخبار عن ظلم الظالم، والدعاء عليه، قال الحسن: دعاؤه عليه: أن يقول: اللهم اعنى عليه، اللهم استخرج حقى منه.

وقيل: يجوز له أن يشتم، ولكن بمثل ما شُتم، لايزيد عليه، بما لم يكن قذفا، وقد ورد فى الحديث: «السبتان بالسبة ربا» قال مجاهد: هو فى الضيف يأتى قوما، فلم يقروه، ولم يحسنوا ضيافته، يجوز له أن يجهر بالسوء لهم.

ويقرأ: «إلا من ظَلَم» بفتح الظاء واللام.

قال الزجاج: معناه: إلا من ظلم، فأجهر قوله بالسوء، وقيل: هو راجع إلى الآية المتقدمة، وتقديره: مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم إلا من ظلم وقيل: هو استثناء منقطع، يعنى: لايحب الله الجهر بالسوء من القول، لكن يجهر بالسوء من ظلم ﴿وكان الله سميعا عليما﴾ سميعا لأقوالكم: عليما بنياتكم.

قوله - تعالى -: ﴿إن تبدوا خيرا أو تخفوه﴾ معناه: إن تبدوا شيئا من الصدقات؛ ليقتدى بكم، أو تخفوه؛ مخافة الرياء ﴿أو تعفوا عن سوء﴾ تصابون به ﴿فإن الله كان عفوا قديرا﴾.

قوله - تعالى -: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله﴾ أراد به اليهود لما كفروا بمحمد ﷺ فكأنهم كفروا بالله ﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله﴾ يريدون أن يؤمنوا بالله، ويكفروا بالرسول ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾ يؤمنون بموسى، ويكفرون بعيسى، ومحمد ﴿ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا﴾ أى: مذهباً يذهبون إليه.

تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ

﴿أولئك هم الكافرون حقا﴾ إنما حقق كفرهم، ليعلم أنهم كفار [مطلقًا](١) لئلا يظن ظان أنهم لما آمنوا بالله وبعض الرسل لايكون كفرهم مطلقا ﴿وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا﴾.

قوله - تعالى -: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم﴾ إنما سماه أجرا مجازا؛ لأنه ذكره بإزاء العمل؛ لأن العمل يوجبه، وهذا نحو قوله - تعالى - فى قصة موسى: ﴿إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾(٢) سماه أجرا على مقابلة العمل؛ لأن موسى عمل؛ ليؤجر عليه ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾.

قوله - تعالى -: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء﴾ هم اليهود، قالوا للنبى ﷺ لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا من السماء جملة، كما أنزلت التوراة على موسى جملة.

قال الحسن: ولم يكن ذلك سؤال انقياد، وإنما ذلك سؤال تحكم، واقتراح؛ فإنهم لو أنزل عليهم الكتاب جملة، كما سألوا؛ لم يؤمنوا، والله - تعالى - لاينزل الآيات على اقتراح العباد، وإنما ينزلها على مشيئته ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك﴾ أى: أعظم من ذلك ﴿فقالوا أرنا الله جهرة﴾ أى: عيانا، وذلك أن العرب كانت تعد العلم بالقلب رؤية؛ فقال: ﴿جهرة﴾ ليعلم أنه أراد العيان، وقال أبو عبيدة: معناه:

(١) فى «الأصل وك»: مطلق.

(٢) القصص: ٢٥.

السَّمَاء فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا

فقالوا جهرة: أرنا الله ﴿فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾، ﴿ثم اتخذوا العجل﴾ يعنى: إلها ﴿من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك﴾ فيه استدعاء للتوبة، ومعناه: أن أولئك الذين اجترموا [ذلك](1) الإجرام، عفونا عنهم؛ فتوبوا أنتم، حتى نعفو عنكم ﴿وآتينا موسى سلطانا مبينا﴾ حجة بينة من المعجزات.

قوله - تعالى -: ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾ الطور: جبل الطور، وقيل: كل جبل ينبت شيئا، فهو طور، فإن لم ينبت، لايسمى طورا، والميثاق: العهد المؤكد باليمين.

﴿وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا﴾ قيل: إنهم سجدوا على أنصاف وجوههم، حتى دخلوا الباب، وفى القصة: أنهم قالوا: بهذا السجود رفع العذاب عنا، فلا نترك هذا السجود، وكانوا يسجدون بعد ذلك على أنصاف وجوههم.

﴿وقلنا لهم لاتعدوا فى السبت﴾ وقرأ نافع - برواية قالوا -: ﴿لاتعْدُّوا﴾ - بجزم العين، مشددة الدال وفى رواية ورش عنه ﴿لاتعَدُّوا﴾ - بفتح العين مشددة الدال(2) ومعنى الكل: لايعتدوا فى السبت ﴿وأخذنا منهم ميثاقا غليظا﴾.

قوله - تعالى -: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ و«ما» للصلة، وإنما تدخل فى الكلام؛ لتفخيمه، وتجزيله ﴿وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف﴾ قد ذكرنا كل هذا ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ الطبع: الختم، وقال

(١) فى «الأصل وك»: تلك.

(٢) انظر النشر (٢/٢٥٣).

قليلاً ﴿١٥٥﴾ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما ﴿١٥٦﴾ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا ﴿١٥٧﴾ بل رفعه الله إليه

لزجاج: جعل قلوبهم، كالمطبوع لايفلح، ولايصلح أبدا، ولايدخلها خير؛ فلا يؤمنون إلا قليلا ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما﴾ أراد به: نسبتهم مريم إلى الزنا.

قوله تعالى: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾.

قيل: إن الله – تعالى – ألقى شبه عيسى على الذى دلهم عليه؛ فقتلوه، وقيل: إنهم كانوا حبسوا عيسى فى بيت، وجعلوا عليه رقيبا، فألقى الله تعالى شبه عيسى على الرقيب؛ فقتلوه، وقيل: إنهم ما كانوا يعرفون عيسى بعينه، وكانوا يعرفونه باسمه، وكانوا يطلبونه؛ فقال لهم يهوذا – وهو واحد من أصحاب عيسى –: أعطونى شيئا، أدلكم على عيسى؛ فأعطوه ثلاثين درهما؛ فدلهم على غيره، فقتلوا ذلك الغير؛ فهذا قوله: ﴿ولكن شبه لهم﴾، ﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه﴾ وذلك أن الرجل الذى قتلوه على ظن أنه عيسى، كان يشبهه بوجهه، ولايشبهه بجسده، فوقع فيهم الاختلاف، فقال بعضهم: الذى قتلناه كان عيسى، وقال بعضهم: لم يكن عيسى. وقيل: هو الاختلاف بين علمائهم، وأغتامهم[1]؛ فإن علماءهم كانوا يعلمون أنهم لم يصلبوا عيسى وكان عند جهالهم واغتامهم أنهم قتلوا عيسى، ﴿وما لهم به من علم﴾ يعنى: من حقيقة علم ﴿إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا﴾ قال ابن الأنبارى: قوله: ﴿وما قتلوه﴾ كلام تام، وقوله: ﴿يقينا﴾ راجع إلى ما بعد، وتقديره: «بل رفعه الله إليه يقينا، قال الفراء: معناه: وما قتلوا

---

(١) الغتمة: عجمة فى المنطق، ورجل اغتم: أى لايفصح شيئًا، انظر لسان العرب (مادة: غتم).

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ

الذى ظنوا أنه عيسى يقينا أنه عيسى، وقيل: «الهاء» كناية عن عيسى، أى: وما قتلوا عيسى يقينا ﴿بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما﴾.

قوله - تعالى -: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ معناه: وإن من أهل الكتاب أحدا إلا ليؤمن به، وهو مثل قوله: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾[1] أى: وإن منكم أحد.

واختلفوا فى قوله: ﴿قبل موته﴾ قال الحسن - وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس -: إنه كناية عن الكتابى، وقال: ما من كتابى من اليهود، إلا وهو يؤمن بعيسى قبل موته فى وقت اليأس، حين لاينفعه، حتى قيل لابن عباس: وإن مات حرقا أو غرقا أو هدما؟ قال: نعم.

وقال قتادة - وهو رواية أخرى عن ابن عباس -: إن «الهاء» كناية عن عيسى، يعنى: ما من كتابى إلا يؤمن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك حين ينزل من السماء، وقال عكرمة: هذا فى محمد ﷺ ما من كتابى إلا ويؤمن به قبل الموت، وهذا قول ضعيف؛ لأنه لم يجر ذكر محمد فى الآية ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا﴾ يعنى: عيسى.

قوله تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا﴾ يعنى: ما ذكر من إجرامهم ﴿حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ هو ما ذكرنا فى سورة الأنعام ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا

(١) مريم: ٧١.

بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ إِنَّا أَوْحَيْنَا

كل ذى ظفر... ﴾[1] الآية على ما سيأتى ﴿ وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴾ يعنى: الرشا ﴿ وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ لكن الراسخون فى العلم منهم ﴾ «لكن» للإضراب عن كلام، والدخول فى كلام آخر، ﴿ والراسخون ﴾: المبالغون فى العلم أولو البصائر فيه، وأراد به: الذين أسلموا من علماء اليهود: مثل عبد الله بن سلام، ويمين بن يمين، وأسد وأسيد ابنى كعب، وجماعة ﴿ والمؤمنون ﴾ أراد به: المهاجرين، والأنصار ﴿ يؤمنون بما أنزل إليك ﴾ يعنى: القرآن ﴿ وما أنزل من قبلك ﴾ يعنى: سائر الكتب المنزلة ﴿ والمقيمين الصلاة ﴾ فى هذا إشكال من حيث النحو، قيل: إن هذا ذكر لعائشة، وأبان بن عثمان، فادعيا الغلط على الكاتب، وقالا: ينبغى أن يكتب: «والمقيمون الصلاة» وليس هكذا؛ بل هو صحيح فى النحو، وهو نصب على المدح، وتقديره: واذكروا المقيمين الصلاة، أو أعنى: المقيمين الصلاة، وهم المؤتون الزكاة، ومثله قول الشاعر:

النازلين بكل معترك ... والطيبون [معاقد][2] الأزر

أى: أعنى النازلين بكل معترك، وهم الطيبون معاقد الأزر؛ فيكون نصبا على المدح، وقيل تقديره: وما أنزل على المقيمين الصلاة، قوله: ﴿ والمؤتون الزكاة ﴾ رجوع إلى نسق الأول ﴿ والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما ﴾.

(١) الأنعام: ١٤٦.

(٢) فى «الأصل وك»: مقاعد. وهو تصحيف.

إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ

قوله – تعالى –: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ هذا بناء على ما [سبق][(١)] من قوله ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء﴾ يقول الله – تعالى –: قد جعلناك رسولا بالطريق الذى [قد][(٢)] جعلنا سائر الأنبياء رسلا، وهو الوحى، ﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان﴾ ذكر عدة من الرسل الذين أوحى إليهم.

فإن قال قائل: لم قدم ذكر عيسى، وهو متأخر؟ قيل: «الواو» لاتوجب الترتيب، وإنما هى للجمع، وقيل: ذكره اهتماما بأمره، وكان أمر عيسى أهم ﴿وآتينا داود زبورا﴾ قرأ حمزة: «زُبورا» – بضم الزاى –[(٣)] فالزبور: فعول بمعنى المفعول، وهو الكتاب الذى أنزل الله – تعالى – على داود، فيه التحميد، والتمجيد، وثناء الله – تعالى –، والزبور: الكتابة، والزُّبْرَة قطعة الحديد، ويقال: ماله زَبْرٌ أى: ماله عقل، وأما الزبور: جمع الزَّبْرُ.

قوله – تعالى –: ﴿ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل﴾ وأرسلنا رسلا قد قصصناهم عليك من قبل ﴿ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما﴾ إنما كلمه بنفسه من غير و اسطة، ولا وحى، وفيه دليل على من قال: إن الله خلق كلاما فى الشجرة؛ فسمعه موسى؛ وذلك لأنه قال: ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾

---

(١) فى «الأصل» نسق.

(٢) من «ك».

(٣) وهى قراءة خلف أيضاً. انظر النشر (٢ / ٢٥٣).

تَكْلِيماً ﴿١٦٤﴾ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴿١٦٥﴾ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ

قال الفراء، وثعلب: إن العرب تسمى ماتوصل إلى الإنسان: كلاما، بأى طريق وصل إليه، ولكن لاتحققه بالمصدر، فإذا حقق الكلام بالمصدر، لم تكن إلا حقيقة الكلام، وهذا كالإرادة، يقال: أراد فلان إرادة، فيكون حقيقة الإرادة، ولايقال: أراد الجدار أن يسقط إرادة، وإنما يقال: أراد الجدار، من غير ذكر المصدر؛ لأنه مجاز، فلما حقق الله كلامه موسى بالتكليم، عُرِفَ أنه حقيقة الكلام من غير واسطة، قال ثعلب: وهذا دليل من قول الفراء أنه ما كان يقول بخلق القرآن.

فإن قال قائل: بأى شىء عرف موسى أنه كلام الله؟ قيل: بتعريف الله -تعالى- إياه، وإنزال آية عرف موسى بتلك الآية أنه كلام الله - تعالى -، وهذا مذهب أهل السنة أنه سمع كلام الله حقيقة، بلا كيف، وقال وائل بن داود: معنى قوله: ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾ أى: مرارا، كلاما بعد كلام.

قوله تعالى: ﴿رسلا مبشرين ومنذرين﴾ أى: أرسلنا رسلا ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ وهذا دليل على أن الله - تعالى - لايعذب الخلق قبل بعثه الرسل، وهذا معنى قوله: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾[1] وقال - تعالى - ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾[2].

﴿وكان الله عزيزا﴾ أى: مقتدرا على معاونة الخلق ﴿حكيما﴾ ببعث الرسل. وفى حديث أبى الدرداء أنه قال: «سألت رسول الله ﷺ عن عدد الأنبياء فقال: مائة وأربعة وعشرون ألفا، فقلت: كم الرسل منهم؟ قال: ثلثمائة وخمسة عشر [جما غفيرا][3]»[4].

---

(١) الإسراء: ١٥. (٢) طه: ١٣٤. (٣) فى «الأصل، ك»: جم غفير، وهو خلاف الجادة.

(٤) المشهور أنه من حديث أبى ذر رضى الله عنه، فرواه ابن حبان فى المجروحين (٣/ ١٢٩ - ١٣٠)، وفى صحيحه - الإحسان (٢/ ٧٦ - ٧٩/ رقم ٣٦١)، والحاكم (٢/ ٥٩٧) وسكت عليه؛ فتعقبه الذهبى فقال: السعدى ليس بثقة. وأبو نعيم فى الحلية (١/ ١٦٦ - ١٦٨)، والبيهقى فى السنن (٩/ ٤)، وابن عدى فى الكامل (٧/ ٢٤٤) وقال ابن عدى: هذا حديث منكر. ورواه أحمد مختصراً (٥/ ١٧٨، ١٧٩).

وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ

قوله – تعالى – ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾ سبب نزول الآية: أن قوما من علماء اليهود حضروا عند النبى ﷺ، فقال لهم: «أنتم تعلمون أنى رسول الله؟ فقالوا: لانعلم ذلك؛ فنزل قوله: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه﴾»[1] أى: مع علمه، كما يقال: جاءنى فلان بسيفه، أى: مع سيفه، وفيه دليل على أن لله علما، هو صفته، خلاف قول المعتزلة خذلهم الله.

﴿والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا﴾ فإن قيل: إذا شهد الله له بالرسالة، فأى حاجة إلى شهادة الملائكة؟ قيل: لأن الذين حضروا عند النبى ﷺ، كان عندهم أنهم علماء الأرض؛ فقالوا: نحن علماء الأرض، ونحن ننكر رسالتك، فقال الله تعالى: إن أنكره علماء الأرض، يشهد به علماء السماء، وهم الملائكة، على مقابلة زعمهم وظنهم؛ لا للحاجة إلى شهادتهم؛ فإنه قال: ﴿وكفى بالله شهيدا﴾

قوله – تعالى –: ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله﴾ صدهم عن سبيل الله كان بكتمان نعت محمد ﴿قد ضلوا ضلالا بعيدا﴾ أى: هلكوا، والضلال: الهلاك.

قوله – تعالى –: ﴿إن الذين كفروا وظلموا﴾ فإن قال قائل: أى معنى لقوله: ﴿وظلموا﴾ وقد قال: ﴿كفروا﴾ وظلمهم كفرهم؟ قيل: معناه: كفروا بالله، وظلموا محمدا بكتمان نعته.

وقيل: ذكره تأكيدا ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ فى هذا إشارة إلى أن الله – تعالى – لو غفر للكافرين أجمع، كان يسع ذلك رحمته، لكنه قطع القول بأن لايغفر لهم،

(١) رواه الطبرى فى التفسير (٦ / ٢٢) عن ابن عباس، وعزاه السيوطى فى الدر (٢ / ٢٧٢) لابن إسحاق، وابن المنذر، والبيهقى فى الدلائل.

الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا

﴿ ولا ليهديهم طريقا ﴾ يعنى: الإسلام ﴿ إلا طريق جهنم ﴾ يعنى: اليهودية ﴿ خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم ﴾ تقديره: يكن الإيمان خيرا لكم ﴿ وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض وكان الله عليما حكيما ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ﴾ الغلو: مجاوزة الحد، والآية فى النصارى، قال الحسن: يجوز أن تكون فى اليهود والنصارى؛ فإنهم غلوا فى أمر عيسى، أما اليهود بالتقصير فى حقه، وأما النصارى بمجاوزة الحد فيه.

والغلو غير محمود فى الدين، روى ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال: «إياكم والغلو فى الدين؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو».[1]

﴿ ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ﴾ وقد بينا أقوال العلماء فى كونه «كلمة» وجملته[2] ثلاثة أقاويل: أحدها: أنه بكلمته، وهى قوله: كن، فكان، والثانى: أنه يهتدى به، كما يهتدى بكلمة الله، الثالث: كلمته: بشارته التى بشر بها فى الكتب «يكون عيسى» فهذا معنى قوله: ﴿ وكلمته ﴾ ﴿ ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ وفى تسميته «روحا» ثلاثة أقاويل:

---

(١) أخرجه النسائى (٥/٢٦٨/ رقم ٣٠٥٧)، وابن ماجة (٢/١٠٠٨/ رقم ٣٠٢٩)، وأحمد (١/٢١٥، ٣٤٧)، وأبو يعلى (٤/٣١٦، ٣٥٧/ رقم ٢٤٢٧) وابن خزيمة (٤/٢٧٤/ رقم ٢٨٦٧، ٢٨٦٨)، وابن حبان - الإحسان (٩/١٨٣ - ١٨٤/ رقم ٣٨٧١)، وابن الجارود (ص ١٩٣ - ١٩٤/ رقم ٤٧٣)، والحاكم (١/٤٦٦) وصححه على شرط الشيخين والطبرانى فى الكبير (١٢/١٥٦/ رقم ١٢٧٤٧) والبيقهى فى الكبرى (٥/١٢٧) وأبو نعيم فى الحلية (٢/٢٢٣).

(٢) فى «ك»: وجملتها.

بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿١٧١﴾ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ

أحدها: أنه كان له روح كسائر الأرواح، إلا أن الله - تعالى - أضافه إلى نفسه تشريفا.

والثاني: أنه تحيا به القلوب، كما تحيا الأبدان بالروح.

الثالث: أن الروح: هو النفخ الذى نفخ فى مريم جبريل بإذن الله؛ فسمى ذلك النفخ روحا.

﴿ فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ﴾ وكانت النصارى يقولون بالثلاثة، كانوا يقولون: ابن، وآب، وروح القدس، وهذا معنى قوله - تعالى -: ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾(1) وقوله: ﴿ انتهوا خيرا لكم ﴾ تقديره: يكن الانتهاء خيرا لكم.

﴿ إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ﴾ واعلم أن الله - تعالى - كما لايجوز له أن يتخذ ولداً، لايجوز عليه التبنى؛ فإن التبنى إنما يكون حيث يكون به الولد، فإذا لم يتصور لله ولد لم يجز عليه التبنى ﴿ له مافى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ﴾ الاستنكاف: التكبر مع الأنفة، ومعناه: لن يأنف المسيح أن يكون عبدا ﴿ ولا الملائكة المقربون ﴾ واستدل بهذه الآية من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر؛ لأن الله تعالى ارتقى من عيسى إلى الملائكة، وليس فى الآية مستدل، وإنما قال: ﴿ ولا الملائكة المقربون ﴾ [لا](2) لامتناع مكانهم ومقامهم على مقام البشر، وإنما قال ذلك على ما عند النصارى،

---

(1) المائدة: ٧٣.

(2) ليست فى «الأصل، ولا ك»، والسياق يقتضيها.

فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً ﴿١٧٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ

ولعله كان عندهم أن الملائكة أفضل من البشر، فقال ذلك على ما فى زعمهم.

وقوله: ﴿ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا﴾ الفرق بين الاستنكاف والاستكبار: أن الاستنكاف هو التكبر مع الأنفة، والاستكبار: هو الغلو، والتكبر من غير أنفة.

﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ قيل: زيادة فضله: ما لاعين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقيل: هو الشفاعة، وفى الحديث: «يشفع الصالحون يوم القيامة لمن يعرفون». ﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولايجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا﴾.

قوله - تعالى -: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم﴾ قيل: هو محمد ﷺ، على هذا أكثر المفسرين. وقيل: هو القرآن.

والبرهان فى اللغة: هو الحجة ﴿وأنزلنا إليكم نورا مبينا﴾ هو القرآن.

قوله تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل﴾ يعنى الجنة ﴿ويهديهم إليه صراطا مستقيما﴾.

قوله - تعالى -: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة﴾ روى عن البراء بن عازب أنه قال: آخر سورة أنزلت كاملة: سورة براءة، وآخر آية أنزلت هذه الآية.

وسبب نزول الآية ما روى: «أن النبى ﷺ دخل على جابر وهو مريض، وكان قد أغمى عليه، فدعا بماء وتوضأ، ثم رشه عليه، فأفاق، فقال جابر: يارسول الله، ماذا أصنع فى مالى، وإنما ترثنى كلالة؟ فنزلت الآية»[(١)]، وقد سبق الكلام فى الكلالة.

وتلك الآية فى توريث الإخوة والأخوات من الأم، وهذه الآية فى توريث الإخوة والأخوات من الأب والأم، ومن (الأب)[(٢)] ﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد﴾ تقديره: ليس له ولد، ولا والد، وعلى هذا أكثر العلماء، أن الكلالة: هذا، وأن الأخوة والأخوات لايرثون مع الأب، إلا ما يحكى عن عمر - رضى الله عنه -: أنه ورثهم مع الأب، وقد سبق.

قوله - تعالى -: ﴿ليس له ولد﴾ أراد به: الذكر، وعلى هذا أكثر العلماء: أن الإخوة والأخوات إنما لايرثون مع الابن، ويرثون مع البنت، وحكى عن ابن عباس، وبه قال داود وأهل الظاهر -: أن الإخوة والأخوات لايرثون مع البنت، تمسكا بظاهر الآية، وقد بينا أن المراد به: الإبن، والآية فى نفى الفرض مع الولد وعندنا: إنما يرثون بالتعصيب، فإن الأخوات مع البنات عصبة.

قوله - تعالى -: ﴿وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا﴾.

قال الفراء: معناه: يبين الله لكم أن لاتضلوا، وهو قول أبى[(٣)] عبيدة، قال أبو عبيدة: وذكر الكسائى حديثا فى معناه؛ فأعجبه ذلك، وذلك ما روى عن النبى ﷺ أنه قال: «لايدعون أحدكم على ابنه أن يوافق قدرا»[(٤)] أى: أن لايوافق قدرا.

---

(١) تقدم تخريجه فى أول السورة تحت آية الكلالة.

(٢) فى «ك»: الأم.

(٣) فى «ك»: أبو، وهو خلاف الجادة.

(٤) رواه مسلم (١٨/١٨٦-١٨٧/رقم٣٠٠٩)، وأبو داود (٢/٨٨/رقم١٥٣٢) وابن حبان - (الاحسان- (١٣/٥١ - ٥٢/ رقم ٥٧٤٢) من حديث جابر.

الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

وقال البصريون: معناه: يبين الله لكم كراهية أن تضلوا ﴿والله بكل شيء عليم﴾.

والله أعلم، صدق الله وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين.



تم بحمد الله تعالى **المجلد الأول**

من تفسير أبى المظفر السمعانى

ويتلوه المجلد الثانى إن شاء الله تعالى

وأوله تفسير

سورة المائدة